خواطري عن القرآن

المفكر الاسلامي

آية الله الشهيد السيد حسن الشيرازي

المجلد الأول

مقدمة المنسق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،

والصلاة على محمد وآله الطاهرين،

واللعنة على أعدائهم أجمعين.

-١-

من يشعر بنقص في الأمة، يؤرقه ذلك النقص، مهما سعى وراء ردمه. لأنه لا يتمكن - بإمكاناته المحدودة - من رفعه بصورة نهائية، وإن عاش ما عاش من عمر مديد.

ومن يشعر بنقصين، يكون أرقه ضعفين.

ومن يشعر بأكثر من نقصين، يكون أرقه أضعافاً.

أما من يعيش الشعور بنقائص.. ونقائص.. فيعيش الأرق طوال عمره، ويلازمه العذاب مدى حياته.

❖ ❖ ❖

ومن يعيش الأرق الممض لا يفتر عن العمل الدؤوب، ومن يلازمه العذاب الأليم لا يتهاون في النشاط الجاد. ولكن الإمكانات المحدودة، تجعل عمله الدؤوب على مفتتح الطريق، وتفرض على نشاطه الجاد الحبو بدل الزحف.

❖ ❖ ❖

من هنا.. لا ينتهي ذلك الإنسان - فيما إذا استوفى عمره الطبيعي - إلا ومشاريعه ناشئة ضعيفة الأقدام، متقاربة الخطوات، بعيدة عن النتائج. فكيف إذا لم يستوف عمره الطبيعي، منعكفاً على قارعة الطريق؟

-٢-

هذه.. قصة الإمام الشهيد (السيد حسن الشيرازي) قدس سره:

شعر بنقائص الأمة فتأرق وتعذب. وعمل - في سبيل ردمها - دائباً ونشط جاداً. ولكن الإمكانات المحدودة، ورصاصات (الإلحاد) التي أطلقها (موكب الاغتيال)؛ جعلت مشاريعه ناشئة ضعيفة الأقدام، متقاربة الخطوات، بعيدة النتائج - بالقياس إلى المستوى الذي كان هاجسه دائماً - كل ذلك بشكل مضاعف: لأنه استشهد في بيروت، بتاريخ: ١٦/ ٦/١٤٠٠ الهجري، ولما يبلغ الخمسين من العمر.

- ٣ -

ومن مشاريعه التي بقيت ناشئة، ضعيفة الأقدام، متقاربة الخطوات، بعيدة عن النتائج - بحكم الإمكانات المحدودة، والشهادة (الكتاب) الذي أتشرف بتقديمه الآن .

ابتدأ المؤلف يسجل الخواطر القرآنية التي تحط على فكره، مقدمة لتكميلها وتنسيقها، وثم دفعها إلى المطبعة في صورة (دورة) كاملة:

- والخاطرة التي قد تنبعث من: سورة، أو مجموعة آيات، أو آية واحدة، أو - حتى - بعض آية .

- والخاطرة قد تجد ظروفاً ملائمة، فتستريح على الورق متكاملة: فكرة وأداء . وقد تعاكسها المفاجآت - التي كانت تكثر عند المؤلف، بحكم إعطائه الأولوية للعمل أي عمل، على حساب الكتابة مهما كانت - فتتولد مبتورة أو مؤوفة - وحتى التكامل المذكور، نسبي . كما سيبدو للقارئ - وذات الشيء، وارد بالنسبة إلى (مقدمة المؤلف) كما سيلاحظ أيضاً .

- والخاطرة قد تتكرر بالنسبة إلى مادة قرآنية معينة، ولكن: من زوايا متنوعة، أو بالاختصار والتفصيل، أو بالنقص والكمال . . .

- والخاطرة المنكبتة بمعاكسة المفاجآت، قد ترى النور مرة أخرى فيبني عليها المؤلف مستمراً في الكتابة . وقد لا ترى النور أبداً، بفعل مزاحمة خاطرة جديدة، تستبد - دونها - بالكتابة استبداداً .

ونتيجة للإمكانات المحدودة والشهادة المبكرة؛ لم يقدر للمؤلف أن يكتب حول أكثر القرآن الكريم: سوراً عديدة، ومجموعات آيات من كل سورة - إلا أقل من القليل - ، وحتى كلمات من كل آية - إلا أقل من القليل أيضاً - .

- ٤ -

وقد فضلت أن أترك الكتاب - وكذلك: (مقدمة المؤلف) - على حالهما، مع كل نقائصه الكمية والكيفية، لثلاثة أمور:

الأول: حتى يعرف المعنيون ماذا تعني (الإمكانات المحدودة)،فيسعون في سبيل بناء مستقبل مرضي، للعمل الإسلامي الصحيح، متمثلاً في رجال الريادة والاقتحام .

الثاني: حتى تكون حال الكتاب إدانة عملية حية، للاغتيال الذي قام به الإلحاد، وإن كان - في وجهه الآخر - قد شرف المؤلف بفرصة (الشهادة) رافعاً يديه إلى السماء بالدعاء - كعادته مفتتح ركوبه السيارة -، متجهاً إلى حفلة تأبين لتلاوة القرآن الكريم.

الثالث: إن أي حذف أو تغيير أو زيادة مني، كان تدخلاً في نتاج الغير، وذلك مما لا يجوز، بالإضافة إلى: أنه يحمل نكهة أدبية مغايرة لنكهة المؤلف، فتختلط النكهتان، ويتعكر صفاء النص الأدبي، ويتشوش ذهن القارىء بالنتيجة.

طبعا: قمت بـ (التنسيق والتصحيح والتجميل) قدر المستطاع. وإن كنت قد فضلت - أيضاً - عدم مناقشة موضوع لم أستوعب وجهه، وذلك: حتى يكون الحوار بين القارىء بدون تدخل طرف ثالث يقطع استرساله.

-٥-

وهناك: كتابات ومحاضرات قرآنية، سجلها أو ألقاها المؤلف، تحت اعتبارات مختلفة: مقال تفسير، مقدمة كتاب، خطبة توجيه...

ولكني لم أضعها هنا، لأنها كانت مطبوعة مسبقاً - اللّهم إلا القليل المخطوط الذي لم أعثر عليه حتى الآن -، عسى من يوفق لجمعها - في المستقبل القريب أن شاء الله تعالى -، في صورة كتاب مستقل عن هذا الكتاب أو مندمج معه.

-٦-

وينبغي الإشارة إلى (خواطر قصيرة) وجدت خلال مسودات الكتاب، لم تكن مناسبة لوضعها بين مواده لقصرها. ولذلك: جمعتها - مبعثرة - في فصل يأتي آخر الكتاب بإذن الله تعالى.

-٧-

بقي أن نعرف الغاية الجديدة، التي يسعى وراءها هذا الكتاب؟

مضافاً إلى قسم من الفوائد المتوفرة في بقية كتب التفسير، يسعى الكتاب وراء غايتين جديدتين - وربما أكثر - حسب استيعابي:

الأولى: عرض القرآن الكريم، بلغة أدبية عفوية عصرية، تكون قمة القمم. اللّهم إلا في (المطبات الأدائية) المشار إليها

فيما سبق.

الثانية: إرســاء قاعدة (حوار: ديني ـ إســلامي ـ شــيعي)، بين المؤلف من طرف وبين المثقف العصري الباحث عن الحقيقة من طرف آخر، في جو حر منطقي متزن.

وإذا عرفنا كثرة وعمق تجارب المؤلف في حقول شتى، نعرف مدى فاعلية هذا الحوار.

ـ٨ـ

أما اسم الكتاب؟

يصــر المؤلــف مكرراً ـ كمــا يأتي في مقدمته المطولة ـ على أن الكتاب ليس (تفســيراً) بالمعنى المصطلح، وإنما هو شــيء آخر.

(تأمــلات في القــرآن) ـ العنوان العريض الثابت، الذي تصدر العناوين الخاصة، لمقالات نشــرها المؤلف، بدون توقيع، في مجلة (الإيمان) البيروتية، في التسعينات الهجرية..

(مذكراتي عن القرآن) ـ العنوان الذي حبذه المؤلف في صدر إحدى مسودات الكتاب ـ .

(خواطري عن القرآن) ـ عنوان آخر محبذ من قبل المؤلف في إحدى المســودات، منســجم أكثر مع فكرة الكتاب، وقع عليه الاختيار لذلك ـ .

ـ٩ـ

وقبل أن أنسحب حتى يتصل القارئ بالكتاب مباشرة، جدير أن أسجل قطعة من الدعاء (الثاني والأربعين) من (الصحيفة السجادية)، ونحن نستقبل القرآن الكريم هادياً مرشداً:

«اللهم صل على محمد وآله، واجعلنا ممن:

يعتصــم بحبلــه، ويأوي ـ من المتشــابهات ـ إلى حرز معقله، ويســكن في ظل جناحه،ويهتدي بضــوء صباحه، ويقتدي بتبلج إسفاره،ويستصبح بمصباحه، ولا يلتمس الهدى في غيره.».

-١٠-

أما الآن. . فإلى (مقدمة المؤلف)، وثم إلى خواطره عن كتاب اللّٰه الوحيد على الأرض.

إيران - مشهد الإمام الرضا عليه السلام:

الخميس: ٢٠/ ١١/ ١٤١٠هـ ق

المنسق

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمد وآله الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين.

حول الكتاب:

لا أدري:

هل لفمي طهارة تسمح له بتلاوة القرآن الكريم؟

وهل ليدي قداسة تجوز لها لمس كتاب الله؟

وهل لي وعي يبرر لي التملي من آيات الله؟

وهل يأذن الله لي بالاقتراب من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنا البشر حلبة للشيطان والملاك، ولا أعلم أيهما المنتصر في وجودي؟

وإذا اقتربت من الحبل الممدود بين السماء والأرض، فكيف أستقبل كهربته، التي امتصت أحياءً وأيقظت

أمواتاً؟((١)).

ولكن:

سـأتجرأ علـى هذه المغامرة، وأقتحم هـذا التيار الخطر، لأنها تجربة لا يمكنني أن أنمو وأتسـع بدونها، وهو الذي ناداني إليه في آيات كثيرة(٢).

سأسـير خلفه ـ متوكلاً على الله ـ فهو إمامي(٣)، وهو المسـؤول عني إذا أحسـنت اتباعه، وأسـأل الله حسن اتباعه، فهو يملك مني أكثر مما أملك من نفسي.

وسأجلس على مائدته، بانتظار أن يفتح الله لي حرفاً أو يطردني، فهو وليي الذي دلني عليه.

وسوف لا أفتح التفاسير، فما دام البحر أمامي فلماذا أدوخ في المختبرات.

ولا أتحمل مسـؤولية التفسـير. فأنا أدون ما أفهم من القرآن، ولسـت واثقاً من صحة ما أفهم ما دام الامام الصادق (عليـه السـلام) قال لبعض أصحابـه: «ما ورثك الله من كتابه حرفا»(٤)؛ فربما أخطىء أكثر مما يسـمح لي به حق الخطأ. وكفاني سعادة أن لا أعق القرآن.

❖❖❖

كثيراً عشـت وحشـة قاتلة وأنا بين الناس، وكثيراً عشـت وحدة خانقة وأنا أهرب من الناس؛ فأستسلم للأفكار الهوجاء التي تبدأ بن من حيث أنا، فتطوف بن في كل اتجاه، حتى تنتهي إلى آية قرآنية منسـية في ذاكرتي، تطل علي من حيث لا أدري، فتسـلمني الأفكار المتناقضة إليها، وتنسـحب بهدوء، وإذا بي أصحو في جو رحيم مفعم بالحنان، وإذا بي لا أعرف أين همومي التي لم أشـأ أن أعتبرها كثيرة، ولكنها كثيرة على أعصابي. وكانت الآيات القرآنية، لم تعلق ببالي إلا لتؤنس وحشتي ووحدتي.

وكثيراً رفرفت آية علي وأنا لا أجد ما أسجلها به، ثم أنسى رفيفها الحبيب.

وإذا تنفست علي آية وتحمل القلم شيئاً من نسيمها، كتبت ما يتحمله الورق وأنا غير راض عما أكتب: فقد بدأت بكتابة هذا الكتاب وأنا في سـجن، وسـرت فيه وأنا مسـترخ على سـرير في غرفة صغيرة، خلال أسفاري التي تكثر فيها أحيان وحشتي ووحدتي، خلافاً لأكثر الناس.

❖❖❖

يجنح بعض الباحثين ـ بشكل عفوي ـ إلى تظهير أنفسهم محور الحركة التي يكتبون عنها، ليخيلوا إلى القارىء أن تلك الحركة إنما قامت على كتفي الكاتب وحده، وإن سائر العناصر التي كانت تضمها إنما كانت عناصر ثانوية أو مساعدة.

ويفعل ذلك بعض المؤلفين الفكريين وبعض المفسرين، وكأنه يوحي بأن غيره لم يعرف الفكر أو لم يفهم القرآن.

وقد يكون في هذا الجنوح بعض العذر للكاتب، لأنه يحاول أن يعلي مركزه ليمكن رأيه من ذهن القارىء، وإن لم يكن له في الكتاب مركز إلا بحجم جسمه.

ومثل هذا الأسلوب كان شائعاً في الأدب القديم، الذي استبدت به محاور: المدح، والهجاء، والوصف، والحماسة.. سرى عدوى الأدب إلى الفكر. ولكن هذا التبرير لا يسوع تمرير العدوى إلى الكتابة الفكرية المعاصرة، ولا يحل الكاتب من التقيد بالموضوعية في عرض الآراء.

وقد خطر ببالي هذا المعنى ـ عندما بدأت بكتابة هذا الكتاب ـ ففكرت أن أعرض في ظل كل آية ما أستطيع جمعه من أقوال المفسرين. ثم رأيت أن ذلك يتيه بالقارىء في غابات من الآراء، تكون بالنسبة إليه أشبه بـ(تيه بني إسرائيل). فعمدت إلى عرض ما أقتنع به، وأدعو القارىء إلى قراءة ما كتبت، بالإرادة الكاملة، والفعالية الذهنية البعيدة عن الأنانية والاستسلام معاً. كما أرغب قارئي أن يستأنس ببعض كتب التفاسير، ولا يعتبر ما كتبته وحياً منزلاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

مع العلم بأنني لا أعتبر هذا الكتاب (تفسيراً) للقرآن، فتفسير القرآن مختص بأهل البيت عليهم السلام، الذين تلقوا علومهم من منزل القرآن: «من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»(٥)؛ وإنما أنا كتبت ما فهمت من القرآن، ولا أتحمل مسؤولية تفسير القرآن.

❖❖❖

أنا.. لا أحاول تفسير القرآن ـ من خلال هذا الكتاب ـ، فتفسير القرآن لمن نزل القرآن في بيوتهم، فـ«إنما يعرف القرآن، من خوطب به»(٦). كما في الحديث..

ومـا أردت أن ادخـل في مباحث بيزنطية تفـرض على القرآن، ولا أن أحمل القرآن ما أبهض العقل البشـري، وإنما حاولت - مجرد محاولة فقط - أن أتابع القرآن.

وإنما وضعت على الورق ما فهمت من القرآن، ولا أكتم أن أكثره خطر لي من مجرد التأمل في آيات القرآن ذاتها، من دون استعانة برأي أو كتاب. فربما كنت في طريق أو في مجلس، فيمر حادث أو تعترض كلمة تذكرني بآية من القرآن، فأتأملها، وتخامرني خواطر، وأسجلها عندما أجد قلماً وورقاً. ولذلك: كتبت أكثرها في الأسفار، على أوراق الفنادق وبأقلام ناشفة، وبدون مراعاة لتسلسل في الآيات، وبدون الاعتماد على الروايات. وإن كنت حاولت - بعد ذلك - أن أجد سندها في روايات الأئمة عليهم السلام، وقد وجدت سند بعضها - بالفعل - ولم أجد سند بعضها.

والأئمة عليهم السّلام غم استيعابهم للقرآن - ما استطاعوا تفسيره:

١ - فكم تمنوا أن يجدوا أوعية يفرغون فيها بعض علومهم! ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل. فالمناخ البدائي الذي عاشوه في ذلك الوقت المبكر، بين الزوابع والأعاصير المختلفة، شح عليهم إلا بعقول عقيمة اضطروا إلى إعطائها بقدرها.

٢- ووجدوا آفاقاً واسـعة في بعض الرواة، ولكنهم - بدورهم - اضطروا إلى الاحتفاظ بالمعاني العميقة السـامية، خشية أن تنهشهم التهم.

ألم يقل عبد الله بن العباس: «حدثني أمير المؤمنين، ليلة كاملة، عن تفسـر البسـملة...»(٧)؟! ثم: كتم ما قاله الإمام، لقصور الرأي العام.

أو لم يقل الإمام زين العابدين، في الستينات من القرن الأول الهجري:

يا رب جوهر علم لو أبوح به　　　　لقيل: ذلك ممن يعبد الوثنا

ولا ستحل رجال المسلمين دمي　　　　يرون - أقبح ما يأتونه - حسنا؟!(٨)

٣- ولم يصل إلينا ما روي عنهم، لكثرة ما أحرق ومزق من أحاديثهم حقداً وحسداً، إذ ضاعت وأكلتها الأرضة زهداً فيها وإهمالاً.

وحيث لم أجد السند لهذه الخواطر لم أتأكد من صحتها، رغم قناعتي بكل واحدة منها عندما أراجعها. ولكني لست من الذين يحتكرون الحق - كله - لقناعتهم، فلعلي أصبت ولعلي أخطأت.

فلا أتوقع من احد أن يأخذ بشيء من هذه الخواطر، وإنما أتمنى على من يقرؤها أن يتأملها، ويقدر أنني لم أطلق حرفاً على ورق، إلا بعد أن شحنته بشيء من الوقت وبشيء من الجهد، ووجدته قادراً على الانطلاق.

أنـا . . لا آأمل من هذا الكتاب أن يعد (تفسـيراً)، كل مـا آأمل منه أن يكون ضوءاً أخضر على مدخل جديد إلى القرآن. وهذا . . يروي طموحي من هذا الكتاب.

❖❖❖

أنا . . أعلم أن هذا الكتاب يثير جدلاً حاداً وخاصة: في بعض الأوساط من الذين تعودوا نمطاً واحداً من التفسير. والسبب: أن هذا الكتاب، ليس من النمط الذي ألفوه.

وليكـن حولـه جـدل ـ فاتر أو حاد ـ أو لا يكون، فالجدل لا يخيف من يحاول تحريك الأدمغة، واحتكاك الفكر. فالحـق لا يقـدح إلا مـن احتـكاك، كما أن الإبـداع لا يكون إلا شـرارة احتـكاك، وكما أن الحـرارة لا توجد إلا باحتكاك، والنور لا يتحرك إلا من احتكاك. . .

ولكن: لا أتمنى أن يؤخذ هذا الكتاب للمزايدة، والتحدي، والمباراة . . . فأنا لم أكتبه لشيء من ذلك.

ولا أتمنى أن يؤخذ لإحصاء نقاط القوة والضعف فيه، فأنا أقول: إن نقاط الضعف فيه كثيرة جداً ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾(٩).

وأي كتاب يحتضن القرآن تبدو ضآلته ويتضاءل، بمقدار ما تبدو ضآلة مؤلفه ويتضاءل عندما يقف أمام الله الذي نزل القرآن.

❖❖❖

إذا كان من حقي أن أفتح القرآن، فهل من حقي أن أتأمل آياته، بركائزي ومنطلقاتي؟

أنا لم أكن أمنح لنفسـي مثل هذا الحق، بالنسـبة إلى كلمات صدرت من عمق الألوهية، التي لا يجد إليها الفكر البشري سبيلاً على الإطلاق. وإذا كنت أمنح لنفسي مثل هذا الحق فكرياً، فلم أكن أسمح لنفسي بممارسته عملياً؛ لـو لم يجرئني عليها بعض آيات من القرآن نفسـه: (أفلا يتدبرون القـرآن؟! أم على قلوب أقفالها؟!(١٠)، ﴿ . . . .إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ ﴾(١١).

وهذه . . تأملاتي أنا شخصياً، لا أسميها أنا (تفسيراً)، لأنني لا أعرف نفسي في مستوى القرآن حتى أفسره. فتفسير القرآن لعدل القرآن وهو (العترة)، وسواهم إذا وضع نفسه في مستوى القرآن فقد وضع نفسه في مستوى من النار، إذ لا يصل إلى مستواه فيسقط في النار، كالذئب الذي يقفز من قمة جبل ليلتقط القمر فيتحطم في الهاوية.

ولا أدعي صحة هذه التأملات، فأنا لا أستطيع أن أحكم على إنتاج من هذا النوع، وإنما حكمه خاص بمن يستطيع تفسير القرآن، وهو غيري.

ولا أطالب أحداً بأن يدعم شيئاً من هذه التأملات، لأنها تأملات أولية، وليست أحكاماً حتى يمكن إقرارها أو رفضها. إنما . . مجرد تأملات بدائية بسيطة، كل ما أتمناه على الله - بصددها - أن يكون هو رائدي بفضله لا باستحقاقي، فهو المبتدئ بالنعم قبل استحقاقها؛حتى أكون قد تدبرت بعض آياته، ونلت في رحلتي المقدسة هذه بعض متاع، فأنا لست أكثر من ذلك حتى أتمنى على الله أكثر من ذلك.

❖❖❖

أنا . . لا أريد أن يقرأ هذا الكتاب كـ (تفسير):

١- فهذا . . ليس أكثر من (مذكراتي عن القرآن)، التقطتها خلال رحلتي العابرة حول القرآن. ولا يعلم: كم من هذه المذكرات مصيبة؟ وكم منها خاطئة؟ إلا من خوطب بالقرآن.

أنا لا أتحمل مسؤولية تفسير القرآن، لأني أحاول أن أكسب بهذا الكتاب أجراً، ولا أريد أن أتبوأ به مقعدي من النار.

❖❖❖

لي حق واحد، بهذا الحق أتمسك بالقرآن، وهو أن القرآن نزل كافة للناس، وأنا واحد من الناس، فلي الحق في أن أتناوله. ولعلي أخطئ فهمه ولعلي أصيب، إنما المهم أن أتفاعل معه، أن لا أنافقه، ولا أتخذه ظهرياً.

وأنا . . لا أستطيع استيعابه، كما لا أستطيع استيعاب الكون، الذي هو دون كلام الله. إنما يكفيني أن أكون حبة رمل يمتد إليها المرج عساها تصفو، أو يشرق عليها وهج السماء عساها تتبلور.

❖❖❖

هذا . . ما أفهم من القرآن، ولا يضيرني أنه محدود، فكل إنسان يستنشق من الهواء في حدود رئتيه. ولا أحاول أن أفسر القرآن، فأنا لا أفهم القرآن على حقيقته، كما لا أفهم الكون على حقيقته. فليس القرآن إلا مجموعة من آيات الله أوجدها بهذا الشكل، وليس الكون إلا مجموعة أخرى من آيات الله أوجدها بشكل آخر. وليس معيباً أن يقول أحد: (أنا . . لا أفهم الكون حتى أفسره)، أو (لا أفهم القرآن حتى أفسره).

أنا . . لم أرد التفسير، ولم أتفرغ له، وإنما هي حركة القرآن.

كانت الآيات تتحرك في ذهني، لمناسبة وغير مناسبة، وغالباً كانت الآيات تهاجسني دون أن أعي المناسبة. حتى جاء الوقت الذي وجدت الأفكار تثقل ذهني، وتدفعني إلى إراحتها على الورق، وكأنها لا تطمئن إلى بنك الذاكرة، وتطمع إلى رباها في محفظة الورق.

❖❖❖

أنا . . لا أتحمل مسؤولية تفسير القرآن، لقول المعصوم عليه السلام:

«من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار . .»(١٢)، وأنا لا أجرؤ على أن أتبوأ مقعدي من النار. فأنا . . لا أفسر القرآن، ولا أدعو أحداً إلى فهم القرآن كما فهمته، وإنما أكتب ما فهمته من القرآن مع ملاحظة ما اطلعت عليه من الأحاديث في تفسير القرآن، عله يكون مساعداً على التفسير.

❖❖❖

نحن نعبر عن أهل البيت (ع)، لأننا أخذنا الخطوط العريضة منهم. ولا نضيف شيئاً من أنفسنا أو آرائنا، إنما نوضح ونسهب من الشواهد والأمثلة.

❖❖❖

(السور القصار) في أواخر القرآن، تحتوي على شحنات مكثفة ومبسطة، توكب تدرج الفكر الجاهلي في سلم التصاعد الاسلامي، فتشبه الكتب المختصرة التي توضع للصفوف المبتدئة، التي تراعى فيها البساطة والاختصار. بينما (السور الطوال) في أوائل القرآن، تحتوي على شحنات مفصلة ومركزة، تلائم استقرار الفكر الاسلامي على قاعدة الحكم والمجتمع، فتشبه الكتب المفصلة التي توضع للصفوف المنتهية، التي تراعي فيها الموسوعية والشمول.

ومن هنا . . حملت السـور القصار بواكير الرسـالة، فكان أكثرها (مكية) . وحملت السـور الطوال تفتحات الرسالة، فكان أكثرها (مدنية) . فاختلفت الخواص التاريخية والتنظيمية: فتعددت السور الطوال لأنها طليعية شاملة، وتلتها السـور القصار لأنها مكرسـة حافلة لأنها مكرسـة حافلة . ولم يسـتثن منها إلا سـورة (الفاتحة)، التي جمعت خصائص كثيرة، فتوجت القرآن كله .

وأحببت مواكبة تاريخية الرسـالة، ومتابعة تفتقاتها، وتصورت نفسـي وراء المسلمين الأوائل، الذين تموج بهم القرآن، ابتـداءً مـن نافـذة الفجر في سـورة (القلم)، وانتهاء بجـلال المغيب في سـورة (المائدة) . ولكني عزمت علـى تكميل ما اسـتلهمت منها ابتداء من سـورة الفاتحة، متناسـياً تتابع النزول، لأن الذي نظمه ابتداء بـ (الفاتحة) وانتهاء بـ (المعوذتين)، كان الوحيد الذي استدر القرآن من السماء .

حول القرآن الكريم

يقظة الغرب وتخلف المسلمين

حتى نهاية القرن الثامن عشر من الميلاد، بقيت الأمة الاسلامية القمة والقدوة للأمم جمعاء. وكانت مؤهلاتها كثيرة تحفظها في هذا المركز، أهمها مبادئها المتمثلة في القرآن، وتاريخها الضخم من خلال فتوحاتها.

ورغم القرون العديدة التي مضت على ترهل الأمة الاسلامية، إلا أن أحداً من القادة - في العالم - ما كان يسمح لنفسه بالتفكير في تحدي الأمة الإسلامية، إذ لم يكن في استطاعة أحد أن يقنع نفسه بتخلي أمة القرآن عن القرآن، أو بعجزها عن الاحتفاظ بأمجادها العظيمة.

أقصى ما كان المفكرون يحاولونه، تقليد المسلمين في مسلكيتهم. وهذا التقليد قادهم إلى دراسة حياة قادة الاسلام، ابتداءً بالرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم وانتهاء بآخر المعروف من الحكام الأمويين والعباسيين والعثمانيين. فكانت الظاهرة التي تبرز في الساحة هي (الواقعية) التي تطبع حياة الرسول الأكرم بشكل ملفت.

وقد استخدم العرب هذه (الواقعية) في الثورة على خرافات الكنيسة، ابتداءً من (فكرة التثليث) التي تعطل (العقل) وانتهاء بالأخلاقيات الكنسية التي تعطل (العلم). فأعاد الاعتبار إلى (العقل) و(العلم).

وقد استخدم المسلمون هذه (الواقعية) في استيراد الفلسفات الأجنبية، واحترامها كمدارس علمية تنشط (العقل) و(العلم). ولم يحسنوا هضمها والاستفادة من تجربتها، فابتعدوا بها عن (الدين).

وهكـذا . . التقـى الغربيون والمسـلمون على نقطة واحدة هي (الواقعية)، غير أنهـم اختلفوا في توظيفها: فوظفها الغربيون في الثورة على الكنيسة، التي كانت عقدة تخلفهم. ووظفها المسلمون في الثورة على الإسلام، الذي كان سر تقدمهم. فكانت (حرية العقيدة) ـ التي هي من الأفكار الإسـلامية ـ علة ارتفاع الغربيين إلى القمة، وانحدار المسـلمين منها.

وهكذا . . عرف الغربيون شيئاً من الإسلام فتقدموا به، وعرف المسلمون شيئاً من الإسلام فتأخروا به.

لقد عرف الغربيون الإسـلام متأخراً، ولكنهم عرفوه أخيراً. وعرف المسـلمون الإسلام مبكراً، ولكنهم ألحدوا به أخيراً. فكان من الطبيعي أن تنقل المعادلة.

وإن كان من المؤسف أن الغرب عجز عن الأخذ بالإسلام ككل، تحت ضغط الكنيسة التي تلقت ضربات الحرية بمرونة كبيرة، فلم تلبث أن لملمت أنقاضها بسـرعة، واسـتعادت هيبتها وسـيطرتها، بإعادة تحالفها مع القوة السياسية الحاكمة، إن لم تكن بشكلها السابق كقوة قائدة، فبشكلها المعاصر كقوة معاصرة في مجرى الأحداث.

ولو اسـتطاع الغرب أن يتخلص من سـلطة الكنيسـة تماماً، ويأخذ بالإسـلام ككل ـ كما كان يحلم به بعض المفكرين ـ لأنقذ العالم من ويلاته المعاصرة، وقاده إلى السعادة المثالية كما قاده المسلمون من قبل، ولأخذ دور المسلمين بجدارة. ولكن صعقة قادة الكنيسـة تحت ضربات الحرية، ومخاوفهم التاريخية من الإسـلام؛ أدتا إلى وقوفهم ـ بحزم ـ ضد تيار الفكر الإسلامي. فأسفرت الثورة ضد الكنيسة، عن مقايضة من ثلاثة بنود هي:

١ـ تخلي الكنيسة عن احتكار العلم ومحاربة العلماء.

٢ـ خروج الكنيسة عن الساحة السياسية كقوة قائدة.

٣ـ بقاء المسيحية ديانة رسمية، وبقاء الكنيسة ممثلها الشرعي الوحيد.

واليوم، وقد انجلى دخان المعركة، واطمأن كل فريق إلى موقعه، نستطيع أن نوجه نداءنا إلى الغرب:

(إن الإسـلام ليس ديننا ـ نحن المسـلمين ـ فقط، وإنما هو دين الله على الأرض، فليس أحد أولى به من أحد إلا بمدى التمسـك به ونحن المسـلمين تحلينا عنه واقعياً ـ وإن بقينا متمسـكين به رسمياً ـ فتبنوه أنتم اليوم، لا لمجرد كونه ديناً سماوياً صحيحاً، وإنما لكونه قادراً على إنقاذ العالم من مآسيه أيضاً).

وهذا . . نداء أطلق للتاريخ وللحق، وإلا فإن المسلمين يخسرون الكثير إذا أخذ الغرب بالإسلام ونجح في إنقاذ العالم، بعد أن تركه المسلمون رغم تجربتهم التاريخية العظيمة .

العقل والعلم لا يكفيان

إن الغرب ـ اليوم ـ ليس مستعمراً لدول عظمى تحجب عنه حرية الديانة، ولكنه مكبل ـ من داخله ـ بالكنيسة التي تمنعه من الإسلام. والديانة المسيحية، الموجودة اليوم، ليست قادرة على هدايته إلى السعادة .

والمسلمون ـ اليوم ـ مستعمرون ثقافياً واقتصادياً، فليسوا قادرين على العودة إلى الإسلام، الذي هو قادر على هدايتهم وهداية العالم ـ من ورائهم ـ إلى السعادة . ولذلك: بقي العالم ـ بشقيه الغربي والإسلامي ـ متمسكاً بما هو متاح له، وكل ما هو متاح يتمثل في أمرين لا ثالث لهما، وهما: (العقل) و(العلم) .

وقد حرك المفكرون عقولهم ما وسعهم تحريكه، وأرخص العلماء التضحيات ـ ما وسعهم التضحية ـ في سبيل المزيد من العلم، ولا زالوا يواصلون التضحيات، ولكنهم لم يستطيعوا تأمين حاجات البشرية حتى اليوم، ولا توجد في الأفق بوادر تؤمل بإمكان ذلك في وقت قريب ـ على الأقل . .

كل ما يستطيع (العقل) و(العلم) أن يقدماه للبشرية، يتلخص في تأمين (الخدمات) لها بشكل أفضل، من: تحسين وسائل المواصلات، ومكننة الزراعة، وتصنيع البلاد، وتسخير المزيد من طاقات الأرض والجو لخدمة الإنسان . . . وبعبارة واحدة: (ترفيه حياته المادية) . وهذا . . ما يشك في كونه خدمة حقيقية للإنسان، لأن الرفاه المادي أدى إلى ضعف بنيته الجسدية .

وإذا استفتينا مليون مفكر:

(هل الإنسان القوي غير المرفه أفضل أو المرفه الضعيف)؟

لم يصوت الجميع إلى جانب الثاني، وربما تحيزت الأكثرية إلى جانب الأول . وإن كان من الصعب على المرفهين أن يتركوا الرفاه، لأنهم ـ بعد أن ضعفوا بالرفاه ـ يعجزون عن ممارسة الحياة بدونه .

وكل ما قدمه (العقل) و(العلم) لتأمين السعادة للإنسان، هو نبش الأجداث القديمة عن (الديمقراطية) . وإذا استفتينا ألف مفكر: (هل الديمقراطية ـ كنظام حاكم للدنيا ـ أفضل أو الديكتاتورية الملتزمة)؟ فإن نسبة عالية منهم تصوت إلى جانب الديكتاتورية الملتزمة وتستشهد بأن الديكتاتورية كانت أفضل للصين، ولروسيا، ولكثير من البلاد؛

يمارس حكامها الديكتاتورية باسم الثورية أو في ظل ديمقراطية شكلية. مع العلم بأننا لو استفتيناهم بالصيغة التالية:

ـ (هل الديمقراطية أفضل أو الديكتاتورية الملتزمة)؟

فسيختارون الديمقراطية، خوفاً من الديكتاتورية أن لا تبقى ملتزمة.

إذن: فتجارب القرنين الأخيرين، تدل ـ بوضوح ـ على أن (العقل) و(العلم) لا يستطيعان تأمين حاجات الإنسان، فلا بد أن يدخل الساحة عنصر آخر يكمل هذين العنصرين.

يقول آينشتاين: «إن العلم يدلنا على ما هو موجود، ولكن الدين ـ وحده ـ هو الذي يدلنا على ما ينبغي أن يكون»(١٣).

ويقول بوسويه: «إن الناس يزعمون أن السعادة هي الوصول إلى الآمال، فيما السعادة ليست الوصول إلى الآمال. إن الركن الأهم للسعادة هو أن يعلم الإنسان ـ أولاً ـ ماذا ينبغي أن يريد وأن يتمنى؟ فإذا عرف ماذا ينبغي أن يريد وأن يتمنى، فإن الوصول إليه سعادة. وأما إذا لم يستطع أن يحدد مصلحته، وأن يسيطر على نفسه، فإن كثيراً مما يتمناه خاسر وخطير.»(١٤)

إن تجارب القرنين الأخيرين، تثبت أن المفاسد والجرائم والأمراض النفسية والجسدية، وسائر مظاهر الشقاء؛ ترتفع في خط متواز مع ارتفاع خط مظاهر التقدم العلمي. وهذا... ما أدى إلى يأس المفكرين من (العقل) و(العلم) أن يؤمنا شيئاً من سعادة الإنسان، فأخذوا يزجون إلى الرأي العام مئات الكتب والمقالات معلنين حاجة الإنسان إلى السماء. وإن كانوا لا يجدون نبرات السماء في المذاهب والأديان المطروحة عليهم، ولا يجرؤون على التحدث باسم الإسلام، فإنهم يحاولون الإيحاء به. ولكنا قد نجد الجرأة لدى بعضهم على الحديث باسم الاسلام، مثل برنارد شو حيث يقول:

«في رأيي: إن رجلاً: مثل محمد لو ملك زمام الدنيا الجديدة، لعالج مشاكلها بشكل يؤمن السعادة المنشودة».

ويضيف: «في رأيي: إن الإسلام هو المذهب الوحيد، الذي يملك القدرة على السيطرة على المتغيرات الحياتية، ومواجهة القرون المختلفة».

ولكن مثل هذا الرأي يضيع بين ضجيج الآلة وصخب المصالح الكبرى، التي لا تتردد لحظة في تعريض العالم كله للدمار، إذا هددها بشكل من الأشكال.

الملجأ الوحيد

ومهما يكن موقف العالم السياسـي، ومصالحها الكبرى، لا ملجأ للعالم - من الدوامة الرهيبة التي يدور فيها منذ قرنين - غير الالتجاء إلى الدين الصحيح، المنزه من ضباب التقاليد والعادات، والأفكار التجارية التي يروجها سماسـرة الأديان وسدنة المعابد.

ومـن حسـن الحظ، أننـا نجد مثل هذا الدين في القرآن الـذي حفظه الله من الدس والتحريـف، فبقي - على أصالته وصفائه - قادراً على كشف الزيف، وإنارة الطريق، كما قال هو عن نفسه:

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...﴾(١٥).

وكما قال عنه الرسول الأعظم:

«.. فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن... وهو الدليل يدل على خير سبيل»(١٦).

إنـه.. الملجـأ الوحيـد. وإذا تغافله الغربيـون - اليوم - مهما كانت المـبررات، وإذا اكتفى المسـلمون - اليوم - بتلاوته وبلاغتـه، أو تفسـيره وتأويلـه في أفضـل الحالات؛ فإنه لن يكسـد ولن يبور، وسـتتجه إليه الدنيا - غـداً - تحت ضغط مشاكلها المتصاعدة، لأنه الملجأ الوحيد.

❖❖❖

القرآن ليس معجزة واحدة فحسـب، وإنما هو (موسـوعة معجزات): فاجتماعياته معجزة لعلماء الاجتماع، وسياسياته معجـزة للسياسـيين، وأخلاقياتـه معجـزة للأخلاقيـين، وعسـكرياته معجـزة للعسـكريين، واقتصادياتـه معجـزة للاقتصاديين، وتربوياته معجزة للتربويين، وأداؤه معجزة للأدباء.. ولكل اختصاصي معجزة في اختصاصه، فهو يفهم جانب اختصاصه أكثر من بقية جوانبه.

بل: إن القرآن معجزة لكل إنسان، في الجانب المنسجم مع أوليات ذلك الإنسان. فهو معاجز بعدد الخلائق. أوليست (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق)؟! فهو معجزة للناس أجمعين.

وفوق ذلك: إنه معجزة الفلسفة، فهو كتاب أعطى الفلسفة الكاملة الصحيحة للبشر. فهو (كتاب الكون)، بل

هو (عدل الكون). فالكون كله كلمة من كلمات الله، فأمر الله - إذا أراد شـيئاً - أن يقول له: (كن) فيكون، والقرآن كلمة أخرى من كلمات الله. فهي... وتلك.. كلمتان مترادفتان: (الكون قرآن) ولكن بشكل، و(القرآن كون) ولكن بشكل آخر. ولا نعلم: أيهما أثقل في الميزان؟ لأننا لا نستوعب: لا هذه.. ولا تلك.. فنحن جزء من تلك = الكون، ونحن تحت ضوء هذه = القرآن.

فالقرآن ليس مجرد كتاب أخلاق، أو مجرد كتاب اجتماع، أو مجرد كتاب اقتصاد، أو مجرد كتاب عسكرية، أو مجرد كتاب فلسفة.. وإنما هو هذه.. جمعاً، وفوق هذه جمعاً. وإنما هو كتاب فيه من كل أصناف علوم البشر شيء يعلو ويزيد، أوليس الكتاب الذي جمع فأوعى؟! فهو كتاب دين.

وليس القرآن مجرد معجزة خاتم النبيين، وإنما هو - في الوقت ذاته - معجزة لخاتم النبيين. فهو يدل على أن من هبط على قلبه خير من اتصل بالسـماء، لأنه أكرم بحمل أكبر الهدايا إلى الأرض. أوليس هو (الثقل الأكبر)، ، الذي من أجله ضحى كل (المعصومين) عليهم السلام؟!

❖❖❖

القرآن ليس كتاباً يؤخذ، ويسـتوعب، لأنه تناول مواضيع من خارج ثقافة البشـر، وخارج محيط فكر البشـر، من المعنويـات والروحانيـات وفلسـفة الماديات، ﴿مـن أنباء الغيب﴾(١٧). كمـا أسماها ـ؛ وأخضعها للغة البشـر الجامدة القاصرة. فأصبح أشبه بالتعبير الرمزي، الذي يحاول أن يعطي كل الحقيقة، ولكن بلغة لا تستوعبها ولمن لا يستطيع استيعابها. فعندما يتحدث عن: الله، والملائكة، والروح، والشيطان، والجان، والجنة، والنار، والقيامة... وحتى عندما يتحدث عن: فكرة الكون، وخلق السـماوات والأرض... وحتى عن: ﴿مرج البحرين﴾(١٨)، و﴿مد هامتان﴾(١٩) المردف بـ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾(٢٠)...

يبدو - جلياً - أنه يشير إلى ما لا نستطيع استيعابه بثقافتنا المعاصرة، فيتحدث كل عن مسبقاته الشخصية وهو يفسر القرآن، ويبقى القرآن فوق كل ما نقول باسـم تفسـير القرآن. إنك لو أردت أن تفسـر: معاني الجنس، أو لذة العلم، أو الرئاسة... للطفل، تجد نفسك مضطراً إلى استخدام تعبيرات وأمثلة طفولية، لا تستوعب الواقع الذي تحاول تصويره، ويأخذ الطفل عنه انطباعاً مختلفاً تماماً، رغم عدم قصور اللغة عن هذه المفاهيم.

ومشـكلة القرآن: أنه محاولة لإعطاء صور غير مادية بلغة مادية، ولأشـخاص ماديين. وقوة مصدر القرآن، تعوض كثيراً عن عجز اللغة، ولكن ليس لها أن تعوض عن عجز الوعي البشري.

انظـر إليـه وهو يتحدث عن الجنة، إنه يصورها مرتعاً مادياً خصباً. ولكن هل الجنة مرتع مادي أو نوع من التنعم

الروحاني؟ ففي عز الاسترسال مع التصوير المادي للجنة، تأتي الصدمة القوية:

﴿ . . . ورضوان من الله أكبر ﴾(٢١). إذن: ليست الجنة مجرد مرتع مادي.

ويأتي الحديث عن الخمر المفضلة، بالشكل المترف:

﴿ . . وأنهار من خمر لذة للشاربين. . ﴾(٢٢)، ولا تتملى من نشوة خمرة الجنة حتى توقفك المفاجأة:

﴿ لا فيها غول. . . ﴾(٢٣). إذن: ليست خمرة الجنة بمفهومها الدنيوي.

وتستمع إلى الحديث الرقيق عن الحور العين:

﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾(٢٤) و﴿ كواعب أتراباً ﴾(٢٥). . .

فلا تتأهب لاستقبالهن بفكرك.

أولم يقل الإمام الصادق عليه السّلام لمحدثه: «. . . أتزعم أن محمداً كان يكلم الناس بحاق عقله؟! لا والله، ولا يوماً واحداً»(٢٦)؟! فكل الصور الموجودة في القرآن والحديث صور رمزية، قد نفهم منها أشياء ـ تساعدنا على الاتجاه المستقيم ـ ولكنها تبقى فوق مستوى ثقافتها.

ضع أية صورة قرآنية أمامك، تجدها بعد دراسة ساعات، ومداولة أيام، وتأمل أشهر أو سنوات. . . تجدها تمنحك معطيات بقدرك، وفي الوقت ذاته: تطلك على آفاق بعيدة لست مجهزاً لاقتحامها. تماماً. . كما أن دراسة المجرة ـ بكامل الأجهزة العلمية ـ تمنحك معطيات بقدرك وفي الوقت ذاته: توضح أمامك أبعاداً لست مهيئاً للدخول فيها.

من هنا. . قد نجد بعض الأمل في الأحاديث المبشرة بظهور الإمام المهدي ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ: «يضع يدهم على الرؤوس فتكتمل العقول. .»(٢٧) أي: يرفع الثقافة العامة، «يأتي بدين جديد»(٢٨)؛ وهو يبشر بشريعة جده الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم. ولكنه عندما يصعد المستوى العام، يؤهل البشر لاستيعاب الحقائق، فلا يضطر إلى الأحاديث الرمزية، وإنما يكلم الناس بحق عقله، فينسف التصورات المادية الطفولية التي نتصورها ـ اليوم ـ كل الحقيقة.

❖❖❖

من المفاهيم الحديثة، الشـائعة في الأوسـاط الإسلامية، التي لم أجد من أشـبعها أو ناقشها ـ مفهوم يقول: (القرآن دستورنا).

فهل: (القرآن دستورنا)؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال لا بد من تحديد معنى الدستور، فمفهوم الدستور أحد أمرين:

أ ـ (الصيغة القانونية لإرادة شعب).

ب ـ (إطار يجمع الخطوط الرئيسة لقانون، ويكسب شرعيته من موافقة شعب).

والقرآن ليس دستوراً بالمفهوم الأول، لأن: ـ

١ ـ القرآن ليس صيغة قانونية، وإنما هو كتاب كوني، يغمر الإنسان ـ جزء من الكون ـ بكل أبعاده، ويقتحمه من كل مداخله.

ولهذا: فرع القرآن للأحكام الشـرعية (٥٢٠) آية فقط، من آياته البالغ عددها (٦٦٦٦) آية، والتي تعرض: قصصاً، وأمثالاً، ونصائح، وكونيات، وماورائيات. . .

٢ ـ القرآن ليس تعبيراً عن إرادة شعب، وإنما هو تعبير عن إرادة الله، الجامعة للمصلحة الدارينية للإنسان.

والقرآن ليس دستوراً بالمفهوم الثاني، لأن: ـ

١ـ القرآن ليس إطاراً يجمع الخطوط الرئيسـة لقانون، فهو كتاب واسـع، يضم نظاماً كاملاً للإنسـان ـ كجزء من الكون ـ بجوانبه العديدة، التي منها الجانب القانوني ـ إن صح إطلاق (القانون) على الأحكام الشرعية ـ.

٢ـ القرآن لا يكسب شرعيته من موافقة شعب، وإنما شرعيته نابعة من: تقرير الله أولاً، وواقعيته ثانياً.

وأوضح دليل على أن القرآن ليس (دسـتوراً) ـ بالمفهوم المتداول للدسـتور ـ أنك لو وضعته إلى جانب أي دسـتور تجده يختلف عنه تماماً.

سؤال:

إذن: فأين يقف القرآن من الدستور الاسلامي؟

جواب: -

القرآن مادة الدستور الاسلامي: فالقرآن معدن، يمكن أن تكرر آيات منه في صيغة الدستور، لتشكل إطاراً يجمع الخطوط الرئيسة لقانون اجتماعي. تماماً.. كما يمكن أن تكرر آيات أخر منه في صيغة روحية، لتشكل إطاراً يجمع الخطوط الرئيسة لقانون روحي. وكما يمكن أن تكرر آيات ثالثة منه في صيغة كونية، لتشكل إطاراً يجمع الخطوط الرئيسة لقانون كوني، يعبر عن العلاقات الكونية - بما فيها الإنسان -.

فالقرآن كتاب دين جامع، وليس دستوراً أو أي شيء آخر على انفراد.

❖❖❖

القرآن دستور دين اسمه: (الاسلام)، وليس دستوراً مدنياً، وإنما هو مادة للدساتير المدنية.

والقرآن ليس كتاباً اقتصادياً، ولا كتاباً سياسياً، ولا كتاباً اجتماعياً، ولا كتاباً عسكرياً، ولا كتاباً علمياً...

١- لأن القرآن لو كان أحد هذه الكتب، لما كان بقية هذه الكتب. ولو كان كل هذه الكتب على وجه الجمع بينها، لم يكن كتاب تخصص، وإنما هو كان أشبه بـ(الكشكول) الذي تجمع فيه أشتات من كل علم وفن.

٢- لأن القرآن لو كان أحد هذه الكتب - أو كل هذه الكتب - لكان كتاب علم، ولم يكن كتاب دين..

صحيح أن العلم يدعو إلى الدين والدين يدفع إلى العلم، ولكنهما أمران متغايران:

فالدين تقنين لاتجاه الإنسان إلى الله، والعلم تقنين لتصرف الإنسان في اتجاه الحياة، ابتداءً بنفسه وانتهاء بآخر ما يستطيع التصرف فيه من مواد الحياة.

فليس الدين ذات العلم، وليس العلم ذات الدين. فالماهيتان مختلفتان، وبينهما (عموم وخصوص مطلق):

فالديــن كلــه علم، وليس العلم كله دين، والعمل الديني علمي دائماً، والعمل العلمي ليس عملاً دينياً دائماً، وإنما بعضه ديني وبعضه غير ديني.

والعالم بالدين لا يشــترط أن يعلم كل العلوم حتى يكون عالماً بالدين، والعالم بأحد العلوم لا يشــترط أن يكون عالماً بالدين حتى يكون عالماً بما تخصص به.

٣. لأن القرآن يعالج كل ما يعالجه من زاوية توجيهه إلى الله، وهذه الكتب تعالج ما تعالجه لا من زاوية توجيهه إلى الله، وإنما من زاويته المحايدة، سواء أكان متجهاً إلى الله أو إلى الشيطان.

٤. لأن القــرآن ـ كدســتور ديــن ـ ليس أياً من هذه الكتب على انفراد، وليس كل هــذه الكتب على اجتماع، وإنما هو يصلح لأن يتخذ مادة لهذه الكتب ومهيمناً عليها. كما أن أي دستور، ليس أياً من هذه الكتب على انفراد، وليس كل هذه الكتب على اجتماع، وإنما يصلح أن يتخذ مادة لهذه الكتب ومهيمناً عليها.

فمهمة القرآن، هي تقنين اتجاه الإنسان إلى الله، بصرف اتجاهه عن المعبودات التي لم ينزل بها من سلطان، وتكريس اتجاهه العبادي إلى الله وحده، وتوســيع هذا الاتجاه بحيث يشــمل كل الإنســان، حتى يتجه إلى الله في تفكيره، وفي تعامله مع الحياة، ابتداءً بتعامله مع نفسه وانتهاء بآخر ما يمكنه التعامل معه من مواد الحياة.

القــرآن مجموعــة مــن آيات كونيــة، وآيــات فقهية، وآيــات عقيدية، وآيــات عســكرية، واقتصادية، وسياســية، واجتماعيــة... وهــو لايريــد أن يكون كتاباً كونياً، أو فقهياً، أو عقيدياً، أو عســكرياً، أو اقتصادياً، أو سياســياً، أو اجتماعيــاً.. وإنمــا يريد أن يكون كتاب هداية، يضع الهندســة لفهم: الكون، والفقه، والعقيدة، والعســكريات، والاقتصــاد، والسياســة، والاجتماع... فلذلك: لا يســتكمل حتى الخطوط العريضة لهــذه المواضيع، لأنه لا يحاول أن يعطي للإنســان هذه المواد، وإنما يحاول أن يعطي أســلوب تناوله لهذه المواد، ثم على الإنســان ـ نفســه ـ أن يتابع الخط الطويل.

وهكــذا ... كان الأنبيــاء وأوصياؤهــم عليهم السّــلام يعملون، فلــم يؤلفوا أي كتاب متخصــص في أي موضوع مــن المواضيــع، لأن هدفهم توجيه طاقة الإنســان إلى الخطــوط العامة للحياة والكون والإنســان، ولم يكونوا أســاتذة كلاسيكيين يقفون أمام تلاميذهم لشرح آية معينة، إلا مادة التوجيه العام نحو الفهم الصحيح والتناول الصحيح، لكل موضوع يمكن أن يحتاجوا إليه، وتدفعهم الحاجة إلى فهمه وتناوله.

❖❖❖

١ـ القــرآن بلــغ مــن قوة التعبير وقوة المضمون، إلى درجة عالية لا تتحملها الألفاظ إلا وهي مرهقة تنوء بثقل أكبر مــن طاقتهــا. فتتقطع آيات حتــى تحتفظ بماء وجهها، ولا تعلن عجزهـا عن المتابعة والاسترســال في أداء ما يراد بها من وفرة التعبير والمضمون. فيجب أن تختم بجمل ـ أو كلمات ـ قوية جبارة تغطي عجز الألفاظ، وتضفي عليها قوة أكبر من واقعها، حتى كأنها تؤدي ما يراد منها بتوفر ونشاط..

وهذه الجمل والكلمات، من نوع:

﴿سبحان الله رب العالمين﴾(٢٩)، ﴿فإني غفور رحيم﴾(٣٠)، ﴿رب العرش العظيم﴾(٣١)...

أمــا إذا تجــردت من تلك الخواتيم القويــة الجبارة، فإنها لا تملك القدرة المعجزة للألفــاظ، وإنما ـ بالعكس من ذلك تماماً ـ تظهر عجز الألفاظ عن تلك التعابير والمضامين المعجزة، وتبدو الألفاظ مرهقة قد أدركها العجز والقصور، رغم أنها هي تلك الألفاظ لم يتغير منها حرف، وإنما حاولت المتابعة والاسترســال في تحمل التعابير والمضامين القرآنية فقط فكشــفت عــن واقعهــا المحدود الموضوع لتحمل التعابــير والمضامين، التي انبثقت ـ هي والألفــاظ ـ من مصدر واحد وهو الفكر البشري المحدود؛ دون التعابير والمضامين المعجزة، التي انقضت ـ من فوق مستوى الفكر البشري ـ على الألفاظ، فأرهقتها أيما إرهاق، وحملتها أكثر من طاقاتها بدرجات.

فالألفاظ أوعية محدودة، تسع كميات محدودة من المضامين. إنها كالأواني التي تسع ـ بمختلف مساحات فراغاتها ـ كميــات مماثلــة من المواد ولكن تلك الألفاظ ـ بفــرض التعابير والمضامين القرآنية، الهائلة الأبعاد والأحجام ـ أصبحت كالأواني المصنوعة للموائد العادية، لو فرض عليها أن تســع ما في البحر والفضاء، فإنها ـ مهما تكلفت ـ لا تســعها إلا بادية التكلف والإرهاق، ولا يمكن أن تسعها ـ بتوفر ونشاط ـ إلا بمعجزة كالمعجزة القرآنية تلك.

٢ـ القــرآن لم تصنــف مواضيعه، حتى يكون قرآناً يحتمله كل الأذهان والأذواق صباح مســاء، ولا يكون كتاباً لا يحتمله سوى الأذهان المتمرسة بتكلف...

فالقرآن كله يشــبه الجملة ـ الحكمة ـ (٣٢)، التي تفرغ في الذهن شــحنتها قبل أن يتبرم برتابتها، وتدغدغ الذوق بجمال يشجعه على تملي تلك الشحنة وهضمها، بارتياح وهناء، وكأنها تتسلى بنكتة، ولا تتعبد بموعظة.

مواد تمهيدية

معنى التفسير

مجمــل الأحاديــث المرويــة عن أهل البيت عليهم الســلام، يدل على غلق باب تفســير القــرآن. ويمكن تصنيف هذه الأحاديث إلى ثلاثة أصناف: ـ

الأول: ـ الأحاديــث الــتي تحصــر فهم القرآن في أهل البيت، مثل قوله عليه الســلام: «إنما يعــرف القرآن، من خوطب به»(٣٣).

الثاني: ـ الأحاديث التي تمنع تفسير القرآن بدون مراجعة أهل البيت، مثل قوله عليه السلام: «من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»(٣٤).

الثالــث: ـ الأحاديــث الــتي تؤكد أن الله لم يعلم القــرآن لغير أهل البيت، مثل قول الإمام الصادق عليه السّــلام لأبي حنيفة: «ما ورثك الله من كتابه حرفاً»(٣٥).

ويستفاد من مجمل هذه الأحاديث، أن القرآن ـ كله ـ من نوع الشيفرة، وأن الله لم يعط مفاتيحه إلا لأهل البيت عليهم السلام، وعلى غيرهم أن يأخذوها منهم، أو أن يكفوا عن الخوض فيه، خشية أن ينسبوا إلى الله ما لم يثبت أنه منه. ومن هنا.. جاء التحذير عن التفسير بالرأي.

ويمكن الخروج من هذا المأزق بوجوه: ـ

١: إن آيات القرآن على قسمين:

﴿ محكمات هن أم الكتاب ﴾(٣٦)وهي التي تتناول الشريعة، وأصول العقيدة..

﴿ وأخر متشــابهات ﴾(٣٧)تتناول تفاصيل العقيدة. والأحاديث المذكورة منصرفة إلى المتشــابهات، لأن المحكمات واضحات، وظواهر الألفاظ حجة.

والجــواب: ـ الأحاديــث المذكورة آبية عن التخصيــص، خاصة قوله: «إنما يعرف القرآن، مــن خوطب به.»(٣٨).

و«وما ورثك الله من كتابه حرفاً»(٣٩).

وظواهر الألفاظ حجة، ما لم ترد دلالة على أن نصاً معيناً ليس على نمط العبارات المتداولة. وتلك الروايات، صريحة في أن القرآن ليس من نمط العبارات المتداولة، وإنما هو من نوع آخر، كالشيفرة مثلاً.

٢ـ إن التفسير ليس هو بيان الدلالات السطحية للكلمات والجمل، وإنما هو تفجير العبارات، والاستفادة من تفاعل دلالاتها وطاقاتها العميقة.

وهذه.. عملية استنباط معطيات القرآن، بدليل أن الإمام الصادق عليه السّلام عندما قال لأبي حنيفة: «ما ورثك الله من كتابه حرفاً»(٤٠)؛ أكد قوله بالسؤال عن الصّلاة والصيام، أيهما أهم؟ ـ مثلاً ـ، ولم يسأله عن تفسير سورة (المسد) وسورة (التكاثر).

فالقرآن قد يؤخذ بظواهره كما هي، وهذا ليس من التفسير. وربما يؤخذ بمعطياته العميقة، وهذا هو التفسير، الذي لا يقدر عليه إلا من استوعبوا القرآن بكل دلالاته الظاهرة والخفية، وهم أهل البيت عليهم السلام. تماماً.. كالبترول: ربما يراد أخذه خاماً لمجرد الوقود، وهذا في مقدور كل إنسان. وقد يراد الاستفادة من مشتقاته، وهذا في مقدور المختصين فقط.

وعلى هذا الأساس نستطيع القول: إن الإمام عندما قال لأبي حنيفة: «... حرفاً»؛ كان يعني حرفاً كاملاً، بكل دلالاته وبطونه. وعندما قال: «إنما يعرف القرآن ...»؛ كان يعني معرفة القرآن الكاملة، أي: بكل دلالاته وبطونه.

وعندما منع الناس عن التفسير بالرأي، كان يعني منعهم عن الدخول في استنباط المعطيات العميقة للقرآن، وهم لا يعرفون دلالاته وبطونه، التي لا يستوعبها أحد إلا من تعلم من أهل البيت عليهم السلام، فيؤدي خوضهم فيه ـ من دون الاعتماد على المختصين ـ إلى تحميل آرائهم على القرآن، لا إلى أخذ الرأي من القرآن. وهذا.. ما حدث فعلاً، فجميع الفرق الإسلامية تسند آراءها المتناقضة إلى القرآن، لأن كل إنسان ينطلق من مسبقاته في اتجاه ما لايعرف.

والجواب: ـ أن هذا المعنى خارج عن مفهوم التفسير. فلو كان المقصود من «... حرفاً» كل دلالاته وبطونه، بعد قوله لأبي حنيفة: «بم تفتي الناس؟»، لكان باستطاعة أبي حنيفة أن يقول: (وماذا أفعل بكل دلالاته وبطونه في الفتوى)؟ ولو كان المقصود من قوله: «إنما يعرف القرآن، من خوطب به»(٤١) كل أعماقه وأبعاده، لبقي عامة الناس في غنى عن مراجعة أهل البيت عليهم السلام، إذ لا يحتاج إليهم إلا الذين يحاولون التضلع في القرآن.. ولو كان المقصود من التفسير بالرأي تحميل الآراء على القرآن، لكان الأولى أن يقال: (لا تفسروا القرآن بغير وجهه) أو (خذوا آراءكم

من القرآن، ولا تحملوه آراءكم) أو ما شابه ذلك.

وكما ورد في (دعاء السمات): «اللهم! بحق هذا الدعاء، وبحق هذه الأسماء، التي لا يعلم تفسيرها ولا تأويلها ولا باطنها ولا ظاهرها غيرك...»(٤٢)؛ لعل القرآن من هذا النوع، بحيث لو ترك الناس والقرآن لم يفهموا شيئاً منه بوجه صحيح، وإنما يعرفون بعضه ـ اليوم ـ لأن أهل البيت عليهم السّلام عمموا تفسيره حتى أصبح من المعروف المألوف، كسائر المسلمات العلمية والدينية، التي لم تصبح مسلمات إلا بعد جهود مضنية بذلها العلماء والأئمة.

س: ـ إذا كان القرآن من هذا النوع، فماذا يستفيد منه الناس، علماً بأنه نزل للناس كافة؟

ج: ـ

أ: ـ كما يستفيدون من الأسماء المذكورة في (دعاء السمات)، وكما يستفيدون من العناصر الأولية للكون وهم لا يعرفونها أو لا يعرفون حقيقتها. فكثيراً ما تتم الاستفادة من الأشياء بدون التعرف عليها، وبخاصة في مجال التكوين. ولعل الفوائد التكوينية من القرآن، أكثر من فوائده التشريعية.

ب: ـ الناس يستطيعون الاستفادة من القرآن بعد تفسير أهل البيت عليهم السلام، وتعليق الاستفادة من القرآن على تفسير أهل البيت عليهم السّلام لا يعني تعطيل دور القرآن، كما أن تعليق رؤية الألوان على النور لا يلغي دور الألوان.

التفسير بالرأي

لقد ورد تحذير شديد عن تفسير القرآن بالرأي، في أحاديث كثيرة، وهذه الأحاديث تنقسم إلى مجموعتين:

الأولى: ـ تؤكد انحصار المعرفة بالقرآن في النبي وآله، فتقول: «إنما يعرف القرآن، من خوطب به»(٤٣)، وقال الإمام الصادق لأبي حنيفة ـ في حوار طويل ـ: «ما ورثك الله من كتابه حرفاً»(٤٤)... وإذا كان أبو حنيفة لم يتعلم من كتاب الله رغم تتلمذه سنتين على الإمام الصادق عليه السلام، فما عسى أن يصيب من لم يتتلمذ على الإمام الصادق وعلى غيره من الأئمة الذين خوطبوا بالقرآن؟!

الثانية: ـ تحذر من التصدي لتفسير القرآن بالرأي، وتهدد عليه بالنار، فتقول: «من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»(٤٥).

وعندما نحاول فهم المجموعة الأولى، نستطيع أن نقول:

إن القــرآن نظــام واحــد مترابط لكون واحد مترابط، تتماســك فيه الطبيعــة بما وراء الطبيعة، والعوالم الســابقة واللاحقة بعالم الدنيا؛ ولإنسان واحد - في إنسانيته - قادم من عوالم سابقة، وسائر - في عالم الدنيا - إلى عوالم لاحقة.

والقــرآن - مثــل الدنيــا - فيه الســهل وفيه الممتنــع، وفيه القريــب وفيه البعيد. أو - حســب تعبــيره -: فيه محكمات ومتشــابهات. وبما أنه مترابط ترابطاً عضوياً يرفض التجزئة، لا يمكن فهم أي جزءٍ منه على حقيقته، بدون اســتيعاب خطوطه الرئيسة.

والنبي وآله، في مستوى القرآن، أي: في مستوى الحياة العامة، فمن الطبيعي أن يعرفوه معرفة كاملة. وأما غيرهم، فليس في مستوى القرآن، فمن الطبيعي أن لا يفهم لا كلاً ولا بعضاً:

أمــا كلاً، فلاشــتماله على المتشــابهات: التي تتحــدث عن قضايا لا يعرفها الإنســان مطلقــاً، كقضايا الألوهية. وتتحدث عن قضايا مر بها الإنسان - قبل الدنيا - من خلال اللاشعور فلم يهضمها، أو مر بها من خلال الشعور ثم نسيها عبر مليارات الســنين التي فصلت العوالم الســابقة عن هذا العالم. وتتحدث عن قضايا يعيشــها الإنســان في هذا العالم، ولكن خلف حاجز سميك يفصل بين الماديات والماورائيات، كجميع قضايا: الملائكة، والشياطين، والأجنة... وسائر الخلائق الحية التي لا يمكن دركها بالحواس الخمس.

وأمــا بعضــاً، فلأن معرفة أي جزءٍ من كل عضو مترابط، لا يمكن - على حقيقته - بدون معرفة الخطوط الرئيســة لذلــك الــكل. كمــا لا يمكن معرفــة أي عضو من حيــوان - على حقيقته - مــع منافعه وموارد اســتخدامه، بعيداً عن التعقلات الرئيسة لذلك الحيوان المركب من كامل أعضائه.

فأبو حنيفة، لا شك أنه كان عربي اللسان، وعلى جانب من العلم. ولكنه لم يكن في مستوى القرآن، إذ لم يكن في مستوى الحياة العامة التي تضم الطبيعة بما وراء الطبيعة، وتجمع - جميع العوالم التي مر أو يمر بها الإنسان - في إطار واحــد. فلم يكن يســتطيع فهــم القرآن كلاً، ولم يكن له طريق إلى معرفة خطوطه الرئيســة غير طريق أهل البيت عليهم السلام. ولكنه كان يرفض سلوك هذا الطريق، أذ نصب نفسه مناوئاً لهم، وكثيراً ما حاول مناقضة المعلومات الصادرة عنهم. فلم يكن يعرف الخطوط الرئيسة للقرآن، حتى يستطيع فهم أي جزء منه على حقيقته. فبقي لا يفقه حرفاً من القرآن، لا لقصور فيه بالذات، وإنما لأنه رفض اتباع الطريق المؤدي إلى فهم القرآن، وهو طريق أهل البيت (ع). وأصــر علــى اتباع طريق لا يؤدي إلى فهم القرآن، وهو رأيه. ورأي الإنســان قاصر عــن درك القرآن - مهما كان لامعاً -، كما أن رأي الإنسان قاصر عن درك الحياة العامة - مهما كان ذكياً -.

إذن: لا يفهم القرآن - كله على حقيقته إلا الوســط القرآني، وهو الوســط الذي اختاره الله لإنزال القرآن عليه، كما في الحديث: «إنما يعرف القرآن، من خوطب به»(٤٦).

وما نفهمه من ظواهر بعض الآيات، فهم ناقص لا معول عليه. تماماً.. كما لو رأينا عضواً من جسم لا نعرفه، لا شك أننا نأخذ انطباعاً معيناً عن هذا العضو، ولكن ـ بما أننا لا نعرف التعقلات الرئيسة لذلك الجسم ـ نعجز عن تقييم هذا العضو تقييماً دقيقاً يمكن التعويل عليه.

وإذا حاولنا فهم المجموعة الثانية التي تحذر من تفسير القرآن بالرأي، نستطيع أن نقول:

إن المجموعة الثانية مترتبة على المجموعة الأولى، وطبيعية بعد ثبوت المجموعة الأولى. فإذا لم يعرف القرآن أحد غير النبي وآله (ع)، فتفسيره من قبل غيرهم خطأ كبير من وجهين: ـ

الأول: إن من لم يفهم القرآن عليه أن لا يحاول تفسيره، لأنه لا يطمئن إلى صحة تفسيره، والبت فيما لا يطمئن إليه الإنسان خطأ مهما كان موضوعه.

الثاني: إن تصدي أي جاهل لأي دستور، يعرضه لأشد أنواع العقاب، فكيف بالتصدي للقرآن الذي هو الدستور الثابت للأجيال، منذ نزوله حتى انقراض البشر. وتفسيره بالرأي، يساوي التدخل في مختلف الشؤون العقيدية والعبادية والمسلكية للبشرية، باسم الله. والله ـ تعالى ـ هو القيم على البشر، والذي يفسر القرآن برأيه إنما يمارس قيمومة الله على البشر بدون تخويل من الله وينصب من نفسه ناطقاً باسم الله بدون إذن من الله، فليتبوأ مقعده من النار.

التكرار في القرآن

لا تكرر في الكون، بمعنى التكرار الكلاسيكي الذي يعني أن يأتي شيءٌ مرتين في موضع واحد. نعم.. قد يكون هنالك تكرار في الشكل لا في الواقع:

ـ مثلاً: كل رقم من الأرقام واحد، من رقم (١) إلى رقم (٩) وإلى ما زاد، ويضاعف بتتابع الأرقام. ولكل رقم موضعه الخاص به، الذي لا تكرار فيه.

ـ مثلاً: المصابيح في المدينة كثيرة، فهل هي مكررة لأنها متشابهة؟! كلا.. فكل مصباح واحد، في موضع خاص به.

ـ مثلاً: أفراد البشر متشابهون، فهل هم مكررون؟! أو أن كل واحد منهم واحد، في موضعه الخاص به.

ـ النجوم في السماء كثيرة متشابهة، فهل هي مكررة؟!

وهكـذا . . كل شـيء: ابتـداءً من الـذرات الهائلة العـدد، إلى الخلايا الحيوانيـة والنباتية، وانتهـاءً بالمركبات كالأفراد والأشجار والمنظومات. . .

ولنعـد إلى التكـرار اللفظـي: إن للكلمة وجـوداً لفظياً إلى جانب ما لأي شـيء ثلاثة وجودات أخـرى: هي الوجود الخارجـي والذهني والصوري (الذي يسـاوي وجـود رسمه أو اسمه مكتوباً). فإذا وجدناه قـد جاء مرتين، فلدلالتين. حتـى تكـرار التأكيد، لا يعني التكرار الكلاسـيكي، وإنما يعني أنه جـاء في موضعين لدلالتين، لأنه لو قلنا: (جاء زيد زيد)، فلزيد الثاني دلالة ثانية، كما أنه وجود آخر.

وكمثال: كلمة (الناس) إنما جاءت في سـورة (الناس) خمس مرات؛ تماماً . . كخمسـة مصابيح متشابهة ركزت في مواقع خمسة.

ضمائر القرآن

القـرآن ـ عندمـا يعبر عن الله تعالى ـ قد يسـتخدم ضمير المتكلم وحده، وقد يسـتخدم ضمـير المتكلم مع الغير، نحو:

﴿ . . .إني أنا الله رب العالمين ﴾ (٤٧)، ونحو:

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (٤٨)، ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا؟!. . ﴾ (٤٩).

فعندما يسـتخدم ضمير المتكلم وحده يعبر عن وحدة الله تعالى، لأن الله ـ تعالى ـ واحد، فالتعبير صحيح. ولكن عندما يستخدم ضمير المتكلم مع الغير يحتاج إلى بيان سبب استخدامه، لأن الله واحد، فكيف يصح استخدام ضمير المتكلم مع الغير، وليس مع الله غيره؟!

وكان علماء البلاغة والتفسـير، يفسـرون ذلك بأنه من باب التعظيم. وهذا التفسـير غير موضوعي، لأنه لو كان لغرض التعظيم، لكان اللازم استخدامه في كل تعبير عن الله، لأن الله عظيم في كل تعبير.

والذي أتصوره ـ ولا أؤكده، لأن التفسـير لا يؤكد إن لم يسـتند إلى معصوم ـ: إن الضمير قد يوجه الذهن إلى الله وحده، فلا بد أن يكون مفرداً، نحو:

﴿ إني أنا الله ﴾ (٥٠) و﴿ هو الله الخالق البارئ. . . ﴾ (٥١) و﴿ . . . لا إله إلا هو. . . ﴾ (٥٢). . . وقد يوجه الذهن

إلى الله مع غيره ـ وإن كان دور غيره دوراً ثانوياً ـ فيكون جمعاً، مثل:

﴿إنـا أنزلنـاه﴾(٥٣) لأن الله أنـزل القـرآن، وكان للملائكة دور في إنزالـه، لأن القرآن نزل بواسـطتهم. و﴿أن يسـبقونا﴾(٥٤) أي: الله وأوليـاءه، لأن أوليائـه هم المظهر البشـري لـه. و﴿إنا هديناه السـبيل. . . ﴾(٥٥)، لأن أولياء الله شـاركوا في هداية الإنسـان. و(أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟!)(٥٦)، لأن الظواهر الكونية تتم بواسطة الملائكة، وآمر السحاب ملك، وبكل قطرة ملك موكل. . .

وهكذا . . الله ـ تعالى ـ يحترم دور عباده الذين يعطيهم دوراً، فيشـير إلى دورهم بضمير الجميع، ولا يلغي دورهم ـ تكريماً لهم ـ، رغم أن دورهم بالنسبة إليه لا شيء، لأنه هو يحركهم، ويوفقهم للقيام بالدور الذي يعهده إليهم.

علاقة القرآن بالبصر

قال الإمام الصادق (ع) ـ: «من قرأ القرآن في المصحف، متع ببصره.»(٥٧).

يحتمل أن يكون معنى (متع ببصره): ـ

١ـ أنه استخدم طاقة البصر به، بينما لا يمتع ببصره من يقرأ القرآن عن ظهر القلب، فهو إشارة إلى مجرد استخدام هذه الطاقة الباصرة.

٢ـ إن اسـتخدام الباصرة ـ في قراءة القرآن ـ ترويض لها، والرياضة تقوي كل عضو يعرض لها. فمن يسـتخدم عينه كثيراً، يمتع بعينه أكثر من الذي لايستخدمها في القراءة.

٣ـ إنه عندما يسـتخدم لسـانه وعينه في قراءة القرآن، ينفذ القرآن إلى قلبه من نافذتين، فيكون أعمق تأثيراً. بينما الذي يستخدم لسانه ـ فحسب ـ في قراءة القرآن، لا ينفذ القرآن، إلى قلبه إلا من نافذة واحدة هي نافذة اللسان، فيكون أقل تأثيراً.

لبنان ـ بيروت

حسن مهدي الشيرازي

(١)

سورة فاتحة الكتاب

مكية

وهي سبع آيات

فاتحة الكتاب: تعريف

سورة استوعبت كليات العقيدة، في صيغ طريفة، تعطي تصوراً واضحاً:

عن الله، وعن أهم صفاته المتصلة بالإنسان، وعن الحياة الآخرة ـ في أهم مراحلها وهو القيامة ـ، وعن موقف الإنسان من الله، وعن توجه الإنسان على الحياة، وعن الخط الذي يلزم أن يكون عليه الإنسان عبر الدنيا، وعن الخطوط المنحرفة التي تعترض مسيرته.

كل ذلك: بأسلوب دعائي إيحائي، يرسب المفاهيم التي يحملها إلى القلوب، قبل أن ترفعها الشفاه إلى الله.

فكانت (فاتحة الكتاب)، والمقدمة التي تلخص التصور الذي يعطيه القرآن كله، وتضع له الإطار الذي يحصر مفاهيمه. وسميت (أم الكتاب)، التي تركز الأسس التي يبني عليها القرآن معطياته. وأصبحت (سبع المثاني)، لأنها آيات سبع تتكرر في كل صلاة.

فيردد المسلمون هذه السورة القصيرة، ذات الآيات السبع، كل يوم عشر مرات ـ على الأقل ـ في فرائض الصلاة، ترديداً إلزامياً، ولا تتم لهم سنن الصّلاةإلا بترديدها أكثر من مرة.

نزلت هذه الآيات السبع ـ مرة ـ في مكة، فرفع المشركون معلقاتهم السبع عن الكعبة، وانتهى التوجه إلى الكعبة

بالشعر. ونزلت ـ مرة ـ في المدينة, عندما اتخذت الصّلاةكيانها: مسجداً، ورسولاً يقيم فيه الصّلاةمهما أراد.

هذه وكثير غيرها من السور والآيات ـ تعليمية، نزلت من قبل الله، لا للتحدث إلى الناس، وإنما لتعليمهم لغة التحدث عن الله، أو إليه. لأنهم لا يستطيعون أن يستوعبوا الله:

﴿ . . . ولا يحيطون به علماً ﴾(٥٨)، وإنما يتصورونه تصورات منتزعة من مسبقاتهم، والأشياء العظيمة لديهم. وبما أن الناس مركبون ـ في أجسامهم ـ تركيبات مادية، والأشياء التي يعيشونها في السماوات والأرض، مادية تدرك بالحواس الخمس؛ لا يقدرون إلا على تصورات مادية، محدودة بحدودهم، تلك التصورات التي من الشرك اعتبارها خالق الكون، ويجب تنزيه الله عنها.

والإنسان لا يطيق التعبير إلا عن مدركاته، فلذلك نزه الله نفسه عن وصف الواصفين:

﴿سبحان الله عما يصفون﴾(٥٩)، وعلمهم الحديث عنه والحديث إليه، وخاصة: عندما يقفون في مقام العبودية للصلاة. وكان مما علمهم، هذه السورة المباركة: (فاتحة الكتاب).

وأخيراً: روى ابن طلحة الحلبي الشافعي ـ في الدر النظيم ـ عن أمير المؤمنين (ع): «لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيراً»(٦٠).

الاستعاذة

إنها فكرة مستحبة، أن يعلن الإنسان لجوءه إلى الله، السميع العليم، مصدر الوعي والإدراك؛ تهيؤاً للدخول في مدرسة آياته، تلك الساحة الرهيبة لاحتكاك العقل والضمير من جهة، والعاطفة والعادة من جهة أخرى؛ من الشيطان، الذي لا يظهر بزيه الصحيح ـ عدواً شرساً ـ حتى يتقيه، ولا يبدو من خارج الإنسان حتى يتجنبه، وإنما يظهر بزي مزيف ـ صديقاً مخلصاً ـ يصعب اكتشافه، ويطرح وساوسه من داخل الإنسان حتى كأنها آراؤه، فلا يمكن التدرع منه إلا بالله ـ مصدر الوعي والإدراك ـ الذي يحصي أساليب الشيطان، وموارده إلى الأدمغة والقلوب.

والشيطان: كل بعيد عن الخط الصحيح، الذي يسول الشر بالخير، فيضمر الباطل بالحق، سواءٌ أكان منظوراً أو غير منظور، من الإنس أو من الجن، وإن كان قمتهم (ابليس): الرجيم بالشهب عن معرفة قرارات السماء، والرجيم باللعنات من البشر.

ويأتي أدب القرآن:

﴿فإذا قرأت القرآن﴾(٦١)، فلست في رحلة للتسلية، ولا أمام ترف فكري للتوسع؛ وإنما أنت في دولاب يتجول بينك من جهة وبين الله والكون والحياة من جهة، وهو يحولك - فجأة - إلى حلبة مباراة عنيفة، تفقدك توازنك قبل أن تحاول اتخاذ أي قرار؛ ﴿فاستعذ بالله﴾(٦٢) ليزودك بطاقات إضافية،، تركزك، وتوسع مداك. والجأ إليه، ليعصمك ﴿من﴾(٦٣) مداخلات ﴿الشيطان الرجيم﴾(٦٤)، الذي يأتيك من حيث لا تشعر.

البسملة: تعريف

﴿الله﴾ يعني: (الإله). أي: ذلك الإله المعهود عهداً خارجياً، وهو خالق الكون والحياة. فـ(ال) تعريف، و(إله) نكرة اسم جنس، نكرة عرفت بـ(ال). فليس اسماً خاصاً، ولكنه أصبح علماً لخالق الكون والحياة، بوضعه - هو - هذا الاسم علماً له.

وقد تعودنا أن نطلق هذا الاسم بلا تفهم لمسماه، فنتبرك بالابتداء به، وفيه البركة كلها. ولكنا لو حاولنا تفهم مسماه - بقدر ما نستطيع - لوجدنا أنه تعبير عن: العلم المطلق المحيط بكل شيء، والارادة المطلقة التي لا تعيقها العقبات، والقدرة المطلقة التي لا تقف عند شيء، والحياة المطلقة التي لم يسبقها ولا يعقبها ولا يتخللها موت، والعدالة المطلقة التي لا ينغصها ظلم، والإدراك المطلق الذي لا ينطلي عليه شيء... وجميع الصفات الجليلة، مطلقة من كل الحدود والنهايات.

فالابتداء باسمه، اتجاه إلى مصدر كل الطاقات العليا، في صيغها الإلهية المطلقة. والاتجاه إلى الله، يؤهب لإطلاق أقصى القدرات الخاملة في الإنسان. وهذا.. شيءٌ ظاهر، نمارسه في مختلف مجالاتنا الحياتية: فالعسكريون، يرددون أسماء أبطالهم الأسطوريين، لاستنفار الرجولة في أنفسهم. والعلماء، يفجرون مواهبهم، بتذكر أسلافهم التاريخيين. وكل صنف من الناس، يحركون قدراتهم المختلفة، بتذكر عظمائهم المثاليين.

وإذا كان تذكر المتفوقين يثير في الإنسان ركائزه، فإن تذكر الله - وهو يعي ماذا يعني (الله) - لا بد أن يؤهبه للانطلاق بأقصى قدراته.

فالابتداء باسم الله، تنشيط حيوي للإنسان، بالإضافة إلى ما فيه من بركة روحية ومعنوية.

البسملة: تفسير

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

- ١ -

﴿بسم الله﴾ أتصرف: أعمل أو أقول، فالله هو منطلقي وهدفي، لا المنطلقات الشخصية.

فلكل تصرف من تصرفات الإنسان على الأرض، منطلق وهدف. وقد يتحد المنطلق والهدف: فحلم الهدف، هو الذي يدفع الإنسان إلى التصرف الذي يحققه، فيكون منطلقاً. وتصرفه سعي نحو تحقيقه، فيكون هدفاً. فمنطلقات وأهداف إنسان الأرض، تتلخص في رؤوس ثلاثة، هي: النفس والمال والولد. وهذه المطلقات - الأهداف - هي التي تثير تصرفات الناس العاديين، الذين يتحركون في مداراتهم الشخصية، ويجهدون - فكرياً أو عضلياً - لتأمين حياتهم الخاصة، القائمة على (مثلث أنا)، الذي يؤلف أضلاعه الثلاثة: النفس والمال والولد.

فلو فحصنا أكثر التصرفات الفكرية والعضلية للناس على الأرض، لوجدناها منطلقة من هذه المنطلقات، ودائرة حول أحد هذه المحاور، وساعية في اتجاه أحد أضلاع مثلث أنا. فثالوت الأرض، أو ثالوت البشر، الذي مجمله: (أنا)؛ هو مدى إنسان الأرض، فحدود الإنسان بجناحيه: المال والولد، هي أقصى أهدافه.

ومعنى ذلك: يعيش دوامة الذات، فلا يتحرك فكريا أو عضلياً إلا لتأمين ذاته، أي: الغوص في الذات، فلا يزداد تحركاً إلا ليزداد توغلاً في الذات. وما دام كل تحرك يعني استهلاكاً بقدره للمتحرك، فاستمرار التحرك نحو الذات يعني استهلاك الذات للذات، حتى ينتهي عن لا شيء. وهذا الاستهلاك الذاتي، يجعل من الإنسان شيئاً متآكلاً سريع الفناء، بفناء جسمه، رغم تزوده بقدرات تؤهله للنمو الذاتي، وبقائه بعد تفتت جسمه، وحتى بعد انتهاء الحياة الكونية العامة.

فجاءت الأديان لتجنب الإنسان مغبة الارتطام بالذات، ولتقول له: (لست أنت كل شيء، حتى تستقطب كل اهتماماتك، وليست ذاتك، بجناحيها: المال والولد، إلا وسيلة لا بد من استخدامها في تحليقك إلى آفاقك. فحاول أن لا ترتطم بها، في حركتك الصاعدة).

فإنسان الأرض - الذي يتصرف للذات، أو لأي من منابعها أو روافدها - إنما يعمل باسم ذلك المنطلق - الهدف، أي يعبر بعمله عن ذلك المنطلق - الهدف: فالذي يتصرف لأجل الشهرة، إنما يعمل باسم الشهرة. والذي يتصرف لأجل الكرسي، إنما يعمل بأسم الكرسي. والذي يتصرف لأجل المال، إنما يعمل باسم المال. والذي يتصرف لأجل الولد، إنما يعمل باسم الولد. والذي يتصرف لأجل الملك، إنما يعمل باسم الملك. والذي يتصرف لأجل الشعب، إنما يعمل باسم الشعب. والذي يتصرف لأجل القانون، إنما يعمل باسم القانون...

و«أما إنسان السماء، الذي يرتفع عن الذات ومنابعها وفروعها، ويجعل منطلق الكون وهدفه، وهو الله تعالى، منطلقه وهدفه؛ فإنما يعمل باسم الله.

والذي يعمل باسم الله، لا يرتفع إلى السماء، ولا يرتفع عن الوجود، وإنما يعمل - في مستواه - كجزء من الكون. فهو - عرف أم لم يعرف - منطلق من الله، وسائر إلى الله. والكون - كله - يعمل باسم الله، وكل ذرة في الوجود تعمل باسم الله، لأن كل شيء - في كل العوالم - لا يعمل لأي شيء مما قد يعمل لأجله الإنسان، وإنما يعمل لله. فالإنسان الذي يعمل باسم الله، إنما يتساوى مع بقية الموجودات، التي يستهين بها، ويعتبر نفسه قمتها:

﴿ . . . فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين ﴾(٦٥). وعندما يعمل باسم غير الله، فيتصرف لرغبات الأرض؛ إنما ينحدر عن مستواه الطبيعي إلى ما لا ينحدر إليه غيره من الموجودات.

وبدأ القرآن بـ﴿ بسم الله ﴾، ليعود المسلمين على الابتداء به، حتى يتم به الإيحاء النفسي القائم في كل شيء عملاً دائباً، لا لمجرد أن تبتدىء به الأعمال، وإنما لتقوم عليه، فيكون الله منطلقها وهدفها. ذلك: هو العمل الثابت، الذي لايفنى بكماله. لأن كل شيء يرتبط بالله، يبقى ببقاء الله، ويخلد بخلوده، وإنما يتطور من شكل مادي إلى شكل غير مادي، وينقلب من حركة إلى شيء، ولكن يبقى، ويتكامل من ميت إلى حي، الله قائم كل شيء، يحفظ ما يرتبط به في كتاب الكون المحفوظ. وأما ما لا يقوم على اسم الله منطلقاً وهدفاً، فإنه ينتهي بالانتهاء منه: فالكلمة التي ليست لله، تتلاشى بمغادرتها الشفاه. والعمل الذي ليس لله، يفنى فور إنجازه. إذ لا قيم على الأشياء، غير الله، حتى ينفخ فيها الحياة، ويمدها بالبقاء والاستمرار. وحركة الزمان، تنخر كل شيء حتى يأتي عليه، ولا قيم عليه حتى يحفظه من الزمان:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾(٦٦)، ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(٦٧).

وإلى هذه الحقيقة الكونية، يشير النبي (ص)، بتعبيره البسيط العميق:

«كل أمر ذي بال، لم يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر»(٦٨)، ليس له استمرار. وقد أوضح الإمام علي بن موسى الرضا(ع) هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ بسم الله ﴾، قال: «يعني: أسم نفسي بسمة من سمات الله، وهي العبادة». قيل له: (ما السمة؟) قال: «العلامة»(٦٩).

فمن يحمل طابع العبادة، ويتصرف بوحيها؛ إنما يسير على ضوء الله، ويجعله منطلقه وهدفه، فكيفما تقلب فهو في محراب، ومهما عمل - لنفسه أو لعائلته أو لأمته - فهو في صلاة.

فليس متعلق الباء في: ﴿بسم الله﴾ ابتدىء، وإنما أعمل أو أقول. وليس للتبرك الوهمي، وإنما لتغيير طبيعة العمل، من شيء وقتي ميت إلى شيء ثابت حي.

و(الله) اسم، و(اسم) الله لا يقصد منه اسم الاسم، وإنما يقصد منه اسم المسمى، ذلك: أن لكل شخص خمس وجودات، هي:

١. الوجود اللفظي، مثل (م ـ ح ـ م ـ د) الدال على شخص خاتم الأنبياء.

٢. الوجود الصوري، الذي ينعكس على المرآة أو الورق، أو يمثل من الصخر أو الحديد.

٣. الوجود الاعتباري، الذي يتعرض للأحكام: فيرث، أو يورث، أو يملك، أو يهب، أو يجب عليه، أو يحرم . . . وهذا الوجود، يعني كونه مكلفاً. ووالد زيد، وابن عمرو، وزوج سلمى، وكامل العقل والقدرة. . . وهذا الوجود، قابل للتوسع والتضيق، بتعدد أو فقدان مشتقاته، بما أنه قابل للنقل إلى الوكيل والوصي والنائب وغيرهم.

٤. الوجود الذهني، الذي يحمله إنسان عمن يتعرف عليه، ويستحضره لدى سماع اسمه.

٥. الوجود الخارجي، وهو الوجود الذاتي، الذي تنبعث عنه تلك الوجودات الأربعة.

وقد يلاحظ أي واحد من الوجودات الأربعة الأولى، باعتباره منبعثاً من الوجود الذاتي، فيكون مستقلاً، رغم قيامه بغيره. وربما يلاحظ الوجود الذاتي من خلاله، حتى لا تنصب عليه الملاحظة، وإنما تمر إلى الوجود الذاتي، فتكون النظارة التي لا تنظر حين النظر إلى غيرها.

ولفظة (الله) قد تلاحظ باعتبارها كلمة الجلالة، بما لها من مواصفات خاصة؛ فتكون اسماً. وربما تتخذ إشارة لفظية إلى خالق الكون، فتمحو في الاعتبار حتى لا يلتفت إلا إلى خالق الكون؛ فتكون مساوية لاسم الله فيتساوى (اسم الله) مع (الله).

وكلمة (الله) علم لخالق الكون، مشتق من (الإله)، بعد حذف الهمزة وتفخيم اللام. ولا توجد في العربية الفصحى لام مفخمة، إلا في لفظ الجلالة. أما سائر الأسماء الحسنى، فلأنها مشتقة من أوصاف يصح إطلاقها على الله، باعتبارها أسماء، ويصح وصفه بها: فيصح أن يقال:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٧٠)، ويصح أن يقال: ﴿. . . الله الرحمن. . . ﴾(٧١). وأما لفظ الجلالة،

فيطلق اسماً ولا يطلق وصفاً: فيوصف بجميع الأسماء الحسنى، ولا يصح وصف شيء مشابه منها به، فلا يصح أن يقال: (الرحمن الله) - مثلاً -.

و(رحمن)، على وزن حران، صيغة مبالغة، تدل على الكثرة. و(رحيم)، على وزن عظيم، صفة مشبهة بالفعل، تدل على الثبات والاستمرار. فـ«الرحمان»: كثير الرحمة، الذي ينشرها مع استحقاق وبلا استحقاق، على البر والفاجر. فتمتد أينما امتد الناس، لا تعيقها صنفية، ولا تحصرها شروط.

وهذه الصفة تعبر عن رحمة الله في الدنيا، التي وسعت كل الناس، رغم مواقفهم المختلفة من الله، ووردت - في كثير من الآيات - حتى بالنسبة إلى غير المؤمنين:

﴿ قل، من كان في الضلالة، فليمدد له الرحمن مدا ﴾(٧٢)، وهي رحمة الله في الدنيا، التي وسعت كل شيء. وأما «الرحيم»: فهو ذو الرحمة الثابتة، التي لا تقف على حدود الدنيا، ولا تصدها سدود الآخرة، فتختص بالمنسجمين مع طبيعة الرحمة، فينالونها وفق قواعد الرحمة، وهم المؤمنون الذين لا يستحقونها - بالمعنى الدقيق للاستحقاق - ولكنهم موضعها أو الأولى بها. فلم يطلق (الرحيم) في القرآن إلا بالنسبة إلى المؤمنين:

﴿ . . .إنه بهم رؤوف رحيم ﴾(٧٣)، ﴿ . . . وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾(٧٤). . .

ومن الفوارق بين هاتين الصفتين: أن (رحمان) لا يطلق على غير الله، لما فيه من الإيحاء والاستعلاء، الذي لا يتلاءم مع العباد.

و(رحيم) يطلق على سواه، لما فيه من الإيحاء بالحميمة القريبة. ولعل الإمام الصادق (ع) يرمز إلى ذلك بقوله: «الرحمن: اسم خاص بصفة عامة، والرحيم: اسم عام بصفة خاصة»(٧٥). فهاتان الصفتان - مجتمعتين - توحيان باستغراق جميع معاني الرحمة وحالاتها، التي تقرر بدء العلاقة بين الله وعباده.

وكان لا بد من اختيار هاتين الصفتين، من بين جميع الأسماء الحسنى، التي تبلغ الألف اسم على ما هو المعروف، لـ:

١- إن الوثنية تشعر بنوع من الصلة القريبة بين الفرد وإلهه، فالذي يعبد إلهاً - خاصاً به أو بأسرته أو بقبيلته - يشعر بقربه منه، فهو في متناول يده، وعلى مرأى ومسمع منه. بينما التوحيد يشعر - في التصور البدائي - بالبعد بين الفرد وربه، فكل فرد يرى نفسه واقفاً - في جملة المليارات من البشر، في كل جيل - أمام ذلك الإله المتفرد، الكبير المتعالي. فتأتي هاتان الصفتان، فتؤكدان: أن ذلك الإله الواحد، متصل بكل فرد من عباده، بصلة الرحمة الشاملة القريبة،

فلا بعد ولا توجس.

٢- إن لكل كلمة يقولها إنسان: موجة إيحاء تنحدر إلى أعماقه، وموجة تأثير يصدرها إلى غيره. ومن يردد في كل تقلباته: (الرحمن الرحيم)، لا بد أن يستوحي منهما ولو بعض معاني الرحمة.

٣- إن الضعيف يحاول تتبع صفات القوي واتباعه، لاكتساب شيء من القوة بارتداء صفات القوي، فكيف إذا عرف العبد أن أبرز صفات ربه العظيم هما: (الرحمن الرحيم)؟!

٤- إن من يتخذ (بسم الله الرحمن الرحيم) منطلقاً لتصرفه، ولا يكتفي بمجرد معرفته بأن الله منطلقه، وإنما يقول بلسانه أنه لإيقاظ الخاطرة في ضميره؛ إنما يفعل ذلك عن إيمان بأن الله هو دليله، الذي لا انحراف عنه في أية خطوة أو كلمة. وإذا كان الله الدليل الموجه، هو: (الرحمان الرحيم)، فمن الطبيعي أن يجعل نازعة الرحمة أساس كل خطوة وكلمة.

وهذه الآية: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أصبحت شعاراً يرفعه المسلمون مع أنفسهم ومع غيرهم، مع كل كلام ومع كل تحرك، مع الاستسلام للنوم واليقظة منه، وفي المخاطر والعظائم، وفي العبادة وفي الجنس، وعلى الولائد وعلى الأموات وعلى الذبائح، وفي جميع الحالات، وعلى كل شيء... هذه الآية، أول شعار وأقوى شعار، لـ:

١- اشتمالها على اثنين من كليات العقيدة الإسلامية: فـ (بسم الله) ينطوي على (التوحيد)، مع تعيين الإله الواحد، وهو (الله)، والتوحيد هو الكلية الأولى في العقيدة الإسلامية. ومجمل (الرحمن الرحيم)، باستيعابه معاني الرحمة، يقرر مبدأ علاقة الله بالعباد، وهي الكلية الثانية في العقيدة الإسلامية.

٢- الإيحاء بأن الله ليس فقط هو الإله الذي ترفع إليه الحوائج، وإنما هو المنطلق- الهدف- لكل تصرف، بما يعني ذلك من اتباع تعاليمه.

٣- الإيحاء بأن نازعة الرحمة، هي أساس كل تصرف في اتجاه الآخرين.

وهاتان الصفتان: (الرحمن الرحيم)، مشتقتان من مادة الرحمة، التي هي صفة انفعالية عاطفية، تلم بالقلب لدى الاطلاع على مؤشرات معينة، هي- في الغالب- حالات ألم أو فقدان أو حاجة، فيندفع الشخص المنفعل للملافاة والاستدراك، ويعطي عطاء سخياً، لا يجود به في غير حالة الانفعال، فصح استخدامها لله، لمجرد الدلالة على أقصى العطاء، وإلا فليس بين الكلمات ما يتطابق مع الله تعالى.

هــذه الآيــة، اختــارت لقبين من ألقاب الله، يوحيــان بصفة الرحمة، رغم أنها آية تتكرر مع كل ســورة. والدقة في التعبير، تقضي باختلاف محتوى اللقبين.

والســبب: أن القــرآن - ككتــاب دين - يحــاول تقريب الإنســان إلى الله، فما أجدره أن يوحــي، وأن يركز على أن الله قريــب مــن الإنســان، وأنه يرحمه، ويســعه برحمته؛ بكل ما أمكــن من التأكيد وأفضلــه: التأكيد بـ «الرحمن الرحيم».

الحمدلة

﴿الحمــد﴾: أفخــم الثنــاء الإيماني، الذي يعبر عن الشــعور العبودي، الذي يفيض به القلــب المؤمن تجاه الله الخالق والموجه والموفق... وهذا الشعور الأفخم، لا يستجيشه إلا ذكر الله، ولا يعبر عنه سوى الحمد، ولا يصح إلا لله. فالحمد - كله - مختص بالله، كما أن لفظة (الله) مختصة به. ويدل على هذا الاختصاص، لام الجنس أو الاستغراق، الذي يحلي (حمده). فلا يوجد مصدر فيض، تتوالى آلاؤه، وتتواكب نعمه، حتى تغمر خلائقه؛ سواه، ليشاطره الحمد.

واختصاص الحمد بالله، من قواعد التصور الإسلامي، التي ركزها القرآن بقوله:

﴿.. له الحمد في الأولى والآخرة...﴾(٧٦)، ﴿... له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير﴾(٧٧).. وإذا كانت كلمات مشــتقة من الحمد، مثل: محمد، وأحمد، ومحمود... فهي ليســت إشــاعة للحمد، فقد اشتقت كلمة علي من العلي، ولا يعني صحة استعمال العلي لغير الله.

وإذا حمــد غــير الله، فإنه لا يحمد إلا تكريماً لعمل حســن صدر منه. وبمــا أن الله هو العلة لوجوده، والعلة لوجود الوســائل الــتي اســتخدمها في عمله، والموجه لــه إلى هذا العمل، والموفق له؛ فإن الحمد ينتقــل عبره إلى الله. لأن المعلول المختــار، وإن كان يحتفــظ بــدوره الذي يقدر له في حســن تصرفــه، إلا أن العلة المختارة، إذا كانــت علة بجميع معنى الكلمة، أي: موجدة، وموجهة، وموفقة...؛ يكون دورها أقوى، فتستأثر بأكبر قسط من التكريم، الذي يستقطبه ذلك العمل.

وإذا كان (الحمد) هو التعبير الصحيح عن الشعور العبودي تجاه الله، فكل ثناء عليه حمد، تسبيحاً أو شكراً:

﴿... والملائكة يســبحون بحمد ربهم...﴾(٧٨)، ﴿ويســبح الرعد بحمده﴾(٧٩)، ﴿... وإن من شــيء إلا

يسبح بحمده. . . ﴾(٨٠).

وفي بعض الدعاء: «الحمد لله شـكراً»(٨١). . . ويحتمل أن يكون المراد، اعتبار الحمد تسـبيحاً أو شـكراً، لأنه أكمل مصاديقهما.

والحمد يرادف بالمدح والشـكر،غير أن الحمد مختص بالله. والمدح ـ ويقابله الذم ـ وهو حسـن الثناء، ويكون على الجميـل، اختياريـاً كان أم غير اختياري، ويوصف به الله وغيره، فيصح أن يقـال: (مدحت الله لجلاله، ومدحت أيوب لصبره، ومدحت الربيع لروعته. . .)، وإن كان المدح يستخدم ـ عادة ـ للجمال البشري، ولم يرد في القرآن. وأما الشكر ـ ويقابلـه الكفـر ـ وهو بالجهر بالنعمة، والكفر كتمانها أو إنكارها، ويقال: (شـكر الرجل وللرجل): أثنى عليه لما أولاه من المعروف، ويقال: (شكر الله سعيك) أي: أثابك عليه، و(شكرت لفلان نعمته) و(شكرت الله ولله وبالله ونعمة الله وبنعمة الله). ويستعمل لازماً، مثل:

﴿ . . . لئن شكرتم لأزيدنكم. . . ﴾(٨٢) ويستخدم لله ولغيره، ففي الحديث: «من لم يشكر الناس، لم يشكر الله»(٨٣).

فاتحة الكتاب

عرض سريع

افتتحت هذه السـورة، وكل سـورة، بل افتتح القرآن ـ من خلال هذه السـورة ـ باسـم الله: ﴿بسـم الله﴾، لا بالله مباشرة:

١ـ لأن حصة الإنسان، بل حصة الكون من الله، هو: اسم الله، لا الله. فالله ـ تعالى ـ مطلق، مجرد من المادة والمعنى والاعتبـار. وكل المـادة والمعنى والاعتبار، تكون بأسماء الله، لا بذات الله. فلا مناسـبة بين ذات الله وبين الكون، بل بينهما التباين المطلق، وإنما انبثق الكون من بعض أسماء الله تعالى.

٢ـ لأن الله فوق مسـتوى الأذهان والعقول، فالأذهان والعقول ماديات لا يمكن أن ترقى إلى الله، وكل ما تسـتطيع الأذهان والعقول اسـتيعابه هو اسـم الله، بل بعض أسماء الله. ويبقى بعض أسماء الله، فوق الأذهان والعقول، حتى ولو كانت أذهان وعقول الملائكة. فبعض أسماء الله، لا يخرج من الله إلا إليه.

٣ـ لتعليم العباد، افتتاح أعمالهم باسم الله تعالى.

وكان الاختيار على اسم: «الله» بين بقية الأسماء، لأنه أفخم الأسماء المعلن عنها للبشرية. ألا ترى كيف فخمت فيه اللام؟! وهي اللام الوحيدة - في اللغة العربية - التي نالت هذا التفخيم.

وانتخبت صفتان من صفات الله في هذه الآية: ﴿الرحمن الرحيم﴾ لتحبيب الله إلى الناس. وتحبيب الله إلى الناس، مـن العوامـل الإيمانيـة، ذلك: أن الإيمان لا يتكون بمجرد الفكر والقناعة العقليـة، لأن الإيمان ليس هو فقط اطمئنان العقل إلى الله، وإنما الإيمان هو امتلاء النفس بالتوجه إلى الله أو بنور الله. وهذا الامتلاء لا يكون إلا بثلاثة عوامل:

١- قناعة العقل، وهذه.. نتيجة للتفكير الصادق المستقيم - وهو فعل العقل - .

٢- قناعة القلب، وهذه.. نتيجة للتحبب الصارخ العميق.

- وهو فعل القلب..

٣- قناعة الجسد، وهذه نتيجة للتعويد العملي المتكرر - وهو فعل الجسد -.

ولذلك، ورد: «الإيمان هو: القول باللسـان، والتصديق بالجنان، والعمل بالأركان». والقول باللسـان، هو انعكاس لقناعة العقل.

فتحبيـب الله إلى العبـاد - بذكر صفاتـه المحببة - لتحريك القلب في اتجاه الله؛ يشـبه توجيه العباد إلى الله، بذكر الأدلة القاطعة على وجوده وألوهيته، لتحريك العقل في اتجاه الله.

ثـم بدأت السـورة بـ: ﴿الحمد لله﴾(٨٤). فتوجيه القلب يكـون بالإيحاء إكثر مما يكون بالدليل، وبهذا الحصر المطلـق: «الحمـد» كل الحمد «لله»، فهو مصدر كل ما يؤهل للحمد، وإن كانـت هنالك مصادر ثانوية قريبة يظنها الناس أنها مصادر مستقلة تستحق الحمد، إلا أنها - في الحقيقة - ليست أكثر من أدوات ووسائط. فالله - وحده - المؤهل للحمد، لأنه المصدر الأول لكل شـيء. وإذا وجه بعض الحمد إلى غيره لخطأ في الحسـاب، فإن الحمد سـيؤول إلى الله بنفس ذلك الوسيط، لأنه - بدوره - يوجه حمده وحمد سواه إلى الله. فالحمد كله لله، وإن وجه إلى غيره. لأن الله ﴿رب العالمين﴾(٨٥)، فإلى أين ما وجه الحمد، فالله ربه، فكل شيء يشير إلى الله، وإن أشار بعض الأشياء إلى بعضها، فإن الإشارات تتجه - بالتالي - إلى الله. لأنه - هو مصدرها الأول - فهو - إذن - مرجعها الأخير.

والإنسان يحتاج إلى التأكيد والتكرار، لتقوية الإيحاء: ﴿... الرحمن الرحيم﴾(٨٦). فالله هو الرحمن الرحيم، وهو الرحمن الرحيم.

وإن كان من فاصل؛ فهو الدليل المآلي على ذلك: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾(٨٧).

والإنسان - بتركيبته الخاصة - لا يكفيه التحبب الاستعطافي، فهو يحب مصدر القوة كما يحب مصدر النعمة، وربما يتجه بدافع الخوف أكثر مما يتجه بدافع الحب، فلا بد من تطويقه بمصدر الحب والخوف، ليخلص اتجاهه، ويتركز في وجهة واحدة. فالله ليس هو الرحمن الرحيم فقط، وإنما هو - إلى ذلك - ﴿مالك يوم الدين﴾(٨٨). فهو المصير كما هو المصدر، والعقاب بيده كما الثواب بيده. فلا استغناء من رحمته ولا استعلاء على سلطته: فهو كان المصدر قبل أن يكون الإنسان، فأوجد الإنسان برحمانيته. وهو المهيمن في الطريق، فالإنسان يعيش تحت رحمته: (الرحيم). وهو المصير، فهو سيد مصب الانسان: (يوم الدين).

وحينما يحس الإنسان بأنه مطوق بالله من مبدئه إلى منتهاه، مطوق بمصدر الرحمة والنقمة، ومنبثق - في ذاته - منه؛ يتفجر - بعفويته - ﴿إياك نعبد﴾(٨٩)، فلا اتجاه إلا إليك، ولا استسلام إلا لك. ﴿و﴾(٩٠) طالما أنت .. أنت .. كل شيء، وطالما اتجهنا إليك، فأعنا، فإننا نشكو الكثير من نقاط الضعف: ﴿إياك نستعين﴾(٩١).

وليست استعانتنا بك على ضعفنا المادي الدنيوي فقط، وإنما على ضعفنا الروحي الديني أيضاً. فبصائرنا غاشية عشواء، لا تدلنا على الطريق السليم، وإنما نحن نتوجس كل الاحتمالات، مهما تأكدنا وتيقنا، لأنا لسنا واثقين من رؤيتنا ثقتنا بك، فأنت المصدر والمصب، وأنت المطلق المحيط، وأنت الرحمن الرحيم، فـ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾(٩٢)، حتى لا نتيه ولا نزل.

وهذا الطريق الذي نطلب منك هدايتنا إليه. هو الطريق الذي ينتهي إلى نعمتك، ذلك الطريق المجرب، الذي سار عليه من قبلنا، فانتهوا به إلى نعمتك، لا الطريق الذي سار عليه قوم، فانزلقوا فيه إلى ويلات غضبك، ولا الطريق الذي سار عليه قوم آخرون، فظلوا سادرين في الظلام: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾(٩٣). ﴿غير المغضوب عليهم، ولا الضالين﴾(٩٤).

الجنة والنار والصراط

(اهدنا الصراط المستقيم)

(سورة فاتحة الكتاب: ٦)

أين هي الجنة؟

وأين هي النار؟

وما هو الصراط؟

قد يستطيع غير المعصوم أن يحكم بتفاصيل الماورائيات، ولكن السؤال: كيف نستطيع أن نتصور ما يفهم من مجموع ما وصلنا من أحاديث؟: ـ

١ـ الجنة، خارج هذه المجموعة الكونية، التي نحن في جانب محدود منها . وأعني بـ(هذه المجموعة الكونية): الفضاء وما فيه، وما حوله من سماوات ولعلها مجموعة كونية أخرى موجودة إلى جانب هذه المجموعة الكونية، غير أنها أوسع وأجمل وأفضل . . . ولكنها ـ على العموم ـ مؤلفة من فضاء، يتموج بألوف المليارات من الكواكب الحية، المشدودة بنسبية عامة متناسبة معها . وحول ذلك الفضاء، سلاسل من الأجرام المحيطة به من جميع الجوانب، هي سماواته . وتلك السماوات، تشكل الدرجات العلى(٩٥)، وتختلف ـ نوعية ـ عن الكواكب . وكل هذه المجموعات، من الأجرام الفضائية والسماوية تكون مترابطة بشبكة مواصلات قوية وسريعة، تجعل إمكانية التنقل بينها بعدد الثواني، أو بوسائل تخترق جدار الزمان .

والجنة، تجمع إيجابيات الأكوان كلها: أجراماً، ومياهاً، ونباتاً، وبشراً . . .

وفي عمق سحيق جداً، مجموعة كرات نارية متقاربة، مشدودة ببعضها وفق نسبية عامة خاصة بها . وهذه الكرات النارية تجمع سلبيات الأكوان: أجراماً، ومياهاً، ونباتاً، وبشراً . . . وهي: جهنم .

أما كيفية انتقال البشر إلى النار، فتتم بواسطة مجموعة من الملائكة، ينقلون المجرمين من هذه المجموعة الكونية إلى سلسلة كرات النار . ولأن جهنم سلسلة كرات نارية، تكون لها جاذبية قوية، تتحكم في الفضاء الخارجي إلى مسافات فلكية . ولذلك: تكتفي خزنة جهنم، بإخراج المجرمين من فضاء الأرض وإيصالهم إلى مشارف مدى جاذبية جهنم، حيث يسقطون فيها بقوة هائلة . ولعل هذه السقطة، أعنف عذاب يتعرضون له . ويشير إلى ذلك، ما ورد من سماع النبي ـ ليلة المعراج ـ طامة، قال جبرئيل بأنها صخرة سقطت في تاريخ . . . وبلغت الآن جهنم(٩٦)، مما يشير إلى أن الصخرة الخارجة من جاذبية، وقعت في مدى جاذبية جهنم، وهي تندفع نحوها سنوات عديدة .

ويتم انتقال المؤمنين من هذه المجموعة الكونية إلى مجموعة الجنة، بواسطة خط جوي ومراكب فضائية .

ولعل هذا الخط الجوي هو (الصراط)، بدليل مواصفات الصراط: «أدق من الشعر، وأحد من السيف، وأظلم من الليل»(٩٧) .

فالخط الجوي، يمكن اعتباره أدق من الشعر وصالحاً للاستعمال. أما لو كان شارعاً أدق من الشعر، فلا يصلح للاستعمال، بمقاييسنا الأرضية المعاصرة.

وأحـد من السـيف، لأن الخط الجوي حـديّ، يؤدي أدنى انحراف عنه إلى ابتعاد كلي عـن الهدف، خاصة: وإن هذا الخط يمرّ ـ في مسافة منه ـ بمشارف جاذبية جهنم، حيث يكون أدنى ضعف في القيادة مساوياً للسقوط في جهنم.

وأظلـم مـن الليل، لأن الجـوّ مظلم، والخطوط الجوية في الأجـواء الخارجية مظلمة، حيث تمر فيها الأشـعة ولكنها لا تجد ما تعكس عليه. والخط الجوي الذي يقطع مسـافة سـنين ضوئية، بين مجموعة كونية دنيا ومجموعة كونية أخرى، ويبتعد عن مدارات الجاذبيات، حتماً سيكون مظلماً شديد الظلمة، لأنه يسير أبعد ما يمكن من الأجرام.

نعم الله

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾.

(سورة فاتحة الكتاب: ٧)

الـ «الصراط»: هو الخط الذي يقوم به الإنسان مسيرته، سواء أكان الشارع الذي يربط بيته بمكتبه، أو المسلكية التي يوظب بها حركته الفكرية.

﴿ الذين أنعمت عليهم ﴾: النعمة، مطلق ما ينعم به الإنسان.

فكل ما يحتاج إليه الإنسـان، ويتناسـب معه، فيصبح به ناعماً في جسـمه أو في روحه؛ فهو نعمة: ابتداءً من الأجهزة الصغار، التي تتحرك في الجسـم، لتأمين سـلامته واستمراره. ومروراً بالنباتات والحيوانات، التي يتغذى بها الإنسان، أو يتقلب فيها. وانتهاءً بالعناصر والأجرام الكونية، التي تؤمن حياته. وكل ما لا يحتاج إليه الانسان، ويفرض عليه، أو لا يتناسب معه، فيصبح به قاسياً في جسمه أو في روحه؛ فهو نقمة: ابتداءً بالانحرافات البسيطة، التي قد تطرأ على خلايا الجسم. ومروراً بشظف العيش، وانتهاءً بتقلبات العناصر والأجرام الكونية، التي تهدد حياته.

وإذا حاولنا تصنيف النعم إلى صنفين: صغار وكبار؛ فالنعم الصغار، ليسـت تلك الصغار بالحجم، كخلية (أميبا)، والنعم الكبار، ليست تلك الكبار بالحجم، كالأرض والشمس. وإنما النعم الصغار، هي التي تؤمن الجانب الصغير في الانسان، وهو جانبه الأرضي، والنعم الكبار، هي التي تؤمن الجانب الكبير في الإنسان، وهو جانبه السماوي، أو يؤمن كلا جانبيه معاً.

وبهذا المقياس، نجد أن كبرى نعم الله على الإنسان، ليست: الأشعة الكونية التي تتوافد من النجوم إلى الأرض، ولا الأمطار التي تلقح الأرض بالخضرة الغناء، ولا المعادن التي تكشف الوجه الحضاري للحياة. . . وإنما هي الرسالة التي هبطت من السماء، لتأمين الجانب الروحي للإنسان أولاً، وتقنين جانبه المادي وتفاعلاته مع الحياة والأحياء ثانياً.

ـ فالذي تتوفر عليه هذه النعمة، في جانبيه الروحي والمادي، فقد اكتملت عليه نعمة الله، لأنه ينطلق من منطلقاته الروحية والمادية، ويستفيد من كل ما حوله من روحيات وماديات، دون أن يصطدم بشيء منها.

ـ والذي لم تتوفر عليه هذه النعمة، لا في جانبه الروحي ولا في جانبه المادي، فتمسك بالمادة ـ بجشع كيفي ـ على حساب الروح، فأثار الفوضى في الماديات، وناقض الروحيات؛ فهو عنصر مدمر، يفجر ما حوله، ويتدمر به.

ـ والذي توفرت عليه هذه النعمة في جانبه الروحي، فتمسك به على حساب جانبه المادي؛ فليس عنصراً هداماً يعاكس مسيرة الكون من حوله، ولكنه تائه، يعطل قسماً من طاقاته التي اؤتمن عليها، لاستثمارها في مصلحته ومصلحة الحياة والأحياء.

ويدخل في نطاق القسم الأول، كل من استوعب رسالة السماء، والتزم بمضمونها.

ويدخل في نطاق القسم الثاني، الماديين، الذي انكبوا على الأرض، وأزهقوا ـ في داخلهم ـ السماء.

ويدخل في نطاق القسم الثالث، كل الروحيين، الذين سحقوا ـ في داخلهم ـ الأرض، متجهين إلى السماء.

وإذا كان في بعض الحديث، أن المقصود من القسم الأول هم المسلمون، وأن المقصود من القسم الثاني هم اليهود، وأن المقصود من القسم الثالث هم النصارى؛ فلا يعني انحصار الأقسام الثلاثة في الأمم الثلاث، وإنما يعني أن هذه الأمم الثلاث أمثلة بارزة لهذه الأقسام الثلاثة:

فالقسم الأول، يشمل كل من التزموا برسالة السماء، وساروا على خطوات الأنبياء ـ قبل نسخ شرائعهم ـ، ومنهم الصادقون.

والقسم الثاني، يشمل كل الماديين ـ الملحدين منه والمؤمنين ـ، ومنهم اليهود بعد ظهور المسيح (ع).

والقسم الثالث، يشمل كل الروحيين من المرتاضين والمتصوفين ـ الملحدين منهم والمؤمنين ـ، ومنهم النصارى بعد ظهور النبي الأكرم (ص).

(٢)

سورة البقرة

مدنية

وهي مئتان وست وثمانون آية

من مغزى الحروف المقطعة

﴿الم﴾

(سورة البقرة: آية ١)

أســاس (علـم الالكترون) مبني على النقطة والمـدة (. -)، أي: النقطة والحرف. وتركيباتهمـا المختلفة، تؤدي إلى تفاعلات كثيرة.

ولعل القرآن بدأ بثلاثة أحرف مهملة مختلفة، مشيراً إلى أسس الطاقات الفاعلة في الوجود.

ولعل بعض الحديث يعبر عن ذلك حين يقول: «ألف: اللّه، لام: جبرئيل، ميم: محمد»(٩٨).

الضمير الأول

﴿ذلك الكتاب: لا ريب فيه، هدى للمتقين﴾.

(سورة البقرة: آية ٢)

الضمير، إذا جاء في غير أول الكلام، كان تكراراً مختصراً لكلمة سبقت. وإذا جاء الضمير في أول الكلام، كان إشارة إلى شيءٍ تكاثف حوله الضباب، حتى حجب عنه الرؤية الواضحة. ففي أول محاولة لتعويمه، وإزالة الضباب من حوله، لا يصح التعبير عنه بالاسم الصريح، لأنه لا يزال ضميراً، فلا بد من الإشارة إليه بضمير، ليقول: (إن هذا الشيء الغائم، الذي تكتنفه الشكوك كتاب لا شك فيه).

وهذا النوع من التصوير الفني الدقيق، ورد في العديد من الآيات، والنصوص الرفيعة:-

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتُرُونَ ﴾(٩٩).

﴿ قل: هو الله أحد ﴾(١٠٠).

هذا .. ابن خير عباد الله كلهم هذا .. التقي، النقي، الطاهر العلم»

«هذا .. علي، رسول الله والده بجده، أنبياء الله قد ختموا»(١٠١)

أسلوب القرآن في عرض الواقع الكبير

﴿ ذلك الكتاب: لا ريب فيه، هدى للمتقين ﴾.

(سورة البقرة: آية ٢)

﴿ ذلك الكتاب ﴾(١٠٢)، وليس هذا الكتاب. فذلك الكتاب الذي يتناقض الناس حوله: فيقول بعض: (إنه شعر)، ويقول بعض: (إنه سحر)، ويقولون .. ويقولون ... فيه وعنه، كل ما يمكن أن يفسر مفعوله العميق، بتفسير مرفوض لدى الرأي العام، ليحذره الناس، فلا يتعرضوا لتياره الأخاذ. ذلك الكتاب، واضح مكشوف، ﴿ لا ريب فيه ﴾(١٠٣). فلا هو سحر، ولا هو شعر، وإنما ﴿ هدى للمتقين ﴾(١٠٤).

وللقرآن سبق ذكي في تحديد مواقف الناس، بنقلهم من مواقعهم - كلما وجدها غير مناسبة - إلى مواقع مناسبة.

فالبصيرة - كالبصر - إذا اقتربت من واقع كبير، تعجز عن استيعابه. وبما أن العقل البشري لا يخضع للمألوف - مهما كان عظيماً ورفيعاً - فالسماء، والأرض، والشمس، والقمر، وحتى ورقة الشجر، وخلية الـ (أميبا)، وكل شيء في الكون؛ معجز، يوجه الناس إلى الله، ولكنهم لا يتوجهون به، لأنه مألوف؛ فلا بد من مفاجأتهم بمعجزات جديدة،

حتى يتخلوا عن كبريائهم، فيخشعوا، ويسلموا تسليما . ولكن ليس كل الناس قادرين على استيعاب المعجزات من وجهتها الصحيحة، لأنهم لم يتمرنوا على هضم ما في حجمها . فتربكهم، فيتناقضون، ويتحطمون . وهنا . . ينجدهم القرآن، فيبعد المعجزات عنهم حتى لا تبهرهم، ويتاح لهم النظر إليها من بعيد، ويتخذوا منها المواقف الصحيحة .

فمن بعيد، يعرض الأفق كله، وتبدو الأشياء الكبيرة واضحة . ومع الهدوء، الذي يمنحه النظر من بعيد، تسنح فرصة تترسب فيها الأفكار، ويصبح ذلك العالم المجهول في أعماقنا، صافياً، شفافاً، ينفذ النور إليه، وتسهل الرؤية من خلاله .

فكلما يجد القرآن الناس يتساقطون في درب عظيمة، أبعدها عنهم .

فبادروا إلى تصوير ذاته، بعيداً عن الناس ـ بعداً مكانياً ـ ولما يزل في مستقبل الطريق، في ثاني آية من سورة:

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ كما نقل عيسى بن مريم، بعيداً عنهم، عندما رآهم يمترون فيه:

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾(١٠٥) .

وكما نقل الإله، بعيداً عنهم، حينما انهاروا دون معرفته: ﴿ قل: هو الله أحد ﴾(١٠٦) .

وكما نقل النبي محمداً، بعيداً عنهم ـ بعداً زمانياً يصوره حرف: كان ـ، فور ما وجدهم اقتربوا منه أكثر مما ينبغي:

﴿ مّا كَانَ عَلَى النّبِيّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنّةَ اللّهِ فِي الّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مّقْدُوراً(٣٨) الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالاَتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاّ اللّهَ وَكَفَىَ بِاللّهِ حَسِيباً(٣٩) مّا كَانَ مُحَمّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مّن رّجَالِكُمْ وَلَـَكِن رّسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النّبِيّينَ ﴾(١٠٧) .

وهذا الكتاب: ﴿ هدى ﴾ ، وتوجيه رائد، ولكن ﴿ للمتقين ﴾ الذين تسبقهم عقولهم إلى كل موضع قدم، واهتزازات كل كلمة؛ فلا يتخذون أي قرار لم تسبقه دراسة . فهؤلاء . . هم الذين يجعلون القرآن أمامهم، ولا يتجاوزون هديه . وأما اللامبالون، الذين لا يفكرون ولا يأبهون؛ فهم لا يستهدون بالقرآن، لأنهم لا يتحاشون من شيء حتى يتحروا السداد .

مواصفات المتقين

﴿الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣) والّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

(سورة البقرة: ٣. ٤)

ذلك الكتاب: هدى للمتقين. والمتقون، لهم مواصفات خمس:

١ـ الإيمان بالغيب، الذي لا يحسونه. يؤمنون به، لأن العقل أرشدهم إليه، لا لأن الحس دل عليه.

٢ـ إقامة الصلاة، والتكريس لذلك الغيب الذي آمنوا به.

٣ـ الإنفاق لبعض ما رزقهم الله، بلا بدل، تطبيقاً لذلك الإيمان بالغيب.

٤ـ الإيمان بالأنبياء الذين: يبشرون بذلك الغيب، ويوجهون تكريس الإنسان لذلك الغيب، ويقدرون الانفاق.

٥ـ اليقين بالآخرة، التي تجمع آثار عمل الإنسان، في صيغة حياتية مثلى.

١ـ أما بالنسبة إلى النقطة الأولى:

الإيمان بالغيب ضروري للإنسان، لأن كل عمل حياتي في تطور ـ نتيجة لسيرها الدائب نحو الكمال ـ. وكل شيء متطور، متغير وغير ثابت. والإنسان ـ في حياته ـ يحتاج إلى الاعتماد على أرضية صلبة، يعتمد عليها للانطلاق منها في دفع الحياة إلى الأمام.

فالفلسفة، والعلم، والتكنولوجيا، وكل شيء فكري أو مادي. . . يتغير: فالعلم يثبت اليوم ما نفاه بالأمس، وينفي اليوم ما أثبته بالأمس. وما هو صحيح اليوم يصبح خطأ غداً، وما خطأ اليوم يصبح صحيحاً غداً.

وكما هو في العلم، كذلك: في الفلسفة، وفي التكنولوجيا. . . فلو اعتمد الإنسان على ما هو متغير وغير ثابت، يصبح الإنسان ـ مثله ـ متغيراً وغير ثابت، فيعيش قلقاً مضطرباً.

إن الأشـياء الفكرية تبدأ من الإنسـان، فلا يمكن للإنسـان أن يبدأ بها . وإن الأشـياء المادية مشـابهة للإنسان، ومتساوية له، في أنها ـ أيضاً ـ تحتاج إلى مبدأ ثابت، فلا يمكن للإنسان أن يبدأ بها .

وبقدر ما تزداد سرعة الحياة وتطورها، تزداد حاجة الإنسان إلى تلك الأرضية الصلبة الثابتة، التي ينطلق منها . وفي عصرنا الحاضر، حيث ازدادت سرعة الحياة، ازدادت حاجة الإنسان إلى الأرضية الثابتة، حتى يصبح ـ هو ـ ثابتاً، يستطيع أن يرى بوضوح، وأن يتحرك باستقامة، وأن يحرك بدقة .

وتلك الأرضية الثابتة، التي تصلح قاعدة للإنسـان، ومنطلقاً له، هو الإيمان بالغيب لأن الغيب = ما وراء الطبيعة، غير خاضع لنظام التطور لأنه كامل لا يحتاج إلى السير نحو الكمال.

ولو لم يبدأ الإنسان حياته من الإيمان بالغيب، يبدأ حياته من نفسه، فيعبد رغبته ـ إذ لا مطلق يدجن رغبته ـ، ويصبح عبد هواه:

﴿ أَفَرَأَيْـتَ مَـنِ اتَّخَـذَ إِلَهَهُ هَـوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَـمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَـاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾(١٠٨) . ورغبته تتجسـد في مصلحته، ومصلحته تعبير رغبته . والمصالح تتوافق وتتناقض، فيتآلف الناس ويتناقضون بتآلف وتناقض تلك المصالح . وتتوزع الحياة إلى شـركات متنافسـة، لا إلى وحدات متآلفة: كل فرد إله في نفسه، وتائه في حياته . صديق مصلحته، وعدو منافسه .

وكمـا لا بـد مـن الإيمان بالغيـب في تحديد المنطلق الرئيس للإنسـان، كذلك لا بد من الإيمـان بالغيب في تحديد المنطلقات الفرعية، وهي الأخلاق . فلو لم ترفد الأخلاق من الإيمان بالمطلق، فيتبنى الإنسان: الصدق، والوفاء، والإخلاص، والأمانـة، والحـق، والعـدل . . . لأن الله أمر بها؛ يضطر إلى أن يتبناها، لأن المصلحـة توحي بها . فلا يبقى صدق مطلق يمكـن الانطـلاق منه، وإنما يكون: صدق مصلحـي، وعدل مصلحي، وحق مصلحي . . . يتغـير ويتطور بتغير وتطور المصلحة . فلا تصلح منطلقات للإنسان .

إن القيـم والأخـلاق، لا تصـح منطلقـات للإنسـان، إلا إذا كانت مطلقـات، ولا تكون مطلقـات، إلا إذا أخذت من مصدر الغيب، وهو: المطلق . . المطلق . . . (الله)، الغائب عن كل الحواس والعقول، الذي يشير إليه كل محسوس وكل معقول .

إن المنطلق، لا بد أن يكون أسبق من الإنسان، وأثبت من الإنسان . . .

وإلا تصبح الحياة كما هي في القرن العشـرين، رغم جميع المكاسـب الطبيعية والنظرية، قلقة مضطربة، تظهر

تشـنجاتها في: الحروب، والثورات، والتناحرات السياسية، والتمردات الفردية والفكرية، والانتحار . . . وكل مظاهر الشذوذ التي أصبحت ضمير القرن العشرين، وطابع القرن العشرين.

وكمـا لا يغـني العلم عن الإيمان، كذلك: لا يغني الإيمان عن العلم. لأن الإنسـان يحتـاج إلى المنطلق الثابت، حتى لا يتشـنج، وهو: (الإيمان). ويحتاج إلى الحركة الواعية حتى لا يجهد، وهو: (العلم). فلكل من الإيمان والعلم، دوره. وكلاهما ضروريان.

٢ـ إقامة الصلاة: التي هي تكريس للإنسان ـ بروحه وجسده ـ أمام الله.

سؤال: هل الصّلاةتقام، تكريماً، وإشباعاً لرغبة الألوهية؟

كلا . . فالله أكبر من أن يكرم بشيء من أعمالنا، وأعلى من أن تكون له رغبة، أو أن تشبع رغبته بشيءٍ منا.

سؤال: هل الصّلاةتقام، رياضة لأجسامنا، وتقويماً لأخلاقنا؟

كلا . . فالصلاة أرفع من أن تقدر برياضة جسدية، أو ترقية خلقية.

إذن: فلماذا تقام الصلاة؟

تقام الصّلاةلـ:

١ـ لتأصيـل الإيمـان في النفـس. ذلك: أن الإنسـان، ليـس كيانين معزولين مسـتقلين: كيان روحـي، له أوضاعه ومسـتقلاته. وكيان جسـدي، له أوضاعه ومستقلاته. وإنما الروح والجسـد، كيانان متواحدان في الخلقة، وإن كانا مختلفين في المصدر. فما من شيء يترسب في الروح إلا وينعكس على الجسد، وما من شيء يمارس بالجسد إلا ويمتد عمقه إلى الروح ففي بعض الحديث: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ـ بالنسبة إلى من كان يصلي ويعبث بيده ـ»(١٠٩)، وفي الآية:

﴿ . . . إن الصلاة . . المنكر . . . ﴾(١١٠).

فـلا يمكـن أن يكون الفـرد مؤمناً بقلبه، ولا يعمل بجسـده عمل الإيمان. ولا يمكن أن يعمـل عمل الإيمان، ولا يتأثـر بـه روحه. وليس من الصحيح تصور من يزعم: أنه مؤمن بقلبه، والإيمان هو الهدف، إذن: فلا حاجة إلى عمله.

ولا ادعـاء مـن يدعي: أنه وصـل إلى الحق، فلا عليه لو ترك الفرائض. فالإيمان طاقـة ـ كأية طاقة ـ، إذا لم تمارس تتهافت وتنسـحب. وأين هو الإيمان الذي، لا يملك قوة الفرض ولا قوة الرفض بالنسـبة إلى جسـده؟! وكيف يمكن افتراض التناقض بين الروح والجسـد؛ والروح ضمير الجسـد، والجسـد قشـرة الروح، أو الوجه الظاهر للروح؟! إذن: لا تناقض بينهما. فمن آمن قلبه عمل جسده، ومن عمل جسده ـ قربة إلى الله ـ آمن قلبه. فالروح والجسد، عندما يصليان ينسجمان في الانقياد أمام الله، فيتمليان من الخضوع لله، ومن تعود الخضوع لله، لا يعصي الله في سره أو في علنه:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١١١).

٢ـ إذا صلينا (صلاة صوفية) بأرواحنا لله، فعودناها على الاتجاه إلى الله، ولم نعود عضلاتنا على الخشوع لله؛ نحاول فصـل الـروح عـن الجسـد ـ وإن كان من غير الممكن ـ، إلا أنه إذا لم نعود الجسـد على الاتجاه إلى الله، يبقى شـاغلاً للروح عن الله كلما اتجه الجسد إلى عمل، فلا يستطيع أن يتجه إلى الله وهو يمارس أي عمل آخر. بينما لو عودناهما الصـلاة، يسـتطيع الإنسـان ـ في أي عمـل ـ أن يبقى متجهاً إلى الله، حتى ولو كان في حقلـه، أو معمله، أو مكتبه، أو حانوته، أو في طريقه... ولعل ذلك هو المطلوب، وهو التعويد على البقاء متصلاً بالله، لقوله تعالى:

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة... ﴾ (١١٢).

فالاستعانة بالصبر ـ الذي يطلب في الأعمال المرهقة ـ قرنت بالاستعانة بالصلاة. إذن: لا بد أن يبقى الإنسان ـ في كل حياته، وخاصة: في اللحظات الحرجة ـ مصلياً، متجهاً إلى الله.

٣ـ الإنفاق مما رزقهم الله: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١١٣).

والإنفـاق، هـو: العطـاء. وما رزقهم الله: كل شـيء منفصل عن الإنسـان ذاتـاً، والمتعلق به عرضاً. فيشـمل: المال، والعلم، والفن، والخبرة، والجاه، والإيمان... وليس المطلوب من المؤمن، أن يتجرد من كل ما رزقه الله، حتى يدقع ـ هو ـ ويتسكع. وإنما المطلوب هو: إنفاق الفضل من رزقه، وبذل ما يمكنه الاستغناء عنه.

والعطاء لا يمكن، إلا بأحد شعورين:.

الأول: الشعور الإيماني، بأن ما يملكه الإنسان، أمانة أودعها الله عنده، لافتتانه وتجربته، كيف يتصرف بها؟

الثاني: الشـعور الإنسـاني، بأنه وسـائر الناس، رؤوس لجسم كبير هو الإنسـانية العامة. فهو لا يتميز عن غيره إلا بمقدار ممارسـته لهذا الشـعور، بواسـطة ما تمكن منه من ثروة وقدرة، فممتلكاته ليسـت إلا وسائل لتصعيد ذاته:

فالذي يبخل إنما يبخل على نفســه، لأنه يحصرها في حدود الـ (أنا)، ويدعها مشــدودة بجواذب الأرض، فيكون أشبه بمن لا يأكل ليوفر، فيضعف جسمه ويقلصه. ومن يعطي إنما يعطي لنفسه قبل أن يمتد عطاؤه إلى غيره، لأنه يطلق نفســه من حدود الـ (أنا)، أو يعبر عن ســعته وقدرته على الشــمول والاحتواء، حيث يضم إليه كل من يعطيه فيجعلهم أعضاء فيه، فيجعل لنفسه كوناً واسعاً، يستوعب العشرات، أو المئات والألوف وربما الملايين، بمقدار من يحولهم عطاؤه إلى أعضاء فيه.

وأما الذي لا ينفق مما رزقه الله، يتحمل عبء ما رزق دون أن يســتخدمه في تمديد ذاته، ويمثل دور الحارس أكثر ممــا يقــوم بدور المالك. لأنه لا يتصرف فيه، وإنما يخزنه، ويكون أشــبه بالأفعى الرابضة على الكنز، لا تحركه هي ولا تدع غيرها يحركه.

بالإضافة إلى: أنه يجمد الطاقات التي رزقها، ويميتها حتى لا تؤدي حركتها الطبيعية: كمن يملك الأرض فيدعها مرقصاً للزوابع، وكمن يملك الجبل فيتركه حقلاً لتجارب الشمس.

فيخون الأمانة التي أودعها الله عنده.

ويكفر بالإنسانية التي تعتبره عضواً في جسم، عليه أن يعمل لكل الجسم كما يعمل كل الجسم له.

٤. الإيمان بما أنزل على النبي محمد (ص)، وبما أنزل على سائر الأنبياء عليهم السلام:

﴿ والّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (١١٤).

فالإيمــان بــأي نــبي يلزمه الإيمــان بكل الأنبيــاء، لأن النبي يعني التعبير البشــري عن الله. والله ـ تعــالى ـ جعل له تعابير بشرية كثيرة، ومختلفة باختلاف مستويات البشر، تماماً كالمعلمين لصفوف الطلاب، ابتداء من الروضة وانتهاء بالجامعة. فالمعلمون كثيرون، ومختلفون باختلاف مستويات الطلاب، ولكنهم ـ جميعاً ـ يعبرون تعبيراً متفقاً عن المادة التي يلقنونها لطلابهم.

والأنبياء ـ جميعاً ـ كانوا متفقين في الخطوط العريضة للرسالة السماوية الواحدة، المعبرة عن حقائق الكون الثابتة، والموجهة إلى مصلحة الإنســان: الثابتة كمصلحة، والمتغيرة بوســائلها. وإذا كانت رســالات الأنبياء مختلفة فبمقدار ما تتجاوب مع الظروف والحاجات المتغيرة.

فالإيمان بأي نبي، يلزمه الإيمان بكل الأنبياء، والالتزام بأية رســالة، يلزمها الالتزام بكل الرســالات ـ في ما عدا

٥ـ اليقين بالآخرة: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾(١١٥).

والآخـرة أعـم من القيامة، فالقيامة هي افتتاح الآخرة. وأما الآخرة، فهي العالم الأوسـع من هذا العالم، بنسـبة هذا العالم إلى الموطن السابق للإنسان، وهو: «الرحم».

أولاً: والآخـرة واقـع كونـي، لا يمكـن أن لا تكـون إلا إذا لم يكن هذا الكـون. فهذا الكـون، «عالم الكون والفسـاد» ـ حسـب تعبير الفلاسفة ـ، أو هو مجموعة تفاعلات ذرية، تجري على سنة واحدة، هي سنة انبثاق النتيجة من مقدماتها.

فإذا التقت شـحنة موجبة بشـحنة سـالبة، يؤدي إلى الاحتراق. وإذا تأثر الماء بالطاقة، تجزأ وتصاعد. وإذا تلقحت بويضة الأنثى ببويضة الذكر، في المناخ المناسب، كان الإخصاب ... فكلما ترتبت المقدمات، كانت النتيجة. وحتمية النتيجة بعد ترتب المقدمات، ترفض الشك والحوار.

في مثـل هـذا الكون، نجد الملايين من المقدمات تترتب ـ وهي أعمالنـا المختلفة ـ، ولا تظهر نتائجها، فهل يمكن أن تكون عقيمة لا تنتج؟! إن أية ذرة ـ في الكون ـ لا تتحرك من موقعها شـعرة إلا بسـبب، ولا تتحرك دون أن تترك أثراً، فهل البشـر ـ والبشـر يتحرك كثيرا.. ويحرك كثيراً ..ـ لا يندفع عن سـبب، ولا يؤدي إلى أثر؟؟!! إن ذلك مستحيل، إلا إذا كان الكون ـ كله ـ غلطاً ومتناقضاً.

فكل حركة فكرية ـ أو عضلية ـ تولد أثراً، وإذا كنا لا نرى ـ في وضعنا المعاصر ـ أثرها، فأثرها واقع، نعجز اليوم عن رؤيته، وسنراه في يوم من الأيام، وهو يوم القيامة:

﴿يؤمئذٍ: ..يره﴾(١١٦).

ثانياً: والآخرة واقع فلسـفي، لا يمكن إنكاره إلا إذا أنكرنا فلسـفة الكون، لأن الكون منطلق من فلسـفة واعية ودقيقة، تظهر في كل مظاهر الكون، من الذرة إلى السديم. وهذه الفلسفة الواعية والدقيقة، تظهر ـ بجلاء ـ في كون الإنسان. فأين تظهر هذه الفلسفة، في الهدف من الإنسان؟

إن أصل وجود الإنسـان ـ بهذا الشـكل المتآكل ـ لا مبرر له على الإطلاق، إن كان لهذه الدنيا فقط. فوجوده ـ في هذه الدنيا ـ تجربة ألم مريرة، منذ سـقوطه على رأسـه ـ في القبر ـ مقهوراً بالموت. فلا بد أن يكون تمريره ـ في هذه

الدنيا، بهذا الشكل المأساوي ـ لهدف كبير، يبرر هذه التجربة المريرة. وهذا الهدف لا يتجسد في الدنيا، فلا بد أن يكون في الآخرة.

ثالثاً: وهذا التناقض الكبير بين اتجاه الكون المستقيم وبين اتجاه الإنسان المنحرف، وذلك الانضباط الدقيق في الموجات البشرية؛ لا بد أن يستمر كل حتى يبلغ مداه، فننتهي إلى مجابهة مدمرة، وينتهي الكون والإنسان بانفجار، وعندئذٍ: ينجو الهواء، والطاقة، والقيم، وكل فاعلات الكون... من اللوث بشيءٍ اسمه: (أنا).

إن انفلات (بروتون) موجب من مداره، يؤدي إلى حريق هائل، وانفلات أجيال من البشر لا يولد حرائق؟!

رابعاً: إن الآخرة خبر غيبي، اتفق المخبرون الغيبيون على نقله. وقد كانوا صادقين في كل إخباراتهم الغيبة، فلا بد أن يكونوا صادقين في هذا الخبر.

خامساً: إن الدليل على نفي الآخرة واحد، وهو: (الاستبعاد). والاستبعاد غير وارد في شأن الناس المزودين بالقوى السماوية، وحتى في شأن الناس العاديين المزودين بالقوى الأرضية ـ فهاهم يعملون كل ما يستبعده الإنسان، ولا يصدقه إلا إذا صدمته الرؤية، فتقاعس عن استبعاده ـ، فكيف يكون وارداً بالنسبة إلى العظيم القدير؟!

ولليقين بالآخرة أثر تربوي كبير، فعندما يتركز في وجدان الإنسان إشعار بالحساب ـ أي حساب ـ، يتحرك في الشعور بالمسؤولية، فلا يقدم على أي عمل إلا بعد دراسة، ولا يمارس أي عمل إلا بإتقان؛ فكيف إذا تردد ـ في يقينه ـ إيحاء مستمر بالمحاكمة والقرار؟!

وليست تلك المحاولات الكثيرة، التي تبذلها الأديان لتحرير الإنسان من قوقعة (أنا)، وتوسيع أفقه حتى يسع الأبوين، ثم الأخوة والأقرباء، ثم الجيران، ثم الأصدقاء، ثم أبناء وطنه، ثم المؤمنين جميعاً، ثم البشرية جمعاء؛ ليست تلك المحاولات، إلا مقدمات تمهيدية لتميد أفقه إلى الآخرة، حتى يتطابق مداه الفكري مع خطه الذي يتحرك فيه، ويصبح على مستوى الواقع.

الصلاة.. الصلاة..

﴿الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

(سورة البقرة: الآية ٣)

الصلاة التي نقيمها ـ نحن ـ، مجموعة حركات صوتية وعضوية، نؤديها ـ نحن ـ بأحد حافزين:

١ـ الخوف من العقاب، تماماً . . كالجندي الذي يخوض معركة قد لا يعرف عنها شيئاً، أو يعرفها ويكفر بأهدافها؛ ولكنه يخوضها باندفاع، لأن أمامه احتمالين: الموت والنصر، وأما وراءه: فليس سوى رصاص قائده يحصد المتمردين. وربما كالدابة، تسير بأثقالها حتى تنجو من بطش صاحبها . وفي أحسن الحالات، كالطفل الذي يتناول جرعة الدواء، حتى لا يتعرض لتعنيف أبيه .

٢ـ الطمع في الثواب، كالتاجر الذي يبكر إلى متجره، لتأمين حياته أو لتوفير أمواله . ونستطيع تنظير النوافل، بالساعات الإضافية، التي يجهد خلالها العامل لتحسين معيشته .

ولعلي أستأذن في القول: بأن أكثر المصلين ـ بل أكثر المتدينين ـ يتحركون بالحافز الأول. فلولا الخوف من العقاب، لهبطت نسبة المتدينين إلى دون العشرة بالمائة .

وكيفما كانت صلاتنا، فالذي لا شك فيه: أن الصّلاة في مشاعر أولياء اللّه لم تكن كالصلاة في مشاعرنا، لأنهم لم يكونوا يؤدونها رهبة من العقاب ولا رغبة في الثواب، وإنما كانوا يتذوقونها، ويرتاحون إليها . ألم يقل النبي (ص): «أحب من دنياكم ثلات. . . وقرة عيني الصلاة»(١١٧)؟! وكانت الهموم إذا تراكمت عليه، قال لبلال: «أرحنا يا بلال!»(١١٨)، أي: أذن، لنقيم الصّلاة فنرتاح. ووقف في الصّلاة حتى تورمت قدماه(١١٩). وكان أمير المؤمنين (ع) يصلي ألف ركعة في ليلة(١٢٠). وكان الأئمة الطاهرون (ع) إذا وقفوا للصلاة، لا يعرف متى ينتهون منها(١٢١).

فكيف كانوا يفهمون الصلاة، حتى كانوا يرغبون فيها، ويكثرون منها في جميع الحالات، دون أن يشعروا بالملل منها على أثر التكرار؟. إن نفسياتهم المتحفزة، كانت تدفعهم إلى الإعراض عما فيه أدنى تكلف، وإلى استثمار كل لحظة في انطلاقه حثيثة؛ فأي انطلاقة كانوا يجدونها في الصلاة؟

يمكن أن نطرح ـ هنا ـ موضوعين للنقاش:ـ

١ـ إن الإنسان يولد بكامل مشاعره، ولكنها خامات لم تتبلور . وتمر رحلة الانفتاح بأربع مراحل :ـ

المرحلة الأولى: مرحلة الطفولة. ويعرف فيها الضرورات: كالطعام، والشراب، والكساء. . ويتألم من الأوجاع، ويستأنس بمن يجدهم حوله من: أبويه، وإخوانه، وقرنائه. . .

المرحلة الثانية: مرحلة الفتوة. ويعرف فيها المطامع المادية: كالمال، والجنس، والشهرة، والمنصب. . .

المرحلة الثالثة: مرحلة الكهولة. ويعرف فيها الأهداف العليا: كالخلود من خلال البنين والخدمات، والتطلع إلى ما وراء الطبيعة والمثاليات، والتفكير في المصير بعد الموت...

ومن المستحيل على الطفل أن يستوعب ما يطمح إليه أبوه وهو في مرحلة الفتوة، كما يصعب على الفتى - في المرحلة الثانية - أن يعيش ما يهدف إليه أبوه في مرحلة الكهولة. وهنا.. ينتهي رشد الناس العاديين، فلا يتجاوزون المرحلة.

المرحلة الرابعة: مرحلة التعامل مع الماورائيات. وهذه المرحلة تحتاج إلى نوع آخر من المشاعر، تختلف كثيراً عن مشاعر الناس العاديين. فمثلاً: تحتاج إلى عين ترى الأرواح، والروحانيات، وما وراء الحواجز، والمسافات. وتحتاج إلى أذن تسمع مناجاة الروحانيات، ونجوى الصدور. وتحتاج إلى أحاسيس تدرك جميع التحركات البشرية والكونية، القريبة والبعيدة. وهذه المرحلة مختصة بمن اصطفاهم الله لها. وهؤلاء.. يعرفون ما لا يعرفه الناس العاديون، ولعل الفاصل بينهم وبين الناس العاديين أكثر من الفاصل بين الطفل الوليد وجده الكهل. فمن الطبيعي أن يفهموا الصلاة، وسائر العبادات، بشكل يختلف كلياً عن فهمنا لها.

٢- لعل أولياء الله المعصومين، كانوا يجدون في الصّلاة نوعاً من الارتقاء الفعلي، كما يظهر من قول النبي: «الصلاة معراج المؤمن»(١٢٢). فأصل التمثل بين يدي الله، يضفي على الإنسان قدرة جديدة.

فإذا كان التعرض لضوء الشمس، يمده بشحنة من الطاقة.

وإذا كان حضور المستخدم - يومياً - بين يدي سيده، والتزام الموظف بوظيفته، يؤهلانهما للترقية؛ فهل التمثل بين يدي الله يكون عبثاً؟!

هذا.. إذا كانت الصّلاة مجرد تمثل بين يدي الله، فكيف إذا كانت الصّلاةتمثلاً مشحوناً بمضامين متفاعلة من: تلاوة، وأدعية، وأذكار، وحركات؛ إن لم نفهم تفاعلاتها التفصيلية، فإننا نفهم أن مجمل الصّلاةنوع فريد من التمثل بين يدي الله، ولا بد أن تكون لها آثار جليلة.

ظواهر الشخصية المنافقة

﴿ومن الناس.. يعمهون﴾

(سورة البقرة: ٨ - ١٥)

بعد أن أوضحت الآيات السـابقة: دعائم الشـخصية المؤمنة، وملامح الشخصية الكافرة؛ تتصرف هذه الآيات إلى الكشف عن ظواهر الشخصية المنافقة.

والشخصية المنافقة، هي الشخصية المتفجرة التي فرع القرآن كثيراً من آياته للتحذير منها، وحملها مسؤولية تفجير أكثر التناقضات في مختلف تشكيلات المجتمع: ابتداءً من التشكيلة ـ العائلة، وانتهاءً بالتشكيلة ـ الدولة أو الأمة.

وإذا كانت عناصر الخير ـ جميعاً ـ تعمل لتلحيم الوحدات البشـرية، وتنفيس أزماتها وتوتراتها؛ فإن عنصر المنافق، هو العنصر الوحيد الذي يقاومها جميعاً، ويعمل لتفكيل الوحدات البشرية، وإشعال أزماتها وتوتراتها.

لذلك: سـلط القرآن على شـخصية المنافق أضواءه، من خلال هذه المجموعة من الآيات، في صدر أوسـع سورة وثاني سورة في التنظيم، فكشف عن ظواهر خمس:.

الأولى: ازدواجية الشـخصية. فللمنافق شـخصيتان: شـخصية إيجابية معلنة، وشـخصية سـلبية متسترة. ويحاول التعامل بشـخصيته المعلنة مع الإيجابيين، كما يحاول التعامل بشـخصيته المتسترة مع السلبيين، ويشكل الفريق الثالث بين الفريقين.

﴿و﴾ الفريق الثالث ﴿من الناس﴾، هو:

﴿مـن يقـول: آمنا بالله، وباليوم الآخر﴾. والإيمان بالله هو الأصل الأول في مثلث العقائد، والإيمان باليوم الآخر هو الأصـل الثالـث فيـه، فمن آمن بهما فقد آمن بالنبوة التي يبني عليها الإيمان بالآخـرة. ومعنى هذه المقولة، أنه مؤمن قد استوفى أصول الدين الثلاثة.

﴿و﴾ رغـم هـذه المقولـة الوافية، ﴿مـا هم بمؤمنين﴾ (١٢٣)، وإنمـا ينطوون على واقع كافر لا يؤمن بشـيء مما يقولون.

هذا الفريق الذي لا يتطابق لسانه وقلبه، يحاول التعامل ـ بلسانه ـ مع جبهة المؤمنين الذين تمحضوا للإيمان، وفي نفس الوقت يحاول التعامل ـ بقلبه ـ مع جبهة الكافرين الذين تجردوا للكفر.

الثانية: ـ سـلطوية الشـخصية. فالمنافق الذي يوجه لسـانه إلى اتجاه، ويوجه قلبه إلى اتجاه؛ لا يحاول تأمين نفسـه مـع الاتجـاه الذي سـينتصر في نهاية الجولة فحسـب، كالجاسـوس المزدوج الـذي يرقص على حبلـين ليعيش في ظل انتصـار كيفمـا انتهت المعركة؛ وإنما يحاول السـيطرة على الجانبـين معاً: ﴿ . . . يريـدون: أن يأمنوكم، ويؤمنوا

قومهم. . . ﴾(١٢٤). وهذه . . نقطة الخطأ والخطر:

نقطة الخطأ . لأن الذي يســود فئة من الناس، لا بد أن يكون أخلصهم وأقواهم، فكيف يمكن أن يســود فرد فئة من الناس، بمجرد لســانه، أو بمجرد قلبه؟! إنما يبقى بينهما أشــبه بطائر يجد ســربين من الطير، يطيران في اتجاهين معاكسين، فيحاول أن يطير مع هذا السرب بجناح ومع ذلك السرب بجناح.

ونقطة الخطر. لأنه يربك الجانبين بمشيته المتذبذبة، ويضيع نفسه واتجاهه بينهما، ما لم ينكشف. فإذا انكشف، فله السقوط المحتوم. فهو في خطر على الجانبين، ولكن خطره على نفسه أكبر، لأنه داخل في صراع خفي مع جانبين متناقضين، كل جانب يحاول امتصاصه وهو يحاول امتصاصهما:

﴿ يخادعــون: الله، والذيــن آمنوا ﴾ : جبهة المؤمنين تحاول خداع المنافقين عــن هدفهم، بصهرهم في الخط الإيماني. والمنافقون يحاولون خداع جبهة المؤمنين، باستغلالها في مآربهم الخاصة.

ولكــن المنافقــين هم الخاســرون في هذا الصراع: لأن المنافــق يعطي. . ويعطي. . حتى يثبت وجــوده. ثم يعطي. . ويعطي. . حتى يثبت تفوقه. ثم يعطي . . ويعطي. . حتى يغطي نفاقه. وفي كل هذه العطاءات، يخسر بأمل السيطرة في نهاية المطاف، وهو أمل موهوم، لأن فرداً ـ بمجرد لسانه، أو بمجرد قلبه ـ لا يسيطر على جبهة واعية مضحية:

﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ بأمل السيطرة الموهوم، ﴿ وما يشعرون ﴾(١٢٥) بأنهم يخسرون كل ما يعطون، لأنهم يخطؤون في تقييم أنفسهم. فالمنافق ـ عادة ـ يقيم نفسه بأكثر مما هو، فيراهن على ذكائه وبلادة الآخرين، ولا يتصور إمكانية أن يكون في الآخرين من هو أذكى منه.

فســلطوية الشــخصية المعتمدة على عقدة العظمة، نــوع من الانحراف الفكري، الذي يصاب بــه بعض الناس نتيجة لأسباب نفسية واجتماعية. وهذا الانحراف هو الذي يدفعهم إلى مغامرة النفاق:

﴿ في قلوبهــم مــرض ﴾ . فالانحراف مرض: فإذا كان في النفس كان مرضاً نفســياً، وإذا كان في الجســم كان مرضــاً جســمياً، والمنافق مريض نفســياً. ولو أن المنافقين تنبهوا إلى هذا المرض، وحاولــوا علاجه، لبرئوا منه، ولكنهم يبررونه، ويمارسونه. وممارسة أية طاقة في الإنسان، تؤصلها وتنميها:

﴿ فزادهــم الله مرضــاً ﴾ بمقضى الســنن التي أجرى عليها الكون والإنســان، ومن جملتهــا الحيوية التي جعلها في الإنسان لتنمية كل طاقة يمارسها.

ومهمــا حاول المنافق تبرير مرضه، فلن يســتطيع تبرير معاناته من المــرض، فكذبه في القول والعمل ينعكس في داخله تمزقاً شديداً، فلا يخلو بنفسه إلا وتحطم أعصابه صرخات الألم في أعماقه:

﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾(١٢٦).

الثالثــة: عقدة الإصلاح. فالشــخصية المنافقة تصــاب بعقدة الإصلاح، نتيجة لمحاولة اســتقطاب خطين متناقضين، وتصوره أنه الأقوى، فيعتقد أنه المصلح، ولا يشعر بأنه عنصر الفساد.

ذلك: أن الكون مبني على الاستقامة، وكل شيءٍ فيه سائر في خطه الواحد، نحو هدفه الواحد، فالفساد لا يحدث في الكون من قبل أي عنصر من عناصره، لأن الكون معصوم بكل جزئياته ومجموعاته:

﴿..فقال..طائعين﴾(١٢٧). وإنما يأتي الفســاد من قبل الإنســان، الذي قد يشــذ عن خطه المرســوم، فيصطدم بنفسه أو بغيره، ويعرقل جانباً من مسيرة الحياة.

وإذا حــدث ذلــك الصدام، فلا يســتطيع تطويقه وإزالة آثاره، إلا إنســان يكون ـ بنفســه ـ منســجماً مع الكون، وذا صلاحية للتغيير، حتى يقوم بدور الدركي، الذي يطلق السبيل للمستقيم ويضع حداً للمخالف.

وأما المخالف ذاته، فلا يستطيع تطويق أي صدام، لأنه ـ بنفسه ـ مخالف، ولأنه لا يملك الصلاحية التي تؤهله لذلك. فمهما حاول وأخلص، فلن يزيد الأمر إلا تعقيداً، لأن عليه ـ أولاً ـ أن يبتعد عن الطريق.

﴿وإذا قيل لهم﴾: أيها المنافقون! أنتم تعرقلون المسيرة، فابتعدوا عن الطريق، و﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ بسلوككم المتناقض، ﴿قالوا﴾: نحن ـ هنا ـ لتنظيم الآخرين، و﴿إنما نحن مصلحون﴾(١٢٨)، لو تخلينا عن دورنا لتناقض الناس، وحدث ما لا يمكن التكهن بنتائجه.

ويتدخل الحكم الأعلى ليعلن: أن المنافقين هم عنصر الفساد، ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ الوحيدون، الذين يسببون كل التناقضــات، ﴿ولكن لا يشــعرون﴾(١٢٩) بواقعهم. لأنهم فقدوا مقاييســهم، على أثر الممارســات الخاطئة التي درجوا عليها، حتى أصابتهم بالانهيار الفكري، فلا يملكون التفكير السليم.

الرابعــة: عقــدة العظمة. فالمنافق حيث يبني حياته على التمويــه والتدليس، ويغرر به بعض الناس في الجبهتين اللتين يصانعهما، أو لا يغررون به ولكن لا يجابهونه بواقعه؛ يظن أن الناس ـ جميعاً ـ سفهاء، وأنه الذكي المتألق الذي يطوق الآخريــن. فــإذا طرحت عليه الأعمال الإيجابية، رآها متواضعة، على النــاس أن يعتصروا فيها أعصابهم وأفكارهم،

وله أن يجمع فائض جهودهم. تماماً.. كاللص الذي يربأ عن استثمار جهده ووقته، وإنما يترك الآخرين يكدحون، ليخطف حصيلة سنوات بقفزة واحدة. وإذا كان من فارق بين اللص والمنافق، فهو: أن اللص يحصد ثمرات الجهد والعرق من شخص أو من أشخاص، والمنافق يحصد ثمرات المواقف والدماء من شعب أو من أمة.

﴿وإذا قيـل لهـم﴾ أيها المنافقون! ﴿آمنوا﴾ بالحقائق والقيم التي تتلخـص في الإيمان بالله، ﴿كما آمن الناس﴾ بها، واتخذوا معهم المواقف السـليمة، ولا تعيشـوا على الخداع والتضليل؛ ﴿قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟!﴾ الذين لا يحسـنون تصريف شـؤونهم؛ فيضحون بمباهج الحياة في سبيل المبادىء والقيم، ونحن الأذكياء الجديرون بالحياة، ننعم بخيراتها دون أن نضحي بشيء.

ومـرة أخـرى، يتدخل الحكـم الأعلى، ليعلن: أن المنافقين هم المتطفلون، الذين لا يحسـنون الوقـوف على أقدامهم، فيتسـكعون الحياة بدماء غيرهم، ﴿ألا إنهم هم السـفهاء﴾ الذين لا يتولون أمورهم، ولا بد أن يعيشـوا تحت وصاية القادرين على الحياة، ﴿ولكن﴾ المنافقين، لتمرسهم في النفاق، فقدوا قوة التمييز، فـ﴿لا يعلمون﴾(١٣٠)أن المستغلين الجشـعين هم السـفهاء، وأن الطامحين المضحين هم الأذكياء. فالحياة: تتمسـك بالضمر المتعبين من أبنائها، وتحتفظ بهم ـ حتى بعد موتهم ـ فكراً ينير العقول والقلوب. وتقذف المتخمين في مجاهل النسيان، كما تنفض الأمواج الأجسام المنتفخة على حساب البحر. ووهج المصير، لمن يستبق قدرات الحياة، وليس لمن يزيف وهج الحياة.

الخامسة:ـ تملقية الشخصية. فالمنافقون حيث يتصلون بالفريقين المتناقضين، ويحاولون الاتصال بكل فريق في غياب الفريـق الآخر؛ يشـكك فيهـم الفريقان معاً، فلا يعترف بهم هذا الفريق ولا ذاك. فيصابـون بأزمة ثقة حادة، ويبذلون قصـارى جهودهـم في التودد إلى هذا.. وذاك.. دون جدوى، ولا يتوغلون في التودد إلا ويتوغل الفريقان في الحذر. وقد يأخذ الفريقان منهم موقف المتربص، للتخلص منهم:

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُوَاْ آمَنَّا﴾، لأن المؤمنين يشكون في أصل إيمانهم.

﴿وَإِذَا خَلَـوْاْ إِلَـىَ شَـيَاطِينِهِمْ قَالُـوَاْ إِنَّا مَعَكْمْ﴾، لأن الكفار ـ أيضاً ـ يشـكون في أصل كفرهم نتيجة لاتصالهم بالمؤمنـين. ويأتـي دور التبريـر: ﴿إنما نحن﴾ في اتصالنا بالمؤمنين، ﴿مسـتهزئون﴾(١٣١) نحاول كشـفهم وتقصي أخبارهم.

وهـذا الاعتذار لا يرضي الكفار؛ لأنهم لم يوكلوهم بالتجسـس على المؤمنـين، ويغضب المؤمنين؛ لأنه يضعهم أمام جواسيس. فيأتي الرد غاضباً: ﴿الله﴾ ـ مباشرة ـ ﴿يستهزىء بهم﴾، فيكشفهم، ويقصي أخبارهم، ويكفي المؤمنين مؤونة القيام بهذا الدور، لخطورته وصعوبته.

وعندما يتولى الله الرد، لا يعاملهم بالمثل، فلا يكتفي بكشفهم وفضحهم، ليلاقوا عقابهم وينتهوا. وإنما يكشفهم لنبيه، ليأخذ حذره منهم، ويتركهم تحت المراقبة، يجهدون ويكدحون عشوائياً، دونما طائل: ﴿ويمدهم﴾ بعدم إعلان كشفهم، ﴿في طغيانهم﴾ وخروجهم على القيم الإنسانية، ﴿يعمهون﴾(١٣٢): يتخبطون.

و(العمه) هو الارتباك، الذي هو أسوأ من العمى، فالأعمى يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً، ويتوصل إلى بعض النتائج المرضية، وأما الأعمه فهو الذي فقد أعصابه، فلا يقدر على التفكير السليم.

١ـ ويلاحظ:ـ في هذه الآيات ـ وفي آيات أخر ـ أن الله يدخل نفسه في جبهة المؤمنين، فيعتبر نفسه طرفاً معهم:

﴿يخادعون الله، والذين آمنوا﴾(١٣٣)، أو يقف هو طرفاً دونهم: ﴿الله يستهزىء بهم﴾(١٣٤)، لأن الله ولي المؤمنين: ﴿الله ولي الذين آمنوا..﴾(١٣٥)، فمن المتوقع أن يحميهم، وأن يدافع عنهم: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا..﴾(١٣٦)

٢ـ إن الآيات تذكر مخادعة المنافقين لجبهة الإيمان، واستهزاءهم بها، ولا تذكر مخادعتهم لجبهة الكفر، واستهزاءهم بها. لأن موقف المنافقين من الجبهتين واحد، فإذا عرف موقفهم من إحداهما، عرف موقفهم من الأخرى. ولأن القرآن يعني ببيان وجهة نظر المؤمنين، ولا يعني ببيان وجهة نظر الكافرين.

من عوامل إعجاز القرآن

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين﴾.

(سورة البقرة: ٢٣ ـ ٢٤)

١ـ الإنسان يتحدى في حدود معينة: فيدعي أنه يفوق الماضين، لأنهم توقفوا عن العطاء. ويتحدى المعاصرين، لأنه يعرف مداهم. ولكنه لا يتحدى المطلق ـ وإن حشد مواهب الأرض، ولف الفضاء بنظراته ـ، لأنه لا يعرف مدى المستقبل. والقرآن حيث تحدى المطلق، عبر ـ بمجرد هذا التحدي ـ عن اطمئنانه إلى أنه فوق مستوى البشر على مدى الحياة. وهذا الاطمئنان، لا يحصل لأي فرد من البشر، طالما المستقبل مفتوح للمفاجآت، وطالما تتفتق المواهب ـ في كل فترة ـ عما لم يكن متوقعاً قبلها.

٢ـ ومحاولة تحدي القرآن، كانت يوم ترطبت شفاه النبي بآياته، وهي تتنزل ـ مع الأشعة الكونية ـ لتخصب القلوب

الحجرية بنور الإيمان، وتمد ـ من عراء الحجاز ـ ظلال القيادة العالمية على كثير من بقاع الأرض. وبقي التحدي مستمراً عبر الأجيال، فقد حاول الكثيرون ـ ممن جهلوا القرآن ـ أن يأتوا بمثله، وحيث درسوه ليأتوا بمثله، اصطدموا بما لا قبل لهم به، فأعلنوا عجزهم عن تحديه. وآخر من عرفت دخولهم في هذه التجربة الفاشلة، لجنة من أدباء المهجر، فيها جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة...

٣ـ ولعل السبب في عجز الناس عن تحدي القرآن: أنه مزيج مركب من مجموعة عناصر، لا يمكن لأية مجموعة من البشر أن تجمعها: فبالإضافة إلى عنصر البلاغة، فيه التفوق التشريعي، والنكات العلمية، والروعة الموسيقية، والمعادلة المناسبة للكلام الصادر من الله إلى عباده، وعناصر أخرى كثيرة... حفل بها القرآن. ومع تقدم البشرية ـ في كل حقبة من الزمان ـ يزاح ستار عن عنصر جديد من عجائبه.

ولعل من تلك العناصر: أن القرآن لا يطرح نفسه على الساحة، طرحاً مكشوفاً، يمكن الناس من نقده وتجريحه. فهو يتناول كل المواضيع، ولكن بقدر معين، ثم يتركها. ويتعمق في كل ما يتناول، ولكن لا يتوسع. وعندما يأتي من يحاول انتقاده، لا يجد فيه مآخذ يمكن التمسك بها للتشهير به.

فالمسلمون رغم تطور ثقافتهم ـ عبر تاريخ القرآن ـ، ورغم أنهم طالما تورطوا في أخطاء كبيرة وكثيرة؛ إلا أنهم لم يصطدموا بالقرآن، في أي وقت من الأوقات، حتى من خلال أخطائهم. فما عانوا من اصطدام ثقافتهم بكتابهم، شيئاً مما عاناه: اليهود، والنصارى، وبقية أهل الكتاب؛ من اصطدام ثقافاتهم بكتبهم. وخاصة: في القرون الأخيرة، حيث كشفت قفزة العلوم أخطاءً عديدة في الكتب المقدسة، فاضطر المثقفون إلى التحيز للعلم والاتجاه نحو الإلحاد، واضطر المتدينون إلى تعطيل العقل وتجميد العلم في مجال الإيمان.

فالله الذي يعرف مدى مستويات جميع الأجيال البشرية، خلق كلاماً فوق تلك المستويات، ومن مصدر القوة والاطمئنان قال:

﴿ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣٧).

وهذا.. ليس شيئاً جديداً في القرآن، طالما هو من خلق الله. فالبشر عجز عن تحدي أي شيء من خلق الله. وقد تحدى القرآن البشرية الجاحدة، في كل ما خلق الله، فعجزت عن رد تحديه؛ قائلاً:

﴿ هذا.. دونه؟!... ﴾ (١٣٨)؛ فعجزت أن تأتي بمثل شيء من خلق الله.

وإن كان وقع التحدي في الكلام أعمق من وقعه فيما أنشأه الله من العدم، مهما صغر وتضاءل. لأن الناس

يتكلمون بسهولة، وفيهم علماء يتكلمون في: العلم، والبلاغة، والشريعة، والموسيقى، وغيرها . . . مما يتوقع أن تكون عناصر إعجاز القرآن، ثم يعجزون عن الإتيان بسطر مما يشبه القرآن، وإن كان قصيراً بمقدار سورة (الكوثر)، فيشعرون بوقع هذا التحدي، وبمرارة هذا العجز.

٤ـ اعتذر الذين جربوا تحدي القرآن وفشلوا، بأعذار لتغطية فشلهم:

فقالوا: إن القرآن ليس فوق مستوى البشر، ولكن الله يصرف الأفكار عن الإتيان بمثله، مع قدرتها على الإتيان بمثله لو تركها وشأنها.

وقالوا بعد ذلك: إن ترديد القرآن باستمرار، وفي مجالات كثيرة، مئات السنين؛ أضفى عليه روعة وهمية، تخيل للناس أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، وليسوا عاجزين.

وقالوا أخيراً: إن المؤمن يتهيب محاولة تحدي القرآن، فلا يتحداه. وغير المؤمن لا يهمه تحديه، فلا يتفرغ له.

وقالوا أقوالاً كثيرة، لا تزيد على تبريرات الفاشلين لحفظ ماء الوجه.

فأولاً: مهما كان السبب، فتحدي القرآن جميع النوابغ، مع وجود الحوافز الحيوية الملحة ـ باستمرار ـ لرد تحديه، وعدم رده؛ يكشف أنه من قبل الله، وليس من صياغة أحد البشر.

ثانياً: إن ادعاء أن الله يصرف الأفكار عن الإتيان بمثله، يؤكد كونه من قبله، لأن الله لا يتطوع لصرف الأفكار عن رد تحديات المتحدين.

ـ بالإضافة إلى: أن القرآن لو لم يكن من قبل الله لكان باطلاً، والله لا يدافع عن الباطل، ولا يستر على الذين ينسبون إليه ما لم يصدر منه، بل عليه أن يفضحهم ـ بمقتضى قاعدة اللطف ـ.

إلى جانب: أن أروع الكلام الذي صدر من البشر، ليس دون القرآن بدرجة أو بدرجات، حتى يبقى وقع للقول بأن الله يحجب البشر عن الوصول إلى مستوى القرآن؛ وإنما تختلف النوعية تماماً.

ـ مع: أن الله ليس محدود المدى، حتى يتحدى البشر بما في طاقته، ثم يمنعه عن الإتيان بمثله؛ وإنما مداه مطلق وغير محدود.

ـ مضافاً إلى ماسبق، من: أن كل ما خلقه الله فوق طاقة البشر، وليس القرآن وحده.

ثالثاً:ـ إن محاولة تحدي القرآن بدأت مع بدء نزوله، فالنبي طرحه ـ أول ما طرحه ـ معجزة ودستوراً.

رابعــاً:ـ المؤمــن يحاول تحدي القرآن، عندما يريد التأكد من صدق إيمانه. وغير المؤمن يهمه تحدي القرآن، كجزءٍ من الحرب المستمرة الشعواء ضد الإسلام.

شيخ المسجد، ونجم السينما

﴿وَبَشّــِرِ الّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ كُلّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رّزْقاً قَالُواْ هَـَذَا الّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مّطَهّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ٢٥)

سؤال:ـ هل هؤلاء العجائز، المتكومون في زوايا المساجد، يدخلون الجنة، وأولئك الأبطال الذين موجوا الحياة، وأغنوها بالحيوية والنشاط، يدخلون النار؟؟!!

جواب:ـ

أولا:ـ إننــا لا نملــك توزيع الجنة والنار، وإنما هنالك حقائق تأخذ مجاريها الواقعية، رضينا أم أبينا: فكما أن حبات المطــر، تأخــذ مجاريهــا ـ الضيقــة الملتوية ـ إلى البحــر. وكما أن النباتات والحيوانات . تســتريح ـ أخــيراً ـ في التراب. كذلك: كل ما كان من أصل الجنة، ينتهي إلى الجنة ـ باختياره.. وما كان من أصل ناري، ينتهي إلى النار ـ باختياره ـ مهما كانت التوقعات.

وقديماً: تدخلت الآراء الموضعية في مقاييس الحياة، حتى:

﴿. . .قالوا: . . .عظيم؟!﴾(١٣٩)، فتصدى لها القرآن:

﴿أهم. .الدنيا. .﴾(١٤٠).

ثانيــاً :ـ مــن الخطأ أن نخصص الجنة بالعجائز المتكومين في زوايا المســاجد، ومن الظلــم أن ندفع الأبطال الذين

موجوا الحياة إلى النار. فالإسلام ما قال: (الجنة للعجائز، والأبطال للنار)، وإنما قال الله:

﴿وابتغ.. .الدنيا.. ﴾(١٤١)، وقال النبي:

«ليس منا من ترك آخرته لدنياه، وليس منا من ترك دنياه لآخرته»(١٤٢). فأراد السيف مع المصحف، ووضع الفقه إلى جانب المتجر، وبنى المسجد في جوار العمل.

ثالثاً: إن لكل مقصد إعداداً خاصاً يتناسب معه: فالإعداد لحلبة الملاكمة يختلف عن الإعداد لمنصة القضاء، والتهيؤ للكمالات الروحية يكون بشكل بعيد عن التهيؤ للأعمال الإرهابية، هكذا.. الترشيح للآخرة غير الترشيح للدنيا: فالمؤهلات والممارسات التي تؤدي إلى الشهرة والمنصب والمال؛ ليست هي ـ بالضرورة ـ ذات الممارسات التي تؤدي إلى الدرجات الرفيعة في الآخرة لأن الأعمال المادية تبقى في الدنيا، ولا تنتقل إلى الآخرة إلا الصفات المنعكسة على الروح من الأعمال المعنوية. فالشيء المناسب للجنة قد يتناسب الدنيا وقد لا يتناسبها، كما أن الشيء المتجانس مع النار ربما يتلاءم مع الدنيا، وربما لا يتلاءم معها. فليس المهم ما هو مقبول في الرؤية الدنيوية، وإنما المهم من هو منسجم مع الآخرة.

فللدنيا مقايس إن لم تكن متنافرة مع مقاييس الآخرة فإنها ليست متطابقة معها، ولا شك: أن هنالك نقاط لقاء كالمزايا والخدمات الإنسانية:

﴿..فمن يعمل...يره﴾(١٤٣)، ولا شك ـ أيضاً ـ أن هنالك نقاط فراق كالصفات والأعمال الأنانية:

﴿تلك الدار...فسادا..﴾(١٤٤).

وعندما نعلم: أن للآخرة مقاييس ليست متطابقة مع مقاييس الدنيا، نضطر إلى استعلامها عن الخبراء بها. والخبراء بالآخرة، هم: الأنبياء والأوصياء، الذين تطوعوا بشرح تلك المقاييس. ورغم أن البشر معقوف إلى الوراء، فلا يرى مستقبله إلا من خلال ماضيه: فالأطفال لا يستوعبون مرحلة الشبيبة، والشبيبة لا تتفهم الشيخوخة إلا من خلال مسبقاتها؛ مع هذا القصور، نستطيع استطلاع الآخرة ـ من خلال الأنبياء والاوصياء ـ إذا تحلينا بشيء من التجرد والتأمل.

وقال الأنبياء والأوصياء: إن هذا النوع من الإعداد الفكري والعملي: (الإيمان والتقوى) هو الذي يهيئ للجنة، وأن النوع المعاكس من الإعداد الفكري والعملي: (الجحود والانفلات) يهيئ للنار.

وعندما تنتقل القضية إلى مرحلة لا نعرف عنها شيئاً إلا من خلال الخبراء، لا بد أن نقف عند قولهم، ولكن

قد يستحوذ حماس مراهقي على بعض الناس، فيشق عليهم أن يروا: شيخاً مسجدياً في الجنة، ونجماً سينمائياً في النار.

الإيمان والعمل الصالح

﴿وبشر الذين. . .خالدون﴾.

(سورة البقرة: الآية ٢٥)

لا نجد آية في القرآن أشارت بالإيمان وحده. فكلما ذكرت نتائج الإيمان، كان مقروناً بالعمل الصالح، مما يؤكد أن الإيمان ـ وحده ـ لا ينتج :.

١ـ الإيمان ليس أكثر من قناعة علمية، فإذا لم تمارس تكون عديمة الجدوى. فجدوى القناعات العلمية بممارستها، وقديماً قيل:

«علم بلا عمل، كشجر بلا ثمر»(١٤٥).

٢ـ الإيمان، كطاقة، إذا لم تمارس تتضاءل تدريجياً، حتى تفقد حرارتها وحيويتها ـ كسائر الطاقات الفكرية والعضلية ـ، وحتى تعجز عن التحرك، فتكون كالعديمة بالفعل.

٣ـ الإيمان الذي لا ينعكس على سلوك المؤمن، يشك في وجوده. فالأحرى أن يعتبر (مقدمات الإيمان) أو (تقليد إيمان). فليس من الطبيعي: أن يقتنع فرد بفائدة كبيرة من عمل ثم يتركه. أو يقتنع بخسارة فادحة من عمل، ثم يرتكبه.

العدد (٧)

﴿هو الذي. . .عليم﴾.

(سورة البقرة: الآية ٢٩)

يقال: لماذا السماوات سبع والأرضون سبع، والبحار سبعة، والأقاليم سبعة، وأيام الأسبوع سبعة، وأبواب جهنم سبعة،

وعدد البروتينات الموجبة - في الذرة - غالباً سبعة؟. . هذا الكلام خاطىء علمياً

والجواب:

١- ما من عدد إلا وتوجد به أشياء كثيرة، وخاصة: من واحد إلى عشرة.

٢- يبدو من (علم الأعداد): أن الأعداد طاقات خاملة في الكون، وأن الأرقام أسماء لتلك الطاقات. ونتيجة لتفاعل هذه الطاقات مع بقية الطاقات الفاعلة في الكون؛ وجدت أشياء بعدد سبعة، كما وجدت أشياء أخرى بأعداد أخرى.

المراد بـ(خليفة)

﴿وإذ قال. . .تعلمون)، ﴾.

(سورة البقرة: الآية ٣٠)

يقولون: (خليفة)، تعني: خليفة من خلفائي، فاجعل في الأرض من يخلفني فيها. وهذا. . يدل على سمو مكانة البشر، حتى اعتبره الله - تعالى - خليفته، فيما لم يعبر عن أي خلق سواه بمثل هذا التعبير، حتى عن الملائكة الذين يمثلون معنويات السماء.

ويمكن القول بأن الآية لا تمنح البشر لقب: (خليفة الله على الأرض):-

١- إن كلمة (خليفة) وردت منكرة، ولو كانت تعني خليفة الله، لوردت معرفة أو شبيهة بالمعرفة، فوردت: (إني جاعل في الأرض خليفتي)، أو (خليفة لي)، أو (خليفة من خلفائي) - على الأقل -.

٢- إن الخلافة - على العموم - لا تتم لشخص إلا بأحد سببين:-

الأول:- باستخلاف من له صلاحية الاستخلاف لقيام آخر بدوره، كلاً أو جزءاً.

الثاني:- بانتهاء شخص وقيام آخر مقامه، لأداء دوره، كلاً أو جزءاً.

والله - تعالى - لم يستخلف البشر للقيام بدوره أو بجزء من دوره. ولم ينته حتى يقوم البشر بدوره أو لا يقوم. على

أن دور الله مختص بالله، وليس بإمكان أحد القيام بدوره، بل ليس بإمكان أحد القيام بأي شيء إلا بإقدار الله إياه على ذلك الشيء.

٣ـ لو كانت هذه الآية وثيقة الاستخلاف، لدلت على استخلاف البشر، كل البشر. ولو كان البشر ـ كل البشر ـ خليفة الله، لتساءلنا: كل البشر خليفة الله على من؟ إذا لا يبقى أحد إلا وقد حمل لقب: (خليفة الله).

ولو قيل: كل البشر خليفة الله على الكون ـ للتصرف فيما سمح له التصرف فيه من الكائنات ـ؛ لقلنا: إن الخلافة هي الولاية على البشر القاصر، أو على الأمور العامة المتعلقة بالكثيرين من مختلفي المصالح والاتجاهات، التي هي بمثابة القاصر، لأنها لا تتصرف تلقائياً بسبب الاختلاف عليها. والكون ليس قاصراً ولا بمثابة القاصر، لأن الله يصرفه بأكثر من وعي البشر ودقة البشر ـ بواسطة: ﴿ . . المدبرات أمراً﴾(١٤٦).

بالإضافة إلى: أن هنالك فرقاً بين (الخلافة) و(الوصاية): فالخلافة تكون على البشر، والوصاية تكون على غير البشر، وإن كان من متعلقات البشر، كما في قوله تعالى:

﴿ يوصيكم. . .الأنثيين. . . ﴾(١٤٧)، فكانت الوصاية على الترات لأولاد الميت.

٤ـ ثم: أين صك استخلاف الله للبشر؟ إن الناس يختلفون حول خليفة أبسط الناس على القليل من ممتلكاته، والمسلمون اختلفوا ـ ولا يزالون ـ مختلفين حول خليفة رسول الله، فكيف بخليفة الله؟!

٥ـ لو كان البشر ـ كل البشر ـ خليفة الله، لكان حتى الكافر المعاند المحارب لله ولرسله ولرسالاته؛ خليفة الله، بتنصيب من الله. فكيف يجب تقليص ظله وسلطانه، إذا كان خليفة الله؟!

٦ـ لو كان البشر ـ كل البشر ـ خليفة الله، لما كان فضل للأنبياء والأئمة (ع) عندما يعتزون بأنهم خلفاء الله.

٧ـ جواب الملائكة، يدل على أنهم لم يفهموا من (خليفة) خليفة الله. وإلا لما صح وصف خليفة الله بـ: ﴿من يفسد فيها، ويسفك الدماء﴾(١٤٨)، ولو أرادوا أن يمانعوا خلقه لقالوا غير هذا القول.

وإنما فهموا من: (خليفة)، خليفة من سبق آدم على الأرض. وحيث أن الخلق الذي سبق آدم على الأرض، كان يفسد فيها ويسفك الدماء، حتى استحق أن يقرضه الله؛ قاس الملائكة خليفته عليه، بأنه سيفسد فيها ويسفك الدماء كسلفه.

فتفسير كلمة: (خليفة) بمفهومها العام ـ وهو من يخلف غيره ـ ربما يكون أقرب إلى ظاهر الآية . فقد كان على الأرض خلق انقرض نسله قبل أن يخلق الله آدم، فخلفه آدم على الأرض، فكان خليفته عفوياً، لأنه قام بدوره في الحياة على الأرض واستغلالها .

الأسماء وآدم والملائكة

﴿وعلم آدم. . .تكتمون؟!﴾

(سورة البقرة: ٣١ ـ ٣٣)

فـ(الأسماء) هي القوى الأساسية الفاعلة، أما بقية الأشياء: فهي وليدة الأسماء .

(كلها) أي: كل الأسماء الكونية، أما الأسماء الماورائية: فلم تعط كلها لآدم. . ولا للملائكة. .

(ثم: عرضهم) لأنها عاقلة . فلم يحسن الملائكة التصرف بها، لأنها فوق مستواها، بينما أحسن آدم التصرف بها .

دلالات الأحرف

﴿وعلم آدم. . . تكتمون؟!﴾

(سورة البقرة: ٣١ ـ ٣٣)

س: ـ ظاهر الآيات السابقة وهذه الآيات، توحي بأن الله وضع آدم والملائكة في امتحان، ثم أعطى لآدم مادة الامتحان ولم يعطها للملائكة، فسألهم جميعاً، فأجاب آدم ولم تجب الملائكة، فقال لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾(١٤٩) . فكيف يمكن تبرير مثل هذا الامتحان؟

ج: ـ إن الأحرف المفردة أسماء للأحرف الواقعية، والأحرف الواقعية قوى فاعلة . والأحرف المركبة = الكلمات أسماء للأحرف المركبة الواقعية، وهي ـ بدورها ـ قوى فاعلة . ولكل حرف دلالة ذاتية، كما أن لكل عنصر من العناصر الكونية أثراً ذاتياً . ولكل وحدة حرفية معينة = كلمة، دلالة ذاتية خاصة، كما أن لكل وحدة عنصرية معينة = مخلوق، أثراً ذاتياً خاصاً .

وعلـم الله آدم والملائكــة ـ معاً ـ دلالات الأسماء كلها، أي: الأحرف المفردة والمركبة، ثم عرض الخلائق على آدم والملائكــة، وقــال: ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ (١٥٠) الخلائق. فاســتدل آدم بدلالات الأحــرف والكلمات حتى طبقها على مســمياتها، ولم تســتدل الملائكة بتلك الدلالات. فظهر أن آدم، بمقتضى تركيبة (السما ـ أرضية)، يمتاز بملكة الاســتنباط، بينما الملائكة ـ بمقتضى فطرتهم البســيطة ـ لا يتمتعون بملكة الاســتنباط. تلك الميزة، فضلت آدم على الملائكة.

س:. كيف تكون للأحرف والكلمات دلالات ذاتية؟

ج:. كما لها آثار ذاتية، تظهر في: الأدعية، والأوراد، والسحر، والعبادات، والغناء، والموسيقى. . . وقد التقت الرسالات والعلــوم، علــى آثار الأحــرف والكلمــات. وإذا كان العلماء لم يتبينوا ـ حتــى اليوم ـ آثار الأحــرف والكلمات، بوضوح يمكنهم من استخدامها؛ فإنهم ـ حتى اليوم ـ لم يتبينوا الطاقات المادية، المنتشرة في الأرض والفضاء، رغم أنها محسوسة، فمــا بالــك بتبين آثار الأحــرف والكلمات، التي هي من نوع الطاقات غير المحسوســة، وإن كانت تصبح مســموعة إذا صدرت بذبذبة معينة، ولكنها ـ في الأساس ـ ليست من المحسوسات، لأنها من الاجسام اللطيفة؟!

الصبر والصلاة

﴿ واستعينوا. . .الخاشعين ﴾

(سورة البقرة: الآية ٤٥)

مــن طبيعة الحياة الهدم والبناء: هدم ما اســتنفد أغراضه، فأصبح مائــلاً نحو الانحدار. وبناء ما لم يحقق أغراضه، فأصبح متحفزاً نحو الارتفاع. والحياة لا تجري رخاءً نحو أهدافها دائماً، ولا تعصف بأهدافها باســتمرار، وإنما تتحرك علــى عربتين: صعب وذلول، وتتكلم بلغتين: ناعمة ونابية، فتســير مترســلة نحو الأهداف الــتي لا يمكن تحقيقها إلا بالترســل، ثم تســير مترقلة نحو الأهداف التي لا يمكن تحقيقها إلا بالترقل. ولو كانت تسير على نمط، لما أمكنها إلا تحقيق بعض أهدافها، ولكانت رتابتها مملة يصعب تكلفها.

فتتطور الرياح، ابتداءً بالنســائم وحتى العواصف. وتختلف الأمطار، من الرشــاش حتى السيول. وتتقلب الطقوس من الربيع حتى الصيف، ومن الخريف حتى الشتاء. وتتطور الأناسي، من الطفولة حتى الشيخوخة. وتتغير الجبال، من المروج حتى البراكين. . .

وتتلون الأشــياء ـ كلها ـ بلون الطاقات، التي تنحســر عن شــيء لتتجمع في شــيء آخر: كما تنزح المياه من جانب،

لتراكـم في جانـب آخـر. وكما تلقي الأرض بثقلها في قاعـات بحار، لتصير قمم جبال. وتسـحبه من قمم جبال، لتصير قاعات بحار...

وتبقى موازين القوى متأرجحة، وفق معادلات محسوبة:

﴿... يكـور الليل.. .الليـل..﴾(١٥١)، ﴿... كل يجـري لأجـل مسـمى...﴾(١٥٢)، ﴿... لـكل أجل كتاب﴾(١٥٣)... حتى تبقى الحياة دائبة في الهدم والبناء، فتتوالد الأشـياء وتتصاعد، في حركة التغيير التي تشـمل كل شيء، وسبحان من يغير ولا يتغير.

والأزمات نوع من حركة الحياة، بل هي الهيكل العظمي للحياة، لأنها تسرع عملية الحياة، وتربي قدرة الإنسان على الاحتمال، فلها رسـالة أعلى من رسـالة الرخاء. فتوقع الرخاء الدائم، ناتج من الجهل بطبيعة الحياة. والرخاء إذا اسـتمر لفترة، فإنه يربي الإنسان الرخو الذي يحترق في أول تجربة، ولا يصلح إلا للبطالة واللهو.

وإذا كانت الأزمات موجات الحياة المتكاثفة، كالسيول والبراكين التي هي التجمعات الكبيرة لمواد الحياة، فهي خـير ورحمـة يلزم ترقبها وانتظارها. غير أنها قد تفاجيء غير المتأهـب لها، فتغمره، وتجرفه مع ما تجرف من الزوائد والنفايات. وقد تأتي المتأهب لها، فتستقبل بالسدود التي تنظمها، فتولد الطاقة، وتروي المرتفعات.

فـلا بـد لكل من يعيش ضمن الحياة، أن يعلم أنه معرض لموجاتها العالية، فيسـتعين بالصبر. وما هو الصبر؟ غير الاستعداد لاستقبال الموجات العالية، والاستفادة من طاقاتها إيجابياً:

﴿واستعينوا بالصبر﴾(١٥٤).

ثم: ماذا يكون مصير من لا يريد الاسـتعانة بالصبر؟ غير الانهيار السـريع. لأن الحياة لا تخلو من الأزمات، فهي ستعصف به، وتعلوه، فتستهلكه بدل أن يستهلكها، والجزع يساعدها على امتصاصه، فلا تتركه الأزمات إلا هيكلاً هشاً، حتفه فوقه ومصيره فاغر أمامه.

فمن يستعين بالصبر، يعلو على الأزمات بدل أن تعلو عليه، ويستغلها لصالحه، فلا يشعر بوطأتها عليه، فيخرج منها منتصراً بمكاسـب كثيرة. بينما الذي لا يسـتعين بالصبر، يفرض عليه الصبر: لا على احتمال الأزمات وحدها، وإنما على احتمال الجزع أيضاً؛ فيخرج منها منكسراً بخسائر كثيرة.

﴿و﴾ علـى كل مـن يعيش ضمن الحياة أن يسـتعين لا بالصـبر وحده ـ الذي هو التوكل علـى القدرات الذاتية

.، وإنما بـ﴿ الصلاة ﴾ أيضا ـ التي هي التوكل على القدرة العليا ـ. لأن الصّلاةتشـد الإنسـان الضعيف المحدود بالله القوي المطلق، الذي هو مصدر الحياة، وموجه كل تياراتها، والقيوم على كل تفاعلاتها . والتوجه إلى الله ـ في اللحظات الدقيقـة ـ يمنحـه فرصة التروي لاتخاذ القـرار، فيفتح أبواباً لا يفتحها غير الابتهـال إلى الله . بالإضافة إلى: أن مجرد شعور الإنسان بأن مصدر الكون معه في محنته، يزوده بمعنويات عالية: تنقذه من الخنوع والارتباك، وتعينه على مغالبة الصعاب.

﴿ وإنها ﴾ : هذه الصلاة، بتلك الحركات والتمتمات الخفيفة، وذلك التوجه البسيط؛ هذه الصّلاة﴿ لكبيرة ﴾ على الناس العاديين الذين لم يستوعبوها، فتكون متنافرة معهم، فلا يتحملوها، وخاصة: في أحيان التذمر والضجر، فتتخيل لهم أنها ضريبة المحنة التي يمتحنون بها، وإتاوة الفشل الذي انتكسوا به، فتكون الصّلاةكبيرة عليهم بطبيعتها . وهي كبيرة ـ بالفعل ـ على كل الناس الذين لا تسـاعدهم ظروفهم المختلفة على الالتزام الدائم بأوقاتها الدقيقة، ﴿ إلا على الخاشعين ﴾ (١٥٥).

النبي المفضل، والأمة المفضلة

﴿ يا بني إسرائيل: . .العالمين ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ٤٧)

لقد أنعم الله على الأمة الإسـرائيلية بنعم كثيرة، لعل المشـار إليها في هذه الآية، نعمة القيادة الروحية العالمية، التي اصطفى لها هذه الأمة دون سـواها، فبعث فيها (موسـى بن عمران) برسـالة عالمية، غطت كل أجيال البشر حتى مبعث (عيسى بن مريم). فلقد كان موسى بن عمران رسولاً من (أولي العزم)، وكان جميع الأنبياء ـ في عهده وبعده ـ يبشرون برسـالته، حتى نسـختها رسـالة عيسـى بن مريم، التي كانت ـ بدورها ـ عالمية، غطت أجيال البشر حتى مبعث الرسول الأعظم (ص).

فـ﴿ يا بني إسرائيل!. . عليكم ﴾ (١٥٦).

وبهـذه الرسـالة، فضـل الله الأمة الإسـرائيلية على جميـع العالمين، ﴿ وأنـي فضلتكم علـى العالمين ﴾ ،(١٥٧)من: الملائكة والانس، والجن والشيطان، وغيرها . . . من المخلوقات المكلفة في عالمنا هذا . لأن المؤمن الحق ـ في تلك الفترة ـ هو الذي يعتنق الديانة اليهودية . والأمة المؤمنة الحق ـ في كل فترة ـ مفضلة عند الله على غيرها من العالمين: فالمؤمن الحق في عهد (نوح)، هو الذي يؤمن برسالته . والمؤمن الحق في عهد (إبراهيم)، هو الذي يتبع دينه . والمؤمن الحق في عهد (عيسى)، هو الذي يختار طريقته . والمؤمن الحق في عهد الرسول الأكرم (ص)، هو المسلم بدين الإسلام.

فالأمـة المفضلـة علـى العالمين ـ في كل فترة ـ هي التي تلتزم بالديانة التي شـرعها الله لتلك الفترة، وتتبع رسـول تلك الفترة. ولقد كانت الأمة الإسرائيلية، هي الملتزمة بالديانة التي شرعها الله لفترة: ما بين مبعث موسى بن عمران ومبعث عيسى بن مريم.

فالأمة الإسرائيلية، هي المفضلة على العالمين في تلك الفترة؛ طول عمر الإنسان على الأرض.

ويرشد إلى تجزئة التفضيل حسب الفترات، قول الله تعالى: ﴿ . . .واسماعيل. .العالمين﴾(١٥٨).

فـكل واحـد من هؤلاء الأنبياء، الذين وردت أسماؤهم في هذه الآية وثلاث آيات قبلها، مفضل على العالمين في عهد، وليـس علـى العالمين من الأولـين والآخرين، وإلا لم يكن الجمـع بينهم في التفضيل، لأن التفضيل الشـمولي ينحصر في شـخص واحد، كما هو الحال بخصوص النبي محمد بن عبد الله (ص)، حيث فضله الله على العالمين، الذين عاصروا عمر الأرض، إن لم يكن مفضلاً على كل من خلق الله.

لا جدوى في استرضاء اليهود والنصارى

﴿ولن ترضى. . .ولا نصير﴾.

(سورة البقرة: الآية ١٢٠)

لا تجهد نفسـك ـ يا محمد (ص)! مع اليهود، والنصارى، رغبة في كسـب رضاهم، فإنك لن تكسـب رضاهم مهما حاولـت، ومهمـا حاولوا التظاهـر بالرضا منك: ﴿ولـن ترضى عنك اليهـود﴾(١٥٩) حتى تصبح يهوديـاً مثلهم، ﴿ولا النصـارى﴾(١٦٠) ترضـى عنك حتى تصبح نصرانياً مثلهم، ولن ترضى عنك أمة من الأمم ﴿حتى تتبع ملتهم﴾(١٦١)، فكل أمة تسعى بمعتقداتها نحو الآخرين، لاستهلاكهم فيها، حتى تتوسع هي على حسابهم، لأنها بالقضاء على سائر الكيانـات، تبقى سـيدة الموقف، فتطمئن على مصيرها. وأما ما دامت سـائر الكيانات قائمـة إلى جانبها فإنها تبقى قلقـة علـى مصيرهـا. فلا ينام بطـل ما دام يعلم بأن في الميدان أنـداد، وإنما ينام ـ ملء العـين ـ عندما لا يرى في الميدان بطلاً. والأمة ـ كالفرد ـ ما دامت ترى إلى جانبها أمماً، لا تطمئن إلى مصيرها وإن تآخت معها، فلعلها إن هادنتها اليوم لا تهادنها غداً. وكما هي تشعر بالقلق على مصيرها فتلك تشعر بالقلق، والقلق ـ في العناصر المختلفة ـ يغري بالصراع، والصراع خطر على كل الجوانب فلا تطمئن أمة، إلا باستهلاك سائر الأمم.

وأنت يا ـ محمد (ص) ـ ما دمت تمثل أمة، فإن سائر الأمم لن ترضى عنك، مهماتنازلت لها، وحاولت إقناعها بنواياك السـلمية، وتقربـت إليهـا. فأنت ـ كممثل أمة ـ خطـر على كل الأمم ـ في منظارهم ـ وإن لم تضمر لها سـوءاً. فإنها

تقيس نواياك بنواياها السود، وتشعر أنك خطر عليها.

ومــن الممكن أن تظهــر الرضا عنك، في يوم من الأيام، لتخفيف خطرك عليها، بإبداء الرضا عنك، خضوعاً لنداءات الظروف، ولكنها لن ترضى عنك - في أعماقها - إلا بانحلال الشـخصية الإسـلامية في واقعك، وذوبانك في أمة معينة. فهي ترضى عنك، وحدها، دون سواها، لأنها - عندئذٍ - تشعر بأنك لست طرفاً في معركة تنازع البقاء.

ومـا دمـت لا يمكنك - عقائدياً وضميرياً لأنك الحق الصـراح - الخروج من معركة تنازع البقاء، بالتنازل عن بعض عقائدك، أو بمحاولة التقارب من سائر الأمم؛ فلا تنازل عن شيءٍ من عقائدك، ولا تحاول التملق التافه لها، بل ابق ثابتاً في موقفك، و﴿قل: إن هدى الله هو الهدى﴾(١٦٢)، وارفع كلمتك عالية مدوية.

﴿و﴾ طالمـا عرفت أن لا مبرر للتنازل، أو للمجاملة مع سـائر الأمم، فـ﴿لئـن اتبعت أهواءهم﴾(١٦٣) وتنازلت عن شيء من دينك، أو جاملتهم على حساب دينك، ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾(١٦٤)، بأنهم لا يرضون عنك إلا بالاندماج في أممهم؛ فإنك قد خسـرت عطف ربك، ولا يكون الله لك ولياً يرعاك، ولا نصيراً يعضدك على سـائر الأمم، فـ﴿ ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾(١٦٥).

الرسول الشهيد، والأمة الشهيدة

﴿وكذلك: . .شهيدا. . . ﴾

(سورة البقرة: الآية ١٤٣)

هذه الآية فصلان، يتولد ثانيهما من الأول:

الفصل الأول: ﴿وكذلك: جعلناكم أمة وسطاً﴾(١٦٦). فالأمة الإسلامية، أمة وسط.

والأمة الوسط.

والأمة الوسـط، هي الأمة المعتدلة، التي لا تطرف فيها: فلا تركز على الالتزامات الروحية أكثر مما تفرض الروح من إلزامات، ولا تركز على الالتزامات الجسـدية أكثر مما يفرض الجسـد من إلزامات. وإنما تتوفر على كل بمقدار ما يفرض، وبشـكل يتيح لهما تكافؤ الفرص، ليبلغ كل مداه، بمقدار ما تبقى له من نداءات بعد التناقض مع نداءات الآخر. فهي ليست كالأمم البوذية والمسيحية التي تتوفر على الروح، ولا كالأمم اليهودية والوجودية التي تتوفر على

الجسد .

ولا تركز على الجشع الفردي حتى الرأسمالية، ولا تغمط الوازع الفردي حتى الاشتراكية .

ولا تطغي الجنس حتى مذهب فرويد، ولا تكبت الجنس حتى مذهب غاندي .

ولا تستهتر بالدماء حتى مذاهب الطغاة، ولا تتقشف بالدماء حتى مذاهب الدعاة إلى الرأفة بالحيوان كذباً ورياءً .

ولا تستبد بالحكم حتى الديكتاتورية، ولا تميع الحكم حتى الشيوعية النظرية .

ولا تغرق في قشرة الأخلاق حتى المسيحية، ولا تسفه الأخلاق حتى الشيوعية .

فهي تقف - دائماً - في الحد الوسط العادل، بين التطرفات المختلفة . إنها أمة طبيعية، ومواقفها طبيعية، لأن دينها طبيعي، منبثق من الواقع، ومنسجم مع الواقع .

فهي كالمقياس الذي يقاس به كل منحرف، ليكشف مدى انحرافه . ويعرض كل زائغ، ليحدد مقدار نقصه أو تجاوزه .

وهذه الأمة، من الطبيعي أن تكون الأمة الموجهة للبشرية جمعاء لأنها تلقي الضوء على كل منحرف وكل زائغ، وتقدر مدى انحرافه ومقدار زيغه .

فهي أمة وسط: ﴿و كذلك: جعلناكم أمة وسطاً﴾(١٦٧) .

والفصل الثاني: ﴿لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾(١٦٨) .

وهذا الفصل، يتولد من الفصل الأول، وتبرعم عنه . فالأمة الإسلامية - لأنها أمة وسط - يستدعي واقعها منصباً قيادياً رسالياً، ما استدعاه واقع أية أمة . لأن سائر الأمم كانت تعاني التطرف، ومن يعاني التطرف لا يصلح لتحمل القيادة ولا الرسالة، وإنما يحتاج هو إلى القائد والرسول .

فواقع الهرم البشري، يوزعه إلى ثلاثة أدوار:

١ـ الدور الأول، القمة التي يشكلها رجل واحد.

٢ـ الدور الثاني، الذي يشكله عدد كبير.

٣ـ الدور الثالث، الذي تشكله بقية البشر.

فالدور الأول = القمة: يشكلها الرسول الأكرم (ص). فهو أقوى البشر، وأقربهم إلى الله. وقد خوله الله القيادة البشرية العليا، وأعظم رسالات السماء. فلم يكن قائداً ورسولاً لأمته فحسب، وإنما بعثه الله رحمة للعالمين، وكافة للناس. وجعل قرآنه ـ المجسد لرسالته ـ مهيمناً على الكتب السابقة: مصدقاً للكتب السماوية، وكاشفاً لما دس فيها.

وامتداداً لهذا الدور العظيم فقد عين الرسول (ص) بأمر الله تعالى أئمة اثني عشر من أهل بيته يقومون مقامه من بعده ويواصلون مهمته في أمته كاملة ومستوعبة غير أنهم لا يوحى إليهم.

والدور الثاني: تشكله الأمة الإسلامية.

والدور الثالث: تشكله بقية البشر.

فالرسول الأكرم، هو المقياس الأصل للإنسان الكامل، الذي تقاس به أفراد الامة:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة...﴾(١٦٩). فالإنسان الساعي نحو الكمال، هو الذي يسعى للالتزام بنهجه: فالسابق عليه مارق، والمختلف عنه زاهق، واللازم له لاحق.

والأمة الإسلامية، هي المقياس طبق الأصل، تقاس بها سائر الأمم.

فالرسول الأكرم، هو المقياس للأمة المقياس، والأمة مقياس للأمم.

وبالترتيب ذاته، تأتي القيادة = الرسالة من السماء، للهرم البشري: فتهبط الرسالة على قمة البشرية: الرسول الأكرم (ص)! ـ مع آله ـ، لتوجيه الدور الثاني: الأمة الإسلامية. ومن بعد أن يؤدي رسالته، تنحدر الرسالة إلى الدور الثاني: الأمة الإسلامية، لتوجيه الدور الثالث: البشرية جمعاء، التي هي القاعدة الواسعة.

ودور الرسول (ص)!. مع آله . يتلخص في:

١. تلقي الرسالة من قبل الله.

٢. تفريغ تلك الرسالة في الأمة.

ودور الأمة يتلخص في:

١. تلقي الرسالة من قبل الرسول.

٢. تفريغ تلك الرسالة في البشر.

فالرسول الأكرم (ص)!. مع آله . رسول من قبل الله إلى الأمة، والأمة رسولة من قبل الله . بواسطة الرسول الأكرم . إلى البشر.

فكما أن الأمة وسط بين الدورين، كذلك: وسط بين الرسول الأكرم (ص)!. مع اله . والبشر في تفريغ الرسالة.

فمحمد (ص) رسول، وأمته رسولة.

وهنا . . استفهامات، لا بد من الإجابة عليها:

؟. إن الرسول هو الذي يتلقى الوحي من الله مباشرة، والأمة لا تتلقى الوحي من الله مباشرة.

: . إن الرسول ليس هو الذي يتلقى الوحي من الله مباشرة بالمعنى الدقيق وإنما هو كل من تلقى الرسالة من قبل الله . ولو بواسطة أو وسائط .. لأن الله . تعالى . ليس بجسم حتى يتكلم مشافهة مع الناس من خلقه فيكونوا رسله، وإنما الله يوحي إلى أناس من خلقه . بوسائط مختلفة . فيكونون رسله: فإما يرسل إليهم رسولاً من الملائكة يحمل إليهم الوحي، كجبرئيل الذي هو رسول الله إلى كثير من أنبيائه أو يخلق الكلام في موجود من الموجودات فيسمعه النبي، كما خلق الكلام في شجرة فسمعها موسى بن عمران فسمي كليم الله. أو يريه في المنام شيئاً فيكون وحياً، كما فعل بالنسبة إلى إبراهيم، حيث جاء في القرآن نقلاً عنه:

﴿ . . . إني أرى في المناس أني أذبحك. . . ﴾(١٧٠).

وبذلك صرح القرآن قائلاً:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا ﴾(١٧١). فالواسطة بين الله والرسول، لا تعني انقطاعه عن الله، كما لا تعني أنه ليس رسولاً، بل لا بد من الواسطة.

هذا . . بالنسبة إلى الواسطة غير البشرية، وأما بالنسبة إلى الواسطة البشرية، فهي ـ كتلك ـ لا تعني انقطاعه عن الله كما لا تعني أنه ليس رسـولاً، فكثير من رسـل الله، كانوا رسـله بواسـطة بعض أولي العزم من الرسل، فالثلاثة الذين تحدث عنهم القرآن بقوله:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾(١٧٢)؛ نص القرآن على أنهم رسـل الله إذ قال: ﴿أرسـلنا﴾، رغم أنهم كانوا رسل عيسى بن مريم ـ كما في الحديث ـ.

ؤ. إن الرسـول ليس كل من اسـتوعب رسـالة سماوية، وإنما الرسالة منصب قيادي لا بد فيه من قرار صادر عن الله باختيار شخص، وبدونه لا يصح لأي فرد أن يتصدى ـ تلقائياً ـ لأي منصب قيادي، مهما ارتفعت مؤهلاته. وهؤلاء الملايين من أفراد الأمة، لم يصدر بحقهم قرار التخويل من الله.

:. صحيح أن الرسول هو من صدر بحقه قرار التخويل من قبل الله، ولكن هذا القرار صدر من قبل الله تعالى، وسجل في القرآن، وفي هذه الآية بالذات:

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(١٧٣). فقد أراد الله لكل أفراد الأمة، أن يتولوا الشـؤون الرسـالية للناس كما يتولى الرسول الشـؤون الرسالية لهم. وفي هذه المقارنة: ﴿ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ دلالة على الشهادة الرسالية.

ؤ. إن للمستوى النفسي حساباً دقيقاً لا يمكن تجاهله، ولا شك أن رسل الله كانوا في أعلى المستويات النفسية، التي لم يصل ولن يصل إليها أحد من الأمة، بعد النبي والأئمة الطاهرين.

:. إن حساب المستوى النفسي هو أهم وأول الحسابات ـ في مثل هذه المجال ـ لا ريب. ولكن: من ذا يستطيع أن يثبت أن أحداً من الأمة لم يصل ولن يصل إلى ذلك المستوى المتناسب مع تلقي الرسالة؟! ولعل من بعض الحديث يعرف أن من هذه الأمة ـ بل ممن سـبقوها ـ أناس بلغوا ذلك المسـتوى: كلقمان، وسـلمان، والمرأة التي دلت موسـى بن عمران على

موضع قبر يوسف من (النيل). ولكنهم لم يكونوا أنبياء، لأسباب مذكورة في أماكنها.

؟. ولكن: هؤلاء.. أفراد قليلون، وليسوا كل الأمة.

:. ولهذا ليسوا في مستوى الأنبياء في درجات الآخرة، وإن كان لهم ذلك الدور الرسالي نفسه.

وهنا.. لا بد من الاعتراف:

بأن عظمة الشخص لا تعتمد على رفعة مستواه النفسي فقط، وإنما هنالك عنصر آخر يساهم في عظمة الشخص، وهو عنصر العمل الذي يؤديه، فربما يقوم فرد عادي بعمل عظيم فيصبح عظيماً بمقدار عظمة عمله. والتاريخ حافل بأفراد عاديين، دفعتهم الظروف إلى أعمال عظيمة، فأصبحوا بها عظماء. وربما يوجد: في أصحاب داود، وفي أصحاب النبي يوم بدر، وفي أصحاب الحسين يوم عاشوراء؛ شباب جديرو العهد بالإسلام، لم يكن مستواهم الفكري عظيماً، ولكن الأعمال التي قاموا بها رفعتهم إلى مصاف الخالدين، الذين لا يتجاوز عددهم الألف في كل عمر الإنسان على الأرض.

وكثيراً ما وجد من هو أعلى منهم في المستوى الفكري والنفسي، ولكن حيث لم يوفقوا لعمل من ذلك الطراز، ظلوا مطمورين في الأرض والسماء.

ونوعية الرسالة التي تقوم بها الأمة الإسلامية نوعية عظيمة جداً، وإن كان رسالات السماء ـ في مصدرها، ومصبها، بل وحتى في عنصرها ـ واحدة؛ إلا: أن رسالة (آدم) (ع) كانت دورة تمهيدية للبشرية البدائية، ورسالة (نوح) (ع) كانت دورس الصف الأول الابتدائي من صفوف البشرية في مدرسة الحياة، ورسالة (إبراهيم) (ع) كانت دروس الصف الثاني من صفوف البشرية. ورسالة (موسى) (ع)، كانت دروس الصف الثالث من صفوف البشرية، ورسالة (عيسى) (ع) كانت دروس الصف الرابع من صفوف البشرية، ورسالة (محمد بن عبد الله) (ص) كانت دروس الصف النهائي من صفوف البشرية. ولو صح مثل هذا التعبير المعاصر؛ فآدم كان مدرس المجالات التمهيدية، ونوح كان مدرس الدور الأول، وإبراهيم كان مدرس الدور الثاني، وموسى كان مدرس الدور الثالث، وعيسى كان مدرس الدور الرابع، ومحمد (ص) كان مدرس الدور النهائي.

وبارتفاع درجة الرسالة ترتفع درجة الرسول، كما أن بارتفاع درجة الدرس ترتفع درجة المعلم.

ولذلك: كانت الشريعة التالية ناسخة للشريعة السابقة، لأن البشرية ـ عندما تتخذ من المجالات التمهيدية ـ لا معنى لالتزامها بدروس المجالات التمهيدية، فهي تبحث عن دروس ترفع مستواها، فلا بد لها من أن تدخل في الدور الأول،

وتتلقى الدروس المعدة له وإذا تخرجت من الدور الأول لا بد لها من الدور الثاني، وهكذا . . . حتى إذا تخرجت من الدور الرابع فلا ينفعها إلا الدور النهائي، وحتى ترى من العبث الاحتفاظ بكتب الصفوف السابقة، إلا لمجرد الذكرى والتسلية أحيان الالتفات إلى الماضي، أما لواقعها الصاعد نحو المستقبل الأفضل، فلا جدوى من تلك الدروس والكتب. وحتى لو بقي معلمو الصفوف الأولى أحياء حتى بلغت البشرية الصف النهائي، لجلس أولئك المعلمون السابقون إلى جانب تلاميذهم السابقين، للاستماع إلى معلم الصف النهائي. وإن كانت لهم حالة خاصة لا يمكن الاستهانة بها، لأنهم أوصلوا البشرية إلى مستوى لم تكن تصل إليه لولاهم، إلا أن تصاعد الفكر والحياة، يفرض عليهم أن يواصلوا خط الكمال، حتى لا يتخلفوا عن تلاميذ الأمس.

ومن هنا . . نفهم أن الرسول الأكرم (ص) لم يكن مبالغاً عندما قال: «لو بعث موسى لما وسعه إلا اتباعي، ولو بعث عيسى لما وسعه إلا اتباعي»(١٧٤).

فأي نبي من الأنبياء السابقين، لو بعث اليوم، لما وسعه إلا الانخراط في الإسلام. كما أن عيسى (ع)، عندما يهبط من السماء،لا يسعه إلا الصّلاة خلف الإمام المهدي (ع)، وهو . . هو . . هو . . ذلك: عيسى بن مريم، كلمة الله، وروح منه، لم ينقص منه شيء، وإنما يزيده شيء عندما يصلي خلف الإمام المهدي (ع). فمعلم الدور الرابع إذا جلس في الدور النهائي، لا يعني ذلك غمطاً من حقه وغمزاً فيه، وإنما يعني استمراره في خط المعرفة التي لا تنتهي حتى اللحد.

فأمة الرسول الأكرم، حيث تقوم بأداء رسالة الرسول الأكرم، إنما تلقي دروس الدور النهائي على البشرية، فتقوم بدور رسالي أعظم من الأدوار الرسالية التي كان يقوم بها الأنبياء السابقون. فبمقدار سمو الرسالة الإسلامية على الرسالات السابقة، يكون سمو مبلغيها على مبلغي الرسالات السابقة.

وبهذا . . يمكن أن نفسر قول الرسول الأعظم: «علماء أمتي، كأنبياء بني إسرائيل»(١٧٥). فعلماء أمة الرسول الأكرم، الذين يؤدون رسالة ربهم بإخلاص، إنما يقومون بدور أنبياء بني إسرائيل.

بل يمكن أن نفهم الحديث الآخر، الذي يقول فيه الرسول الأكرم: «علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل»(١٧٦). لأنهم يؤدون أعلى رسالات السماء إلى أرقى أدوار البشرية، فهم أفضل من أولئك، لاختلاف النوعية التي تلائم نوعية الأدوار.

ولكن من الحق أن نقول: إن كلمة (العلماء) في هذين الحديثين، أولت بالأئمة الاثني عشر (ع). لأن التفوق النفسي الذي بلغ في الأنبياء والأئمة درجة العصمة، تفوق كبير، لا يقابل بالتفوق الرسالي مهما كان.

لأن حساب الإنسان بينه وبين الله، لا يمكن أن يقارن بأي حساب بينه وبين الناس؛ مهما بلغ: فملايين الضربات،

وألوف الفتوحات في سبيل الله؛ لا يمكن أن تعادل بضربة علي (ع) يوم الخندق. وإنفاق كل نعيم الأرض في سبيل الله؛ لا يمكن أن يعادل بثلاثة صيعان من الشعير، أطعم بها أهل البيت (ع) مسكيناً ويتيماً وأسيراً.

ورغم ذلك، تطلع علينا هذه الآية الكريمة بعطائين:

١ـ التخويل الرسالي لكل فرد مسلم، فله صلاحية الممارسة الرسالية، والقيام بالتوجيه. وتدل على أنه يأتي يوم القيامة شاهداً على كل من امتد إليه توجيهه، كما أن الرسول الأكرم (ص) يأتي يوم القيامة شاهداً على أمته.

٢ـ الاستمرار الرسولي. فالرسول لم ينقطع عن الناس، بموت محمد بن عبد الله (ص)، فرسله ـ وهم كل الواعين من أفراد أمته ـ باقون، ومنتشرون في الأرض، يبلغون رسالة ربهم. فلا يوجد على الأرض بلد لم يرسل الله إليه رسولاً، ولا يولد جيل لم يبعث الله إليه رسولاً، وإنما رسل الله مبعوثون إلى كل بلد.. وكل جيل.. إلى يوم القيامة، إن لم يكونوا رسلاً متصلين بالسماء عن طريق جبرئيل، فهم رسل متصلون بالسماء عن طريق محمد بن عبد الله (ص)، وليس ذلك بمهم بالنسبة إلى المبعوث إليهم، وإنما المهم بالنسبة إليهم أن تصلهم الرسالة دقيقة واضحة، حتى لا تبقى لهم على الله حجة بعد الرسل، وليكون لله الحجة البالغة.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾(١٧٧).

وهذا.. هو: التنظيم الهرمي الذي أبدعه الله تعالى للأمة الإسلامية، والتاريخ لا يدلنا على وجود التنظيم الهرمي الشعبي قبل نزول القرآن(١٧٨).

القدرة المطلقة

﴿ ... إن الله على كل شيء قدير ﴾

(سورة البقرة: الآية ١٤٨)

كل شيء دون قدرة الله، لأنه القدرة المطلقة، فلا حدود ولا سدود أمام قدرته، ولا يمتنع عنه شيء صغير لصغره، ولا يأبى عنه كبير لكبره.

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾(١٧٩)، كل شيء. كل من نرى من مواد كثيفة، وما لا نرى من مواد شفيفة ومن طاقة. كل ما نفهم وما لا نفهم. كل ما نعقل، وما لا نعقل. وكل مغزى، وكل معنى. فحتى المعاني، تحت

قدرة الله.

وحتى الأفكار، أوليست الأفكار مخلوقات؟! كل ما هنالك: أن الأفكار متوالدة، كما أن النبات، وكما أن الحيوان، وكما أن كل شيء متوالد من أول نواتي. فالأفكار تتتابع في الذهن، تتابع قطرات المطر فهي تتحرك بإذن الله، وقدرته.

وحتى المستحيل، لأن المستحيل يعني الارتباط بشيء يمانعه، والمطلق متحرر من كل شيء، فعنده لا يمانع شيءٌ شيئاً. ولا يمكن أن نقيس مجال المطلق بمجال المحدود، فإذا وجدنا شيئاً مستحيلاً ـ في مجالنا كوني، أو في مجالنا الفكري ـ لا يصح أن نقول باستحالته في مجال الله ـ فتأمل..

المصيبة، والصبر، ومعطيات الصبر

ـ ١ ـ

﴿ولنبلونكم. .المهتدون﴾.

(سورة البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧)

١ـ المصيبة ضرورة من ضرورات الحياة، لولاها لتعطلت الحياة عن أداء هدفها. فالإنسان يتبلور بالتقوى، أي: بقيادة نفسه عبر المكاره والرغائب، وفق الخطة الصحية المرسومة له؛ ولكنه لا يتبلور بشيء قدر تبلوره بالمصائب. فالإنسان يتقدم ويشمخ، خلال أزمة ساعة، أكثر مما يتقدم ويشمخ خلال العبادات سنوات عديدة. لأن العصرات هي تحرك الذاتيات وتفجر المواهب، وأما الوظائف الروتينية فهي كالأمواج السطحية التي لا تؤثر على التيارات الفاعلة في الأعماق.

والإنسان الذي لا تهزه الأزمات يفقد وهجه الروحي، كما يترهل جسده إن لم يمارس حركات ترهق أعصابه وخلاياه.

وهذا.. واقع نلمس آثاره في كل مراحل الإنسان ومجالاته، فالذي اعترك الحياة وعاناها يكون أنضج من المثقف الذي لم يلامس الحياة إلا من خلال أساتذته وزملائه، ولولا مصائب الحياة لكانت الحياة نزهة أو مدرسة، ولم تكن مزرعة يزرع فيها الإنسان لتمضية دورة تكامله تأهيلا للآخرة: جنة أو ناراً، باعتبارها مرحلة أعلى من الدنيا، فلا بد أن يدخلها الإنسان أكمل منه وهو يدخل الدنيا.

فالمصيبة ضرورة حياتية، لتنمية الإنسان وتأهيله للآخرة.

٢ـ المصيبــة ليســت مفاجــأة تحصل نتيجــة خلل في نظام الكــون، فالخلل لا يحدث في نظام الكــون، وإنما المصيبة حصيلة التنافر بين توقعات الإنسان المتحيزة له وبين الواقع الموضوعي الثابت الذي لا يجامل ولا يحابي:

ـ لا يحدث خلل في نظام الكون. لأن الكون مصون، فهو مشــدود بإرادة ترفض الخطأ والخلل، هي إرادة الله الذي لا يتبدل ؟؟؟؟رأيهم ولا يتحول:

﴿ ما يبدل القول لدي. . . ﴾(١٨٠).

ولذلك، نجد سنن الكون حكيمة وثابتة:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(١٨١).

ـ والمصيبة ليست مفاجأة. لأن كل ما يحدث في الكون نتيجة طبيعية لتلاقح مقدماتها الطبيعية:

﴿ ما أصاب. . .نبرأها. . ﴾(١٨٢). ولكن الإنســان مزود بطاقة الخيال، وبدلاً من أن يســخرها لترتيب المقدمات التي تفرز الأهداف التي يســعى إليها؛قد يجرفه الخيال إلى أهدافه مباشــرة، فيظن أنها واقعة، ويتوقع أن تترتب عليها نتائجهــا، فيحــدث التنافــر بين توقعاته هذه وبين الواقع الذي يحتاج إلى ســعي حثيث حتى يبلغ مســتوى هذه التوقعات، ويبقــى الواقــع غائباً عن الإنســان في زحمة التوقعات. وبما أن الواقع لا يجمد حيث يتركه الإنســان، وإنما يســتمر في تكاثفه وتوالده الطبيعيين حتى يبلغ كماله حيث يصدم الإنسان؛ فيفاجأ بالصدمة من حيث لم يكن يتوقعها ويسميها مصيبــة، بينما هي ليســت مفاجــأة في مقاييس الواقع، وإنما هي مفاجأة في توقعات من لا يتابع ســير الواقع. ولو كان يتابعه في مصادره الأولية، لتوقعها، فصدف عنها، أو تلقاهما متهيئاً لامتصاصها والسيطرة عليها.

٣ـ وبما أن الإنســان لا يحســن مراقبة جميع تيارات الحياة، وحتى إذا أحسن مراقبتها لا يحسن التهرب من لكماتها، ولا يملك القدرة على تلقيها وهضمها؛ يصاب كل إنسان بالمصائب.

وحتى لو استطاع إنسان ـ يملك المواهب المتفوقة ـ أن يتابع حركة الحياة، ويتقي ضرباتها بنفسه؛ فإنه لا يستطيع أن يتقيهــا بمــا يملك وبمن يقرب، فتصيبه شــحنات الحياة فيما يملك وفيمن يقــرب، ولعل في ما يملك وفي من يقرب ما هو أعز لديه من جسمه. وعندما تستهدف الحياة شخصاً، تصيبه في روحه، ثم سيان أن تكون الإصابة من خلال: جسمه، أو ماله، أو قريبه.

٤. كمـا أن جسـم الإنسـان مركب مـن مجموعة عناصر ماديـة، كذلك: روحه مركب مـن مجموعة عناصر معنوية. وكما أن الإنسـان مؤلف من جزئين: الجسـم والروح، وكل واحد منهما مركب من مجموعة عناصر أولية؛ هكذا.. الكون مؤلف من جانبين: جانب مادي وجانب روحي، وكل جانب مركب من مجموعة عناصر أولية.

وإذا كنا نعرف أسماء بعض العناصر المادية: كالفيتامينات، والأوكسـيدات، والكاربونات... فقد نسـتطيع أن نعرف أسماء بعض العناصر المعنوية عن طريقة مصادر الوحي.

وسواء عرفنا أسماء العناصر المادية والمعنوية أو لم نعرفها، فلا شك أن فقدان أو نقص أي عنصر من هذه العناصر، يـؤدي إلى خلـل أو تغيير في تركيبة الكون. كما لا شـك أن إضافة أي عنصر آخـر إلى الكون، يؤدي إلى تغيير في تركيبته.

والتركيبة الفعلية للكون، مضافة إلى التركيبة الفعلية للإنسـان؛ نظمت بشـكل يؤدي إلى الصدام المسـتمر بين الإنسان وأشياء الكون، لتتم تجربة الحياة.

وبما أن الفرد الإنسـاني يشـكل وحدة مسـتقلة في حاجاته ومطامحه، يكون الجانب الأضعف في مواجهة أي شيء من أشياء الكون. فعندما يحدث الصدام بينه وبين أي شيء، يكون هو الذي يتلقى الصدمة.

صحيح أن الإنسـان عندما يسـتفرد وحدة من وحدات الكون المستقلة، كحيوان أو نبات أو صخرة، فإنه يوجه إليها صدمـة، ويبـدو لـه أنه الأقوى، ولكن إذا أحسـنا تحليل أية قضية مـن هذا النوع، مثلاً إذا أخذنا قضية: (إنسـان يقتل حيواناً)؛ يبدو لنا أن الإنسان ليس الأقوى. لأن عملية القتل إما حق وإما باطل: فإذا كانت حقاً، فالحيوان المقتول سخر الإنسـان القاتل لانتقاله من هذه الحياة، واسـتنزف بعض جهد ووقت ذلك الإنسان. وإذا كانت باطلاً، فإن الحيوان دفع بالإنسان إلى منزلق الشر، فاستنزفه معنوياً، وسينتقم منه، إن لم يكن اليوم في هذه الدنيا فغداً في الآخرة، فيكون هو الذي يتلقى الصدمة.

فرغم ما يحلو للإنسان أن يكون القوي، إنه الضعيف في مواجهة أشياء الكون:

﴿...وخلق الإنسـان ضعيفاً﴾(١٨٣). وهذا.. لا يعني أنه ليس مؤهلاً لأن يكون الأقوى، ليس في مواجهة أشـياء الكون فحسب بل في الكون كله؛ وإنما يعني أنه ـ بشكله المبدئي كإنسان ـ هو الأضعف.

وكان الإنسـان هو الأقوى، لو تغير شـيء ما في تركيبته، حتى يصيب ولا يصاب، في صدامه المسـتمر مع أشـياء الكون. وكان من الممكن أن لا يحدث في الكون صدام، لو تغير شيء ما في تركيبته ـ كما هو الحال في الآخرة

.. ولكن كانت تنتهي فلسفة هذه الحياة، ولم يكن أي مبرر لتمرير الإنسان فيها.

فكان لا بد أن تنظم تركيبة الكون، مضافة إلى تركيبة الإنسان؛ بشكل يؤدي إلى الصدام المستمر بين الإنسان وأشياء الكون. وكان لا بد أن يكون الإنسان هو الأضعف، ليتلقى الصدمات، فينضج ويتبلور، وبالتالي: تتم تجربته، ويتحقق الهدف من تمريره في هذه الحياة.

٥- والناس مختلفون في أرواحهم، أكثر مما هم مختلفون في أجسادهم. فكما لا يتطابق جسدان: لا في تقاسيم الوجه، ولا في خطوط الجسم، ولا في الذبذبات العصبية، ولا في الأوتار الصوتية... وإنما تبقى الفوارق بينهما كثيرة ومتشعبة مهما كان التشابه، وهذه الفوارق مما يميز خلق الله عن صنع الناس؛ هكذا.. وأكثر، تكون الفوارق بين روح وروح، وتنعكس هذه الفوارق على: المطامح والأهداف، والأعمال، والآراء، والأفكار، وحتى على الكلمات، والأشياء، والملابس، والألوان... التي يختارها الفرد.

وبمقدار ما تختلف الأجساد والأرواح، تختلف الصدمات التي يتلقاها الأفراد، فلا يوجد فردان يتساويان في الصدمات التي يتلقيانها، وإذا تساويا في تلقي الصدمات - عدداً أو نوعاً - فلن يتساويا في التأثر بتلك الصدمات.

وببيان آخر:

لا يوجد فردان يتساويان في الاستفادة من أشياء الكون، أي يتساوى فردان في: الطعام، والشراب، والكساء، والسكن، والجنس، والهواء الذي يستنشقانه، والمناظر التي يتمتعان بها... كما لا يتساويان في: الثقافة، والأصدقاء والمناصب... إلى آخر ما يمكن الاستفادة منه في الكون، جسماً أو روحاً.

وإذا وجد إثنان متساويان في هذه الأشياء، حجماً ونوعاً - وهو فرض شبيه بالمستحيل -؛ فلن يتساويا في هضم هذه الأشياء جسماً وروحاً. إذ لا يوجد جسمان يتساويان في هضم كوب واحد من الحليب، فكيف بالتساوي في هضم كل ما يتلقيان من الكون؟!

وكما لا يتساوى فردان في الاستفادة من أشياء الكون، لا يتساوى فردان في التأثر بصدمات الكون، حتى ولو فرض تساوي ما يتلقيان من الصدمات عدداً أو نوعاً.

٦- وإذا تجاوزنا الصدمات المباشرة، التي يتلقاها الفرد في:

جسمه، وماله، وأقربائه... فهنالك صدمات روحية، لا تمر عبر التوابع المادية، كالصدمة في: المطامح،

والأهـداف، والعقائـد . . . وهذه . . . صدمات لا يمكن اتقاؤها، طالما الكون يسـير وفـق إرادة الله، لا وفق إرادة أي واحد من البشر.

فبمقدار ما يكبر روحه، تتسع آفاق: مطامحه، وأهدافه، وعقائده . . . فتكثر الصدمات التي تتوارد عليه.

بالإضافة إلى: أن الروح تتحمل من وطأة التناقضات الكونية بمقدار حجمها، تماماً . . كما أن الجسـد يتحمل من وطأة التناقضات الكونية بمقدار حجمه: فالجسـد ـ بمقدار حجمه ـ يقع تحت تأثير الجاذبية والحاجة إلى الضرورات، ويتعرض لتفاعلات الميكروبات وطوارىء الجو . . . وهكذا . . الروح ـ بمقدار حجمها ـ تقع تحت تأثير المغريات الروحية، والضرورات: كالعقيدة، والثقافة . . . وتتعرض لتفاعلات التيارات الشعورية واللاشعورية.

ويشـير إلى هـذه الحقيقـة، الحديـث المشـهور: «البـلاء مـوكل بالأنبيـاء، ثـم الأوصيـاء، ثـم الأولياء، ثـم الأمثل فالأمثل»(١٨٤). أي: حسب الأحجام الروحية.

٧ـ وطالما البشر ـ جميعاً ـ معرضون للصدمات، فمن الخطأ التفكير في التخلص منها نهائياً إنما الممكن الوحيد، هو تحديد تلك الصدمات بعدم التعرض لها، وهذا . . ليس المهم، لأن كل ذي شعور يحاوله، حتى الخلية الواحدة: (أميبا). إنما المهم هو، كيفية التعامل مع الصدمة.

والتعامل الصحيح مع الصدمة، يتم بأمرين:ـ

الأول:ـ فهم الصدمة فهماً صحيحاً، بأنها ليسـت نزوة عشـوائية من مصدر مجهول. فكل صدمة، حركة مسؤولة، موجهة من قبل حكيم عليم:

﴿ ولنبلونكم. .الثمرات ﴾(١٨٥).

فالله ـ تعالى ـ هو الذي يوجه الصدمات، ويوجهها امتحاناً لا جزافاً.

الثاني:ـ اسـتيعاب الصدمة اسـتيعاباً صحيحاً، بقبولها واسـتثمارها. أي: بتحملها، والتجاوب معها، للارتفاع بها من درجة أدنى إلى درجة أعلى، تماماً . . كما يكون موقف أحدنا من أية بادرة امتحانية، تسدد إليه من قبل المسؤول عنه: فإذا قبلها، وتجاوب مع هدفها، ارتفع إلى أعلى. وإن رفضها، أو تذمر منها، انحدر إلى أدنى.

هكذا . . يجب أن يكون موقف الفرد من جميع الصدمات التي تصيبه:

﴿ وبشر الصابرين ﴾ (١٨٦)، الذين يقبلون الصدمات.

ولكن لا يكفي مجرد قبولها، إنما يجب استيعابها ـ أيضاً ـ:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (١٨٧).

فنحن لسنا لأنفسنا حتى نتصرف بها كما يحلو لنا، وإنما نحن لله، ونتجه إليه عبر مسيرة الحياة، وهذه الصدمات امتحانات يريد بها تصعيدنا إلى المستوى الأمثل.

فـ ﴿ أولئك ﴾ (١٨٨) يصبحون قادرين على استيعاب رحمة الله:

﴿ عليهم صلوات من ربهم، ورحمة ﴾ (١٨٩).

وصلوات الله ورحمته متاحة لجميع خلقه، ولكن جميع خلقه ليسوا مؤهلين لاستيعابها، وإنما المؤهلون لاستيعابها هم المتمرسون بالصدمات.

﴿ وأولئك ﴾ (١٩٠) الذين يفهمون الصدمات، ويستوعبونها، ﴿ هم ﴾ (١٩١) الوحيدون، ﴿ المهتدون ﴾ (١٩٢) إلى مسالك الحياة، وأساليب التقدم فيها.

ـ ٢ ـ

١ـ إن الإنسان منطلق من الله ـ عبر عوالم قبل الدنيا، وعالم الدنيا، وعوالم بعد الدنيا ـ وعائد إلى الله في نهاية النهايات.

٢ـ والإنسان، في كل لحظة.. وفي كل نبضة..، منطلق من الله ـ عبر تلك اللحظة وتلك النبضة ـ وعائد إلى الله في نهايتها.

٣ـ والإنسان ملك مطلق لله وتحت إرادته، وهو خاضع خضوعاً كونياً مطلقاً ـ والله مهيمن هيمنة كونية مطلقة ـ وسائر، كونياً، في تيار الكون إلى حيث يريد الله.

هذه الفلسفة:

﴿إنـا لله، وإنا إليه راجعون﴾(١٩٣) واقعية، قد يجحدها الإنسـان، فيدل جحـوده على عدم واقعيته، وتصوره عن فهم واقعه، وواقع مسيره ومصيره. وقد يؤمن بها الإنسان، فيدل إيمانه على واقعيته، ورشده في فهم واقعه، وواقع مسيره ومصيره.

غـير أن مجـرد الإيمـان العلمي لا يكفي، وإنما الذي يكفي هو الإيمان الجاري في كيان الإنسـان: في شـعوره ولا شـعوره، في تصرفاته وتوقعاته، في تحريكه للأحداث وتحركه بالأحداث. . . هذا الإيمان، يظهر تمكنه من الإنسـان في حالتين - ثانيتهما أقوى من الأولى - هما حالتا: الفرح والحزن، يفقد فيهما الإنسـان أعصابه وأفكاره، ويترك نفسـه لركائزه العميقة: تحركه وتوجهه. هما حالتا: الفرح والحزن.

فـإذا هـاج به الفرح أو الحزن، وخاصـة: الحزن والحزن العميق بالذات؛ نتيجة لصدمة قاسـية، نتيجة لمصيبة؛ وفقد أعصابه وأفكاره، ثم تحرك فيه الإيمان، ولا شيء غير الإيمان، فوجهه عملاً وقولاً، فذلك هو الإيمان المحض، وصاحبه هو المؤمن الصادق.

والذي تثبت المصيبة أنه المؤمن الصادق، فعليه:

١- صلـوات مـن ربه، الصلوات، التي تعودنـا تخصيصها بالأنبياء، بل لا نتجاوز فيها خاتم النبيين وأهل بيته (ص) - مع اختلاف المراتب فيها طبعاً -.

٢- ورحمة.

٣- وهو المهتدي، المتفاعل مع الهداية، لا مجرد العالم بالهدى، وإنما السائر عليه.

- ٣ -

الذين يقولون ذلك، عندما تعصف بهم المصائب، مجرد هذا القول يدل على:-

١- أنهم بلغوا، من قوة الشـخصية، درجة يسـتطيعون بها الصمود أمام زعازع الحياة. أي سـلخوا دور الطفولة، وبلغوا الرشد الاجتماعي.

والرشـد الاجتماعي،إذا اقترن بالإيمان، يجعل صاحبه مؤهلاً عند الله. لأن الدين ليس مجرد حركات وتمتمات. . فارغات بمقدار ما هو وعي واتزان.

٢ـ أنهم تفهموا دورة البشــر، ـ في مســيرته الأبدية، منذ صدوره عن الله عبر عوالم: (الذر)، و(الأشـباح)، و(الدنيا)، و(البرزخ)، و(القيامة)، وحتى عودته النهائية إلى الله ـ وهذا التفهم ـ لدورة البشر ـ يجعلهم واعين لأدوارهم، وقادرين على استلهام صلوات الله ورحمته، ومؤهلين للاهتداء إلى الجزء المتصل بهم من الكون ـ على الأقل ـ .

والذي يتفهم دورة البشر، ويستوعب الواقع الذي يعيشه؛ يختلف حسابه عند الله عن حساب الآخرين.

حب المؤمن لله

﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يَتّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبّونَهُمْ كَحُبّ اللّهِ وَالّذِينَ آمَنُواْ أَشَدّ حُبّاً للّهِ﴾

(سورة البقرة: الآية ١٦٥)

الإنسان يحب نفسه فقط، ويتعامل مع نفسه فحسب.

إنه يحب نفسه، ويحب غيره من خلال نفسه: فيحب أباه وأمه، لأنهما مصدر العطف الذي يشعر بحاجته إليه، وربما يكونان مصدري: رزقه، وثقافته، وسـائر حاجاته... وبما أن محبته لهما من خلال نفســه، وليست خالصة لهما؛ نجد درجة محبته لهما ترتفع وتنخفض، في خط متوازٍ مع ارتفاع وانخفاض حاجته إليهما:

ففي صباه، حيث يحتاج إليهما في كل شؤونه، يحبهما بكل قلبه.

وفي شـبابه، حيث تتوســع مطامحه وقدراته، ولا يستطيعان أن يجيبا على حاجاته من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع هو أن يلبي بعض حاجاته بنفســه، وأن يســتعين بغيرهما؛ يترك من قلبه لهما بمقدار حاجته إليهما، ويشــرك فيه معهما كل من يشترك معهما في الإجابة على حاجاته، فيحب: زميله، وصديقه، ومديره، ومعلمه، وزوجته...

وفي كهولته، حيث لا يســتطيع الأبوان أن يقدما إليه ســوى العطف؛ يصادر منهما كل مجالات قلبه، ولا يترك لهما إلا زاوية العطف التي لا يملأها غير الأبوين.

وإذا كانت أخلاقهما متنافرة مع أخلاقه، بحيث لا يســتطيعا ن تأمين حاجته من العطف الأبوي؛ بادر إلى نبذهما، والتذمر منهما. وإذا زاحما شـيئاً من حاجاته، أو أحداً ممن يشــاركهما في قلبه: فكانت مسلكيتهما تشوه شهرته أو علمه، أو تناقضا مع زوجته أو ابنه؛ لم يتردد في كرههما، والابتعاد عنهما، وإلقائهم تحت رحمة الأقدار.

فإذن: لم يكن يحب أبويه لأنهما أبواه وإنما كان يحبهما لأنهما يؤمنان حاجاته. فأذا عجزا عن تأمين حاجاته، وشعر بثقلهما عليه؛ طردهما من قلبه، وأجره لمن يؤمن حاجاته.

والإنسان يحب ابنه، لعاملين:

١ـ ما من إنسان إلا ويحب طفولته، وانفلاتها، وهوسها، وصخبها... ويعاني رجولته، والتزاماتها، ومطامحها، ومفاجآت الحياة التي ترهقه.. فيحن إلى طفولته، ويتمناها، ويجد في ابنه، عودته إلى الطفولة في نسختها الثانية.

٢ـ ما من إنسان إلا ويرى في ابنه كنز مستقبله، فيجير له ـ من رصيد شبابه ـ ما يحب أن يتوفر له في شيخوخته.

لهذين العاملين، يحب الإنسان نفسه من خلال ابنه. ولذلك: يعطيه ـ من نفسهن ومن كل ما تحت تصرفه ـ بلا حدود، ولكن: إذا شب الابن ـ الطفل، وأصبح رب أسرة، وانصرف عن أبيه إلى عمله وأسرته، فلم يبق طفلاً يكرر طفولة أبيه؛ تتقلص مكانته في قلب أبيه وإذا انتهج منهجاً يخرجه على طاعة أبيه، فلم يبق جزءاً من ممتلكات أبيه؛ يعتبر الأب أن ابنه صادر ودائعه فيه. ولكنه يبقى يغازله، بمقدار ما له من أمل في عودته إلى حضيرته، وربما يتملقه تملق المغصوب الضعيف للغاصب القوي، فيحاول الاسترجاع بالاسترحام. وإذا يئس مه كلياً، أنحى على نفسه باللائمة، لوضعه آماله في غير أهلها، وأنحى على ابنه بالشتائم والتشهير.

فإذن: لم يكن يحب ابنه لمجرد أنه ابنه، وإنما كان يحب ابنه لأنه استعاد طفولته فيه، ولأنه وجد فيه (البنك) الذي يجير فيه من رصيد شبابه لشيخوخته. فإذا خلع الابن طفولته، وصادر رصيد أبيه فيه؛ انسحب من قلب أبيه كلياً، واستمطر لعنته ولعنة اللاعنين.

هكذا.. وبذات المقياس؛ يحب كل إنسان: زوجته، وصديقه، وقادته، والعاملين تحت إرادته، وأساتيذه، وتلاميذه... من خلال محبته لنفسه. أما الحب المجرد، الذي يتغنى به كل الشعراء؛ فلا يوجد بين الناس، لأنهم ليسوا مجردين، إنما هو للمجرد الفرد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فالإنسان يحب نفسه فقط، وكل ما يقول ـ غير ذلك ـ فهو شعر، لاستدرار ما يأمل من الآخرين. وإذا كان الإنسان يحب نفسه فقط، فمن الطبيعي أن يتعامل مع نفسه فحسب.

إنه يتعامل مع نفسه فحسب، ويتعامل من الآخرين من خلال تعامله مع نفسه.

فلكل إنسان مطامح معينة يظن أنه يسعد بها، فيحدد هدفاً يظن أنه يحقق له تلك المطامح، فيبدأ بالجري في

اتجاه ذلك الهدف، الذي يظن أنه لو توصل إليه نال السعادة التي يتصورها لمستقبله.

ويختلف ذلك الهدف المنشود، باختلاف: المستويات، والفلسفات، والقدرات... والمرتكزات المستخلصة من: البيئات، والأمزجة، والتطلعات...

فقد يكون إنسان يحدد هدفه بالمال، وأخوه يحدد هدفه بالسلطة، وإلى جانبهما صديق يجد هدفه بالشهرة، ومعهم رابع يستخف الحياة الدنيا كلها ويحدد هدفه بالجنة.

فالذي يحدد هدفه بالمال قد يسعى لتحصيل شهادة محترمة، ويقرأ الصحف والكتب، ويجمع صداقات، ويتكلم في: المصالح العامة والمثاليات، ويمارس الاجتماعيات... ولكنه يوظف جميع تصرفاته في خدمة المال.

والذي يحدد هدفه بالسلطة قد يقوم بخدمات لأفراد أو لجماعات، ويتصدق على الفقير، ويبني علاقات إنسانية، وربما يصلي، ويدعو، ويحج البيت الحرام... ولكنه يسخر كافة أعماله لصالح الخط الذي يراه مؤدياً إلى السلطة.

والذي يحدد هدفه بالشهرة قد يؤدي أدواراً كثيرة، تبدو موضوعية، وإذا فحصناها تظهر أنها مرتكزة على هدف واحد هو الشهرة.

والذي يحدد هدفه بالجنة مهما توغل في الدنيا، واستقطب منها؛ فإن دراسة أولية لأوضاعه، تكشف أنه يحاول احتواء الدنيا، وقيادتها إلى الجنة.

وهكذا.. لكل إنسان خط ينظم أعماله كلها - مهما بدت متبعثرة أو متناقضة - في اتجاه الهدف الذي حدده لنفسه. وسواء أكان مخطئاً في تحديد هدفه أم مصيباً، وسواء أكان مخطئاً في ترابط أعماله أم مصيباً؛ فالمهم أن له هدفاً، ويتصور أنه يوجه أعماله بشكل تتفرع في هدفه الذي يظن أنه يحقق مطامحه.

فإذن: كل إنسان يتعامل مع نفسه من خلال تعامله مع الآخرين، مهما حاول التظاهر بغير ذلك. ويكشف هذه الحقيقة بوضوح: أنه لا يشعر بالتناقض بين نفسه وبين الآخرين إلا ويبتعد عنهم، استعداداً للهجوم عليهم والثأر منهم. وأنه لا يشعر بأن عدواً - من أعدائه التاريخيين - يساعده على تأمين شيءٍ من هدفه، إلا ويقلب الصفحة معه، ويتعلق به وكأنه ولي حميم.

فالذين يعبدون الأصنام: الحجرية، أو البشرية، أو الفكرية... يظنون أن تلك الأصنام تؤمن لهم شيئاً - أو

أشـياء ـ من أهدافهم، فيحبونها بالفعل. ولكن ظنهم هذا . . يبقى أملاً يدغدع أحلامهم ولا يصل إلى درجة اليقين، لسببين:ـ

١ـ شكهم في قدرة تلك الأصنام على تأمين ما يأملون منها.

فاحتمال عجز الأصنام عن تأمين ما تريد وارد في قلوب من يعبدونها.

٢ـ شكهم في استمرار تلك الأصنام إلى جانبهم. فاحتمال تقلب الأصنام وارد في قلوب من يعبدونها.

لهذين السببين، تبقى محبتهم لها محدودة وموقتة.

والذيـن يعبـدون الله، يعلمـون أن الله يؤمن لهـم أهدافهم كاملة غير منقوصة، فيحبونـه محبة غير محدودة وغير موقتة، لأن إيمانهم به، يقين لا توسـوس حوله الشـكوك. فهم يعلمون: أن قدرة الله مطلقة، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السـماء. ويعلمـون: أن الله ثابت في ذاته وفي صفاته، فهو الواسـع الذي يحيـط بالظروف والأحوال يقلبها كيفما تقتضي حكمته، ولا تحيط به الظروف والأحوال حتى تؤثر على إرادته.

فهم أشد حباً لله، من حب عبدة الأصنام لأصنامهم.

حقيقة الصيام

﴿ يا أيها الذين آمنوا! كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ١٨٣)

لا يطرح الصيام على من يعرف أن الإسلام دين واقعي حياتي، إلا ويتساءل:

(ما هي حقيقة الصيام، التي جعلته ركناً من أركان الإسلام، ومن أركان الأديان ـ كما يقول القرآن ـ؟).

(هل الصيام هو مجرد الامتناع عن الممارسات الحيوانية الترابية، من: الأكل، والشراب، والجنس. . . أم الصيام شيء آخر؟؟).

لايمكن أن يكون الصيام مجرد الكف عن الممارسات الجسدية، لأمرين:-

١- أن طبيعة الصيام - في ظاهر التشريع - طبيعة سلبية، لا يمكن أن، تكون هدفاً من أهداف شرائع السماء الإيجابية. لأن كبح نداءات الجسد - ولو لفترة الصيام - عملية هدم، وليست عملية بناء، فهو عملية سلبية، لا ينسجم مع طبيعة الأديان، وخاصة مع طبيعة الإسلام، الذي هو حضارة الروح والجسد معاً، والذي اهتم برعاية الجسد كما اهتم برعاية الروح، فقال:

﴿وابتغ - فيما . . .الدنيا . . . ﴾(١٩٤).

وقال - على لسان الإمام علي بن الحسين (ع) - : «ليس منا من ترك آخرته لدنياه، ولا من ترك دنياه لآخرته»(١٩٥) وقال - على لسان معصوم آخر -: « . . . . وإن لجسدك عليك حقاً»(١٩٦).

٢- إن طبيعة الصيام - في ظاهر التشريع - محاولة لإلغاء رغبات الجسد - ولو فترة الصيام -. وإلغاء رغبات الجسد لا يمكن ما دام الجسد، إلا إذا كان حلقة في سلسلة أعمال تصفوية تمارس لإلغاء الجسد أو تذويبه.

والإسلام عمل لصيانة الجسد وترتيبه، واعتبر أي عمل يؤدي إلى إهلاك الجسد - أو طرف من أطرافه - من أكبر المحرمات، وألغى أي حكم يؤدي الالتزام به إلى إهلاك الجسد، أو طرف من أطرافه.

والإسلام احترم رغبات الجسد، واعتبرها أمانة الله لدى الإنسان، وشرع الأحكام لتقنينها.

فكيف يكون إهمال رغبات الجسد، عبادة تقرب إلى الله، والاستجابة لها، معصية تبعد عن الله؟؟!!

فلا بد أن نفترض الصيام، أحد شيئين لا ثالث لهما:-

١- شيء مركب له جانبان: جانب سلبي وجانب إيجابي وجانبه السلبي، تجاهل نداءات الجسد - فترة الصيام -. فيكون التساؤل:

(إذن: فما هو جانبه الإيجابي؟).

٢- شيء بسيط، يمهد له تجاهل الجسد - خلال فترة الصيام - كالبناء الذي يمهد له الهدم. والصيام، يؤدي دور الهدم. فيكون التساؤل:

(إذن: فما هو الصوم الحقيقي الذي يمهد له الصيام الظاهري؟).

ففي الفرضية الأولى، يكون التساؤل بحثا عن الجانب الإيجابي للصيام.

وفي الفرضية الثانية يكون التساؤل بحثاً عن حقيقة الصيام.

ويمكن الجواب على هذا التساؤل بما يلي:.

١- إن حقيقة الصيام - كلها - هي ما يبدو من ظاهر التشريع، وهو إيقاف الغرائز - فترة الصيام -. وليس إيقاف الغرائز لفترة محددة، عملاً سلبياً، إذا كان من مصلحة الغرائز أنفسها، وفي صالح الجسد ذاته. لأن الإيجابية بالنسبة إلى أي شيء، لا تعني العفوية والاسترسال، وإنما تعني الالتزام وفق التقييم الواقعي المدروس.

والتقييم الواقعي المدروس، دل على: أن الاسترسال العفوي مع الغرائز إلى منتهى طغيانها واندفاعها؛ يودي إلى استنفادها الباكر، وتبكيت الجسد من ورائها. وأن ترويضها، يساوي احترامها وصيانة الجسد من ورائها.

وقد أفاد الطب: أن الصيام - بظاهره الوارد في نصوص الشريعة - يؤدي إلى تربية الجسد، وتخليصه من الرواسب المتطفلة عليه، والزوائد العالة التي تشل نشاطه واستقامته. وقد أفاد الطب أن الصيام - بظاهره الوارد في نصوص الشريعة - يؤدي إلى تنشيط الغرائز، وإنقاذها من الرهق الكابي.

فهو عمل إيجابي، رغم ظاهره السلبي.

لأن واقع كل شيء لا يقاس بظاهره، فرب شيء ظاهره سلبي وواقعه إيجابي: فالنوم - في ظاهره - عمل سلبي، لأنه يعطل الجسد عن ممارساته الحيوية، و - في واقعه - إيجابي، لأنه يهدئ الأعصاب ويريحها، فيهيئ الجسد لمواصلة ممارساته الحيوية.

وتشذيب الشجر - في ظاهره - عمل سلبي، لأنه تنقيص لحجمه، وبتر لأغصانه، وتحديد لامتداده، و - في واقعه - إيجابي، لأنه تطهير له من عفويته، وإنقاذ له من الفروع المحسوبة عليه، التي تعيق فيه نشاط الإثمار ووفرة الغضارة.

الدعاء: يطوي المداواة

﴿وإذا سألك... يرشدون﴾.

(سورة البقرة: الآية ١٨٦)

مباحث: ـ الدعاء لماذا؟

أوليس الله ـ تعالى ـ سير الكون بنظام قوي متين يشد بعضه بعضاً؟! هكذا النظام العام الذي ربط الكون ببعضه، ابتداءً من الذرة وانتهاءً بالمجرات الهائلة ـ في حدود ما نعرف .. وهو أخبر بأن ما يحوي الفضاء الخارجي، من السماوات العلى وما فوقها ـ أيضاً ـ مشدود بنظام قوي دقيق:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه... ﴾(١٩٧)،

﴿... الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى﴾(١٩٨)...

هذا النظام العام، الذي كان الأنبياء والأولياء يوفقون أعمالهم به، وهم قمم العارفين بالله وبالكون، وخيرة الداعين إلى الله والداعين الله.

فعلى الإنسان أن يكتسب الخبرة ـ في حدود حاجاته ـ بالنظام الكوني العام، ويرتب أعماله وفق معطياته بوعي واتقان، حتى تثمر جهوده بدون دعاء، كما يفعل العلماء الملحدون. فإنهم وإن ألحدوا بالله، إلا أنهم يؤمنون بالنظام الكوني العام، ويستفيدون من خبرتهم به، في تسخير أكبر قدر متاح من المواد. والله ـ تعالى ـ لا يعيقهم عن استنتاج مواد الكون لأنهم لا يدعونه.

والجواب:

.. صحيح أن الله تعالى، سير الكون بنظام قوي متين يشد بعضه بعضاً، في حدود ما نعرف وخارج حدود ما نعرف.

.. وصحيح أن من رتب أعماله وفق معطيات ذلك النظام، يستثمر جهوده، حتى بدون دعاء. وأن الله لا يعيقه عن استنتاج مواد الكون، لمجرد أنه لا يدعوه.

.. ولكن الصحيح ـ أيضاً ـ أن ما نستطيع معرفته وتوفيقه من النظام الكوني العام، ليس كل شيء في جميع استنتاجاتنا لمواد الكون فهنالك شيء آخر هو: (العناية الإلهية): قد يأتي، فيتمم الناقص، ويطوي مسافات ومداواة. وقد لا يأتي، فيتأخر السابق، ويبتعد القريب.

أمثلة:

.. طالبان جالسان على طاولة واحدة للامتحان، أحدهما حضر ٥٠٪ من دروسه والثاني حضر ٩٠٪، ثم تأتي الأسئلة من ذلك الـ ٥٠٪ الذي حضره الطالب الأول ومن ذلك الـ ١٠٪ الذي لم يحضره الطالب الثاني، فينجح الأول بتفوق ويسقط الثاني أو ينال نجاحاً محدوداً. فما هو السبب؟ هل هو الصدفة؟ الصدفة مستحيلة.

. عالمان يقضيان في مختبر: أحدهما يطرق مفكراً، فتلتمع في خياله لحظة نصف واعية بفكرة، فينهض مسرعاً إلى الأدوات المتراكبة، ويجرب تلك اللمعة الذهنية، فإذا به يتوصل إلى اكتشاف كبير. والآخر يحك رأسه وذقنه، ولا يهتدي إلى تكميل الجهاز البسيط، الذي بقي يضاجعه في المختبر من سنين. فيحرز الأول في لحظة، نجاحاً ينتظره الثاني منذ سنين ولا يجده. فما هو السبب؟ هل هو الصدفة؟.

.. شاعر تطلب منه قطعة شعرية في أسنى المناسبات، أو يحاول تسجيل قطعة فريدة عبر قصيدة. فيغلق باب مكتبه، ويضع الورق أمامه، ويمتص القلم حيناً.. ويعضه حيناً.. حتى لا يغفو بين أنامله؛ دون أن ينبض عرق في رأسه. ويضيق، فينهض من مكتبه، ويدوخ الغرفة روحة وجيئة، ويكاد ينفجر، فيدخن، ويتمطى ويتثاءب، ويضرب الأرض والجدران برجليه وقبضتيه، ولكن دون جدوى.

قد يمر في طريق تتعبه المناكب المتزاحمة، وتهدده الآليات المتسابقة، وأشعة الأصيل تتحدى الرؤية. فإذا به يرقص على أراجيح الضياء، ويعاكس غيمة غفت حين سارت قافلتها، حتى لا يعرف كيف يوصل نفسه إلى أقرب قلم وورق، ليطوف الكلمات التي انفجرت في رأسه بلا ميعاد، لتحرقه في وسط الطريق.

إذن: كل شيء إلهام. لذلك: عندما يفتح الالهام، ينفجر الإنسان، وإن لم يحاول. وعندما يغلق الإلهام، يصبح دماغ الإنسان كقطعة حجر، مهما حاول أن يفجره فكأنما يحاول تفجير الصخرة ماءً.

س:. إذا كانت إرادتك - التي ينطلق منها دعاؤك - لا تستطيل، حتى تؤثر على إرادة الله وحكمته البالغة مطلقاً، فلا تستطيع إرادتك أن تغير حلكة الشمس والأرض والجاذبية، ولا تبدل حتى حركة قلبك ومعدتك؛ فكيف يؤثر دعائك - عند الله - على أي أمر من الأمور؟! والله واحد، ولا فرق لديه بين الكبير والصغير، فكل الأمور متساوية عنده.

ج:.

١- إن مجرد الدعاء ممارسة نافعة لك، فمجرد التوجه إلى الله يرفع مستواك، ويبلور ذاتك، بمقدار ذلك التوجه.

٢ـ إن الأشـياء ليسـت متسـاوية بالنسبة إليك: فهنالك أشـياء اختص الله بها، ولم يترك لك صلاحية التدخل، مثل الحـركات الكونيـة، حتـى في باطنك ـ مثلاً ـ. وهنالك أشـياء تركهـا الله لمدى إرادتك، فأنت تشـعر بأنك لو تناولت الأشياء المغذية يقوى جسمك، ولو لم تتناولها يضعف جسمك، لأنها متروكة لإرادتك.

٣ـ إن التوجـه إلى الله ـ ذاتـه ـ لـه تأثـير في تغيير بعض الأشـياء، كمـا أن مجرد التعرض لنور الشـمس له تأثير في جسمك. أما أن نعرف: ما حدود تأثير دعاء كل فرد؟ فعلينا أن نعرف أولاً: ما حدود تأثير نور الشمس على جسم كل فرد؟ لا أن نعرف حدود تأثير دعاء كل فرد، كما لا نعرف حدود أشياء كثيرة. وهذا . . شيء واضح وبسيط.

والجواب العام من كل هذه الظواهر:

١ـ منطلق هذه الظواهر ـ كلها ـ مجرد استبعاد. والاستبعاد لا يزيد عن التعبير عن: عدم استيعاب الموضوع بشكل كاملة من جهة، وعدم وجود دليل يعاكسـه من جهة أخرى. وهذا . . يسـاوي الشـك الذي: لا يثبت أياً من طرفيه، ولا يدحضه.

٢ـ التشـكيك حسـن ـ بالنسـبة إلى عمل الإنسـان ـ إذا كان يريد أن يقوم بعمل، ليأخذ جميع الاحتمالات السـلبية والإيجابية بنظر الاعتبار، فيناقشها، حتى لا يفاجأ بما لم يكن في الحسبان. وأما بالنسبة إلى عمل يخص غيره، فهذا التشكيك في غير محله، فكيف بعمل الله وأوليائه؟!

من شرائط الدعاء

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(سورة البقرة: الآية ١٨٦)

ادعو ـ أيها الناس! ـ بشـرائط الدعاء حتى يسـتجاب لكم، أما إذا دعوتم بدون توفر شرائطه فلا تتوقعوا الاستجابة، فليس الدعاء إلا الطلب من الله، والله ـ تعالى ـ لا يلبي أي طلب يرفع إليه، وإلا لشاع الفوضى في الكون، وارتبك النظام الـذي يسـير بـه الكون: فكما أنـه لا يمنح القمح إلا لمـن زرع، ولا يفجر النخيل إلا لمن شـتل، ولا يهـب الأولاد إلا لمن استولد . . . لأنه قرر للكون نظاماً، وأحب سيادة النظام؛ فلا يخرقه إلا لسبب أحب إليه من سيادة ذلك النظام.

والدعاء، ما هو الدعاء؟

إنه محاولة لخرق ذلك النظام، لا بقوة الداعي نفسه، إذ لا قوة له على اختراق جدار التكوين، وإنما بقوة الله المهيمن على ذلك النظام، فلا بد أن يكون الداعي في وضع يجعل استجابة دعائه أحب إلى الله من استمرار ذلك النظام.

فمن كان قريباً إلى الله بهذا المستوى، فليعلم: أن دعاءه يساوي التلبية. كما كان إبراهيم الخليل (ع)، حيث دعا - بعد بناء الكعبة - بدعوات عديدة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء(٣٨) الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء(٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء(٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(١٩٩)؛

وعندما نقلها الله في القرآن لم يردفها بقوله: (قد أجبت دعواتك)، لأن مجرد دعاء إبراهيم (ع) ضمان أكيد لاستجابة الله تعالى. فقد استجاب الله هذه الأدعية، رغم أنها دعوات واسعة المدى، لأنها تشمل كل الأجيال المنحدرة من صلبه إلى يوم القيامة.

ومن كان بعيداً عن الله كالكافر، أو قريباً من الله ولكن دون المستوى اللازم لاستجابة الدعاء كالفاسق؛ فليعلم: أن دعاءه يساوي الرفض:

تماماً.. كالعامل ورب العمل: فالعامل الذي يتقن علمه، ويبدي الإخلاص حتى التفوق، فليعلم: أنه إذا طلب منحة من رب عمله فإنه يستجيب له. والعامل الذي يهمل عمله، ولا يبدي الإخلاص مطلقاً، أويبديه حيناً ويحجبه أحياناً، فليعلم: أنه إذا طلب منحة من رب عمله فإنه لا يستجيب له.

وكالإنسان الذي يركب آلية سيارة: فإذا كان قد أكملها فإنها تنقله إلى هدفه، وإلا فإنها لا تنقله إلى هدفه.

فللدعاء - كما للأشياء - شرائط: إذا توفرت يؤدي مفعوله، وإذا لم تتوفر لا يؤدي مفعوله.

وانطلاقاً من هذه القاعدة نستطيع التأكيد على: أن أدعية المؤمنين الصالحين، مستجابة مئة بالمئة. وأن أدعية الكافرين، مرفوضة مئة بالمئة. وأن أدعية المؤمنين المترددين بين الطاعة والتمرد، مترددة بين الاستجابة والرفض. فقد يصادف دعاء - منها - شرائطه كاملة فيستجاب، وربما لا يصادف شرائطه فيرفض. كما أن جهاز اللاسلكي المعطوب، قد ينقل كلمة وقد لا ينقل كلمة، لأن الأولى صادفت كماله، والثانية صادفت نقصاً فيه.

أما ما نجد في بعض الحديث، من أن (عابداً) رفض دعاؤه وأن (فاسقاً) استجيب له؛ فلأن العابد ـ في تلك اللحظة ـ ركبه الغرور المرائي فأبعده عن الله تعالى، والفاسق ـ في تلك اللحظة ـ غمره الندم الخاشع فكان توبة، فأصبح زلفة.

فالأول فقد بعض الشرائط بعد كمالها، والثاني استكملها بعد نقصها. فكانت المفاجأة في: فقدان الأول لشرائط الزلفة بمجرد الغرور، وفي استجماع الثاني شرائط الزلفة بمجرد الندم، لا في: استجابة الله ـ تعالى ـ للبعيد، ورفضه للقريب. فهذا.. مستحيل على الله، لأن الله حكيم: فكما لا يحرك الأرض بالورود لمن زرعها شوكاً، ولا يبعثها شوكاً لمن زرعها بالورود ـ رغم أنه على كل شيء قدير ـ؛ كذلك: لا يلبي نداء البعيد، ولا يرد نداء القريب.

فادعوا ـ أيها الناس! ـ ما طاب لكم الدعاء، مزقوا حناجركم صراخاً، وحطموا صدوركم شهيقاً، فإن ذلك لا يقدم ولا يؤخر، ولكن اعلموا:

أن من أول شرائط الاستجابة، هو الإيمان. فمن كان مؤمناً ترجى استجابته، وما دعاء الكافرين مستجاباً أبداً. لأنه كمن يصرخ في جهاز حاكٍ معطوب، أو يحث آلية ناقصة على الحركة، أو ـ كما يقول المثل ـ (كمن ينفخ في رماد، ويصرخ في وادٍ).

ولذلك: فدعاؤهم ليس مرفوضاً فحسب، لأنه منطلق من موقع ناقص، وليس هو غلطاً فقط، لأنه منطلق من موقع الجهل بمقاييس استجابة الدعاء، وإنما هو نوع من الكفر بالله، فليس هو إلا عمقاً في ضلال. لأن الكافر الذي يدعو ـ مع معرفته بموقعه من الله ـ، هو الذي يتصور أن بإمكانه أن ينتزع الاستجابة من الله بعنجهيته، كما قد ينتزع حوائجه من خصومه بالعنجهية، قياساً على مختلقات الأناجيل المحرفة التي تروي أن (يعقوب)(ع) انتزع البركة = النبوة من الله عنوة، بعد صراع طال من أول الليل إلى آخره، وانتهى بفوز يعقوب. ونظائر هذه القصة الوهمية، من القصص التي تصور الله ـ تعالى ـ في مستوى فرد من البشر، ساذج جاهل ـ وسبحان الله ـ. فدعاء الكافرين ـ انطلاقاً من هذا التصور الضال ـ توغل في ضلال، فهو لا ينتهي بالرفض فقط، وإنما يدفع إلى الانزلاق نحو الهوة أعمق.. فأعمق.. لأن الدعاء ـ في مثل هذه الحالة ـ نوع من الممارسة للضلال = المتصور، وممارسة الضلال تؤصله كما أن ممارسة الهدى تؤصله.

القتال: درءاً للفتنة، وحائطة للدين

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلّهُ للّه﴾

(سورة البقرة: الآية ١٩٣)

الإنســان، هذا الخلق البشــري المعقد الدقيق، في مسيرته نحو قمته، منذ تكونه، قبل تكون الزمان، وعبر العوالم الكثيرة ـ التي من أواخرها عالم الدنيا ـ يتأرجح بين عاملين، كل منهما يشده في اتجاهٍ معاكس للآخرة، وهما:

الرغبة والرهبة.

فالرغبة تدفعه نحو الانفلات، والإغارة على كل ما يرضي شـهوته. والرهبة تدعوه إلى الالتزام، والتحصن بما يراه حقاً.

والرغبة على قسمين:

١ـ جسدية، تتعلق بمرطبات الجسد، كالطعام، والشراب، والكساء، والسكن، والجنس، والجمال المنظور والمسموع والمشموم، وما يوفر بعض هذ ه المرطبات كالمال...

٢ـ روحية، تتعلق بمرطبات الروح: كالشهرة، والسيطرة، والرضى ـ بأن يكون مرضياً لدى غيره ـ...

والرهبة على قسمين:

١ـ جســدية، تتعلق بنواقص الجســد: كالجوع والعطش، والعري، والمســكنة، والعزوبة، والبشــع المنظور والمســموع والمشموم، وما يمهد لكل هذه النواقص كالموت...

٢ـ روحية. تتعلق بنواقص الرواح: وهي الشعور بأنه مهمل، أو مغلوب، أو مكروه...

وأعلــى الرغائــب هــي الرغائب الروحيــة، لأنها تؤمن ـ ولــو في دائرة الاحتمــال ـ الرغائب الجســدية. وقمة الرغائب الروحية، هي السيطرة.

وأخطر الرهائب هي الرهائب الجسدية، لأنها تعبر ـ ولو في التصور ـ عن الرهائب الروحية. وأشد الرهائب الجسدية هو الموت، لأنه يوقف نشاط الوجود، بالنسبة إلى من لا يؤمن بالمفهوم الديني للموت.

والإغــراء يحــرك الرغبة، والإرهــاب يحرك الرهبة. وكل إيجابية مرغوبة، تحرك ســلبية مرهوبــة. وعندما تتقابل الرغبة والرهبة، ينتصر الأشد.

والأقوى فكراً ـ أو جسداً ـ يجد الوسائل لتخفيف رهبته، فتنشط رغبته للتجاوب مع المغريات التي تمرح في ساحة الوجود . وإذا استسلم لرغبته، يكون (مفتوناً)، يغير على كل ما يرضي شهوته، وينسف كل الحواجز التي تعترضه، حتى لو كانت حدود الله التي يدين بها عباده.

و (المفتون) وحش، يحاول أن يمسخ كل شيء وحشاً حتى ينسجم معه، وحتى الدين يحاول أن يمسخه وحشاً أليفاً يخبط غيره ليربت له . ولا يمكنه مسخ الدين إلا إذا جعل هواه إلهه، يصوغ الدين من مجموعة مجاملات تغني رغبته، ويفتح المجتمع وليمة للهوه:

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه؟!. . . ﴾ (٢٠٠)

فلا بد من تصعيد الرهبة في نفوس الأقوياء، بإخراج الإرهاب من مجرد تأنيب الضمير إلى معسكر قوي يهدد المنفلتين بأشد الرهائب، وهو الموت ـ في مفهومهم ـ، حتى يعود الدين مطلقاً لله، فيضعه نظاماً يوقف الناس سواسية ـ كأسنان المشط ـ أمام حقوقهم وواجباتهم.

﴿ وقاتلوهم ﴾ ، فالقتل أشد الرهائب في مفهوم المنفلتين، ﴿ حتى ﴾ لا يستطيعوا تخفيف الرهبة من الجريمة، و﴿ لا تكون فتنة ﴾ تسلمهم إلى الإغراء، وحتى تأخذ مقاييس الواقع مواقعها، و﴿ يكون الدين ﴾ خالصاً ﴿ لله ﴾ ، فيضعه نظاماً تشريعياً ينظم الجزء الاختياري من حركة الإنسان، متناسقاً مع النظام التكويني الذي ينظم الجزء الإجباري من حركة الإنسان، وفق الفلسفة العامة للوجود الدنيوي، التي انبثقت هي والكون توأمين من إرادة الله القدير الحكيم.

ـ ٢ ـ

١ـ البشر هو البشر، يحمل في طياته الروح والحنين إلى القيم.

ولكنه جسد أكثر مما هو روح، وهو حاجات قبل أن يكون حنيناً، وضرورات قبل أن يكون ضميراً.

صحيح أن هنالك من يقدمون الروح على الجسد، ولكن أين هم؟ وكم هم؟ إنهم في أفضل التقادير لا يشكلون نسبة مئوية ولا ألفية، وربما يشكلون نسبة مليونية . وهذه نسبة لا تنافي العموم.

وصحيح أن هؤلاء القلائل، يثورون . . ويغيرون . . ولكنهم ـ منذ خلق الله البشر، وحتى اليوم ـ لم يتمكنوا في الحياة، ولم يغيروا مجمل البشرية.

فالبشــر - على وجه العموم - بشـر الجسد لا بشــر الروح، فيعتبر نداء الجسد ضرورة ونداء الروح كمالية، فيندفع مع الجسد ويتمهل مع الروح.

فالأولويات لحسابات الجسد.

وفي حسابات الجسد، تأتي الرهبة قبل الرغبة. فيحاول إشباع رغباته إذا لم ينتصب الخطر أمامه، أما إذا جاء الخوف ينتهي دور الرجاء، فدفع المضرة قبل جلب المنفعة.

هكذا.. يفكر البشر، ومن هذا التفكير تنطلق تصرفاته.

٢- البشــر - دائماً - يحب التبجح، فيسـف، ولكن لا يعترف بأنه يسـف، لأنه يعرف الأفضل. والأفضل أصعب، فلا يحتمل الأفضل، ويريد أن يحمد بالأفضل. فيعمل القبيح، ويصوره - لغيره - حسناً، حتى يبرره الناس، ويعتبروه حسناً. ولذلك: يفلسـف كل لموقفه، ما وسـعه التفلسـف، فتنطلق الفلسـفات من المواقف، ولا تنطلق المواقف من الفلسـفات. فرغم أن الجيوش من المسـتويات البدائية، ولا تنطلق من مواقع الحق؛ إلا أنها لا تسـير إلا وتسحق مبادىء وتشيد مبادىء والمفكرون يسيرون في ركاب الجنود: فلا يكفهر مقاتل إلا ويركع فيلسوف، ولا تزعق رصاصة إلا ويسبح قلم.

لهذيـن السـببين: لأن البشــر جسـد أكثر ممـا هو روح، ولأنه يـبرر مواقفه؛ نجد الحـق لا موقع لـه إلا عند الذين يستطيعون الارتفاع فوق بشريتهم، وهم المعصومون - في الدرجة الأولى -. ومجاهرتهم بالحق لا تجدي غيرهم، لأن الحق ليس مجهولاً وإنما هو مسحوق.

ولا يفجر الحق - من تحت ركام نداءات الجسد، والتفلسفات -، ولا يمنحه الشرعية والسيادة؛ غير القوة القاهرة، التي ترفض وتفرض، وهي قوة (الموت)، الذي يتقيه البشر أكثر من أي شيء آخر: فمن كانت معه قوة (الموت)، فهو صاحب الحق، مهما توغل في الباطل ومن خانته قوة (الموت)، فهو صاحب الباطل، مهما توغل في الحق.

فأصحاب الرسالات، ليس لهم أن ينتظروا حتى يفتح الحق أمامه الطريق، وإنما عليهم - هم - أن يفتحوا الطريق أمام الحق. ولا يمكنهم أن يفتحوا الطريق أمام الحق، إلا إذا شهروا (الموت) في وجوه المتنكرين للحق.

﴿وقاتلوهـم﴾ أيهـا المصلحون! ﴿حتى لا تكون فتنـة﴾، لأن الافتتان بالمغريات لا يقف عنـده حد إلا حد الموت. ﴿و﴾ قاتلوهـم، أيهـا المؤمنون بالله! حتى ﴿يكون الدين لله﴾، ولا يكون - كله، أو بعضه - تبريراً للمواقف، وتملقاً للشهوات.

- ٣ -

هنالك: مسألة (الحب والكره) في الإنسان العادي، والإنسان الولي، وفي الله.

فالإنسان العادي: يحب من يوافقه، ويكره من يزعجه. فيحب ويكره بعاطفته. وهل الله، والإنسان الولي، أيضاً كذلك؟؟

أما بالنسبة إلى الله - تعالى - فمستحيل، لـ:

١- لا يوجد من يوافقه ومن يزعجه لأن الله - تعالى - ليس من نوع الإنسان في شيء، حتى يوافقه شيء من الإنسان، ويزعجه شيء من الإنسان.

٢- لأن الله - تعالى - ليس مهباً لعاطفة، حتى يكون له الحب لشخص والكره لشخص.

ولكن الله جعل الحياة ترافق من يوافقها وتعاكس من يعاكسها، فكأنه يتصرف مع من يعرفه ويفهم الحياة تصرف المحب مع حبيبه، وكأنه يتصرف مع من لا يعرفه ولا يفهم الحياة تصرف المبغض مع بغيضه. فنسب القرآن والحديث، الحب والكره إلى الله، لوجود نتيجة الحب وهي المرافقة ونتيجة الكره وهي المماكسة.

فالمسببات متشابهة، والأسباب مختلفة، ولكن العقلية العامة لا تهضم اختلاف الأسباب مع وحدة المسببات، والقرآن والحديث جاءا بلغة تهضمها العقلية العامة. فالتعبير غير دقيق، ولكنه أقصى ما تهضمه العقلية العامة ويحمله التعبير.

وأما بالنسبة إلى الإنسان الولي فشبه مستحيل لـ :

١- إن عاطفته مقهورة بعقله، فيريد ما يقرر العقل وجوده، ولا يريد ما يقرر العقل عدمه. فهو لا يندفع بعاطفته، فله عاطفة - كأي بشر - ولكن عاطفته لا تقهر عقله، ولا تستقل بالتأثير، وإنما تؤيد وتعارض، ولكنها لا تملك قوة الفرض ولا قوة الرفض، فهي لا تحكم وإنما تشير، وإشارتها غير ملزمة.

٢- إنه وسيط في التكوين، كما هو وسيط في التشريع. وقد جبل على حب التكوين عقلاً وعاطفة، كما جبل على حب التشريع عقلاً وعاطفة، فهو لا يكره كما نكره، وإنما ينفذ الموقف السلبي للتشريع من شخص مجرم، دون أن يؤثر على تنفيذه - وفي ذات الوقت - الموقف الإيجابي للتكوين من نفس الشخص.

فالله قد يقول لنا؛ (اكرهوا من عمل سيئةً)، حتى لا تجري فينا عدوى السيئة، دون أن نكرهه هو. وكذلك: الولي، لأن موقفه من موقف الله.

فهو يشبه الوالد الذي ينهى ولده الصغير عن التقاص مع ولده الكبير، لأن مصلحة الصغير تقضي بالتخلي عن الكبير. لا لأن الوالد قد تخلى عن الكبير بالفعل، وإن قد صدر بالفعل من الكبير ما لا يحبذه الوالد.

وفي هذه.. تعبير كامل عن هذا المغزى: ﴿وقاتلوهم﴾.

فالله أمرنا أن نقاتلهم، ولكنه لا يريد هو أن يقاتلهم. ولو أراد قتالهم لأفناهم بلا قتال، وإنما أراد لنا أن نقاتلهم.

﴿حتى لا تكون فتنة﴾.

وتقلص عدوى الانحراف.

الإنفاق للمجهود الحربي

﴿وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(سورة البقرة: الآية ١٩٥)

يبدو من استطراد الآيات، أن الإنفاق المعين ـ هنا ـ هو الإنفاق الجهادي، لأن المجهود الحربي يستنزف ـ عادة ـ ما لا تحتمله الميزانية الاعتيادية للدولة:

١ـ لأن النظرة الاقتصادية ـ في أي نظام ـ تنطلق من موقع الحاجات المستمرة في حالة السلم، لأنها الحالة الطبيعية والغالبة، فلا يوفر فيها شيء لحالة الحرب، لأنها حالة شاذة، ناتجة من انحراف في مزاج المجتمع، والنظام العام يعالج الحالات الاعتيادية.

٢ـ لأن حالة الحرب غير قابلة للتحديد، فلا يمكن توفير شيء لها، وخاصة: في نظام عالمي خالد، كالنظام الاقتصادي الإسلامي: فقد لا تقع حروب مدى قرون، وربما تثقل قرون أخرى بسلسلة حروب طواحن.

فكان أن فتح القرآن الكريم اعتماداً خاصاً للمجهود الحربي، يقدر بقدره، ففرض على المسلمين ـ بمقتضى

ظاهر الأمر في ﴿أنفقوا﴾ ـ إنفاقاً خاصاً هو الإنفاق ﴿في سبيل الله﴾ .

وهـذا التعبـير: ﴿في سـبيل الله﴾، كثـيراً مـا يطلق علـى الجهاد، لأنـه أكمل مصاديـق سـبيل الله. فأنفقوا ـ أيهـا المسـلمون! ـ للمجهـود الحربـي، قدر المسـتطاع. ﴿ولا تلقوا بأيديكـم إلى التهلكة﴾ بإنفـاق كل ما لديكم، فتنكبـوا بانهيـار اقتصادي لا نهوض منه، ﴿و﴾ إنما ﴿أحسـنوا﴾ بما يمكنكم الاسـتغناء عنـه، فـ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ .

فتكـون الآيـة موحية بكبح العاطفة في الإنفاق، حيث كان المسـلمون الأولون لا يوفرون لأنفسـهم شـيئاً في حالة الحرب.

ويمكن تفسـير الآية بالتشـجيع على المزيد من الإنفاق للمجهود الحربي، فيكون المعنى: أنفقوا ـ أيها المسلمون! ـ في سـبيل الله بأقصى ما تسـتطيعون، ولا تقتروا فيه، لأنكم تفتدون أنفسـكم بمالكم فإذا حرصتم على مالكم، فإنما تلقـون بأيديكم إلى التهلكة، لأن الأعداء يسـلطون عليكم، فيهلكونكم بمصادرة إرادتكم، وسـلب كرامتكم، وينهبون أموالكم، فتخسـرونها دون أن تكسـبوا مكرمة الإحسان. فالإحسان يكون ببذل المال عن إرادة، ولا يكون بخسارته في سطو المعتدين.

الأناني والمضحي

﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَيُشْـهِدُ اللّهَ عَلَىَ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدّ الْخِصَام(٢٠٤) وَإِذَا تَوَلّىَ سَـعَىَ فِي الأرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبّ الفَسَادَ(٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦) وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ٢٠٧)

هذه الآية تقسم الناس قسمين:

١ـ قسم يجعل نفسه هدفه، فيعمل كل ما يعتقد أنه يوفر مصالحه، ويبادر إلى العمل الذي يوفر له رغبة من رغباته، أو يحقـق حلمـاً مـن أحلامه، فيعدو خلف ما يؤمن له راحة، أو مالاً، أو منصباً، أو مكانة... ويعرض عن كل ما يؤثر على رغبة من رغباته، أو حلم من أحلامه؛ مهما كان الربح الذي يناله المجتمع من ورائه.

وهذا القسم من الناس، يتبنى مبادئه وأهدافه طرقاً إلى نفسه، فيقول ـ بعمله ـ: (كل شيء من أجلي)، ويغدو عالة

على كل ما يتبناه من مبادىء وأهداف.

٢ـ قسم يجعل إمامه هدفه ـ وهو الله تعالى ـ، فيعمل كل ما يعتقد أنه يخدم هدفه، مهما أثر على رغباته وأحلامه، وإن تم على حساب نفسه، فهو يقول ـ بعمله ـ: (كل شيء من أجل هدفي)، ويجعل نفسه طريقاً إلى هدفه.

وهذا القسم من الناس، هو الذي لا يوجد منه ـ في كل مشروع ـ إلا عدد أقل من أصابع اليد، ولكنه يحقق الأهداف الكبار، والآخرون مجرد قشور تملأ الفراغ.

أما سر النجاح، فهو ذلك العديد من هذا القسم، لأنه يعمل ـ باستمرار ـ عملاً انتحارياً لا يعرف الملل ولا الفتور، ويبقى في الصميم، يقدم برحابة، كل ما تقتضيه القضية من تضحيات، بلا تردد أو حساب، ثم يبقى مصراً لا يعتذر، ولا يقدم استقالة.

فالنبي، الذي هو سيد من تنطبق عليه هذه الآية، تحدى ـ في مكة ـ النظام العقائدي، عندما قال:

﴿إنكم وما تعبدون. .واردون﴾(٢٠١).

وتحدى النظام الاقتصادي، عندما حرم الربا والاحتكار.

وتحدى النظام الاجتماعي، عندما ألغى التقسيم الطبقي والقبلي، وفضل المسود المسلم على السيد الكافر.

وتحدى النظام العائلي، عندما رفع المرأة من درجة الأداة إلى درجة الشريكة في الحياة.

وتحدى كل النظم والمقاييس الحاكمة يوم ذاك.

وقبل كل التحديات بقوله: «اللهم! اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»(٢٠٢).

وضحى بمكانته الشخصية كـ (الصادق الأمين). وضحى بسيادة أسرته، في شخص عمه (أبي طالب)، الذي كان سيد البطحاء. وضحى بأموال (خديجة). وضحى بمواطنيته كفرد من أهل مكة، حتى طورد مرة إلى (شعب أبي طالب) ومرة إلى (الطائف).

فلما طورد من الطائف ـ بالشكل المعروف ـ ناجى ربه، وقال في مناجاته: «اللهم!. . . إن لم يكن بك غضب علي،

فلا أبالي»(٢٠٣).

فبعد أن تحمل، وأعطى وما يشبه المستحيل، يتواضع لله تعالى، ويحاذر أن يكون قد قصر فاستحق غضب الله، ويرجو أن لا يكون الله غاضباً عليه، حتى لا يبالي بما تحمل، ولا بما أعطى.

والإمام علي ـ الذي نزلت فيه هذه الآية ـ كان يعمل عملاً انتحارياً دائباً، منذ صباه الباكر، في: رحاب (مكة)، وفي باحات (يثرب)، وساحات (بدر)، ومعارك (أحد)، ونزالات (خيبر)، وفي ميادين (الخندق)، ومجالات (البصرة) و(صفين) و(النهروان)، وفي كل مشتبك سلاح، وملتقح مكر... إلى أن تلقى سيف ابن ملجم برأسه، في المحراب، والصلاة بين شفاهه، ثم يقول ـ في مناجاته تواضعاً لله تعالى ـ: «... آهٍ آهٍ، إن أنا قرأت ـ في الصحف ـ سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته...»(٢٠٤)، ويقول: «... لألف ضربة بالسيف، أهون علي من ميتة على الفراش»(٢٠٥).

والقرآن يريد للمسلم: أن يكون كتلة ملتهبة من نشاط، وطاقة مقتحمة في الصميم من كل مجال، ومتحفزة في كل جبهة، بحيث يتفوق كل مسلم على عشرة.

والقرآن يريد للمسلم: أن يكون إيجابياً بمعنى الكلمة، ويتخلى عن السلبية بمعنى الكلمة: فلا انهزام، ولا تقوقع، ولا اعتزال، ولا رهبانية، و«إنما رهبانية أمتي، الجهاد»(٢٠٦) كما قال الرسول (ص): على خلاف المقياس الذي استبد بأذهان جيلنا، من ان الفرد يكون أكثر تمسكاً بالدين بمقدار ما يكون أكثر تقوقعاً وجهلاً بالحياة. وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «ليس في أمتي رهبانية»(٢٠٧).

دور نقاهة المرأة

﴿ويسئلونك عن المحيض....المتطهرين﴾.

(سورة البقرة: الآية ٢٢٢)

الحيض أشبه بحالة الاجهاض أو النفاس، لأنه انخلاع للغشاء الداخلي في الرحم، فهو حالة مرضية، فالمرأة الحائض مريضة، تدفع إلى الخارج المواد الفاسدة. فعلى زوجها اعتزالها، إن أراد أن يبقى بعيداً عن المواد الفاسدة، التي تعرضه للإصابات المرضية.

وكيان المرأة أدق من كيان الرجل، كيانها الروحي أدق وكيانها الجسمي أدق، فترعب أسرع من الرجل وتتعب

أسرع من الرجل.

وإذا أرعبت أو أتعبت، تحيض.

فالحيض يعبر عن حالة مرضية، كما أن سرعة حركة القلب تعبر عن حالة مرضية، وكما أن الضوء الأحمر - في الأجهزة الأوتوماتيكية - يعبر عن طروء خلل.

فبمجرد ما تحيض، تعتبر في دور النقاهة، فتعطى إجازة اسـتجمام تنفض عن روحها الرعب أو عن جسـدها التعب. فتعفى عن الواجبات الدينية، وعن الواجبات الاجتماعية، وحتى عن الممارسات الجنسية.

إنها مريضة، فعليها أن تستريح.

تعدي حدود الله

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ٢٢٩)

في سـير تقنين الأسـرة، يأتي التركيز على أهميته بأنه حدود الله، والالتزام به يعني الالتزام بحدود الله، وتجاوزه يعني تجاوز حدود الله.

لأن تنظيم المجتمع، يؤدي إلى استمراره، وسعادة أفراده.

والأسرة، هي الوحدة الأساسية التي يستقيم عليها بناء المجتمع والمورد الأساس للمجتمع، لأنها تشبه العروق الشعرية التي تؤلف البحر، وتضمن استمراره.

فتنظيم الأسرة، يعني تنظيم المجتمع.

ذلك، أن الله ينظم المجتمع من وحدة نامية:

فيبدأ، يربط رجلاً وامرأة برباط الزواج، ويجعل لكل منهما على الآخر حقوقاً متبادلة.

ثم: يبرعم منهما أولاداً، يربطهم بالوالدين برباط الأسرة، ويجعل لكل منهم على الآخرين حقوقاً متبادلة.

ثم: يفرع منهم أبناء العمومة والخؤولة... فيربطهم برباط الرحم، ويجعل بينهم حقوقاً متبادلة.

ومن هذه الوحدة الأسرية، يوجد تيار إلى جانب تيارات متشابهة في المجتمع.

فيربط أغصاناً من هذه الشجرة بأغصان من أشجار متعايشة معها، برباطات: الزواج، والتعليم، والجيرة... لتأكيد التماسك بينها.

ثم: يوجد رباطاً واسعاً هو: رباط (الوطن)، فيربط مجموعة التيارات المتعايشة على أرض برباط، ويجعل حبها من الإيمان: «حب الوطن من الإيمان»(٢٠٨).

ثم: يوجد رباطاً أوسع هو: (الأمة)، ويجعل اهتمام كل فرد منها بشؤونها شرطاً أساسياً في كونه فرداً منها: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين، فليس منهم»(٢٠٩).

ثم: يوجد رباطاً عاماً يحتوي البشرية كافة هو: رباط (الإنسانية): «... فإنهم ـ الرعية ـ صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق... فأعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه...»(٢١٠).

وهذه الرباطات، هي التي تنظم المجتمع تنظيماً واقعياً، نجد نداءاته في عاطفة كل فرد. فهنالك حنين طبيعي متبادل: بين الزوجين، وبين الوالدين والأولاد، وبين أبناء الإخوة والأخوات، وبين أبناء الوطن الواحد، وبين أبناء الأمة، وبين الإنسان والإنسان.

ولكن هذه الرباطات لا تستطيع الفاعلية في بدائيتها العاطفية الغامضة، وإنما تحتاج نداءات العاطفة إلى التأكيد والتقنين، حتى تجد شرعيتها وإلزامها.

والإسلام قد منحها التأكيد والتقنين، فهي ـ بدافع الإيمان ـ تأخذ مجاريها في تعاملات الأفراد مع بعضهم.

وأما إذا تقلص الإيمان في نفوس مجموعة، حتى عجز عن السيطرة على تعاملاتها؛ فإنه يترك مجاله للمصلحة. والمصلحة لا تحمل استمرارية، فهي تختلف حسب المقتضيات والتصورات. فتوكد العاطفة وتقننها في مورد، وتهملها أو تناقضها في موارد. فتتفكك المجموعة دون أن يشدها شيء:

فالزوجان إذا ارتبطا برباط الإيمان، يؤدي كل منهما حقوق الآخر، أداءً مطلقاً، وهو يشـعر بأنه يؤدي واجباً، فلا يقعده الشعور بالخسارة عن الاستمرار في أدائها.

وهما يعطيان للأولاد عطاءً مطلقاً، لا بمقدار ما يعطون لهما.

والأخ يعطي لأخيه، بدون مقابل.

والقريب يعطي لقريبه، بلا تحسب.

وكل فرد يعطي للآخر - مهما كان - دون توقع أو انتظار، إلا توقع مرضاة الله وانتظار الأجر في الآخرة.

وأمـا إذا لم يقدر الإيمـان في النفوس، على تحريكها نحو العطاء المطلق، وحلت المصلحة محل الإيمان، فإنها تكون محدودة ومحسوبة بحساب دقيق، وبقدرها يكون العطاء:

فالزوج لا يعطي لزوجته إلا بمقدار رغبته فيها، وهي لا تعطيه إلا بمقدار ما تأخذ منه. وعندما لا يعطيان عاطفتهما، يتطلعان إلى من هو أنسب لهما. وعندما يجدان الأنسب، يوثقان صلتهما به ويوتران صلتهما ببعضهما.

والأم لا تعطـي لولدهـا إلا القليـل الـذي لا يكفيه، لأنها لا تأخذ منـه - في المدى القصير - إلا عطاءً عاطفياً شـفيفاً لا يعـوض مـا يطلبه منها. فترميه في دور الحضانـة، والمربية لا تعطيه إلا عطاءً محدوداً بمقدار ما تتقاضى من وليه من أجر.

وإذا نشأ الطفل على العطاء المحدود مقابل أجر فهو لا يعطي لأخيه إلا عطاءً محدوداً بمقدار ما يكسب منه.

والقريب لا يعطي لقريبه، إلا إذا كان مقابل أجر وبمقداره.

وكل فرد لا يعطي للآخر - مهما كان - إلا عطاءاً محدوداً بحدود المصلحة التي تربطهما.

وإذا كانـت المصلحـة - وحدها - هي التي تحدد علاقات الأفراد، يزامـل كل فرد مصلحته في الاتجاه إلى الآخرين: فيكون الزوج مع زوجته بمقدار مصلحته معها، وإذا رجحت مصلحته مع غيرها رجح معها ضدها بمقدار ذلك الرجحان. ويكون الوالد مع ولده، بمقدار مصلحته معه، وإذا رجحت مصلحته مع غيره رجح معه ضد ولده بنفس المقدار. ويكون الأخ مـع أخيـه بمقـدار مصلحتـه معه، فإذا انقلبت ضـده كان ضد أخيه... فيسـير كل فرد في المجتمـع، متأبطاً

مصلحته بيمينه ومتأبطاً القانون بشـماله، بين ترقب وتوجس، وكأنه يسـر في صحراء جرداء يحمل زاده بيد وسلاحه بيد، يتصيد ضعيفاً ينتهزه ويتخوف قوياً يفترسه.

ومتى أصبح المجتمع جميعاً غير مترابط بروابط ذاتية ـ أو كما يصف القرآن:

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ (٢١١) ـ يكون أشبه بمخزن للغيار، يعج بغيارات تحتاج إلى براغي ومشدات.

وقد يقوم القانون بدور البراغي والمشدات في المجالات الظاهرة، ولكنه لا يستطيع القيام بدورها في المجالات الدقيقة التي تغيب عن أعين القانون. والمجالات الدقيقة ـ دائماً ـ هي المجالات الحساسـة التي تقرر دور المجالات الظاهرة, لأنها أشـبه بالعروق الشـعرية التي تغذي البحر أكثر من الروافد الصاخبة. فالقانون ينظم المجتمع، ولكنه لا يوجد المجتمع المترابط.

ولذلك: نجد المجتمعات التي توتر فيها الإيمان، تسعى خلف مبادىء تقوم بدور الإيمان في إيجاد الترابط بين الأفراد، ولكن المبادىء النابتة من الأرض أثبتت عجزها عن القيام بنفس الدور، لأمرين: ـ

١ـ لأن المبادىء لا تجد دلالاتها في عاطفة الفرد، فتدفعه من خارجه دون أن تجد تجاوباً من العاطفة التي تحرك الفرد من داخله. بينما الإيمان، بمعونة دلالات العاطفة، يدفع الفرد دفعاً متجاوباً بين خارجه وداخله.

٢ـ لأن المبادىء لا تربط الفرد بالقوة الأعظم التي تراقبه على كل شيء وفي كل مجال، ولا تضعه على طريق الحياة الخالدة بين الثواب والعقاب، بينما الإيمان يربط الفرد بالقوة الأعظم التي لا تغرب عنها صغيرة ولا كبيرة، ويضع الفرد على طريق الحياة الآخرة بين الجنة والنار.

فلا بد من الإيمان، لتشجيع دلالات العاطفة وتقنينها.

و رغـم أن الإيمـان في تنظيم المجتمع ـ كما في سـائر المجـالات ـ لا يخلق روابط متكلفة، وإنما يثير ما هو مخزون في واقع الإنسـان, فيعطي كل نزوع تقليعته، وبعترف بالروابط الحية في عمق كل فرد، حتى كان الجدير به أن يعبر عن تلك الروابط قائلاً: (تلك حدود العلاقات الاجتماعية)؛ إلا أن القرآن لم يعبر عنها بحدود العلاقات الاجتماعية، ولم يعـبر القـرآن عنهـا بحدود الله، لبيان أن من تجاوزها فقـد تجاوز الله، وأن من تحداها لم يتحـد العلاقات الواقعية ولم يتحد أحكام الله فقط، وإنما تحدى الله ذاته. لأن تجاوز العلاقات الاجتماعية التي سنها الله تكويناً وتشريعاً، يعني الانفـلات، والانفـلات يعني تجاوز كل الحقوق والواجبات. فمن تجاوز العلاقـات الاجتماعية فقد تجاوز الله فكراً أو عملاً، وإن كان تجاوز الله مستحيلاً، إلا أن الغرور قد يحمل البشر التافه إلى حسبان إمكانية تجاوز الله في حسابه،

فيفكر ويعمل كما لو أنه تجاوز الله بالفعل.

طالوت: يختبر الجيش

﴿فَلَمّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَـرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي وَمَن لّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنّهُ مِنّيَ إِلاّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾

(سورة البقرة: الآية ٢٤٩)

١ـ الماء شـراب، وليس طعاماً. وحيث ورد التعبير بـ(يطعمه)، اسـتدل بعض الفقهاء بهذا التعبير على أن الطعام يشمل السوائل، وليس مختصاً بالحبوب، في قوله تعالى:

﴿...وطعام الذين أوتوا...لهم...﴾(٢١٢)، فيدل على طهارة أهل الكتاب طهارة ظاهرية.

ويمكن القول: إن (طعمه بمعنى تذوقه، لا بمعنى أكله، وإن كان الأصل اشـتقاقهما واحداً، فالطعام سمي طعاماً لأنه يتذوق واستخدمت كلمة (يطعمه) دون (يشربه)، تأكيداً في التحذير. لأن الشرب قد لا يصدق على تناول القليل، والطعم يصدق حتى على القليل.

٢ـ الظاهر من سياق الآية، أن المنع من شرب الماء ـ بعد عطش طويل ـ إلا غرفة واحدة باليد؛ كان أمراً تعبدياً، لامتحان جيش (طالوت)، واختيار العناصر الممتازة لقتال جيش (جالوت). ويحتمل أن يكون أمراً صحياً، لأن شـرب الماء كثيراً ـ بعد العطش الطويل ـ يضر بالصحة.

بل إن شرب الماء ـ كثيراً ـ يضر بالصحة في شتى الحالات.

وهذا.. ثابت في علم الطب، ويشير إليه الحديث الشريف: «الماء، ثلاث جرع»(٢١٣).

ويفسـر هذا الحديث بقطع الشـرب بالتنفس مرتين، وعدم عبه عباً. وهذا.. صحيح طباً، ولكن يحتمل أن يكون المراد عدم شرب الماء أكثر من ثلاث جرع، والجرعة هي الكمية التي يمكن ابتلاعها بازدرادة واحدة.

الله، والدين، والطاغوت

﴿الله لا إله . . خالدون﴾

(سورة البقرة: ٢٥٥ ـ ٢٥٧)

ـ ١ ـ

﴿الله: لا إله إلا هو﴾(٢١٤). فهو الإله الوحيد، الذي لا إله سواه.

﴿الحي﴾(٢١٥)، حياة ذاتية، لا مدة لها ولا أمد، ولم يسبقها موت ولا يتبعها موت.

الدائم، فليس طاقة ميتة تتحرك بدفع غيره.

﴿القيوم﴾(٢١٦) على غيره، فليس طبيعة قائمة بغيرها: بذي الطبيعية.

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾(٢١٧). فهو دائم الحضور، ودائم الوعي.

فلا يغفل كالوسنان، ولا يتعطل كالنائم.

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾(٢١٨). فكل له، وتحت سيطرته المطلقة الشاملة. فلا توجد معه سلطة أخرى، ولا يوجد شيء خارج عن سلطانه وإرادته، وإنما كل شيء تحت سلطته، وليس هذا فقط، وإنما كل شيء ملكه. فلا مبرر ـ مطلقاً ـ للتزلف إلى غيره، أو محاولة كسب أو استرضاء غيره، لأن غيره ـ مهما كان ـ فهو بعض ملكه، فهو المالك الوحيد، الذي لا يوجد إلى جانبه مالك آخر.

وليس ذلك فقط، وإنما هو المؤثر الوحيد في الكون، فلا تأثير لغيره، حتى تأثير الشفاعة. فالشفعاء موجودون، ولكن الشفعاء ـ أيضاً ـ بعض ملكه، ولا يتحركون نحو الشفاعة لأحد إلا وفق مقاييس الشفاعة التي وضعها هو، وأذن للمقربين إليه أن يتصرفوا وفقها.

فهذه. . . هي حدود الشفاعة الحكيمة، التي يمكن أن يوجد شفيع عند الله، خارجاً عن المقياس الذي وضعه

الله للشفاعة؟!:

﴿مــن ذا الذي يشــفع عنــده إلا بإذنه؟!﴾(٢١٩)، أين يوجد ذلك الشــفيع، الذي يشــفع عن الله بدافــع العاطفة، أو المصلحــة، أو اللحمــة. . . ؟! فليــس للشــفعاء دالــة على الله، حتى يســمحوا بها لأنفســهم الخروج عن إرادتــه في عدالة الشفاعة. وإنما هم - جميعاً - يعلمون: أنهم عبيد، محاطون بالله، وغير محيطين بأي شيء منه إلا في حدود ما يريد هو أن يعلموا. لأن الذي يسمح لنفسه بالخروج على إرادة سيده، أحد رجلين:

١- من يكون خارجاً عن أنظار السيد، بحيث يصور نفسه لسيده بشكل يقوي موقفه.

٢- من يكون مطلعاً على بعض عورات ســيده، فيرهبه ســيده، ويمرر تصرفاته الخارجة على إرادته؛ خشية أن يشيع عنه ما لا يحب أن يشيع عنه.

والشــفعاء عند الله بعكس هذين تماماً، فهم محاطون بالله يعلم عنهم كل شــيء، وهم لا يعلمون عنه إلا ما يريد أن يعلموا عنه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ﴾(٢٢٠).

ذلك: أن سلطة الله تختلف عن سلطة أي سيد، لسببين:

١- إن ســلطة كل ســيد - من الناس - محدودة لا يســتطيع تجاوزها، فهو مقيد بتلك الحدود التي تعكر حتى سلطته ضمنها، فهو - حتى في نطاق سلطته - متعكر غير مطلق.

٢- إن كل ســيد يحتاج إلى مســوديه، فهو يســتعين بهم في ذات الوقت الذي يســودهم. فســيادته غير مطلقة، لأنها معكرة بالحاجة ففيها: ازدواجية بين السيادة والحاجة.

وسلطة الله - تعالى - ليست محدودة، وإنما هي مطلقة:

﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾(٢٢١).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى: إن الله - تعالى - لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وإنما هو يفعل كل ما يشاء أن يفعل في الكون، دون أن يعجز حتى يحتاج إلى معين، وحتى دون أن يتعب أو يرهق، فيســتعين بغيره - كمالياً - حتى لا يتعب

ويرهق:

﴿ولا يؤوده حفظهما﴾(٢٢٢).

إذن: فالشفاعة عند الله عادلة، تكمل المغفرة لمن فاتته التوبة، وقد عصى في الدنيا فهو من المخطئين. ولكن مجمل وضعه العام ـ مع أخذ كل النبضات في ظروفه بعين الاعتبار ـ لا يجعله مستحقاً للعقاب، وإنما يجعله جديراً بالعفو. وحيث لم تغسله التوبة ـ لسبب من الأسباب ـ لا بد أن تطهره الشفاعة، حتى يدخل الجنة منسجماً معها.

أما الشفاعة الظالمة: التي تطرد الرجل المناسب من المكان المناسب، فتظلم المطرود، لتأتي بالرجل غير المناسب إلى المكان المناسب، فتظلم المكان المناسب؛ هذه الشفاعة الأرضية، لا تجد طريقها إلى الله. لأن الله لم يأذن بتخطي المقاييس التي سير عليها الكون، ولم يأذن إرباك أي شيء من الكون، بالتفريق بين المنسجمين والجمع بين المتنافرين.

فإذن: لا بد من الاقتراب من الله بالاقتراب من الواقع الذي سنه للإنسان في الحياة، وعدم التفكير في الخروج على واقع الكون اتكالاً على إله آخر تجمعه الزمالة في الألوهية مع الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ أو اعتماداً على ولي ترفعه صلاحية الشفاعة إلى المشاركة مع الله في تقرير مصائر عباده.

فلا إله مع الله، ولا شفيع يملك حق (الفيتو) لنقض قرار الله بحق عباده.

وكيف يمكن أن يطاله العباد بما يطالون بعضهم، فيفرضون على بعضهم شفاعات ووساطات على أثر مداخلات، فيدخلون إلى بعضهم من مدخل الحاجة، أو معرفة نقائض وسيئات يحرصون على إنكارها ونسيانها؟! كيف يمكن أن يطال الله ـ تعالى ـ من هذه المداخل، ﴿وهوالعلي﴾(٢٢٣) عن مجالات تحرك الإنسان وذبذبات خياله، فلا يسقط في الفخاخ التي ننصبها لبعضنا، ﴿العظيم﴾(٢٢٤) ـ في عليائه ـ فلا يرد في الحسابات المحدودة، التي نجريهما لبعضنا، ونؤسس عليها آمالنا وتوقعاتنا؟!.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٢٥).

هنالك معادلة لا يستطيع البشر التخلص منها، معادلة: الله ـ الطاغوت. وطالما البشر ليس إلهاً حتى يكون مطلقاً، فهو خاضع لسلطة عليا. وهذه السلطة قد تكون حقاً وهو الاله، وقد تكون باطلاً وهو الطاغوت. ولا يمكنه الخروج على هذين الخيارين فلا يخضع لسلطة علية. لأنه بشر والبشر ضعيف ومحتاج، فيردد بين هذين الخيارين، ولا بد

له من أحدهما.

الله، يعني: العلم الكامل، والعدل الكامل، والقدرة الكاملة، والرحمة الكاملة، وكل الصفات الفاضة في أعلى درجات الكمال المطلق.

الطاغوت، يعني: كل ما ليست له مؤهلات تأخذ البشر إليه من داخله، وإنما له مؤهل واحد يأخذ إليه البشر من خارجه وهو السلطة، فبالسلطة يجر إليه البشر. فهو البشر من خارجه، بينما الله يأخذ البشر من داخله، من: عقله، وعاطفته، وسمعه، وبصره، ووجوده كله. ولا يأتيه من خارجه إلا في حالة واحدة، هي حالة التمرد عليه فيمارس معه السلطة. فيما الطاغوت يمارس السلطة أولاً وآخراً، وعن طريقها يأسر من يتورط بها.

والطاغوت: كل ما طغى على الإنسان واستعبده، فالطاغوت: قد يكون (المال) بالنسبة إلى شخص، وقد يكون (الجنس) بالنسبة إلى شخص آخر، وقد يكون (الكرسي) بالنسبة إلى ثالث، وقد يكون (الشهرة) بالنسبة إلى رابع، وقد يكون (شخص آخر) بالنسبة إلى خامس... فالطاغوت: مطلق الأصنام الحجرية، والبشرية، والمادية، والوهمية... وكل ما يخضع له الإنسان وليس إلهاً. والطاغوت كذب، لأنه ليس إلهاً ويؤله، بينما الله صدق، لأنه الإله المطلق.

وهنالك جانب تربوي لا بد أن نركز عليه، وهو: أن عبادة الله توجه الإنسان نحو الكمال المطلق، فيسير دائماً نحو الكمال. وعبادة الطاغوت توجهه إلى الأغلال التي تسيطر عليه، فيتجه دائماً نحو الاستعباد.

﴿الله ولي الذي آمنوا﴾ (٢٢٦):

فالذين يعبدون الله، وينفذون إرادته في الأرض، إنما تولاهم الله وقادهم، وسيرهم وفق تيار الحياة، الذي صممه منسجماً مع الإنسان. فبمجرد أن يتجه الإنسان إلى عبادة الله - عملياً - يشعر باتجاهه نحو الانسجام: الانسجام مع نفسه، مع نوازعه الداخلية، الانسجام مع الآخرين. الانسجام مع الكون، ومع كل ما يتعامل معه. يصبح: كالسفينة التي رفعت شراعها في اتجاه الريح، كالجسم الذي تناول الطعام الصحي. فيأخذ كل شيء مجراه، بعفوية وبساطة. وتتضح الآفاق أمام أعين الانسان، فيرى كل شيء على واقعه، ويتعامل معه على الأساس، فلا يعاني غموضاً، ولا يلفه ضباب:

﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (٢٢٧).

﴿والذين كفروا﴾ (٢٢٨) بالله، تنكبوا الطريق. ومن تنكب الطريق، كان تحت رحمة الغول: كالغنم الذي خرج على راعيه، وخرج عن القطيع، فقد شذ عن رعويته، فتقوده الحيرة إلى رعاية الذئب. كالغيار الذي خرج عن

موضعه من الجهاز، لا بد أن يتعرض ويتحطم. كأي شيء ترك مكانه، وحاول اتخاذ مكان غيره، لا بد أن يواجهه الخطر.

فالذين كفروا بالله، كان ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾(٢٢٩): أحدهم وليه المال، والآخر وليه الجنس، والثالث وليه الكرسي، والرابع وليه الشهرة، والخامس وليه إنسان آخر مثله... يجمعها الطاغوت. لقد فرغ القلب من شحنته المناسبة: حب الله، فامتلأ بحب ما لا يستحق المحبة، لأن الفراغ المطلق مستحيل.

وأنواع الطاغوت، عندما تتولى أشخاصاً كفروا بالله، تقودهم إلى اتجاهها، في معاكسة الواقع الذي أراده الله، فتأمرهم: بالغش، والخيانة، والخداع، والكذب، والزور، والاستعلاء، والمزايدة، والمناورة... فيكونون:

كالسفينة التي قلبت شراعها ضد الريح،

كالجسم الذي تغذى بغذاء غير مناسب،

كالجهاز الذي نفرت غياراته من أماكنها...

ككل شيء لا يجد مجراه، فيطغى على غيره، وتتعطل طاقته، وتعطل طاقة غيره، وكل نقلة تواجه صدمة وعقدة.

فلا يستطيعون التعامل مع الحياة بمقتضى قوانينها، وإنما يريدون التعامل مع الحياة بمقتضى سنن الطاغوت، التي تتلخص في معاكسة الواقع فيضطرون إلى الابتعاد عن الأضواء والسير في المنحدرات والملتويات. وهكذا.. الطواغيت ﴿يخرجونهم من النور﴾(٢٣٠) الذي أشاعه الله في الحياة لضمان الرؤية السليمة، ﴿إلى الظلمات﴾(٢٣١).: ظلمات المخابىء التي يلجؤون إليها من الاستقامة، وظلمات الليل التي يعملون فيها هروباً من نور النهار، وظلمات التنكر للحقائق التي يسفسطون ضدها لمعاكستها.

وكل من يريد الخروج على سنن الكون، وشق تيار الحياة؛ يصطدم ويغالب، فيتذرع بالعنف لمغالبة الصدمات والعقبات، فيخرج ـ بالتدريج ـ من منطقة الأمان إلى منطقة النار، كما خرج ـ قبل ذلك ـ من منطقة النور إلى منطقة الظلام:

﴿أولئك أصحاب النار﴾(٢٣٢)؛ يصاحبون النار برفقة السلاح، ويصحبون أخلاقاً نارية يرعبون بها من يواجههم، ولساناً نارياً يسلقون به من ينضح عليهم من الماء.

ومــن دخــل منطقــة النار، لا يخرج منها، وإنما يتوغل في العمق مع مــرور الزمان، لأنه يأنس بها مع الأيام. وتكثر اصطداماته مع الناس، فيكثر أعداؤه، وتزداد حاجته إلى المزيد من النار. فلا يروق له منظر الأفق الساجي، وينفر من الرخاء والأمان، وإنما يعجب بالنار... النار... النار...

فـ﴿ هم فيها خالدون ﴾(٢٣٣).

-٢-

كانــت هــذه الآيــة - التي هي من أهــم آيات القرآن - تحــاول إلقاء الضوء علــى الفاصلة الكبرى بــين الله والناس، لمكافحة الذهنية الوثنية التي قد تتجه إلى عبودية فرد من البشر: تألهياً، أو حلولاً، أو تنسيباً. فتضع نقاط فاصلة :.

.. ديمومة إحاطة الله وتقطع وعي الناس، فهنالك سلطتان تتناوبان خطف الناس من وعيهم:

الأولى: ســلطة الغفوة، التي تخطف الفرد وتطلقه، وتلعب معه لعبة الهر والفأر، لتؤكد له - ولغيره - أنه ليس ســلطان نفسه، فكيف يمكن أن يكون سلطان غيره؟!

وبما أن هذه السلطة تحاول فضحه - في نفسه، وأمام غيره - لا توفر عليه مجالاً، فتمارس لعبتها معه في كل مجال، فتخطفه: من مجلسه، ومن مكتب عمله، ومن مركبه... كما تخطفه في وحدته.

الثانية: سلطة النوم، التي ترمي به - كل يوم - ساعات عديدة.

-٢-

النعاس الذي يتطور إلى سنة أو نوم، من عوارض المزاج الحيواني أو النباتي. أما المزاج الطاقوي، فلا يتعرض للنعاس فالطاقات لا نعاس لها، ســواء الصغيرة منها كالمغناطيس والكهرباء، أو الكبيرة منها كالجاذبية. فكيف بالمجرد المطلق، الذي لا مزاج له على الاطلاق؟!

والسنة، هي الجذبة أو الغفوة. والنوم، هو الغيبوبة الطبيعية العميقة.

-٤-

الشـفاعة هي: أن ينضم شـخص مقرب عند الله بشخص غير مقرب عند الله، أن يشفع قوي بضعيف، ليتجاوز به الصعاب التي لا يستطيع ذلك الضعيف أن يجتازها لولا انضمام ذلك القوي إليه، شأن الضعيف في كل مجال:

فالطفـل لا يسـتطيع أن يحصـل الغذاء إلا بانضمام وليه إليه وعندما يبلغ دور الشـباب، لا يقـدر على تأمين حاجاته المختلفة، إلا بانضمام والده، وصديقه، والمحسنين في بعض الأحيان. ولا يمكنه تأمين الأمن لنفسه وعائلته، إلا بانضمام الدولة إليه.

وهكذا.. فالشـيخ الهرم يعتمد على عكازته، والمريض يعتمد على عكازته، والمريض يعتمد على خبرة الطبيب، ومن يجد المؤونة لبناء بيت، يشفع المؤونة بعلم المهندس.

وهكـذا... فالضعيـف ـ في أي مجـال ـ عندما يحـاول ما يعجز عنه بمفرده، يسـتعين بأقوى منـه، مزود بالطاقة المناسـبة في ذلك المجال، فتشـفع طاقة القوي بطاقة الضعيف، لتشـكل معها الطاقة الكافية لإنجاز ما حاول الضعيف إنجازه، والضعيف في عمل الخير، الذي لم يمهد لنفسـه حاجاته يوم القيامة، أو لغم طريقه بالعقبات؛ عليه أن يسـتعين بغيره من الأقوياء، في ذلك الطريق الملغوم، حتى يجتازه بسلام.

وهذه.. هي الشفاعة، وهي ـ بكلمة ـ: ضم قدرة راشدة إلى قدرة قاصرة، من أجل التغلب على الموقف الصعب.

وإذا فهمنا الشـفاعة بهذا المعنى، نجدها طبيعية في الآخرة كما في الدنيا، وكما في مجال الدين كذلك في سـائر المجالات.

فمـن الآليـات العفويـة، أن قدرة قاصرة تحاول ما هو أكبر من مداها، تسـتعين بقدرة راشـدة، حتى تنجح المحاولة بانضمام القدرتين إلى بعضهما. والقدرة الراشدة ـ دائماً ـ تكمل مقدار القصور في القدرة القاصرة؛ فقد تكون القدرة القاصرة بمقدار عشـرة بالمئة من القدرة اللازمة لنجاح المحاولة، فتدفع القدرة الراشـدة تسعين بالمئة من القدرة اللازمة. وربما يكون العكس. وربما يكون النقص أقل.. أو أكثر.. ولكن ـ في كل الأحوال ـ: تكون القدرة الشفيعة هي وسيلة النجاح، التي بدونها لا تنجح القدرة القاصرة.

ويشترط في انجاح الشفاعة:

١ـ التكافؤ بين الفائض في القدرة الشفيعة والنقص في القدرة القاصرة.

فعلى القدرة الشفيعة أن تملك ـ في احتياطيها ـ ما يساوي النقص الموجود في القدرة القاصرة، وأما إذا لم يكن في

احتياطيها ما يساوي النقص المطلوب ردمه في القدرة القاصرة، فلا تتم الشفاعة:

فالتاجر الذي يريد انتشال المفلسين من التجار، عليه أن يملك - في احتياطيه - ما يعادل نقائصهم. فمن يملك عشرة ملايين، يستطيع أن يشفع للمفلس الذي يمكن تطويق إفلاسه بالعشرة ملايين أو أقل، ولا يستطيع أن يشفع لمن تراكمت عليه مئة مليون من الديون أو أكثر - مثلاً - .

٢- السنخية بين القدرة الشفيعة والقدرة القاصرة. فمثلاً: التاجر الذي يملك - في احتياطه - عشرة ملايين، يملك الشفاعة للتاجر المفلس الذي يكون إفلاسه تحت العشرة ملايين، بأن يعطيه من المال أو من الاعتبار ما يستعيد به مكانته، ولكنه لا يستطيع أن يجعل من السارق تاجراً، إذ لا سنخية بينهما.

وهكذا.. فالأولياء يملكون الشفاعة للمؤمن القاصر، الذي تخلف عن بعض الواجبات أو اجترح بعض السيئات، ولكنهم لا يملكون الشفاعة للفاسق الذي عليه، من الدماء والأعراض والأموال، ما لا ينهض به رصيد مهما عظم.

كما لا يملكون الشفاعة للكافر الذي محا السنخية بينه وبين أصحاب الشفاعة، بكفره.

وهذا.. هو معنى (الإذن) في الشفاعة، أي: الإذن التكويني، وهو الاستطاعة بمقتضى المؤهلات المتوفرة. وليس الإذن التشريعي الذي يساوي الإجازة، لأسباب:

١- أن الله أمر بشفاعة الأقوياء للضعفاء في كل المجالات، فكيف يصدها في الآخرة؟!

٢- أن الله لم يمنع فيضه عن شيء، فكيف يمنع فيض غيره عن بعض عباده؟!

٣- (إذن الله) الوارد في القرآن كله، إذن تكويني، أي القدرة، أو الإقدار، ويظهر ذلك في الآيات التالية:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...﴾(٢٣٤).

﴿أَنِـيَ أَخْلُـقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّـينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَـهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾(٢٣٥).

فالله يأذن بالشفاعة لمن يكون نقصه بمقدار قدرة الشفيع أو أقل، إذناً طبيعياً. ولا يأذن لمن يكون نقصه أكثر من قدره الشفيع، إذناً طبيعياً أيضاً.

ـ ٥ ـ

﴿ما بين أيديهم﴾ (٢٣٦): مستقبلهم. ﴿وما خلفهم﴾ (٢٣٧): ماضيهم.

والله يعلم المستقبل والماضي كما يعلم الحاضر. لأن الزمان حاجز بالقياس إلى من يعيش داخل الزمان، أما بالقياس إلى من يعيش خارج الزمان ـ حتى غير الله ـ فيرى الزمان شيئاً إلى جانب بقية الأشياء، فلا يكون حاجزاً دونه.

تماماً.. كالمكان، فهو يحدد من يكون داخله، ولا يحدد من يكون خارجه.

ورؤيتنا للزمان والمكان صعبة، لأننا لا نستطيع الخروج منهما، فلا بد أن نستعين بالأمثال:

ـ مثلاً: لو كنت داخل غرفة لا تطل على الشارع إلا من خلال نافذة ضيقة، وكانت فيه قافلة من السيارات، فإنك ترى في الشارع السيارات التي تمر أمام نافذتك واحدة.. واحدة.. أي: أنك ترى السيارة التي تكون أمام نافذتك، ولا ترى معها السيارة التي تجاوزت نافذتك، ولا التي لم تحاذها بعد. فبالنسبة إليك: توجد سيارة ماضية، وسيارة حاضرة، وسيارة مستقبلة. ولو أطللت من الجو لرأيت غرفتك والسيارات جمعاء في نظرة واحدة، فاتسعت رؤيتك بمقدار استعلائك على المكان. ولو استطعت الاستعلاء على المكان كله، لرأيت كل المكان وكل ما فيه.

وهكذا.. بالنسبة إلى الزمان، فلو استطعنا الخروج منه لرأيناه كله، ولسقط التصنيف إلى الماضي والحاضر والمستقبل، بل يكون الكل حاضراً، كما يكون بالنسبة إلينا يوم القيامة، حين نخرج من حدود الزمان والمكان، فنجد ماضينا في الدنيا حاضراً يوم القيامة، كما يقول القرآن:

﴿... ووجدوا ما عملوا حاضراً...﴾ (٢٣٨).

فلذلك: تبقى السيئات موجودة، ثابتة في تاريخ أي مسيء، وإن تاب وقبل الله توبته. كما تبقى الحسنات موجودة، ثابتة في تاريخ أي محسن، وإن ارتد وأصبح من أهل النار. أقصى ما هنالك: أن التائب يغطي بعضاً من تاريخه بالتوبة فيكون (الغفران)، والمرتد يشوه بعضاً من تاريخه بالكفر فيكون (الحبط).

وبما أن الله فوق الزمان، لا يحجزهم عن شيء، فيكون محيطاً بماضي الناس ومستقبلهم كما يكون محيطاً بحاضرهم. بينما الناس لا يحيطون بماضيهم ومستقبلهم، فهم ينسون كثيراً من الماضي، ولا يعرفون شيئاً عن المستقبل. هذا.. من جهة.

ومن جهة أخرى: الله يعلم كل شيء من الناس، وهم لا يعرفون منه أي شيء.

ومن جهة ثالثة: يعلم الله كل شـيء، من العوالم المادية والماورائية، التي كانت أو ستكون أو هي كائنة. ولا يعلم الناس شيئاً منها، إلا بمقدار ما يسمح الله بمعرفته. وهذا المقدار أقل من أن يقال له قليل، فليس للناس ـ حتى اليوم ـ إلا فرضيات ونظريات قشرية متفرقة، تتعرض ـ كل يوم ـ لهزات تصحيحية.

فلا مجال لمقارنة علمهم بعلم الله.

ـ٦ـ

ما هو الكرسي؟

يقال: الكرسي هو الجرم الكوني الأعظم، الذي يضم جميع السماوات والأرضين.

ويقال: الكرسي رمز السلطان، فيكون المعنى: وسع سلطانه السماوات والأرض.

الكرسـي، هو المقعد الذي يجلس عليه الإنسـان. وعادة تستخدم هذه الكلمة للمقامات الرئاسية، فيقال: كرسي الملك، وكرسي الرئيس، وكرسي الدولة. لأن لكل ذي سلطان كرسياً يطمح إليه، فاستخدم رمزاً للسلطان ذاته.

فإذا كان المقصود من: ﴿كرسيه﴾(٢٣٩) ذلك الجرم الكوني الأعظم، فتسميته بالكرسي وإضافته إلى ضمير يرجع إلى الله، للدلالة على أن سـيطرة الله على ذلك الجرم الكوني مكينة كسـيطرة الملك على عرشـه ذاته ـ تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ـ وسيطرة الملك أقوى ما تكون على عرشه، فهي سيطرة حضورية ومباشرة، وليست سيطرة غيابية ولا بواسـطة. وإذا كان ذلـك الجـرم الكوني خاضعاً لله خضوع الكرسـي للملك، فخضوع بقيـة الكائنات لله أمر مفروع منه.

وإذا كان المقصود من: ﴿كرسـيه﴾(٢٤٠) سـلطانه، فالتعبير عن السـلطان بالكرسـي للدلالة على أنه سلطان مطلق، فسلطانه على كل شيء من ﴿السماوات والأرض﴾(٢٤١) سلطان قوي وحضوري ومباشر.

وربمـا يؤيـد المعنى الثانـي قوله: ﴿ولا يـؤوده حفظهما﴾(٢٤٢)، فعـادة يجهد الملوك والرؤسـاء لحفظ البلاد تحت سـلطانهم، ولا يفترون عن الإمسـاك بها إلا وتتمرد عليهم أو تنفرط من أيديهم، ولكن قبضة الله ـ تعالى ـ مكينة من السماوات والأرض، فهو لا يجهد لحفظهما تحت سلطانه.

- ٧ -

للمعنويـات وجـود فعلـي كالماديات، وهي أقوى - وجـوداً وأصالةً - من الماديات، لأن الماديـات تفرز من المعنويات، ولا عكـس. فكمـا - هنالـك - في الماديات ما يمكـن الاعتماد عليه، ولا تنفصـم: كالجاذبية، وكالنسـبية العامة. . . هكـذا . . في المعنويـات مـا يمكن الاعتمـاد عليه، ولا تنفصـم أبداً: كالإيمان بـالله، فهو أقوى وأثبـت من الجاذبية والنسبية. ولكننا نلمس الجاذبية ونشعر بالنسبية العامة، لأنهما من فصيلة الماديات التي نحن منها. ولا نلمس الإيمان، ولا نشـعر بقوتـه وثباتـه، إلا إذا ارتفعت معنوياتنـا، وبلغت درجة الحس واللمس، وعند ذلك: نعرف أن المؤمن مستمسـك بعروة وثيقة، لا انفصام لها أبداً.

نور الله وظلمات الطاغوت

﴿ اللّـهُ وَلِـيّ الّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مّنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ وَالّذِينَ كَفَـرُوَاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مّنَ النّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ أُوْلَـَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

(سورة البقرة: الآية ٢٥٧)

- ١ -

١- ﴿ الله ﴾ الذي هو مصدر القيم الصحيحة، والمقاييس الثابتة؛ ﴿ وليّ ﴾ كل ﴿ الذين ﴾ دخلوا الحياة ثم ﴿ آمنوا ﴾ . ومتى كان مصدر القيم والمقاييس الواقعية وليّ صنف من الناس، فإنه يحركهم في المجاري السليمة ويدفعهم في الطرق التي تفرغهم في أهداف الإنسانية من الحياة، دون أن يعانوا ارتباكاً في البحث عن الطرق والأهداف، ومن غير أن يقاسوا تناقضاً مع تيارات الوجود، فيخرجون من ظلمات أنفسهم وظلمات الحياة، إلى نور أنفسهم ونور الحياة. لأن الله المحيط بالكون يقودهم، فيتصرفون كما لو كانوا محيطين بالكون، فيكونون خارجين من الظلمات إلى النور. بينما الذين لا ينقادون لإرادة الله، يعتركون الحياة، وسرعان ما يعترفون يعجزهم عن السيطرة عليها، فيتشبثون بالقيادات البشرية التي تستخدمهم لأنانياتها.

وبما أن الطواغيت لا يريدون الإجابة على مصالح البسطاء بقدر ما يريدون الإجابة على شهواتهم، يخرجون البسطاء مـن نور الفطرة المشـرق في داخلهم، إلى ظلمات الاستسـلام الأعمى لشـهواتهم، هم: الطواغيـت. فيكونون قد أخرجوا البسـطاء من محيط النور إلى دائرة الظلمات، حيث يبعدونهم عن المسـالك الصحيحة أكثر مما كانوا يبتعدون عنها لو تركهم الطواغيت، ويعقدون حياتهم أكثر مما هي معقدة لو لم يستأثر بهم الطواغيت.

٢. إن الله يزود المؤمنين بمقاييس وقيم، تعصمهم من التخبط العشوائي في الحياة من جهة، وتزودهم بالمناعة ضد المستغلين والمستأثرين من جهة أخرى. فلا يخنعون ولا يستسلمون، وإنما يتابعون مسيرتهم الصاعدة، واثقين من هدى الله، مطمئنين إلى سلامة الطريق، فلا يمكنون الطواغيت من أنفسهم مهما كانت التضحيات. بينما الكافرون لا يجدون مثل هذه الثقة بالخطة والهدف، فيتخبطون سادرين، وسرعان ما يستولي عليهم الطواغيت ليستخدموهم، كما يستخدمون الآلات الصغار في المعامل الكبار.

٣. وهنا.. تم اختيار كلمة (ولي)، دون كلمة (يتولّى) التي تم اختيارها في مواضع أخرى؛ لأن من يؤمن، أي: ينفتح بعقله وعاطفته ومسلكيته على مصدر القيم والمقاييس، يكون عنصراً منسجماً وليه الله طبيعياً، وليس عنصراً منغلقاً معقداً حتى يتولاه الله، فيفتحه ويبسطه ويدفع به في الاتجاه السليم. فهنالك: فارق كبير بين الفرد المنطلق المتوجه الذي تكفيه إشارة الضوء لئلا يخطىء الطريق الصحيح، وبين الفرد المتقوقع المتلبد الذي لا بد من حمله على الطريق لئلا يتجمد ويتحجر.

س: الله ولي المؤمنين وغير المؤمنين، فماذا يعني هذا التخصيص بالمؤمنين؟

ج: ـ الله ولي جميع المخلوقات ـ من البشر وغيره ـ واقعاً. وأما معاملة، فتختلف: إذ يعامل أناساً على أنه وليهم، لأنهم يعترفون بولايته، فيصونهم من سلبيات أنفسهم ومن سلبيات غيرهم. فيما يعامل آخرين على أنه ليس وليهم، لأنهم يرفضون الاعتراف بولايته، فيتركهم لسلبيات أنفسهم وسلبيات غيرهم.

فمثلاً: ينص على أنه مولى النبي:

﴿... وإن تظاهرا عليه، فإن الله هو مولاه... ﴾(٢٤٣).

ويقول ـ عن قوم آخرين ـ: ﴿... نسوا الله، فنسيهم... ﴾(٢٤٤).

ويشبه تركه الكفار لسلبيات الحياة قائلاً:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(٢٤٥).

وورد (الذين آمنوا)، ولم يرد (المؤمنون) على غرار ما ورد في مناسبات أخر؛ للإشارة إلى أن الإيمان الفطري لا يكفي في هذا المجال، بل لا بد من الإيمان الإرادي: ففي المجالات التكوينية، تكفي القابلية الذاتية، لجعل صاحبها مشمولاً بالعناية الإلهية. وأما في المجالات التجريبية = التشريعية، فلا بد من التوجه حتى يجد التجاوب. فأنت لا تتزود بطاقة

الشـمس، ومواهب السـحاب، وشـعاع المعلم، ودفء الكرسـي، ووهج المال، وعبير البنين. . إلا إذا تحركت نحوها، أوليس في الحديث: «إن للّه نفحات، ألا فتعرضوا لها»(٢٤٦)؟!.

فاللّه ـ في لطف ذاتي ـ ولي كل من تسربلوا بالإيمان، لأن إيمانهم تعرض للفيض المطلق الذي لا مرد له؛ غير انغلاق الفرد عنه:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلّذِينَ يَتّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَالّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٤٧).

والذين يتعرضون لولاية اللّه عليهم، فيؤمنون به؛ يكون اللّه مولاهم، أي: يقبلهم في ولايته، في المجالات التفاعلية التي وكلوا بها: فيحفظهم من سـلبيات غيرهم، ويسـددهم من سلبياتهم هم، ويلهمهم الإيجابيات، التي يجدون ـ في ذاتياتهم ـ ذبذبة الحنين إليها ولا يسـتوفون الزخم الكافي لتكميلها أو تنفيذها، فيقصرون عنها بدون مدد إلهي، إلى جانب: ما قبلهم فيه من المجالات الوجودية، أي: في إيجادهم وإبقائهم. وعندما يتقبلهم اللّه في ولايته، تكون لهذه الولاية مظاهر، ولعل أبرز هذه المظاهر: أنه

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (٢٤٨).

٤ـ إن الإنسـان قد يعاني من نوعين من الظلمات، ظلمات جسـده وظلمات روحه: وظلمات الجسـد، هي الغرائز التي يحملها الجسد إلى الإنسان، من طبائع المواد الكثيفة، التي نعبر عنها بالأرض أو بالتراب. وظلمات الروح، هي الشهوات الـتي يحملها الروح إلى الإنسـان، من طبائع العناصـر اللطيفة، التي يعبر عنها في النصوص الدينيـة: بالنور، وبالظلمة، وبالنار، وبالريح:

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَآنّ مِن مّارِجٍ مّن نّارٍ ﴾ (٢٤٩)

وفي الحديث: «أول ما خلق اللّه، نوري»(٢٥٠). . .

ويمكن تلخيص ظلمات الجسد في ثلاث:

١ـ الجشع، وهو طلب أكثر مما يحتاج إليه الفرد.

٢ـ الغضب، وهو استنكار الإساءة بأكثر من حجمها.

٣ـ الحقد، وهو إرصاد الغضب للقيام برد الفعل، بعد المدة التي يستوجبها الفعل.

ويمكن تلخيص ظلمات الروح في أربع:ـ

١ـ الجهل، وهو عدم معرفة ما ينفع.

٢ـ الجبن، وهو الحرص على العافية أكثر مما ينبغي.

٣ـ الكبر، وهي المعاملة مع النفس على أنها أكبر مما هي.

٤ـ الحزن، وهو التأثر على فقدان عزيز، أو فوات مقصد.

ويمكن تلخيص هذه الصفات السبع في صفة واحدة، وهي:

وضع الشيء في غير نصابه.

وأما مظاهر نور الجسد ونور الروح، فهي أضداد الصفات السبع المذكورة.

وهنالك حقائق ينبغي التوقف عليها :ـ

الأولى:ـ كل إنسان ـ باستثناء المعصومين (ع) طبعاً ـ يعاني من ظلمات جسده، لأن كل الأجساد مخلوق من حزن الأرض وسبخها، وبعض مخلوق من سهل الأرض وطيبها. ولكنها ـ جميعاً ـ تشترك في المواد الأصلية التي ركب منها التراب.

الثانية:ـ لا بد لكل جسد ـ مع نفس الاستثناء الآنف ـ أن يعاني من ظلمات الأرض، حتى يكون مسرحاً للصراع بين الخير والشر، ويعرض للتجربة.

ويدل على أن أجساد المؤمنين تعاني من الظلمات، قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾(٢٥١)، وهذا الغل هو المظهر الرمزي ـ أو الحقيقي ـ لتلك الظلمات. كما يدل عليه: ما ورد من إخراج الملائكة علقة سوداء من قلب رسول الله (ص)، في الحديث المعروف.

ولا بد لكل إنسان ـ كذلك باستثناء المعصومين (ع) ـ أن يعاني من ظلمات روحه، لأن الأرواح ثلاثة أقسام:ـ

١ـ أرواح المعصومين، وهي مخلوقة من النور الخالص.

٢ـ أرواح المعاندين ـ من: الجن والأنس، والشياطين ـ وهي مخلوقة من الظلمة الخالصة.

٣ـ أرواح غير المعصومين والمعاندين، وهي مخلوقة من النور والظلمة، بنسب مختلفة. فبمقدار ما ترتفع نسبة النور في الفرد ترتفع درجته في الخير، وبمقدار ما ترتفع نسبة الظلمة في الفرد ترتفع درجته في الشر.

الثالثة:ـ فالأجساد والأرواح مخلوقة من النور والظلمة، وإن كانت نوعية النور الذي خلقت منه الأجساد تختلف عن نوعية النور الذي خلقت منه الأرواح: فالنور الموجود في الأجساد، هو النور الكوني المنتشر في التراب والفضاء، وهو من عالم الخلق. بينما النور الموجود في الأرواح، هو النور الماورائي، وهو من عالم الأمر.

وكذلك: الظلمة التي خلقت في الأجساد، ظلمة كونية منتشرة في الأرض والفضاء، وهي من عالم الخلق. والظلمة التي خلقت منها الأرواح، ظلمة ما ورائية، من عالم الأمر.

الرابعة:ـ إن الإنسان ـ بشقيه: الروح والجسد ـ قابل للتطور.

ـ ٢.

الله ـ تعالى ـ ولي المؤمنين وغير المؤمنين، فهو ولي الكون والإنسان. وقد قرر للكون والإنسان نظاماً عاماً خضع له كل شيء، ولا يستطيع شيء ممارسة الكفر به. فالأشياء كلها مؤمنة بالنظام الكوني، والله ـ سبحانه ـ يمارس ولايته الكونية دون أن يأخذ في الاعتبار إرادة الإنسان أو غير الإنسان، وإنما قهر كل شيءٍ في هذا المجال، فهو مسير طوعاً أو كرهاً:

﴿ثم استوى إلى . . أمرها . . . ﴾(٢٥٢). وهذه الآية لا تعرض النظام الاجتماعي وإنما تعرض النظام الكوني.

ففي مجال النظام الاجتماعي، ترك الله ـ تعالى ـ للإنسان حرية الاختيار، وجعل إرادته سيدة الموقف، فهي مصدر السلطة والسلطان.

وبما أن الفرد الواحد لا يستطيع أن يكفي نفسه شؤونه النظامية، كما لا يستطيع أن يكفي نفسه شؤونه

المادية، من: غذائية، وكسائية، وسكنية، وغيرها . . . ؛ يضطر إلى إضافة طاقته النظامية، إلى طاقات المشتركين معه في الشعور بالحاجة إلى سلطة قوية وقادرة على كفايتهم شؤونهم النظامية، وتركيز تلك الطاقات في قبضة واحدة، تمارس المهام السلطوية بلا عجز، وتحمي المجتمعين تحت خيمتها من التناقض والفوضى.

وهذا الشعور المشترك بالحاجة المشتركة إلى القبضة الحديدية العليا، هو الذي دفع بالبشر ـ في طول التاريخ، وفي عرض الحياة ـ إلى التطوع بخيرة رجاله وطاقاته، من أجل إيجاد سلطة عليا يقودها حاكم أعلى بر أو فاجر، لأن النقائص والمشاكل التي تنتج في فراغ السلطة والحاكم ربما تكون أعقد ـ بكثير ـ من المشاكل التي تحدث بفعل السلطة الفاسدة والحاكم الفاسد.

والمجموعة البشرية ـ التي تحددها ظروف معينة ـ للتعاون على إيجاد سلطة واختيار حاكم، تسمى (شعباً). ورقعة الأرض التي تتعايش عليها تلك المجموعة البشرية، تسمى (وطناً).

وتلك المجموعة البشرية ـ: الشعب ـ، وهذه القطعة من الأرض ـ: الوطن ـ، تختلف أحجامهما من شعب إلى شعب. . ومن وطن إلى وطن. . نتيجة لاختلاف تلك الظروف.

وتلك المجموعة البشرية، قد توفق ـ نسبياً ـ في إيجاد سلطة متناسبة واختيار حاكم متناسب معها، فتنخفض نسبة مشاكلها. وربما لا توفق في إيجاد سلطة متناسبة واختيار حاكم متناسب معها، فترتفع نسبة مشاكلها. وفي كلتا الحالتين، لا تنتهي مشاكل البشر.

فالتدافع الاجتماعي حتمي لا يمكن معالجته، و(المدينة الفاضلة) ـ قبل ظهور صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ ضرب من الشعر البيزنطي، التي أدى توقعها إلى تشديد وطأة المشاكل على أجيال كثيرة.

لأن الإنسان أكبر من الأرض التي تحمله، فلا تستطيع احتماله ومطامح الإنسان أوسع من رحاب الحياة التي تحويه، فلا تستطيع احتواءه. والفائض من مطامح الأفراد تتزاحم على رحاب الحياة المحدودة، فتتناقض، وتحدث مشاكل ترفض العلاج. لأن مشكلة محاولة حصر الواسع في الضيق، مشكلة ليس لها علاج، إلا بتغيير موقع البشر من هذا العالم ـ الذي هو أضيق من حجم البشر ـ إلى عالم بحجم البشر، أو أوسع من حجم البشر.

ولعل السبب الأساس في أن حياة الدنيا مثقلة بالمشاكل، وحياة الجنة معافاة من المشاكل، هو:

أن حياة الدنيا أضيق من البشر، فالبشر مضغوط فيها، كما لو حصر مترٌ مكعب من الغاز في فراغ نصف متر مكعب، فإن هذا الحصر يؤدي إلى توتر يؤدي إلى انفجار لدى أولى إمكانية. فكل شيءٍ مضغوط يحاول أن يأخذ

امتداده الطبيعي، ويعكس رد فعله، فور توفر أدنى فرصة مناسبة.

بينما حياة الجنة أوسع من البشر، فلا ضغط عليه فيها، كما لو أطلق متر مكعب من الغاز في مساحة متر ونصف مكعبين، فإن هذا الترهي يؤدي إلى أن تأخذ كل جزيئة من الغاز امتدادها الطبيعي، وتجد منطلقاً أوسع مما تحتاج، فلا توتر يؤدي إلى انفجار، ولا فائق يؤدي إلى تزاحم وتناقض.

فلا مشكلة في حياة الجنة، ولا يمكن إيجادها، لأن إيجاد أي شيءٍ بدون توفر عناصره مستحيل.

فيما المشكلة طبيعية في حياة الدنيا، ولا يمكن إزالتها، لأن إزالة أي شيء مع توفر عناصره مستحيل. والممكن الوحيد - في هذا المجال - هو تغيير نسبة المشكلة بتغيير نسبة الضغط: فإذا كانت السلطة والحاكم يساعدان على تخفيف الضغوط الطبيعية، تنخفض نسبة المشكلة إلى أدنى حد ممكن. وإذا كانت السلطة والحاكم يكثفان الضغط، ترتفع بمعدله نسبة المشكلة.

وكل فرد - بمقدار شعاعه - يساعد على تحديد نوعية السلطة، وتعديل شخصية الحاكم:

فربما يتعاون أفراد المجتمع على أن يكون الله - تعالى - حاكماً عليهم، فتكون السلطة المفرزة منه عادلة، وقادرة على تخفيض الضغوط إلى الحد الأدنى، الذي لا يمكن تخفيضهم أكثر مع الاحتفاظ بالبشر في حياة الدنيا.

وربما يتظافر المجتمع على اختيار طاغية من الطواغيت حاكماً عليه، فتكون سلطته جائرة، وعاجزة عن تخفيف الضغوط، وإنما تتجه - عكسياً - إلى تصعيد الضغوط بمقدار أنانية الطاغية وجهله.

فالمجتمع هو الذي يختار وليه في مجال النظام الاجتماعي: فالمجتمع الإيماني - عفوياً - يختار الله، لأن المؤمن لا يجد نقصاً ولا عجزاً إلا ويتوجه إلى الله بمشاعره، فهي لا تنبض إلا بالله، فـ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾(٢٥٣)، في واقعهم وفي توجهاتهم. وإذا اختاروا الله لتولية نظامهم الاجتماعي، فمن الطبيعي أن ﴿يخرجهم من﴾(٢٥٤) جميع أنواع ﴿الظلمات﴾(٢٥٥) الاجتماعية الثلاث، وهي:

١- ظلمة التوقعات الناتجة من جهل الفرد: بواقعه، وإمكانية السلطة. فكما سبق: إن واقع الفرد - في هذه الحياة - واقع مضغوط، لا يمكن إطلاقه كاملاً ليأخذ امتداده الطبيعي. بالإضافة إلى: أن السلطة - مهما توسعت صلاحيتها - لا تقدر أن تؤمن لكل فرد كل تطلعاته.

فالفرد الذي عمل على إيجاد سلطة معينة - ولو بأن أعطى لها صوته - يتوقع منها أن تستجيب لكل حاجاته.

وإن اســتطاعت ســلطة، الاستجابة لحاجات فرد أو أفراد، فإنها لن تستطيع الاستجابة لحاجات كل من ساعدوا على إيجادهــا . فــإذا كان الفرد جاهلاً بواقعه وإمكانية الســلطة فإن تصاعد درجــة توقعاته كفيل بإحداث هوة بينه وبين السلطة التي عمل على إيجادها .

ولذلك: نجد التلاميذ، عندما يأخذون مقاعدهم أمام الأســتاذ، يرفعون إليه مطاليب لا قبل له بها، وهم ـ أنفســهم ـ فور ما يأخذون دور الأساتذة من تلاميذهم، يكثفون الأدلة على نسف المطاليب الموجهة إليهم . والعمال حينما يلتصقون بــالآلات في معمــل، يكون لهم موقف ســلبي من صاحب المعمل، وأكثرهم تطرفاً، إذا ملــك المعمل ذاته، ينقلب موقفه ـ بقدرة قادر، بين لحظة وأخرى ـ إلى موقف معاكس تماماً من موقف عماله . وكل فرد من أفراد الشعب، يحمل في جيبه ـ دائماً ـ عريضة شــكوى واحتجاج، تمســح أخطاء الدولة، وإذا تلقى مرســوم تعيينه مســؤولاً، تتطور ـ في يده ـ عريضة الشكوى إلى مرافعة الدفاع عن تلك الأخطاء ذاتها .

وكل هذا . . يدل على أن موجة توقعات الشــعوب ليســت واقعية بمقدار ما تجمع أصداء تقصير الحكام وعجزهم، فتكون توقعات إعلامية هدامة أكثر مما تكون توقعات واقعية بناءة .

وبمقدار ما يصعد المحكومون موجة التوقعات في جانب حقوقهم على الحكام، بذات المقدار يصعد الحكام موجة التوقعات في جانب حقوقهم على الشعوب، فلهم شوط واسع لاستيفاء حقوقهم من شعوبهم . وتتصاعد الموجتان في خطين متوازيين، حتى يبلغ التوتر درجة الصراع والاحتكام إلى السلاح . وإن كانت الأسلحة تختلف: فبينما تحاول الشعوب ـ من جانبها ـ استيفاء حقوقها بالإضرابات، وبالمظاهرات، وأخيراً: بالثورات . في الجانب الآخر، يعمل الحكام على استيفاء حقوقهم بالقانون، وبأجهزة البوليس، والمخابرات، وأخيراً: بالجيوش .

٢ـ ظلمة استئثار الحاكم وأنانيته، الناتجة من جهله ـ أو تجاهله ـ لمكانته الحقيقية من قاعدته البشرية . فالحاكم ـ باعتباره أســوة ـ يحاول الآخرون أن يتمثلوا به . فإذا أخذ لنفســه الكثير، فالآمرون يحاولون أن يأخذ كل واحد منهم بقــدره . وهــذه المحاولة، تضعهم على طريق مجموعة كبيرة من المشــاكل . وأنانية الحاكــم، تدفعه إلى البطش بمن لا يوافقــون علــى هواه ومزاجه . وبطش الفرد العادي بنظيره، يقبل التناســي والغفران من قبل الآخرين، لأنه ليس مبعث الخوف والرجاء، فلا يهتمون بما ارتكب من كبيرة أو صغيرة . ولكن بطش الحاكم ـ ســواء بالكبير أو بالصغير ـ يرفض التناسي والغفران من قبل الآخرين:

أولاً: لأن الحاكم مبعث الخوف والرجاء . فالناس يقدرون أنه إن بطش اليوم بأصغر فرد في الشعب، ومرروا جريمته خوفاً منه أو طمعاً فيه، فإنه يتعود الولوع فيهم وهم يتعودون تمرير جرائمه، إلى أن يتحول وحشاً ضارياً ويتحولون جثة هامــدة لا يهزهــا البطش بها، فحتى لو بطش ـ هو ـ بأكبر فرد في الشــعب أو بأكبر مجموعة من الشــعب، فالجريمة لا تلقــي ظلهــا عليــه ولا عليهم، لأنها فقدت ظلها يوم أصبحت عادة مألوفة . وانطلاقــاً من هذا الواقع، نجد أن الناس

يحصون على الحاكم أنفاسه، وإذا وجدوا بادرة سيئة صدرت منه، أسرعوا إلى شد الجبهات ضده، وضربوا عليه حصاراً، وحاولوا إحكام الحصار عليه، وسلطوا المجاهر على بادرته لجعل النقطة جبلاً. كل ذلك: خشية أن يتعود الجريمة، ويستمرئها، فتجرفهم جرائمه في يوم من الأيام، لأنه يملك القدرة على تحطيم أقدس الحرمات، وليس أمامه إلا تهيب الجريمة، فلا بد من إثارة ردود فعل كثيرة في وجهه لأدنى بادرة سوء، حتى تتضخم في نظره، فلا يقترب منها، ولا يتجاوزها إلى أكبر منها.

ثانياً: إن الحاكم ـ باعتباره صاحب السلطة ـ يحسده ويتربص به منافسوه، وهم يحاولون تعبئة الرأي العام ضده، ولا يجدون وسيلة لتأليب الرأي العام عليه أفضل من تركيز الأضواء على جرائمه، فيحاولون النفخ فيها ما أمكنهم استغلالاً للموقف.

فاستئثار الحاكم وأنانيته تقابل باستئثار كل فرد من الشعب، ويحاول كل جانب أن يكبح جماح الآخر بالمزيد من الاستئثار والأنانية، ويتصاعد الجانبان في خطين متوازيين، حتى يبلغ التوتر درجة الصراع والاحتكام إلى السلاح.

٣ـ ظلمة ارتباك المقاييس. فالحاكم، عندما يجمع في قبضته خيوط السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، لا يجد مبرراً للانحناء أمام الإمبراطوريات الوهمية التي تسمى بالمقاييس، وبخاصة: إذا وجد كلائش: التطور، والتقدمية، والتحرر... مطروحة على الساحة لكل من يحسن استغلالها. فإنه لا يتورع عن اعتبار نفسه قاعدة أساسية للحكم، واعتبار مصالحه منطلقات وأهداف، وبالطبع: سيجد من يفلسف له، وينحت ـ من مصالحه الخاصة ـ قضايا شعبية ومطالب جماهيرية تخدم الأمة والوطن، فيبادر إلى وضع مقاييس جديدة تعود إلى خدمته في نهاية المطاف. وهكذا.. يتوالد ـ في جانب الحكم ـ جيل جديد من المقاييس.

غير أن الحاكم، مهما تبرقع أمام جماهير الشعب، إلا أنه يبقى عارياً أمام مفكريه. والمفكرون ـ في أي شعب ـ وإن كانوا قلة في العدد، إلا أن الشعب برمته ـ بعد تقدم أو تأخر، وتردد، وتمرد، ولف ودوران ـ يتبعهم في الشوط الأخير. وهم ـ بالتقابل ـ يعملون للقصاص من الحاكم، بوضع ـ أو استيراد ـ مقاييس مضادة، ويحسنون استغلال الشعارات البراقة لاستقطاب المتذبذبين، فيتوالد ـ إلى جانبهم ـ جيل جديد آخر من المقاييس. وتبدأ حملة المزايدات والمناورات، في أشكال متنوعة من: الثورة الثقافية، والثورة الثقافية المضادة، والفذلكة، والفذلكة المعاكسة... وتتصاعد الجبهتان في خطين متوازيين، حتى يبلغ التوتر درجة الصراع والاحتكام إلى السلاح.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا تولى شؤون النظام الاجتماعي لمجموعة إيمانية من البشر، يخرجهم من هذه الظلمات الثلاث:

فأولاً: يخرجهم من ظلمة التوقعات التصاعدية المتسابقة في الخطوط البيانية، إلى نور الواقع وعافية الواقع، باتباع

وسائل ـ واحدة منها عملية، والبقية فكرية ـ:

فـالأولى :ـ وهي وسـيلة عملية، أنه يعين الحاكم حسـب مواصفـات معينة، تجعله ـ بالفعل ـ فوق مسـتوى الآخرين، وموضع ثقة واعتراف الآخرين. فهو: لا يعين الحاكم تعييناً خالصاً بالاسم، حتى يناقش في صلاحياته. ولا يعينه تعيينا بصفات باهتة متداولة، حتى يناقش في جدارة تلك الصفات لتصعيد شخص من مستوى القاعدة المحكومة إلى مستوى القمة الحاكمة وإنما يعينه بصفات تجعل منه قمة بالفعل، فتعيينه بتلك، الصفات يشـبه أن يقال: (احتكموا إلى كل من هو قمتكم وأفضلكم).

ـ ٣ ـ

«الله» الذي هو مصدر الكون والحياة والإنسـان، يتولى شـؤون المؤمنين به. وبما أنه الأقوى والأعلم، يسـير المؤمنين به على أفضل المسالك الموجودة في الحياة.

وإذا أردنا علمانية التعبير، نقول: الله رمز المقاييس الواقعية، والمؤمنون به ـ حيث تبينوا تلك المقاييس عن الأنبياء، الذين هم أعرف المصلحين بتلك المقاييس يلتزمون بتلك المقاييس، ولا يلتفتون إلى نداءات الإغراء والإلهاء التي ترفعها المجتمعات من حولهم، فيسيرون بأنفسهم ـ وبالناس والأشياء، من حولهم ـ على أفضل المسالك الموجودة في الحياة.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما يتولى المؤمنين به:

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ . لأن ظلمات الحياة ثلاث:ـ

١ـ مشاكل الحياة وألغامها، التي تفاجيء الإنسان في كل موطيء قدم.

٢ـ انعكاسات تلك المشاكل على النفس البشرية، وتسمى بالمخاوف والأحزان والهموم.

٣ـ والتخيبات التي تصيب الإنسان، نتيجة لكون نفسه أكبر من الحياة.

والله ـ تعالى ـ يفجر تلك الظلمات بالنور، بعاملين:ـ

١ـ عامـل معرفـة المؤمـن بالحياة، فالله ـ بواسـطة أنبيائه وأوليائـه المعصومين (ع) ـ يعرف المؤمنين بمشـاكل الحياة وضيقها وتفاهتها، حتى يستعد المؤمنون لمشاكلها وضيقها، فلا تصدمه المشاكل، ولا تزعجهم الخيبة:

﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. . . ﴾(٢٥٦).

والإنسان إذا عرف الصدمة، وتوقع الخيبة، لا يتألم.

٢. جعل الله لتحمل لصدمة أو خيبة، مكافأة أكبر من تلك الصدمة أو الخيبة.

وبهذين العاملين، خفف من انعكاس المشاكل على النفوس.

وهكذا. . أخرجهم من ظلمات الحياة إلى نور المعرفة، والأمل بالآخرة.

﴿و﴾ أما ﴿الذين كفروا﴾: فالله لا يتولاهم، لا لأن رحمة الله تضيق بهم، وإنما لأنهم يعيشون بأحاسيسهم لا بعقولهم. وأحاسيسهم لا ترقى إلى الله تعالى: فينصرفون عن الله وتعاليمه إلى الطواغيت ـ من البشر ـ ينتهزون ضياعهم، فيكون ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ بدلاً عن الله. وبما أن الطواغيت لا يتولون الناس لإسعادهم، وإنما يتولونهم ليضيفوهم إلى ما حولهم من أشياء، توفيراً على جشعهم في السلطة والشهرة، وتنفيساً عن عقدة العظمة التي توحي إليهم بأن من حقهم أن يستأثروا بأفضل الأشياء. واندفاعاً من مواقع الأنانية والأثرة، يضغطون على من يسقط تحت سلطتهم، بأقصى ما يملكون من قوة، لتقزيمه وصهره في القنوات التي تصب في مآربهم، فيخرجون كل من تناله سلطتهم، مما له من بصيص نور الإنسانية إلى ظلمات الانسياق الأعمى تحت السلطة الغاشمة، إلى الاحتمالات الوحشية. بالإضافة إلى: ما يعانون من ظلمات الحياة.

وجاء (الطاغوت) بصيغة المفرد، للتشابه اللفظي مع (الله) الذي هو واحد أحد. ثم: وجه إلى (الطاغوت) ضمير الجمع ـ في: (يخرجونهم) ـ لأن الطاغوت كثير، حتى بالنسبة إلى كل فرد، فما من فرد إلا ويعاني من عدة طواغيت.

البعث: كيف؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(سورة البقرة: الآية ٢٦٠)

١. تآلف الجسم البشري بذات عناصره، بعد تفرقها وتطورها في تركيبات مختلفة كثيرة، أمر لا يهضمه الفكر البشري بسهولة. فأعطى القرآن شرعية التساؤل عنه حتى القناعة، بطرح السؤال على لسان نبي من أولي العزم، هو

رأس الموحدين بعد نوح (ع).

٢ـ لـو سـقطت حبـة سـكر في كأس ماء، مـا كان القدمـاء يصدقون إمكانيـة اسـتخلاصها، وتجميعها بكل عناصرها. ولكن أبسط خبير كيمياوي، يعمله ـ اليوم ـ ببساطة.

٣ـ ولـو سـقطت حبة ملح، وحبة سـكر، وقطرة أسـيد، وقطرة دم؛ وامتـزج الجميع، فهل يمكن إفرازها بشـكل دقيق؟

كان آباؤنا يقولون: لا.. ونحن نقول: نعم.. بكل بساطة.

٤ـ والله يكـرر التجربـة ـ باسـتمرار ـ: مياه البحر ترتفع سـحاباً، ثم: ترجـع إلى الأرض قطرات مطر، وتمتزج بكل مواد الأرض، وتتطور في النبات والحيوان والإنسان، ثم: لا تضيع، وإنما تفتح طرقها الدقيقة الطويلة إلى البحر، لتعود إلى الجو. فماذا يمنع أن يكون الإنسان كذلك؟!.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنّ الّذِيَ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىَ إِنّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٥٧).

المركز، وغير المركز

﴿يا أيها الذين آمنوا... بصير﴾.

(سورة البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٥)

١ـ الصدقة مشتقة من (صَدَقَ)، إذا عبر عن انطباعه عن الواقع، صادقه الواقع أو لم يصادقه. ويعاكسه (كذب)، إذا لم يعبر عن انطباعه عن الواقع صادقه الواقع أو خالفه. فالتعبير عن الواقع النفسي (صدق)، والتعبير بخلاف الواقع النفسي (كذب).

والصدقة هي التعبير العملي عن الواقع النفسي المنعكس على الواقع، بالمشاركة في الإصلاح.

فهي مشاركة عملية، نابعة من الضمير.

إذن: فالصدقة أخلص ما يدفعه الإنسان لخدمة المجتمع.

غير أن سوء تصرف أفراد من المسلمين، شوه صيغة الصدقة، فأصبحت توحي: بيد عليا تبذل القليل باستعلاءٍ، ويد أدنى تأخذ القليل باستخذاء، ووجه مصعر ممنن، ووجه متلٍ ممتنٍ.

ولكن سوء تصرف أفراد، لا يغير حقيقة الصدقة، التي هي أوفر ما ينفق بإخلاص.

٢ـ والذي يتبع صدقته بالمن أو بالأذى، لا يكون إنفاقه صدقة. لأنها لا تكون مشاركة عملية نابعة من الضمير، وإنما تكون تعبيراً عن حب الاستعلاء والتسخير. فلا تكون صدقة، فهو يبذل ولا يتصدق.

٣ـ ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾(٢٥٨): فلقد كسبوا المال، وهذا المال خرج من حوزتهم عندما دفعوه بالمن أو بالأذى، ولو دفعوه صدقة مخلصة، بقي في حوزتهم بعوضها العظيم عند الله فالمتصدق بإخلاص، يتجر بماله، فلا يدفعه إلا لقاء الافضل والمتصدق بمنٍ أو بأذى، يستهلك ماله بلا عوض.

٤ـ ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب...﴾(٢٥٩) ﴿كمثل جنة بربوة...﴾(٢٦٠): هذه المقارنة بين المنفق رياء والمتصدق بإخلاص، تعطي الكثير:

فالأول غير مركز في عمله، والثاني مركز في عمله.

الأول مدفوع برغبة غيره، والثاني مندفع بدافع ذاته.

الأول يعبر عن مجاملته لإرادة الغير، والثاني ينتزع من إرادته.

فالأول كصخرة، وإنفاقه كالتراب يتراكم عليها من الهواء: إن أول رشة مطر تغسلها فيزول التراب، والثاني كجنة: لا يزيدها المطر إلا نمواً وعنفواناً.

هذا الفارق، هو الفارق الأساسي بين غير المركز والمركز:

فغير المركز، لا يتعرض للتجربة إلا ويزول عن مستودعه والمركز، لا تزيده التجارب إلا توغلاً في مستقره.

وغير المركز محدود المدى: فهو يعمل طالما الرغبات تدفعه والأنظار تتابعه، ولا تكف عنه الرغبات والأنظار

إلا ويجمد في موضعه. بينما المركز بعيد المدى: فهو سواء أشجعته الرغبات أو عاكسته، وسواء تابعته الأنظار او لاحقته.

والمركز: هو الذي يمكن الاعتماد عليه، وتنجح يه الأعمال الكبار، ويسير الكثيرين من غير المركزين.

(٣)

سورة آل عمران

مدنية

وهي مئتا آية

التأويل

﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾ .

(سورة آل عمران: الآية ٧)

(١)

التأويل من الأول، وكلمة (الأول) تعني الأصل: فأول الشيء أصله، وآل إليه عاد إليه. والتأويل ـ من باب التفعيل ـ هو التصريف إلى الأصل، والإعادة إليه. وتأويل الآية، إرجاعها إلى أصل فكرتها.

فالأفكار القرآنية، أفكار عامة واسعة المساحة. فهي تمسح ـ يومياً، وبشكل تطبيقي ـ كل الناس والأعمال

والأحداث، وتعطي أحكامها ودلالاتها - اليوم - للأفراد والأعمال والأحداث، بالوضوح الذي كانت تعطي به أحكامها ودلالاتها للأفراد والأعمال والأحداث، في ربع القرن الذي تنزلت فيه.

وإن كانت اتخذت من الأفراد والأعمال والأحداث المعاصرة لنزولها أو السابقة عليه، مناسبات لنزولها ونماذج تصويرية وأمثلة لتطبيقها؛ ولكنها لم تتقولب بتلك الأفراد والأعمال والأحداث، وإنما استدرجتها إلى أهدافها العامة.

مثلاً: آية:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ﴾ (٢٦١)، وردت في عرض قصة (بني إسرائيل) حينما استضعفهم (فرعون). ولكن القصة لم تستطع احتواء مضمون هذه الآية، ولا استطاعت تأطير جملها. فبقيت عامة كاملة الصلاحية، للتطبيق على كل الجبهات المحقة المستضعفة بسلطة غاشمة. فبقيت هذه الجمل على عموميتها، كما لو لم تكن في عرض قصة معينة تتعلق ببني إسرائيل وفرعون.

ومن هنا نجد: أن الآيات كثيراً ما تجد في الأفراد والأعمال والأحداث التي تلي نزولها، مصاديق أدق انطباقاً عليها. كما وجدت هذه الآية أكمل مصاديقها في أهل البيت (ع)، فكانت إحدى المؤشرات إلى رجعتهم، وإحدى الآيات المؤولة إليها.

إذن: فالأفكار القرآنية - في حد ذاتها - أفكار عامة دستورية للأبد. ولكن صيغت بهذا الأسلوب المتحرك مع الأفراد والأعمال والأحداث المعاصرة لنزولها، أو السابقة عليه، لتكون جماهيرية متجاوبة مع كل ذوق. فتأويلها ليس أكثر من تخليصها من تلك الأفراد والأعمال والأحداث الماضية، وإعادتها إلى أصولها العامة الدستورية، حتى يتم تطبيقها الموضوعي على جميع الأفراد والأعمال والأحداث - الماضية، والحاضرة والمستقبلة - على قدم المساواة.

وهذا العمل الدستوري ليس في متناول كل فكر، وإنما يحتاج إلى: خبرة متضلعة، واستئناس بالمنهج القرآني، وتعمق متمرس في تناول شمولية الأفكار القرآنية. . فلا يعلم التأويل الصحيح إلا الله الذي أنزل القرآن، وإلا الراسخون الثابتون في العلم: الذين يعرفون كيف توجه الأفراد والأعمال والأحداث كلها إلى الله، ويعرفون كيف يتم تصنيفها جميعاً على ضوء الأفكار القرآنية، ويؤمنون بأن كل شيء من عند الله، ولا شيء يمكنه الهروب من حكم الله وقضائه:

﴿وما يعلم تأويله إلا: الله، والراسخون في العلم﴾ (٢٦٢).

ومن الطبيعي أن يكون الله الذي أنزل القرآن عالماً بكل شيء منه، ولكن ذكر الله - في رأس الذين يعلمون تأويل القرآن، بمثل هذه الصيغة الاستثنائية - إشعار بأهمية تأويل القرآن حتى لا يقتحمه غير أهله، وتكريم للراسخين.

فهم يمثلون أكبر العقول البشرية، لأنهم يعرفون ما لا يعرفه غيرهم، إلا الله وحده. وهذا . . أفخم تأطير لهم.

ـ ٢ ـ

١ـ التأويل، مصدر مشتق من مادة (أول). فتأويل شيءٍ من آيات القرآن، يعني إرجاعه إلى معناه الأول.

ذلك: أن القرآن، وكل كلام دستوري أو توجيهي ينزل من الأعلى، يتخذ من الأحداث الجماعية والأعمال الفردية منطلقات لإصدار حكم عام. فلا يتناول حدثاً معيناً، ولا عمل فرد خاص، وإنما يطلق الحكم لكل حدث له مواصفات معينة، وكل عمل له طابع خاص.

فذلك الحدث ـ المنطلق، الذي يحرك النص الدستوري أو البلاغ التوجيهي؛ هو أول ذلك النص أو البلاغ.

فتأويل آية، إعادتها إلى مبدأ انطلاقها. وبتعبير المفسرين: هو فهم (شأن نزولها). ويشهد بذلك تأريخ آيات القرآن.

٢ـ إن آيات القرآن عامة تطلق على كليات. والكلي لا وجود له إلا في الذهن، وأما وجوده الخارج الذهني فبوجود (جزئياته): مصاديقه التطبيقية.

والقرآن لم يعالج تصورات طوباوية لا تطبيق لها إلا في الخيال، وإنما تنطبق كل آية في القرآن ـ كل يوم ـ على البشر وأعماله.

فتأويل الآية، تطبيقها على أجلى مصاديقها. ويختار لهذا التطبيق ـ عادة ـ أهل البيت (ع) وخيرة الصحابة: لأنهم عاشوا نزول القرآن، ولأنهم كانوا الأوائل الذين حركوا نزوله، ولأنهم المصاديق المثالية له.

المفهوم الواقعي للإسلام

﴿إن الدين عند الله الإسلام. . . ﴾

(سورة آل عمران: الآية ١٩)

١ـ الله تعالى، يدين الناس كونياً ـ في الدنيا والآخرة سواء بسواء ـ حسب المقاييس التي يجمعها اسم واحد هو

(الإســلام) فمحاســبة الناس تتم حســبه، لا باعتباره نظاماً شرع كمجرد التشــريع ـ قد يحلو للبعض أن يفسر الدين بذلك ـ وإنما لأنه واقع. فهو علم بالسلوك الصحيح للإنسان ـ لا غير ـ تماماً. كعلم الطب، وعلم النفس، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، وبقية العلوم.. فهي لم توضع لمجرد أن توضع، وإنما لأنها الواقع.

فالإســلام علم. والدين لا يعني إلا ما يدان به الإنســان ويحاســب كونياً. لأن المحاســبة في الدنيا والآخرة، محاسبة واحدة في مرحلتين من حياة الإنســان. لأن الإنســان واحد، ﴿بلى قادرين على أن نســوي بنانه﴾(٢٦٣)، والحياة واحدة، وخالق الدنيا والآخرة واحد.

ففــي القرآن محاولات كثيرة، لتغرس في وجدان الإنســان، أن التشــريع والتكوين جــزآن من نظام واحد لا نظامان مستقلان.

ولعل قمة هذه المحاولات، هي مسألة التوحيد. فهي ليست مسألة مفروضة على الناس اعتباطياً أو أنانية، وإنما هي الواقع ولذلك: نجد القرآن يرجع الناس إلى الكون في هذه المسألة:

ـ ﴿إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الْلّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ﴾(٢٦٤).

ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٢٦٥).

ـ ﴿فَانظُرْ إِلَىَ آثَارِ رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾(٢٦٦).

ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾(٢٦٧)...

إذن: فالكون يدل على التوحيد، وما يفهم من الكون ليس ديناً ـ بالمفهوم الذي يحلو للبعض أن يكون مفهوم الدين ..

وبالنســبة إلى الدين، نجد القرآن ـ أيضاً ـ يرجعنا إلى تجارب البشــر للكون. وعندما يرجعنا القرآن إلى اســتيعاب تجارب الأجيال السابقة، إنما يحاول أن يركز في مفاهيمنا أن الدين علم تجريبي وليس حتى علماً نظرياً.

وما يستخلص من التجارب المتكررة، ليس ديناً ـ بالمفهوم الذي يحلو للبعض أن يكون مفهوم الدين ـ، وإنما هو دين بمعنى أنه يعاقب الإنسان بمناقضته، تماماً.. كنظام الجاذبية، وتماماً.. كنظام الحساب وسائر أنظمة الكون:

فكما أن الإنسان لو لم يعترف بنظام الجاذبية، فحاول أن ينتقل من سطح بناية إلى سطح بناية أخرى كما ينتقل الطائر - بلا وسائل -؛ فإنه يدان بنظام الجاذبية، ويحطمه النظام.

وكما أن من لم يعترف بنظام الحساب، فاعتبر أن ٢+ ٢= ٥؛ فإنه يدان بنظام الحساب، فيتغلب عليه النظام، ويخسر.

وكما أن من لم يعترف بنظام الطب، فتناول السم؛ فإنه يدان بنظام الطب، وينتصر النظام عليه، فيموت.

وكما أن من لم يعترف بنظام الهندسة، فحمل القوائم أكثر من طاقتها؛ يدان بنظام الهندسة، ويعلوه النظام، فيخر عليه السقف.

وكما أن من لم يعترف بأي نظام من أنظمة الكون، يدان به، فيستمر النظام، وينهار هو. . .

كذلك: الدين مجموعة من المعادلات الكونية. فمن حاول التمرد عليه، يسحقه الكون، ويبقى الكون ومعادلاته.

فكل العلوم: دين يدين الله به خلقه، والدين: علم يشرح مقاييس الكون:

فمن ترك فريضة، لا يعاقبه الله، لأنه خالف الله فحسب، وإنما ترك الفريضة - ذاته - يعاقبه. كما أن من ترك التغذية يعاقبه ترك التغذية ذاته، وكما أن من ترك التنفس يعاقبه ترك التنفس ذاته. . .

ومن ارتكب حراماً، لا يعاقبه الله، لأنه خالف الله فقط، وإنما ارتكاب الحرام - ذاته - يعاقبه تماماً. . كمن تناول السم، أو طعن نفسه.

والأنبياء جاؤوا بالأديان لا ليفرضوا على الإنسان فرضيات، ولم يبعثهم الله لمجرد ممارسة ألوهيته، وإنما أرسلهم الله ليشرحوا له الحياة العامة - عبر الدنيا والآخرة -. فكما أتوا بجذور كل العلوم واللغات، هكذا . . أتوا بجذور الدين. وكما أن الإنسان تابع مسيرة الأنبياء في العلوم واللغات استجابة لحاجاته، كان عليه أن يتابع ذات المسيرة في الدين استجابة لحاجاته. ولكنه أهمل مسيرتهم في مجال الدين، لأن المعادلات التي نسميها بالدين أبعد من أحاسيسه اليومية - في أدلتها ونتائجها - من المعادلات التي نسميها بالعلوم واللغات.

يبقى سؤال: إذا كان الدين عبارة عن المعادلات الكونية، فالمجتمعات الدينية يلزم أن تكون بريئة من العقد

والمشاكل. فلماذا كانت المجتمعات الدينية تشكو من العقد والمشاكل؟

والجواب: إن المجتمعات الدينية كانت بريئة من العقد والمشاكل بمقدار تمسكها بالدين، ومريضة بالعقد والمشاكل بمقدار انحلالها عن الدين. كما أن مجتمعات اليوم التي هي ـ بصورة عامة ـ مجتمعات صحية، تشكو من الأمراض، لا لأن علم الصحة غير واقع، وإنما لأنها لا تنفذ علم الصحة مئة بالمئة، فهي صحيحة بمقدار التزامها بعلم الصحة ومريضة بمقدار إهمالها لعلم الصحة.

ـ ويدل على ذلك: أن الإسلام ـ كمثال للدين الكامل ـ يعالج مشاكل الإنسان، ويلبي حاجاته، منذ انعقاده جنيناً وحتى تفرقه تراباً.

وإن كنا قد لا نفهم ـ بسرعة ـ معالجته وتلبياته للجانب الروحي من خلال العبادات، ولكن عدم استيعابنا ـ بسرعة ـ لدوافع ونتائج العبادات، لا يعني عدم مواكبة الإسلام للإنسان في مسيرته الأبدية عبر الحياة من خلال العبادات، أو أنه يحاول جر الإنسان إلى توجهات بعيدة عن مشاكله وحاجاته. فالبشر ـ على العموم، وخاصة: بشر اليوم المبهور ببهرجة الحضارة المادية ـ بعيد عن جانبه الروحي، لأن الجانب الروحي هو الجانب المظلم أو الغامض من الإنسان. ولأن البشر ـ على العموم ـ لا يعنى بمستقبله البعيد عنايته بيومه المعاصر أو القريب، وأكثر اهتمام العبادات بالجانب الروحي والمستقبل البعيد.

ـ ويدل على ذلك: أن القرآن يبدأ ـ مسيرته الفكرية ـ بـ(الله) في: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من سورة الفاتحة، وينتهي بـ﴿الناس﴾ في سورة الناس؛ مما يبرهن على أن القرآن يساير البشر من بدئه إلى انتهائه.

ـ ويدل على ذلك: أنك لا تجد كلمة (الله) في القرآن إلا وتحسن استبدالها بكلمة (الناس) أو (الشعب) ـ فيما عدا الآيات الموجهة إلى الباري تعالى ـ، دون أن تفقد الآية دلالتها في المفهوم الديمقراطي.

فمثلاً: (في سبيل الله) قل: (في سبيل الناس)، أو (عند الله) قل: (عند الناس)، أو (لله خمسه) قل: (للناس خمسه)... مما يشير إلى أن الله ـ في أحكامه ـ لا يمارس حق ألوهيته، وإنما يمثل المصلحة العامة، ويمارس حق المجموع على الفرد، الذي هو ـ بحصته ـ من المستفيدين من هذه الممارسة، ومن أصحاب ذلك الحق الذي يفرض عليه وعلى غيره أداؤه، لتتحرك مصالحهم جميعاً إلى حاجاتهم جميعاً.

ـ من كل ذلك يمكن أن نفهم: أن الثواب والعقاب في الآخرة، يتمان كما يتم النجاح والفشل في الدنيا، إنهما من النتائج العادية لعمل الإنسان، وليسا من الأمور الفوقية، وحتى ليسا من نوع ثواب أو عقاب الإنسان للإنسان، وإنما من نوع حصاد النتائج فقط.

وربما يمكن أن نفسر الشفاعة بـ: أنها من نوع إعانة القوي للضعيف، وإمداد الناجح للفاشل. وليست: من الأمور الفوقية أيضاً، ولا من نوع (الوساطة) التي تكون في المجتمعات التي تشكو من عدم تكافؤ الفرص، ولا من نوع (المحاماة) للاطمئنان على أخذ العدالة مجراها.

ولذلك: نجد القرآن والحديث، يضعان للشفاعة حدودها ومقاييسها:

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَىَ وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(٢٦٨)، ﴿يَوْمَئِذٍ لاّ تَنفَعُ الشّفَاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحْمَـَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾(٢٦٩).

وفي الحديث النبوي: «يا فاطمة بنت محمد! اعملي، فأنا لا أغني عنك من الله شيئاً»(٢٧٠)، «ائتوني بأعمالكم لا بأنسابكم»(٢٧١)، وعن الإمام الصادق (ع): «لا ينال شفاعتنا ـ أهل البيت ـ من استخف بالصلاة»(٢٧٢)...

ـ وربما يمكن أن نفسر الاستغفار بـ: أنه تغليب الحسنات على السيئات، وانتصار نقاط القوة على نقاط الضعف، وأن الجانب الأقوى من الخير والشر في الإنسان هو الذي يتحكم في مصيره.

ـ وهذا.. لا يعني إغفال دور الله ـ فالله هو المصدر والمنتهى، وله الدور كله. لأنه الذي خلق الكون والإنسان، وخلق لهما نظاماً دقيقاً حكيماً، وهو الذي أراد أن يبقى هذا النظام سارياً، فبقي سارياً وهو يستطيع أن يخرقه متى يشاء، ولكنه لا يريد أن يخرقه إلا في حالات معينة تشبه الحالات الاستثنائية، وخرقه النظام هو (المعجزة) التي تتم على أيدي أنبيائه وأوليائه (ع) وهذه الحالات المعينة ـ هي بدورها ـ من ضمن النظام، كما أن مستثنيات كل نظام من ضمنه، وليست ثغرات فيه.

الأفضلية المحدودة، والأفضلية المطلقة

﴿إن الله اصطفى: آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران؛ على العالمين﴾.

(سورة آل عمران: الآية ٣٣)

﴿إن الله اصطفى﴾ وفضل ﴿آدم﴾ على الملائكة والإنس والجن والشيطان ـ في عهده ـ إلى نوح، فلم يبرز ـ في تلك الفترة ـ من آل آدم من يمتاز بدرجة الأفضلية. حتى الأنبياء الذين ظهروا في تلك الفترة، ما نالوا هذه الدرجة، التي تعين الأفضلية المطلقة على جميع الخلائق في تلك الفترة الطويلة جداً.

﴿ و ﴾ اصطفى الله بعد تلك الفترة، ﴿ نوحاً ﴾ على العالمين، الذين عاصروا المدة التي انسحبت إلى عهد إبراهيم. ولم يظهر أطوال تلك القرون، من آل نوح أو من غيرهم، من يستحق درجة الأفضلية.

﴿ و ﴾ أما في عهد إبراهيم الخليل، الذي تقدمت فيه تجارب الرسل وتعمقت المفاهيم الدينية؛ فلم يك إبراهيم ـ وحده ـ الأفضل، وإنما اصطفى الله إبراهيم وكوكبة كبيرة من ﴿ آل إبراهيم ﴾، نالوا درجة الأفضلية على جميع الخلائق، الذين خلقوا في الفترة التي انسحبت من عهده إلى عهد موسى بن عمران.

﴿ و ﴾ أما في عهد موسى بن عمران، حيث انتشرت المفاهيم السماوية وتأثر الكثيرون بالرسالات والرسل؛ فقد اصطفى الله موسى وكوكبة أكبر من ﴿ آل عمران ﴾، على جميع الخلائق في الفترة التي انسحبت من عهد موسى بن عمران إلى عهد عيسى بن مريم. حيث وضع حداً لعهد موسى وبدأ عهد عيسى، الذي كانت له الأفضلية على جميع المخلوقات حتى عهد الرسول الأكرم. ولم يكن له (آل) حتى ينالوا درجة الأفضلية كآل إبراهيم أو آل عمران، أو لا ينالوها كآل آدم وآل نوح.

ودرجة الأفضلية ـ هذه تعني ـ تفوقاً نفسياً وفكرياً لا نستطيع تصورها: فأفضلية طالب على طلاب صفه، أو طلاب مدرسته، أو طلاب بلده؛ تعني الكثير. وأفضلية فرد على المشتركين في مباراة صفة جسمية أو فكرية، لسنة واحدة؛ تؤدي إلى حمله لقب: (بطولة العالم)، رغم أنه تفوق في خاصة واحدة على أفراد معدودين أتاحت لهم ظروفهم الاشتراك في مباراة. فكيف بالأفضلية العامة، ليس على المشتركين في مباراة، وليس على البشر فقط؛ وإنما في جميع الكمالات وعلى جميع الخلائق، عبر أجيال ممتدة أطوال قرون؟!

وهذه الافضلية ـ رغم أهميتها التي تفوق التصورات ـ تبقى محدودة إذا قارناها بالأفضلية المطلقة، التي تعني الأفضلية على جميع العالمين من الأولين والآخرين. أي: جميع الذي خلقوا أو يخلقون عبر الزمان في مجموعتنا الكونية.

وبانتهاء عهد عيسى بن مريم انتهت (عهود) الأفضلية المحدودة، فقد انتهت مرحلة الكمال النسبي وبدأت مرحلة القمة، مرحلة الكمال النهائي. فقد توفرت أقصى مؤهلات الارتقاء، وظهرت على الأرض أعلى القمم الروحية. فبدأ بعهد الرسول الأكرم عهد الأفضلية المطلقة، فكان النبي وآله أفضل الخلائق أجمعين من الأولين والآخرين، أي: لم يكن ولا يكون ـ في جميع من خلق الله: من الملائكة، والجن، والإنس، وغيرها من الخلائق المكلفين ـ أي فرد يتطاول على النبي وآله، أو يتساوى معهم في الفضيلة.

وقد يستوحش البعض ويقول: (كيف يمكن أن يكون محمد بن عبد الله (ص) ونفر من آله، أفضل من كل من خلق ومن يخلق)؟!

فمن الطبيعي أن يكون في كل مجموعة فرد أفضل، ولا بد أن يكون في مجموعتنا الكونية فرد أفضل. وماذا يثير الدهشة إذا أشارت أوساط الوحي إلى أن النبي محمد بن عبد الله (ص) هو الفرد الأفضل، ثم المعصومون من آله؟! فهم هم الواقفون على قمة المجموعة الكونية، ولذلك: حمله الله أعظم رسالاته، وكانت أمته ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾(٢٧٣).

ثم: ما يبرر الاستيحاش؟ ألأن جسمه بشري؟ وماذا يمنع أن يكون أفضل خلق الله من البشر؟!

ولو لم يكن الرسول (ص) أكمل خلق الله، لكان الله - بمقتضى اللطف - يتابع رسله ورسالاته، حتى يرتفع الخلق إلى قمة كماله. فلما جعل محمد بن عبد الله (ص) خاتم رسله، والإسلام خاتم رسالاته؛ عرفنا أنه بلغ قمة الكمال، الذي ليس بعده في الخلائق مدى لكمال.

وهذا الكمال الذي نبحث عنه، هو الكمال في الخلق، الذي لا يخلو من نقص الخلق، أي: نقص (الإمكان). وأما الكمال الحقيقي على الإطلاق، فهو كمال الله. وكل كمال في الخلق، فهو من فيض الكمال الحقيقي على الإطلاق، أي: من فيض الله.

فاطمة سيدة مريم

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىَ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(سورة آل عمران: الآية ٤٢)

هنا . . سؤال تقليدي :-

س:- إن الله نص في القرآن على أن (مريم) سيدة نساء العالمين، فكيف تقولون أن (فاطمة) سيدة نساء العالمين؟

ج:- (العالمون) تشمل جميع المخلوقات العاقلة، التي فيها الذكر والأنثى، من الإنس والجن وغيرهما. وتكون المفاضلة في مرحلة واحدة، مثلاً: عندما يقال: (فلان . . سيد العرب)، فالمعنى أنه سيد العرب في مرحلته. أو: (فلان ملك الروم)، فالمعنى أنه في حين هذا القول. أو: (فلان . . أمير الشعراء)، أي: في ذلك الحين، وإن لم يكن قبله أو بعده كذلك.

فإذا قيل: (مريم سيدة نساء العالمين)، يعني في عهدها وهذا . . لا ينافي أن تكون لكل جيل نسائي، سيدة تفوق نساء العالمين في ذلك العهد.

كما لا ينافي أن تكون سيدة واحدة من سيدات الأجيال ـ سيدة عليهن أيضاً. وهذا.. يعني أن لكل جيل سيدة أولى، ولجميع الأجيال سيدة أولى.

وهذا.. ما عناه النبي (ص) عندما سئل: (أوليست تلك مريم بنت عمران؟)، فقال: «نعم.. تلك سيدة نساء عالميها، وأما ابنتي فاطمة: فهي سيدة نساء العالمين، من الأولين والآخرين)(٢٧٤).

ويرشد إلى هذا المفهوم قوله تعالى ـ في معرض الحديث عن ثمانية عشر نبياً متنوعي الدرجات:. ﴿... وكلا فضلنا على العالمين﴾(٢٧٥)، فإنه يدل على أن كلاً منهم ـ في عهد ـ كان مفضلاً على العالمين، ولم يناف ذلك كون الرسول الأعظم أفضل العالمين، من الأولين والآخرين.

عطاء التجمع

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا... ﴾

(سورة آل عمران: الآية ١٠٣)

الرغبة الدافعة إلى الشيء المرغوب فيه، تتدرج من الأدنى إلى الأعلى. ودرجة الرغبة في الشيء، تظهر في نوعية الأخذ به ضعفاً وقوة: فإذا كانت رغبة الإنسان في شيء ضعيفة تناوله، وإذا صارت رغبته فيه قوية أخذه، وإذا اشتدت رغبته فيه تمسك به، وإذا بلغت رغبته فيه دور العنف العاصف اعتصم به.

ومادة (عصم) تختص بالمقدسات، التي يولد الالتزام بها وازعاً داخلياً يوجه صاحبه توجيها يقيه التهور في المهالك، فيقال: (اعتصمت بالله)، لأن الالتزام به يولد العصمة عن الانحرافات الفكرية والمسلكية. ولا يقال: (اعتصمت بالمال، أو بالكرسي، أو بالشهرة...)، لأن هذه الأشياء لا تولد الاستقامة العاصمة في الراغب فيها.

﴿و﴾ هكذا.. أيها المسلمون! ﴿اعتصموا﴾، ولا تأخذوا مجرد أخذ، بل خذوا بأقوى درجات الأخذ القداسي: ﴿بحبل الله﴾. وحبل الشيء كل ما يوصل إليه، استعارة من حبل السفينة الذي يلقى به إلى الغرقى لانتشالهم إليها. وحبائل الصياد، شبكته التي توصل الطيور أو الأسماك إليه. وحبائل العنكبوت، تصيد صغار الحشرات لها. وحبائل الشيطان، المغريات...

فحبل الله، رسالات السماء التي توصل إليه.

ومن هنا . . كان القرآن حبل الله الممدود بين السماء والأرض لأنه يجسد رسالات السماء إلى الأرض.

فاعتصموا به ﴿ جميعاً ﴾، لأن الاعتصام الجماعي هو الاعتصام الصحيح. وأما الاعتصام الفردي فهو اعتصام باهت، لا عمق فيه، ولا شعاع له، ذلك:

١ـ إن الاعتصام هو الأخذ القوي الذي يولد العصمة الداخلية، والناس العاديون لا تتولد لديهم العصمة بمبدأ ـ مهما كانت أصالته، ومهما قوي إيمانهم به ـ ما لم يدعمه روح الجماهير. فالناس، وخاصة: العاديون منهم يتفاعلون مع الروح الجماعية تفاعلاً عميقاً، يطغى حتى على الإيمان الفردي في كثير من الأحيان.

وأما الأفراد القلائل الذين يواجهون الجماهير بإيمانهم الفردي، فأولئك هم الأنبياء والمصلحون، الذين تختلف تركيبة نفوسهم عن تركيبة النفوس العادية. وحتى أولئك، لا منجى لهم من التفاعل مع الروح الجماعية، ولكنهم لم يعطوها أكثر مما يأخذون منها، فلا يسقطون تحت وطأتها، وربما ينتشلونها من مصرعها.

وهذا . . يعني أن تفاعل الناس مع بعضهم قائم،غير أن العبقري يؤثر أكثر مما يتأثر، وغير العبقري يتأثر أكثر مما يؤثر. وطالما المسلمون ليسوا عباقرة ـ جميعاً ـ فعليهم أن يتفقوا على الأخذ بحبل الله جميعاً، ينصب الإيمان والروح الجماعية ـ معاً ـ في اتجاه حبل الله، حتى يكون لهم اعتصام به. وأما إذا تفرقوا، وفارقتهم الروح الجماعية؛ فلن يكون لهم اعتصام به. حتى لو اتجه كل من موقعه إلى حبل الله، لأن الإيمان ـ وحده ـ لا يحرك كل الناس، حتى لو لم يكن هنالك تناقض.

وأما إذا حدث التناقض، فكان الإيمان في جبهة والروح الجماعية في جبهة؛ فإنها تجرف أكثر الناس، كما تفعل التيارات الحديثة ـ رغم تحجرها ـ بالشعوب، لأنها تحارب الواقع والفكر بالغوغاء.

٢ـ إن لكل شيء حجماً محدوداً أو فاعلية محدودة، سواء أكان وحده أم كان إلى جانب، مثاله: فالطن الواحد من الحجر يبقى طناً واحداً من الحجر، سواء أكان معزولاً عن بقية الأحجار أم في ضمن جبال همالايا. ورقم الـ(٥) يبقى (٥)، سواء درسناه وحده أم مضموماً إلى رقم آخر كان (٥) أو غيره. وعشرة عقول إلكترونية، لا تزيد على عقل إلكتروني واحد مكرراً عشر مرات. . . فالجمع في الأشياء ـ كلها ـ يضمها إلى بعضها، ولا يزيدها شيئاً، إلا في الإنسان، فإن الجمع يزيدهم، وربما يفيد مؤدى الضرب المكعب: فالخمسة من الأفراد ـ مجتمعين ـ قد يعملون عمل مئة وخمسة وعشرين فرداً، وقد يعملون عمل الأكثر من هذا العدد، وخاصة: في مجال الأعمال المعنوية، حيث أن كل فرد يتقمص روح الجماعة، فيؤدي عمل الجماعة، ويتأثر بحجم الجماعة.

ومن هذا النوع تكون الأعمال الإيمانية، التي ليست حواراً ولا حركات ولا تمتمات. . . بمقدار ما هي تفاعلات

روحية بعيدة الأغوار.

ومن هنا.. كانت الأعمال الإيمانية في الإسلام جماعية: كالصلاة، والصيام، والحج...

ومن هنا.. نجد ثواب الصّلاةيرتفع ارتفاعاً هائلاً بارتفاع عدد المشتركين في الجماعة، حتى لا يحصيه إلا الله ـ كما في بعض الأحاديث ـ.

الطليعة القائدة

﴿وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(سورة آل عمران: الآية ١٠٤)

١ـ الذي يتصدى لتوجيه الآخرين لا بد أن يكون فوق الآخرين وإن لم يكن بالفعل،فإن هذا التصدي يلقنه ذلك.

وهذا التلقين، يحرك أقصى مواهبه ليكون ذلك بالفعل. وإن لم تساعده مواهبه على أن يطوي المدى إلى القمة: فإنها تطلق مداه وتدفعه إلى قمته.

٢ـ المحيط هو المرشح الطبيعي للتأثير على أبعاضه، لأن رصيده واسع ومنتشر يرفض الاحتواء. فكل كثير، يحافظ على أصالته ويظهر حواشيه باستمرار:

فالبحر يتابع تياراته العميقة للمحافظة على معادلاته، ويواصل أمواجه السطحية لتطهيره من العناصر الغريبة التي يصدرها إليه البر.

والجو يوالي رياحه لترميم العطل والخلل الذي يطرأ على:

الأوكسيجين، أوالهيدروجين، أو أي عنصر آخر من عناصره.. على أثر الاستهلاكات والانفجارات... ولا يدع معادلاته تصاب بأي سوء.

وهكذا.. كل محيط.

وإذا خالف جزء محيطه، فهو يواجه أحد مصائر ثلاثة :.

أ :. إما أن يتأثر بالمحيط، ويتخلى عن خلافه، فيتطبع معه.

ب:. أو أن يرفضه المحيط، ويلفظه مع الأجسام الغريبة بعيداً عنه.

ج:. أو أن يتأثر به المحيط، ويبدأ في التجاوب معه، حتى ينقسم المحيط، وتستمر الأجزاء الحدودية في تقلبات التأثير والتأثر، إلى أن يتحول المحيط كله إلى حالة الجزء المخالف، وتنتهي تقلبات التأثير والتأثر.

ولا تتم الحالة الثانية أو الثالثة، إلا إذا استند الجزء المخالف إلى رصيد أقوى من رصيد المحيط.

مثلاً: الماء سائل بالطبع، ولكنه يحتاج إلى بعض درجات الحرارة للمحافظة على طبيعته السائلة، فإذا تجمد جزء من الماء على أثر انعدام الحرارة فيه، فلا يجمد البحر ـ بعضه أو كله ـ إلا إذا كان رصيده من البرودة أقوى من رصيد بقية ماء البحر من الحرارة.

٣ـ الفرد في المجتمع يشبه الجزء في الكل فإذا خرج عليه في اتجاه الخير أو الشر، فسرعان ما يتطبع بالمجتمع، إلا إذا كانت نسبة معنوياته أعلى من نسبة معنويات المجتمع. ومدى ارتفاع مستوى معنوياته، هو الذي يحد نطاق تأثيره.

٤ـ الشعب يلد القائد كونياً، بمعنى أنه من الشعب. ولكنه لا يستطيع أن يقود الشعب إلا إذا كان يتمتع بدرجة عالية من المعنويات تفوق كل ما يتفرق في الشعب من عوامل معاكسة. وبهذا المعنى، فالقائد هو الذي يلد الشعب، أي: يؤثر فيه، ويقوده في اتجاه هدفه.

مواصفات الأمة الاسلامية

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(سورة آل عمران: الآية ١١٠)

ـ ١ ـ

﴿كنتم﴾ ـ أيها المسلمون! ـ بمقتضى تصميمكم ﴿خير أمة﴾ .

و(كان) - في مثل هذا الاستعمال - لم ينسلخ عن الماضوية ولم ينف الفعلية، فليس معناه أنكم الآن لستم خير أمة، كما أنه لا يعطي الدلالة على أنكم الآن خير أمة. وإنما معناه أن التصميم الذي صممه الله لكم تصميم لخير أمة: فـإن تقمصتـم ذلـك التصميم فأنتم خير أمة، وإذا ابتعدتم عنه - بعد غيركم عنه - كنتم إحدى الأمم، وإذا ابتعدتم عنه - أكثر من غيركم - كنتم شر أمة.

كمـا أنه قد يوضع أفضل تصميـم لآلية طائرة، فيقال: (هذه.. أفضل طائرة) - بمقتضى تصميمها.. فإذا خرجت متطابقة لتصميمها كانت - بالفعل - أفضل طائرة، وإذا لم تحمل مميزات تصميمها كانت إحدى الطائرات، وإذا فقدت حتى الشرائط المتوفرة في سائر الطائرات كانت شر طائرة.

وبهذا المعنى قد يفسر (كان) في قوله تعالى:

﴿... وكان الإنسان عجولا﴾(٢٧٦).

فمعناه أن الإنسان بمقتضى تصميمه البشري عجول: فإذا بقي إنسان في مستوى تصميمه البشري كان عجولاً، وإذا ارتفع على مستوى تصميمه البشري كان صبوراً، وإذا انحدر عن مستوى تصميمه البشري كان هلوعاً كالمنتحر.

فيا أيها المسـلمون! لقد وضع الله لتنظيمكم الأممي أرقى تصميم في الحياة، فأنتم بمقتضاه لا خير أمة فحسـب، وإنمـا ﴿خـير أمـة أخرجت للناس﴾. لأن لكل شـيء نمواً عادياً يسـير به نحو كماله، وهذا العـادي ناتج من الزخم الداخلي الذي جعله الله فيه، وذلك الزخم الداخلي يحدد كمية نموه وكيفية نموه، فمثلاً:

الزخم الداخلي للبعوض محدد ببلوغه حجماً معيناً هو حجم البعوض، وبعمر أقصاه أقل من أسبوع.

فيما الزخم الداخلي للبقرة محدود بحجم البقرة، وبعمر عشرات السنين.

والزخم الداخلي لنبتة القمح مقدر بساق قصير ضعيف لا يحمل إلا عدة سنابل، وعمر أقصاه ستة أشهر.

بينما الزخم الداخلي لبعض الأشجار كالأرز، والجنار... مقدر بساق وأغصان صلبة ضخمة، وعمر مئات أو ألوف السنين...

وهكذا... لكل شـيء زخم معين يحدد كل أوضاعه، ويجعل تلك الأوضاع بالنسـبة إليه عادية: فإذا عاش شـيء بأقل من أوضاعه العادية، فلا بد أن طارئاً اسـتنزف زخمه، كما لو زرعت شـجرة كبيرة إلى جانب أخرى ضعيفة؛

فلأن الأولى تمتص الثانية.

وإذا عاش شيء بأكثر من أوضاعه العادية، فلا بد أن طارئاً أقدره على امتصاص زخم شيء آخر، كما يحدث ذلك - بشكل واضح - في التربة بالتلقيح والتسميد . . .

ومهما تظافرت الطوارىء السلبية أو الإيجابية، يبقى لكل شيء فلك معين من النقص والكمال لا يستطيع الخروج منه: فالبقرة لا تصبح بعوضة، ونبتة القمح لا تصبح أرزة. . . وإذا خرج شيءٌ عن مداه المعتاد - إيجابياً أو سلباً - فلا بد أن الإرادة الإلهية قد تدخلت في إخراجه من مدى فلكه - وهي المعجزة . .

وكما لكل شيء، كذلك للبشر زخم معين في سيره التكاملي، فأقصى تقدم كل جيل: خطوة أو بعض خطوة. ومهما تناصرت المؤهلات العادية على دفع جيل معين إلى الأمام، فإنه لا يمكن أن يتقدم خطوتين. بل البشرية كلها، عبر كل أجيالها، لم تتقدم إلا ثلاث خطوات - حسب التفسير المادي الوهمي للحياة -: خطوة من الغاب إلى الزراعة والإقطاع، وخطوة من الزراعة والإقطاع إلى الصناعة والرأسمالية، وخطوة من الصناعة والرأسمالية إلى الاشتراكية والجماعية في الحكم.

فإذا وجد جيل واحد، قفز من فوق كل هذه الخطوات، ووصل إلى ما لعل البشر يصل إليه بعد قرون من هذا التاريخ، وهو الإسلام: فأكمل نظامه في أقل من عمر جيل، وأسس - في أقل من ربع قرن - أكبر دولة في التاريخ، بسطت ظلها على أوسع رقعة من الأرض حكمتها دولة واحدة حتى الآن، واستمرت ثلاثة عشر قرناً . . .؛ فإذا أوجد جيل قفز من البداوة البدائية إلى الدولة الإسلامية الكبرى، فلا بد أن الإرادة الإلهية تدخلت في إخراجه من مدى فلكه بصورة معجزية، وإلا فالزخم البشري لا يتيح لأي جيل أن يتقدم أكثر من خطوة.

فالأمة الإسلامية لم تخرج - بطاقاتها - من تحت ركام التخلف إلى النور، وإنما أخرجها الله.

والأمة الإسلامية ليست الأمة الوحيدة التي أخرجتها الإرادة الإلهية من ظلمة التخلف إلى النور، وإنما أخرج الله - قبلها - أمة (نوح) من ظلمة الانغلاق القاتل: فعلم كل فرد منها لغة اللغات، ووجهه إلى تشييد حضارة تركت آثارها للتاريخ. وأخرج الله - قبلها - أمة (إبراهيم) من ظلمة عبادة الأحجار، ووجهها إلى تفهم قيمة الإنسان، حتى استعلت على الأحجار المنحوتة. وأخرج الله - قبلها - أمة (موسى) من ظلمة عبادة البشر، والاستسلام لـ (الفراعنة)، ووجهها إلى الثورة على حاكم يتخذ السلطة وسيلة للتسخير والاستعباد. وأخرج الله - قبلها - أمة (عيسى) من ظلمة عبادة المال والنفس، ووجهها إلى تقدير كل شيء بقدره، ووضع كل شيء في موضعه. وأخرج الله أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من كل هذه الظلمات - وغيرها - مجتمعة، ووجهها إلى نور التقدم اللائق، الذي تنهار أمامه الحواجز والعقبات، وتتضح أمامه آفاق تطل على آفاق، فكانت خير أمة ﴿أخرجت﴾ من الظلمات كلها. . إلى النور كله . .

والله ـ تعـالى ـ لم يخـرج هـذه الأمة من الظلمات إلى النور، لتنعم وحدها بالنور، وإنما أخرجها ﴿ للناس ﴾ كافة، حتى تقود البشرية ـ جمعاء ـ في كل مظهر من مظاهر التخلف والانغلاق إلى كل مدى من آماد التقدم والانطلاق. فهي الأمة القائدة التي لم يسمح الله لها بالأهداف الوطنية والقومية وإنما وضع أمامها الأهداف الأممية والعالمية: فكل البشر إخوان في الدين أو نظراء في الخلق، وعلى أية أرض عاش المسلم فهي وطنه.

فأنتم ـ أيها المسـلمون! خير أمة أخرجت للناس، لأنكم الأمة القائدة: ﴿ تأمرون بالمعروف ﴾، وهو كل خير وتقدم وانطلاق...

﴿ وتنهون عن المنكر ﴾، وهو كل شـر وتخلف وانغلاق... فما دمتم تمارسـون صلاحيتكم كأمة قائدة، فأنتم خير أمة أخرجت للناس. وإذا تخليتم عن ممارسة صلاحيتكم كأمة قائدة، لم تكونوا خير أمة أخرجت للناس.

فصفات البشر تتبع ممارساته: فما دام يمارس السماع بأذنه فهو سميع، وإلا فهو أصم. وما دام يمارس النطق بفمه فهو ناطق، وإلا فهو أخرس. وما دام يمارس البصر بعينه فهو بصير، وإلا فأعمى... والقائد: ما دام محتفظاً بمؤهلاته، وممارساً لصلاحياته؛ فهو قائد، وهو خير المجموعة التي يقودها. وإذا تخلى عن ممارسة صلاحياته، انقلب مقوداً. وإذا فقد مؤهلاته نتيجة لترك ممارستها، فقد يغدو شر المجموعة التي كان ـ يوما ما ـ خيرها.

والأمة الإسـلامية، حيث تخلت عن ممارسـة صلاحياتها القيادية، فقدت مميزاتها كأمة، حتى أصبحت كما تنبأ به النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم): «... تتداعى عليكم الأمم كتداعي الأيدي على القصعة...»(٢٧٧)، وكما أضـاف: «... تأتيكـم الفتن كقطع الليل المظلـم...»(٢٧٨)، وكما انتهى: «... غثاء كغثاء السـيل...»(٢٧٩)؛ فقد انقلبت شر أمة. فلا توجد ـ على خريطة عالم اليوم ـ أمة فقدت إرادتها وهويتها، وأصبح كل عضو منها يتملق أمة لترضى به ذيلاً لها؛ كالأمة الإسلامية. فهي ـ بالفعل ـ شر أمة، رغم أنها كانت ـ في طلائعها المتقدمة ـ خير أمة.

ولكـن التاريخ لا ينفع إلا للشـعر. أما في مجال الواقع، فالتاريـخ المجيد يصبح لعنة على الحاضر المتوتر: فقد يعذر الذي لم يكن له مجد في أن يكون ذيلاً، ولا يعذر الذي تقطر من الأمجاد أن يغدو معه.

ولقـد كان لهـا عـذر لو أنها انهزمت أمام قوة عادية، أو ركعت في شـدة. ولكن الـذي يبعدها عن أي عذر، أنها انحلت بلا صراع، حتى لكأن الإرادة الإلهية التي رفعتها بشكل معجزي، هي التي خفضتها بشكل معجزي، وإلا فلماذا انهارت؟! وأمام من ركعت؟!

وأعجب ما في الأمر، أن الأمة الإسلامية تلاشت رغم توفر مؤهلاتها: فلا زالت استراتيجية بلادها وحيدة في العالم، ولا زالت كتلتها البشرية تضاهي أضخم كتلة بشرية، ولا زالت أرضها أخصب أرض، ولا زالت مواردها الطبيعية أغنى

مـوارد طبيعيـة، ولا زال نظامها الذي تقدمت به، محفوظاً لم تعبث به الأيدي، كما عبثت ببقية النظم السـماوية. . . فالتصميم الذي جعل منها خير أمة، قائم لم يوضع تصميم أفضل منه.

إنها لا زالت الأسد على الأرض، ولكنها الأسد النائم. وإذا نام الأسد، تراقصت فوقه الفئران. فإذا انتفض لليقظة، فالفئران تترامى عنه، متسـارعة للاختفاء تحت الأرض. صحيح أن لهذه الفيران مخالب ذرية، ولكن إذا أخذنا نسـبة المسـلمين اليوم بكل القوى الكبرى مجتمعة، لم تكن أقل من نسـبة المسـلمين في ابتداء الإسلام بكل القوى الكبرى مجتمعة. وكما استعلوا عليها يوم ذاك، يمكنهم أن يستعلوا عليها اليوم. وكما أبدعوا - يوم ذاك - خططاً فاجؤوا بها عالم الأمس، يمكنهم - اليوم - أن يبدعوا خططاً يفاجئون بها عالم اليوم.

فالمسـلمون بحاجة إلى اليقظة فقط، ليعودوا خير أمة. ولكن الأمم - كالأفراد - كلما طال سـهادها عمق رقادها، وكلما عمق رقادها طال سـهادها. وقد بقي المسـلمون يقظين طوال ثلاثة عشـر قرناً، وها هو القرن الأول من رقادهم، والله يعلم متى ينتهي رقادهم.

ويبدو: أن الله - تعالى - لا زال يرحمهم ببركة بقية مؤمنة تستدر رحمة السماء، فيعوض الله على ما فيهم من نقص بما يفجر في بلادهم من خير، ولكنهم لا يلبثون هكذا . . طويلاً، ولسوف يثيرون غضب الله، وستدور بهم الطواحين، ويصبحون كما أخبر أمير المؤمنين (عليه السلام):

«لتبلبلـن بلبلـة ولتغربلـن غربلـة، ولتسـاطن سـوط القـدر؛ حتـى يعـود أسـفلكم أعلاكـم، وأعلاكـم أسفلكم. . . »(٢٨٠).

فهذا . . رقاد الغفلة عن ذكر الله، ولا تؤخذ الأمم إلا بغفلتها عن ذكر الله. وهذا . . رقاد عميق كرقاد الفيلة، لا يصحون منه إلا على جلبة المقامع فوق رؤسـهم، وهيجة الأزمات تعصرهم نكداً وتذروهم بدداً، حتى لا يجدوا ملجأ من الله إلا إليه، فيؤمنوا به إيمان قوم (يونس) لما أحاطت بهم خطيئاتهم، وسام البلاء رؤوسهم، فاتجهوا إلى الله اتجاه الفكر والضمير، فكشف عنهم بلاء الخزي.

فالله هو الحق المبين، وكل ابتعاد عن الله لا بد أن يؤدي إلى اصطدام بالواقع، وهو كفيل - بقوة رد الفعل - بالإعادة إلى الله.

وكل أمة منحها الله السيادة، لا بد أن تشعر بالاستغناء عن الله، فتبطر، وتقودها رقدة البطر إلى هاوية لا ينتشلها منها إلا شعورها بالحاجة إلى الله، فـ﴿ . . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . . ﴾(٢٨١).

وإذا استيقظت الأمة الإسلامية، فإن الله لن يخذلها، بل سيرسل إليها من يعيدها إلى مركزها الطبيعي كخير أمة أخرجت للناس.

وما لم تستيقظ، فالأحرى بها أن ترفع محسوبيتها على الإسلام، كي لا تسبب في حرمان الآخرين منه، وحرمانه من قدرات الآخرين.

وليكن عملنا ـ اليوم ـ عرضه كما هو كاملاً غير منقوص، لا عرضه من خلال واقعنا نحن.

فالإسلام هائل التقدمية والواقعية، بحيث لا يمكن أن يعرض ـ بصورته الصحيحة الكاملة ـ في معارض الفكر إلى جانب النظم الأخرى، إلا ويشد إليه الأذهان، فيعلو ولا يعلى عليه. أوليس في تنبؤات الرسول (ص): أن الإمام المهدي (ع) عندما يظهر ويعلن الإسلام، يسلم على يديه النصارى في العالم، وينقادون له بلا صراع؟!

فلو ترك الإسلام ـ كمبدأ أو كدين ـ يشق طريقه إلى الوجود، لوجد في العالم أنصاراً يتقدمون به في كل مكان. ولكنا فرضنا عليه قيمومتنا ـ ولم نكن في مستواه ـ، فأعطينا عنه صورة ناقصة ومشوهة، واعتبرنا أنفسنا مسلمين، فظن العالم أننا الصيغة العملية للإسلام، وحملوه كل أمراضنا، واعتقدوا أنهم إذا أسلموا أصيبوا بأمراض، فتحاموا عنه مبتعدين. وهكذا . . أصبح الإسلام محجوباً بالمسلمين، وكان الإسلام بألف خير لو لم يمثله المسلمون هذا التمثيل المشوه.

وكان لكثير من المسلمين ـ اليوم ـ شرف الإنصاف لو يملكون الجرأة على أن يعدلوا الإسلام، فيصارحوا العالم بـ: (أنهم ليسوا مسلمين عقيديين، وإنما هم مسلمون عاطفيون، جاءهم الإسلام بالوراثة، ولم يتخذوه بالفعل). حتى يرفع الحيف عن الإسلام ـ على الأقل ـ.

ـ ٢ ـ

١ـ مواهب الله للأفراد أكثر مما يستخدمونها، بل أكثر مما يستطيعون استخدامها. فلكل مخزون احتياطي، هائل من المواهب المتنوعة، التي يختار ـ عادة ـ واحدة منها، ويعرضها، للبلورة والتنمية، حتى يبلغ فيها درجة التخصص، ثم يعيش منها . . . ويهمل بقية المواهب، ليعيدها خامات إلى التراب. ويؤكد توفر المواهب الخامة في الإنسان بنوعيات كثيرة، وكميات هائلة :ـ

أـ إن كل فرد عندما يدخل أي مجال تمليه عليه ظروفه، يجد الخامة المناسبة في وجوده: فلو دخل في المجال السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو العسكري، أو العلمي، أو الأدبي، أو الفني . . . بمختلف فروع هذه المجالات؛ ينجح

في ذلك ولو دخل في مجال ثم تركه إلى غيره، ينجح أيضاً. وهذا.. يكشف عن توفر كل الخامات في وجوده. إلا أن ثقل جسمه في الحركة العضلية والفكرية؛ تخلفه عن استخدام كل مواهبه، وتضطره إلى الاكتفاء باستخدام واحدة منها، أو اثنتين في أحسن الحالات. بينما المناجم غير البشرية، ليست غنية إلا بنوع واحد: فمنجم الحديد غني بالحديد دون الذهب، ومنجم الذهب غني بالذهب دون الفضة... فكل منجم غني بمعدن واحد، والإنسان غني بكل المعادن.

ب- إن كل فرد عندما يختار إحدى مواهبه لاستخدامها يجدها وفيرة بمقدار ما يحتاج إليها: فلا يدخل المجال السياسي أوا لاقتصادي أو غيرهما... إلا ويجد أن في استطاعته أن يستزيد.. ويستزيد.. وأن يعلو.. ويعلو.. كثيراً ولا يصل إلى وقت يشكو فيه من نضوب الخامة المناسبة في وجوده. فيما المناجم غير البشرية، ليست غنية إلا بكمية محدودة من المعدن، ويأتي على كل منجم زمان يشكو فيه نضوب معدنه. فخامات الإنسان قابلة للامتداد بلا حدود قريبة، أو هي- على الأقل- أكثر من قدرته على الاستهلاك كماً، كما هي أكثر من قدرته على الاستهلاك نوعاً.

وربما تساعد على إهمال المواهب (عقدة الصغار) التي يتلقاها كل فرد من أوليائه في دور الصبا، ثم لا يبارح سرطانها رغم تفتق الحياة في جسمه وروحه وفكره... فيبقى صغير المطامح مهما كبر، وتبقى مواهبه أوسع من طموحه مهما توسع.

٢- إن كل فرد يجد- في ذاته- مادة التوسع والامتداد أكثر مما يشاء، فكل فرد هو الذي يحدد محيط شعاعهم في المكان والزمان: فكم من فرد يبتلع شعاعه، حتى لا يكون له شعاع بمقدار أبعاد جسمه، فيعيش بلا وجود، ولا يعمر لحظة من الزمان، لأنه يعيش تحت تأثير غيره. وفي المقابل: يكون فرد يعيش الملايين من البشر، ويعمر آلاف السنين، لأنه يحتضن الملايين آلاف السنين.

٣- إن العظماء لا يختلفون عن غيرهم في كمية المواهب أو نوعيتها، وإنما يختلفون في هندسة أعمالهم: فالعظيم هو الذي يهندس قبل أن يضع اللبنة، وغيره يرمي اللبنة ثم ينتظر وقعها. والفاشلون ليسوا هم الذين لم يجدوا المواد الكافية لبناء أنفسهم، وإنما هم الذين فرطوا فيها فلم يجدوا أنفسهم.

٤- إن المجتمع يمنح كل فرد مدى محدوداً يحدد مداه الاجتماعي وفترة نشاطه من العمر، ويبدأ بعمل يكون قدر مداه ونشاطه، حتى ينجز في حياته عملاً يساوي عمر إنسان. وأما إذا أخطأ هذا الحساب، فبدأ بعمل أكبر من مداه ونشاطه، أو أصغر منهما، أو زرع نشاطه في أراضي الآخرين؛ فقد انتهى كما بدأ، وربما أسوأ مما بدأ.

٥- إن الهندسة الصحيحة هي التي تحمل توقيع السماء فالصحيح هو (المعروف) في لغة الأنبياء، والخطأ هو

(المنكر) في لغتهم. فما أرقته العقول الكونية فهو (الصحيح)، وما شجبته العقول الكونية فهو (الخطأ).

والأمم ـ كالأفراد ـ: فالأمة التي تتبنى (المعروف) و(ترفض المنكر)، ثم تحتضن سائر الأمم، فتدعوها إلى تبني (المعروف) و(رفض المنكر)، فهي الأمة القائدة، التي تبني البشرية، ويكون لها شعاع يسع البشرية. والأمة التي تنتظر من يبنيها، وينفض عنها غبار القدم؛ فهي الأمة التي ابتلعت شعاعها، فتعيش بلا وجود ولا عمر:

﴿ . . . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٢٨٢).

٦ـ إن الفرد الذي يعي فلسفة الإنسان، ويتفهم العوالم التي يمرره الله بها؛ يستطيع أن يعيش خارج حدود جسمه وحاجاته، فيستطيع أن يستوعب الآخرين. ومن يجد في واقعه هذا الامتداد، وسيتنفده، فيرتفع فوق ذاته، ويرعى الآخرين؛ تكون قماشته قيادية، فيصبح فوقهم، فيكون رئيسهم الطبيعي، رغب أم زهد، وقبلوا أم رفضوا.

٧ـ إن الأمة الإسلامية التي نواتها إنسان الشرق الأوسط، أمة متفوقة. لأن إنسان الشرق الأوسط إنسان متفوق على غيره ـ بمقدار ما أرض الشرق الأوسط بمناخها وملابساتها أغنى من غيرها ـ. ويكشف هذا التفوق: أن في الشرق الأوسط يوجد الرجل الواحد ينهض وحده بالعبء الكثير، أو يقتل الخلق الكثير، أو يطعم الجمع الغفير . . . وإنسان الشرق الأوسط هو صاحب الأنانية، والأوحدية، والفردية، والتحدي . . . في أعماله العضلية، والفكرية، والسياسية . . . وفي أي مجال يدخله. وهذه المواصفات والمحاولات ـ وإن كانت في جانبها السلبي سيئة، لأنها تعطل الآخرين، وتجعلهم أدوات وإمعات ـ إلا أنها، في جانبها الإيجابي، تدل على أن إنسان الشرق الأوسط طموح روحياً، وقادر جسدياً، فهو يحاول التفوق، ويستطيع التفوق.

وبالفعل، عمل إنسان الشرق الأوسط ـ كأفراد ـ ما عجز عنه الآخرون. وبالفعل اختار الله الكثير من أنبيائه، والكبار من أنبيائه؛ من إنسان الشرق الأوسط. فالأمة الإسلامية، كمجموعة بشرية، هي ـ بالفعل ـ خير أمة أخرجت للناس، لأنها غنية بمؤهلات متفوقة ـ ولأسباب طبيعية ـ. ففي أي وقت تحسن استخدام مؤهلاتها، تعود ـ عملياً ـ خير أمة أخرجت.

وإنسان الشرق الأوسط يبقى نواة الأمة الإسلامية، رغم انحرافه وانجرافه حالياً ـ نتيجة لسلسلة النكسات والارتباكات التي تعتري الأمم عادة في تواريخها ـ، لأنه يجد في واقعه رواسب تاريخية لا يستطيع الانسلاخ عنها. وهذه الرواسب كفيلة بإعادته إلى مكانه الطبيعي، عندما يتخلص من عقد هزائمه، ويعود إليه الاتزان والاطمئنان.

ولعل القرآن استخدم كلمة (كنتم) دون كلمة (أنتم)، للدلالة على أنكم بشرياً ـ في التقييم حسب المؤهلات ـ خير أمة أخرجت للناس، وعملياً ـ في التقييم حسب الأعمال ـ عندما تحسنون التصرف بمؤهلاتكم. فلكم القماشة

القيادية المفضلة، التي هي أفضل القماشات البشرية التي تولت القيادية العالمية. فأنتم ﴿كنتم﴾ - كبشر - ﴿خير أمة أخرجت﴾ قائدة ﴿للناس﴾، ويبقى عليكم العمل. وتبقى سائر الأمم التي تصدت للقيادة العالمية، دون مستواكم - بشرياً للملابسات المختلفة - وإن تفوقت عليكم - عملياً.

- ٣ -

١- الأمر، هو (الصوت الأقوى)، وليس مجرد (صوت الأقوى): فقد يكون الفرد أقوى - بمقياس: المال، أو السلاح، أو المنصب، أو الشهرة. . . - ويكون صوته الأضعف، وربما يكون الفرد أضعف - بذلك المقياس - ويكون صوته الأقوى.

ذلـك: أن الفـرد قد يمتلك الإيمان الأقوى(٢٨٣) بقضاياه، ويجد في ذاتـه الإرادة الأقوى لتحريك تلك القضايا، فينزل إلى المعركة - أية معركة خاضها - بكل ثقله، فينتظر. وقد لا يمتلك الإيمان الأقوى، ولا الإرادة الأقوى ، فلا يحشـد للمعركة كل ثقله، فينهزم رغم ما تكون لديه من طاقات لأن قرار مصير المعارك ليس بذات الشخص المعترك، وإنما بحجم القوة المعتركة، وبنوعية استعمالها: فالذي يجد حنجرة الأسد، قد يخرس أمام صيحة من لا يجد تلك الحنجرة، لأنه لم يصحب حنجرته فقط، وإنما جند كل دمه، وعضلاته، وأعصابه، وحنجرته. . . فصاح بها كلها. والذي يمتلك مئة ألف، ولكنه بتاجر به، وبشـخصيته، وبفكره، وبكل وقته. . . قد ينتصر على من يملك مليون ولكنه لا يتاجر إلا بجزء منه.

ومـن هنـا. . يبدو أن العظماء - غير المعصومين طبعاً - لم يكونوا أعلى مواهب من غيرهم، وإنما كانوا أقوى إيماناً بقضاياهـم، وأجـرأ إرادة على تنفيذها. أولم يقيم الإمام علي (ع)، وضعه في الوسـط الـذي عاصره - يوم الإنذار وعمره الشريف آنذاك عشر سنين - بقوله: «كنت أحمشهم ساقاً، وأضعفهم صوتاً، وأقصرهم قامة. . .»(٢٨٤)، وعاش أميراً حيث لم يرد ولم يريدوا أن يكون أميراً؟! ولعل إلى هذا العامل، أشار الله تعالى بقوله:

﴿. . . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله. . . ﴾(٢٨٥).

والله - تعـالى - لم يردنـا أن نكـون أمراء حتى نأمر بالمعروف أو ننهى عن المنكر، ولا أراد ذلك من أمرائنا فحسـب، وإنما أراد منا أن نزج بكل طاقاتنا في معارك الحق، لنتأمر حتى على أمرائنا، فيكون الدين - كله - لله على الجميع، لا أن يكون سلاحاً يضاف إلى أسلحة القوي على الضعيف.

٢- (المعروف) كل ما عرف، أي: كل ما اسـتحب. و(المنكر) كل ما لم يعرف، أي: كل ما اسـتكره. و(المعروف والمنكر) تعبيران واسـعان، يشملان أكثر الأشـياء والأعمال والأقوال. . . فأكثر ما في الحياة، إذا عرض على مقياس الضمير الحرّ السـليم، إما يصنفه (معروفاً) أو (منكراً) سـواء: في المجال العبادي، أو في المجال العقيدي، أو في المجال

الاقتصادي، أو في المجال الاجتماعي، أو في المجال العسكري، أو في المجال الخلقي، أو في سائر مجالات الحياة، أو في مجال تقييم ما في الحياة من أشياء أو مواد . . . فليس (المعروف والمنكر) محصورين في المجال العبادي، كما قد يوحي بذلك ترديدهما كثيراً في هذا المجال وحده.

٣. إن الوجدان الإنساني واحد ثابت، لا يتغير من جيل إلى جيل ولا يتبدل من مجتمع إلى مجتمع، سميته (الضمير) أم سميته (العقل). فهو وديعة الله في البشر، والقيم عليه في سلوكه، وإشراقة النور على دربه.

ففي كثير من الحديث: «إن لله على الناس حجتان: عقل ظاهر هو الرسول، ورسول باطن هو العقل»(٢٨٦)، «أول ما خلق الله العقل، فقال له: . . . بك أثيب، وبك أعاقب»(٢٨٧) . . . ف(المعروف) في محكمة الضمير واحد، في كل الأجيال والمجتمعات، لا يتغير من ضمير إلى ضمير. و(المنكر) في محكمة الضمير واحد، في كل الأجيال والمجتمعات، لا يتبدل من ضمير إلى ضمير. وإن كان الضمير قد يسحق تحت وطأة المصلحة، كما قد يقتل الرسول. أو يشوش عليه بضجة الدعاية المنحرفة فيخفت صوته، كما قد يكبت صوت الرسول.

فيكون الشيء الواحد معروفاً في هذا الجيل، ومعروفاً في ذلك الجيل؛ بمقدار تحكم المصالح والدعايات. ولكن هذه الظاهرة لا تكشف تناقض الضمائر، من جيل إلى جيل أومن مجتمع إلى مجتمع، وإنما تدل على أنه ليس أقوى سلاح حتى تنهار أمامه مختلف أنواع الأسلحة. فهو صوت الضمير الذي قد يسحق، وقد يخفت، ولكن لا ينجو من محيط المؤثرات إلا ويعود إلى إجماع الضمائر، فيصدر أحكامه الواقعية المطمئنة بعدالتها.

٤. الجسم الحي السليم، وهو الجسم الذي يتمتع بمناعة: فيزيل زوائده، ويبلسم جروحه، ويعقم العناصر الغريبة عنه . . . بسرعة تتناسب مع مقادر حيويته وسلامته.

والجسم غير الحي أو غير السليم، هو الذي لا يتمتع بمناعة: فيرزح تحت زوائده، ويرحب بجروحه، وبالعناصر الغريبة عنه . . . بعفوية تتناسب مع مقدار ما يعاني من نقص في حباته أو سلامته، والجسم الحي السليم، ليس أكثر من مجموعة مترابطة من الوحدات الحية السليمة. والجسم غير الحي أو غير السليم، ليس أكثر من مجموعة مترابطة من الوحدات غير الحية أو غير السليمة.

فالمجتمع ـ بدوره ـ جسم: قد يكون غنياً بالحياة والسلامة، وقد يكون فقيراً إلى الحياة أو السلامة.

والمقياس هو: مناعته، ومدى مناعته، أو عدم مناعته. وقد صمم الله المجتمع الإسلامي حياً سليماً، فكان من الطبيعي أن يكون منيعاً يحافظ على عوامل صحيته، ويتحفظ على عوامل مرضه.

وأمـا المجتمـع الذي يفقد الإصلاح الذاتي، فينتظر النجدة من غيره، فهو المجتمع غير الحي أو غير السـليم، الذي قد تأتيه النجدة وقد لا تأتيه.

ـ ٤ ـ

(المعروف) كل ما عرفه العقل والقلب والضمير، حتى امتد على مدى الإنسـان السـليم. و(المنكر) كل ما أنكره العقـل والقلـب والضمـير، حتى أنكر على مدى الإنسـان السـليم. و(المعـروف والمنكر) ليسـا محتكرين على مجال العبادات، وإنما هما شـائعان في مجالات: العقيدة، والاجتماع، والأخلاق، والسياسـة، والاقتصاد، وكل مجالات الكون والحياة والإنسان... بحيث لا يسع مجال العبادات فيها إلا محيطاً محدوداً جداً.

وإذا كان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من مظاهر الأمة الخيرة المفضلة، فليسا محدودين بحدود الفقه، وإنما هما من مظاهر هذه الأمة في المجالات الأخر قبل مجال الفقه.

لماذا المسارعة؟

﴿وسارعوا: إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السماوات والأرض؛ أعدت للمتقين﴾.

(سورة آل عمران: الآية ١٣٣)

أوليس الله لا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً؟

أوليس الإنسان باقياً عبر الدنيا والآخرة؟

أوليس باستطاعته أن يعمل في الآخرة؟ بعد أن يرى كل شيء، أفضل مما يعمل في الدنيا؟

فلماذا المسارعة؟

لأن الإنسـان ـ في هذه الفترة من حياته الطويلة ـ مراهق، والأشـياء كلها مراهقة، فهذه.. فترة التحول. فإذا نضج الإنسـان، ونضجت الأشـياء؛ يستطيع أن يعمل، ولكنه خارج عن فترة التحول فعمله لا يجدي كثيراً، آلاف السنين من عملـه لا تعـادل يومـاً في عمله الآن فيكون كمن يعمل في الربيع أو في الخريف، وكمن يزرع في التراب أو في الصخر. الأشياء تصل إلى فترة الثبات.

الرسول الأعظم: مديراً

﴿ فبما رحمة من الله لنت. .المتوكلين ﴾ .

(سورة آل عمران: الآية ١٥٩)

ـ ١ ـ

يا محمد! أنت ـ في مستواك الرفيع. . الرفيع. . ـ فوق الآخرين. وسيبقى الآخرون دونك، مهما حلقوا. ومهما حاولت أن تحلق بهم، فإنهم لن يرتفعوا إليك. أنت تنتشلهم عن حمأتهم بقدرتك المتفوقة على انتشال الساقطين، وهم يتسامون باتخاذك قدوتهم ومثلهم، ولكن يبقى الفاصل بينك وبينهم بعيداً. . بعيداً. . وهذا الفاصل ـ في المستوى ـ يجعلهم مخطئين تجاهك حتى عندما يحسنون، فكيف بهم عندما يسيئون؟! لأنهم ـ أمامك ـ أدنى من أن يتعرفوا عليك، حتى يكتشفوا الحسنى في مستواك. فحسناتهم إليك: حفنة تمر، قصعة لبن، تحية بدوية. . .؛ سيئات يستحقون عليها العقاب. وأما سيئاتهم إليك: فجرائم، يصغر فيها العقاب. فأنت لا تحاسبهم بمقاييس مستواك، بل حسابهم بمقاييس مستواهم الذي يصنفهم في مصاف الأطفال. والطفل يظلم وهو بريء، فإذا أساء يقابله وليه بثلاثة أعمال:

١ـ يحاول أن يبرئه حتى لا يحقد عليه، فيلقن نفسه أن هذا. . طفل لا يملك المقاييس الصحيحة لمعرفة الأمور، فإساءته لا تحمل معنى الإساءة. وأنت عامل الآخرين ذات المعاملة، ﴿ فاعف عنهم ﴾ .

٢ـ يحاول أن يبرر موقف الطفل إذا صدرت إساءة منه أمام غيره، حتى لا ينظر إليه أحد بازدراء. وأنت حاول أن توجد المبررات للآخرين أمام الله، حتى لا يعاقبهم بمواقفهم منك: ﴿ واستغفر لهم ﴾؛ كما كان يفعل ذلك وهو يدعو: «اللهم! اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»(٢٨٨).

٣ـ يحاول أن يقابل إساءته بمعالجة تربوية تمنعه من تكرر تلك الإساءة، كالطبيب الذي يراقب المريض لاكتشاف الظواهر المرضية من أجل معالجتها، لا كالعدو الذي يراقب عدوه لاكتشاف نقاط الضعف من أجل اقتحامه منها. ﴿ و ﴾ أنت إذا رأيت من الآخرين سيئة ناتجة من انحطاطهم عنك، اعمل على تصعيد مستواتهم، فـ﴿ شاورهم في الأمر ﴾ المطروح أمامك، حتى توحي إليهم بأنهم كبار، لهم آراء يؤخذ بها في مجالات المصالح العليا للأمة، ليحركوا أدمغتهم، وليعاملوا أنفسهم على أنهم كبار عليهم أن يرتفعوا عما لا يليق بالكبار، ولا يظلوا في حلقة الصغار التي لا تفرق بين ما يليق وما لا يليق.

ولكنك ـ أنت ـ نبي، تختلف نظرتك إلى الأمور عن نظرة الآخرين :ـ

١ـ نظرتك إلى الأمور نظرة كاملة. فلك جانبان: جانب سماوي به تتلقى الوحي، وجانب أرضي به تفرع الوحي. وبهذين الجانبين تشرف على الأمور من أعلى، فتحيط بها من كل جوانبها، على أساس الرؤية الكاملة. فيما للآخرين جانب واحد هو الجانب الأرضي، وهو جانب محدود، فنظرتهم إلى الأمور جانبية، على أساس الرؤية الناقصة.

٢ـ نظرتك إلى الأمور نظرة منطلقة. لأنك تنظر إليها بالعين المجردة، التي ترى الأشياء رؤية موضوعية، فحكمك عليها منطلق من واقعها. بينما الآخرون ينظرون إلى الأمور نظرة شخصية، لأنهم ينظرون إليها بمنظار مصالحهم، الذي يشيع عليها الدخان، فحكمهم عليها منطلق من واقعهم.

٣ـ نظرتك إلى الأمور نظرة دقيقة. فلك من قدراتك الذاتية الهائلة، ومن مقاييس الوحي؛ ما يمكنك من استيعاب الأمور استيعاباً كلياً، ومن قياسها قياساً صحيحاً. فيما نظرة الآخرين إليها سطحية، فقدراتهم ضعيفة، ومقاييسهم ارتجالية، لا يتمكنون بها من استيعاب الأمور، وقياسها قياساً صحيحاً.

فتقييمك للأمور، تقييم كامل موضوعي دقيق. وتقييم الآخرين، تقييم ناقص جانبي سطحي.

فأنت شاورهم في الأمر المطروح أمامك: لتربيتهم على التفكير، وللإيحاء إليهم بالمشاركة، وعدم اعتبارهم مجرد أدوات تنفيذية. ولكن لا تتقيد بآرائهم: فإذا كانت رؤيتك تدعوك إلى اتخاذ موقف معين، ورؤية الآخرين تدعو إلى معاكسة موقفك؛ فامض أنت في الطريق الذي تراه صحيحاً. ﴿فإذا عزمت﴾ على أمر، فلا تبال بما يراه غيرك، فعزيمتك هي الصحيحة.

ثم: إن لك حصانة من قبل الله، فهو وليك الذي يرشدك، ويسددك بالوحي وبالملائكة، فلا يدعك على موقف غير مناسب. فإذا عزمت على أمر ولم يعترض الله، ﴿فتوكل على الله﴾، واعتمد على عدم اعتراضه، فإنه دليل على سلامة موقفك.

فالشورى التي أمر بها الله رسوله (ص)، طريقة تربوية للأمة، وليست طريقة لكيفية حكم الرسول (ص). وهذا.. ما يرشد إليه سلوك الرسول (ص) مع الأمة، وسيرته الكريمة، فـ: ـ

١ـ إن رسول الله لم ينظم مجلساً للشورى، مؤلفاً من أصحاب الرأي في الأمة، بأي شكل من الأشكال، حتى يرجع إليه للتداول في الأمور، واتخاذ المواقف والقرارات، كما كان ينبغي لو أن الشورى كانت طريقة للحكم. وإنما كان يجمع المسلمين، ويطرح أمامهم الأمر الجديد، ويستطلع آراءهم، لمجرد تحريك أدمغتهم وإشعارهم بالمشاركة، ثم

يتخذ الموقف المناسب.

٢ـ لم يضع أي نظام للشورى ـ في عهده أو بعد عهده ـ: فلم يعين ما إذا كانت الشورى تعني مجلساً لأصحاب الرأي، أو استفتاءً عاماً من كل الأمة؟ ولا عين مواصفات أعضاء المجلس ـ إذا كان هناك مجلس ـ. ولا حدد نسبة الأصوات التي يتخذ بها، هل هي نسبة معينة، أو لا بد من الاجماع؟ وما هو العلاج إذا اختلفت الأصوات بنسب متعادلة أو متفاوتة؟ ولا أشار إلى نوعية الأمور التي يجب ـ أو ينبغي ـ الشورى لها. ولا ورد عنه نص يتعلق بأي شيء من تفاصيل الشورى.

٣ـ لم يتقيد رسول الله (ص) بآراء المسلمين فيما يخالفونه الرأي ـ في مجال الحكم ـ ولو بالإجماع أو بما يشبه الإجماع، كما اتفق في (صلح الحديبية)، وفي تقسيم غنائم (معركة أحد)، وفي قطع يد السارقة وإنما كان يمضي حسب رؤيته الصادقة بتسديد الوحي، ثم يكتشف خطأهم وصوابه.

٤ـ وفي كثير من الأحيان، لم يكن الرسول (ص)يطلع المسلمين على اتخاذ موقف، وإنما يأمرهم بأمر لا يعرفون وجهته، وإذا خرج إلى غزوة ورى بغيرها، وهكذا كان يكشف لهم بعد ذلك صواب الرسول (ص) وخطأهم.

٥ـ وإذا كان أحد من المسلمين يعترض على رأي رآه رسول الله، كان القرآن يوقفه عند حده، بالتقريع القاطع:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٢٨٩).

فلا رأي ولا شورى ولا خيار... إذا كان لرسول الله رأي؛ ولو كان في ما يخص الأفراد، بل:

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...﴾ (٢٩٠).

٦ـ وعملياً، لم يستشر رسول الله (ص) المسلمين إلا في عدة أمور، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة بل لا تبلغها؛ وهو يقوم بـ ـ:

تأسيس نظام، وتكوين أمة، وإقامة دولة؛ هذه الأمور الشائكة الضخمة، التي تستدعي مجلساً مفتوحاً طوال فترة رسالته، لو أن الشورى كانت طريقة للحكم بالنسبة لرسول الله (ص).

ـ ٢ ـ

٧ـ والمسلمون فهموا أن الشورى تربوية، فلم يسألوا عن شيءٍ من تفاصيلها وهم يجدون رسولهم يؤمر بها من قبل

الله تعالى، رغم أنهم المكثرون من الأسئلة فيما يعنيهم وفيما لا يعنيهم.

نزعات الخير منتشــرة في الناس، جميع الناس. ونزعات الشــر منتشــرة في الناس، جميع الناس ـ باستثناء المعصومين (ع) ـ.

وعليك: أن تكافح الشر في مصدره، لا أن تقضي على مصدره، وإلا لاقتضى ذلك أن تقضي على جميع الناس.

وعليك: أن تجمع الخير من مصدره، لا أن تقدس مصدره، وإلا لاقتضى ذلك أن تقدس جميع الناس.

إن الخير والشر خيوط متداخلة، وباستطاعتك أن تفعل كالعدسة، فتجمع خيوط الخير والشر.

أما أن تنزه الناس جميعاً فتجعلهم ملائكة، فمســتحيل، لأنهم بشــر وأما أن تشــوه الناس جميعاً فتجعلهم شياطين، فمستحيل، لأنهم بشر.

ومشكلة العالم: أن فيه معارك كثيرة، وصلوات قليلة. وإذا كانت المعارك تنشب في القلوب، فإن الصلوات ترتفع في العقول وأعقد المشاكل هي الصلوات التي ترتفع في القلوب، للانتصار المنفرد، لا للنجاح المشترك.

عالم الشهداء

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠)

ـ ١ ـ

الناس يتصورون المقتول في سبيل الله خاسراً، فهل يمكن تصور خسارة أكبر من خسارة الحياة؟! إنها خسارة كل شــيء ـ دفعة واحدة ـ خســارة لا يمكن ملافاتها. فمن قتل: خســر رأس ماله كله، فانتهى، وانتهت محاولاته، وأقفلت الفرص أمامه.

ويناقض القرآن هذا التصور بشيء من الاستخفاف، فيستخدم كلمة: (تحسبن) التي تعبر عن رؤية بلا ضوء، التي

هي ضرب أخماس بأسداس. وبصيغة المفرد: (لا تحسبن)، لا بصيغة الجمع، وكأنه حسبان فرد لا حسبان جماعة، فهو حسبان معرض لبعد كبير من الواقع.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾؛ لا تحسبنهم - أيها الإنسان! المسجون في جسم ثقيل، مقفل بالحواس الخمس -:

﴿أمواتاً﴾ معطلين عن الحركة والنشاط. ﴿بل﴾ القتلى في سبيل الله ﴿أحياء﴾، ولكن ولكن لا عندك في حياتك الضعيفة المظلمة، وإنما ﴿عند ربهم﴾ في حياة أرحب وأنور.

وعند ربهم لا عند ربك، وكأنما الآية تربط هذا الحسبان بعدم الإيمان بالله. فأنت - عندما تحسب ذلك - تعبر عن عدم إيمانك بربك، وقد تكون مؤمناً بالمادة. ولكنهم - عندما ضحوا بحياتهم - كانوا مؤمنين بربهم، فنقلهم ربهم من عندك إلى عنده. فهم أحياء عنده. ويتمتعون بكل مظاهر الحياة المادية والروحية، فهم:

١- ﴿يرزقون﴾ فيتنعمون بأفضل مما كانوا يتنعمون.

٢- يفرحون، فهم في نشاط روحي، ومغتبطون على عمليتهم الشجاعة التي نقلتهم إلى الأفضل. ويرون المكسب الذي نالوه أكبر من تضحيتهم، فهم لا يرونه جزاءً، وإنما يرونه فضلاً من ربهم بلا استحقاق:

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾.

٣- لا يرون أنفسهم قتلى، ولا يعتبرون أنفسهم منفصلين عن هذا العالم، وإنما يرون أنفسهم متقدمين ويرون أقرباءهم وأصدقاءهم متخلفين، فيبعثون إليهم عواطفهم، ويطمئنونهم على أحوالهم:

﴿ويستبشرون بالذين﴾ تخلفوا عنهم، و﴿لم يلحقوا بهم﴾، وظلوا متخبطين ﴿من خلفهم﴾ في مخاطر الدنيا. فيستبشرون بالمتخلفين ﴿أن﴾ التحقوا، و﴿لا خوف عليهم﴾ من اختراق جدار الدنيا، ولا خسارة في التسلل منها إلى رحاب الله، ﴿ولا هم يحزنون﴾، لأنهم لا يخسرون شيئاً، بل هم الرابحون الربح الأكبر فيعاملون أهليهم كما يعامل أهله من انتقل من مجتمع متخلف إلى مجتمع متقدم.

ولكن: ما هي ماهية حياة الشهداء؟ هل هي حياة الروح - بعد تعطل الجسد - المتوفرة لكل الأموات، أم نوع آخر من الحياة؟؟

الآيــة تلقــي ضوءاً قوياً على حياة الشــهداء خاصــة، وتعدد لها مظاهر مشــابهة للحياة الدنيويــة. فـ﴿ يرزقون ﴾ و﴿ فرحين ﴾، هذه النقاط ـ بالذات ـ تهدف إلى إيضاح تشابه كبير بين الحياتين.

فيحتمل:

١ـ أن يكون الله قد قص الشــهداء ـ الذين ضحوا بحياتهم في ســبيله ـ بنوع من الحياة مشــابه لحياتهم قبل الشــهادة، زيادة على حياة الروح المتوفر لجميع الأموات، فهم بعد الموت ـ في عالم البرزخ ـ لا يختلفون كثيراً عنهم قبل الموت. وبذلك توحي الآية الكريمة، حيث تحاول إيضاح: أن الشهيد يختلف عن الذي يموت حتف أنفه، فالأول يبقى حياً، بينما الثاني يغدو ميتاً. فلا بد أن الله يخلع على الشهيد نوعاً من الحياة خاصاً به دون سواه.

ويقول أقرباء الذين قتلوا بالقنبلة الذرية في (هيروشيما): أن قتلاهم يزورونهم في حالة اليقظة، ويبادلونهم العواطف ـ كما عندما كانوا أحياء ـ ولكن من دون أن يروا. فهل هذا... شيءٌ من حياة الشهداء؟.

٢ـ أن تكون الحياة بمعنى هدفها، وهو التأثير. فالحي هو الذي يؤثر، والميت هو الذي يتأثر فالذي يؤثر ويغير، فهو حي وإن كان تحت الأرض. والذي يتأثر ويتغير، فهو ميت وإن كان فوق الأرض.

فالحياة والموت لهما مفهومان، مفهوم مادي ومفهوم معنوي:

١ـ فالحيــاة بالمفهــوم المادي هي الثبات، والموت بالمفهوم المادي هو الفناء. وثبات الإنســان يمكن أن يتصور باعتبارات ثلاثة:

أـ باعتبار جسمه المادي الظاهر. ولا حياة للإنسان بهذا الاعتبار، إذ لا ثبات للجسم: فخلاياه تحترق بحرارة الجسم، وتعوض بخلاصة المأكولات. وبعض خلاياه، تفنى وتعوض باســتمرار. وكل الجســم يتبدل ـ تماماً ـ كل بضع سنوات مرة. فهو أشبه بماء النهر، الذي يدخل من جانب وينصرف من كل الجوانب فتدخل الجزيئات في الجسم من طريق فمه، وتســتهلك من كل أطرافه. فكل جزيئة تحترق وتعوض، إنما تموت وتنشــر، فالجســم ليس أكثر من مسرح للصراع بين الموت والحياة، فهو لا حي ولا ميت، إذ ليس له ثبات كلي ولا فناء كلي، وإنما ثبات جزئي مقرون بفناء جزئي. فلا ثبات للإنسان، باعتبار جسمه المادي الظاهر.

ب ـ باعتبار الزمان. ولا حياة للإنسان بهذا الاعتبار، إذ لا ثبات للزمان. فالزمان وليد حركة الكواكب، والحركة ـ ذاتها ـ ليست ثابتة، فكيف يكون ما يتولد منها ثابتاً؟!

بالإضافة إلى: أن الزمان ليس شيئاً، وإنما هو مجرد اعتبار، كالأبعاد الثلاثة.

وفي الزمان آراء كثيرة، فمن الفلاسفة من يقول: (إن الزمان ليس موجوداً. لأن الماضي منه فان، والمستقبل منه غير متحقق، والحال غير موجود. لأن كل جزء ذهني من الحال، ينقسم ـ بالدقة ـ بين ما مضى فهو فان، وبين ما يأتي فلم يتحقق بعد).

ج ـ باعتبار جسمه المادي المستور. وذلك الجسم، كيان كامل ضمن هذا الكيان. وهو جسم مادي ولكنه لا يتحلل، ويتجزأ بعد الموت ولكنه لا يهضم إذا دخل في معدة، وهو يمثل ثبات الإنسان ـ رغم احتراق خلاياه ـ. فنحن نقول لصديق ـ مثلاً ـ: (كنت قبل عشرين عاماً تفعل كذا.. وتقول كذا..)رغم علمنا ـ معاً ـ بأن جسمهم المادي الظاهر الذي كان قبل عشرين عاماً، قد احترق ولم يبق منه شيءٌ، ولكنا نخاطبه ونعاقبه أو نثيبه بآثار أعماله قبل عشرين عاماً، باعتبار جسمه المستور الثابت، وهو: (الجسم المثالي) في مصطلح بعض الفلاسفة ـ.

ولكن: هذا الجسم المستور لا يمثل حياته، فهو يرافقه حتى بعد موته.

فحياة الإنسان، بمفهومها المادي وهو الثبات المادي، غير موجودة.

وعندئذٍ: تبقى الحياة بمفهومها المعنوى، وهو الثبات المعنوي، أي: التأثير الذي هو هدف الحياة. فالحي هو الذي يؤثر وإن كان تحت التراب، والميت هو الذي يتأثر وإن كان فوق التراب: فمن كانت له إرادة فاعلة، ولو بمقدار: تقديم نفسه، أو تربية عائلته، أو تحصين بيته، أو توجيه أسرته الكبيرة: شعبه أو أمته؛ فهو حي، تقدر درجة حياته بدرجة فعل إرادته. ومن لم تكن له إرادة، أو انهزمت إرادته أمام الإرادات الفاعلة في الحياة، باقتحام أسرته الكبيرة: أمته أو شعبه، أو بتكييف بيته، أو بتغيير عائلته، أو بجرف نفسه؛ فهو ميت، تقدر درجة موته بدرجة انهزام إرادته. أولم يقل الإمام علي (عليه السلام) لجيشه: «فالحياة في موتكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين»(٢٩١)؟!

والشهيد هو الذي تصدت إرادته لأ على درجات الفعل، وهو الاقتتال في سبيل توجيه أسرته الكبيرة: شعبه أو أمته. فهو حي بأعلى درجات الحياة، وإن كانت حياته مختلفة عن حياتنا، المحجوبة بحجب الجسم.

وتستمر حياة الشهيد ما دامت ذكرى شهادته تفعل لتقويم الأفراد وتوجيه الجماعات، وقد ينسى اسم شهيد، ولكن نتائج شهادته، ونتائج نتائجها؛ تتسلل في الصراع الدائم بين الحق والباطل.

ـ ٢ ـ

﴿ ولا تحسـبن ﴾ ولا يخيل إليك ـ يا أيها الإنسـان! ـ أن ﴿ الذين ﴾ كرهوا الحياة الرخية الرخيصة، وأحبوا الحياة المانحـة المحركـة، ورفضوا الاسترسـال مع التيار، وقبلوا السـير بإرادة، فاشـتركوا في احتكاك قوى الخير والشـر، وضحـوا حتـى ﴿ قتلوا ﴾ لا في سـبيل الأفكار الجانبية، ولا في سـبيل المصالح المحدودة بحدود الشـعوب والبلاد، وإنما قتلوا في سـبيل المصالح العليا العامة، الذي هو قتل ﴿ في سـبيل الله ﴾؛ لا تأخذ ـ أيها الإنسـان! ـ هذه الطليعة الرائدة من البشر مأخذ الحواس المحدودة، ولا تقودك جثثهم الهامدة إلى اعتبارهم ﴿ أمواتاً ﴾، فهم ليسوا كسائر الناس إن همدت أجسادهم فهم أموات، ﴿ بل ﴾ هؤلاء ﴿ أحياء ﴾.

فمـن لم يمـت حتف أنفه، يبقى متمتعاً بنـوع أفضل من الحياة، حتى يحين أجله المحتوم(٢٩٢)، فعند ذلك: ينتقل إلى عالم الآخرة.

وليس الشـهداء في سـبيل الله أحياءً في حياة مليئة بالآلام، وإنما هم أحياء ﴿ عند ربهم ﴾ في دنيا أفضل، في دنيا لا نعرفها، ولا تسهل معرفتها علينا، فيكفي أن نعلم عنها أنها حياة عند الله.

وتلك الحياة التي يعيشها الشهداء عند الله، ليست حياة (الجنة) يوم القيامة، وإنما هي حياة تشبه حياتنا ـ وربما هي داخلة في عمق حياتنا الدنيا ـ، ولها كل مظاهر حياتنا الدنيا.

فهم:ـ

١ـ ﴿ يرزقـون ﴾ كمـا نـرزق نحن، وإن كانت نوعية الرزق تختلف قليـلاً أو كثيراً. فهم ـ على أي حال ـ في طريق النمو والكمال، اللذين لا يتمان إلا بالارتزاق، الذي هو السبب المباشر للنمو والكمال.

٢ـ تعتريهم الحالات النفسية المختلفة، التي تعترينا على أثر الملايمات والمعاكسات. ولكنهم لا يعانون ما يكرهون، وإنما يتمتعون بما يسـتريحون إليه. فهم يقضون ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾، حيث من عليهم بالشـهادة حتى استحقوا الانتقال إلى تلك الدنيا الحبيبة.

٣ـ ﴿ ويستبشرون ﴾ بأن أجيالاً من ذرياتهم، ستصل إليهم في قوافل الشهداء، فتنعم بما ينعمون به. وكل سلف فاز بنعيم، يتمناه لخلفه.

سؤال:ـ

ولماذا الشهداء وحدهم؟! أليس من عقيدة الإسلام، أن الإنسان لا يموت بروحه، وإنما يموت بجسده وحده، الذي هو

مجرد وعاءٍ لجوهر الإنسان، الذي هو الروح؟!

جواب:.

١. نعم. . ولكن من لا يموت حتف أنفه، وإنما يموت بالأجل المعلق؛ يبقى في عالم ثالث بين الدنيا والآخرة، حتى يحين أجله المحتوم، فينتقل إلى عالم الآخرة، وذلك العالم للشهيد أفضل من عالم الدنيا.

٢. إن الذي يموت حتف أنفه، ينقل به . برغمه . من عالم إلى عالم. كالجندي المكلف، ليس له في انتقاله من الدنيا فضل يستحق به جزاءً، بينما الذي يستشهد في سبيل الله، كالجندي المتطوع الذي له في انتقاله من الدنيا فضل يستحق به جزاءً. لأنه ترك كل آماله ورغباته في سبيل الله، فلا بد أن يثيبه الله على ذلك بما لا يثيب به غيره.

الخوف من الله فقط

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(سورة آل عمران: الآية ١٧٥)

كل عمل يستنزف الإنسان، فإذا استنزف كل الإنسان أدى إلى رهق، وإذا تركز الاستنزاف في جزء من الإنسان أدى إلى ألم والإنسان لا يخاف الرهق والألم وإنما يكرههما، ولكنه يتقبلهما إذا رأى من ورائهما مكسباً جديراً بالاحتمال من أجله، بينما يخاف الضياع: ضياع الذات، أو ضياع شيء ثمين.

وبما أن الله محرك الكون في مجريات حكيمة، فالاصطدام بإرادة الله التشريعية . كالاصطدام بإرادته التكوينية . يعني الانفجار والضياع، فيخاف منه. ولكن لا يخاف من الاصطدام بالمنفجرين، لتطويقهم وفق ضوابط سليمة، إذ لا ضياع فيه، وإنما فيه الرهق وربما فيه الألم، وهما مكروهان، ولكنهما مقبولان بالنظر إلى ما ورائهما من مكسب جدير بالاحتمال من أجله، وهو: عدم اتساع الانفجار حتى يشمله، وكسب مرضاة الله بالانسجام مع الكون.

فالخوف من الله، لا من المنحرفين:

﴿فلا تخافوهم، وخافوني﴾.

ثم الخوف من المنحرفين، يعبر عن الجهل بالله وبمجريات الكون. فالخوف من الآخرين، ومسايرتهم لكسب

ودهم، واتقاء غضبهم؛ يساوي التخلي عن الإرادة المستقلة والاستسلام لإرادة الآخرين، ويعني الانتحاء إلى الفكر السائد وليس إلى الفكر الذي يجب أن يسود. وهذه.. علائم عدم الإيمان بالله ومجريات الكون، فلا معنى لخوفكم من المنحرفين ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

اتكال المؤمن، واغترار الكافر

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوَاْ إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مّهِين﴾.

(سورة آل عمران: الآية ١٧٨)

بما أن الله ـ تعالى ـ أراد الكون حقل تجارب لذاتيات الإنسان، جعله مسخراً بنظام الأسباب والمسببات. فالمقدمات الطبيعية تؤدي نتيجتها الطبيعية، والمقدمات غير الطبيعية تؤدي نتيجة غير طبيعية: فالاحتكاك يولد الحرارة، وتكتل المواد الكثيفة يؤدي إلى جاذبية، وجاذبية الكتلة الأكبر أقوى، وامتزاج الأوكسجين والهيدروجين ـ بنسبة معينة ـ يكون الماء... ولا يمكن أن نطلب الحرارة بلا احتكاك، ولا أن نطلب الجاذبية بلا تكتل مواد كثيفة... وإذ طلبنا ذلك تكون محاولتنا فاشلة.

وبعد أن نظم الله الكون بهذا النظام، أطلق فيه أيدي الناس، حتى يعبر كل عن ذاتياته، ويربي مؤهلاته: فالكافر إذا أحسن استخدام هذا النظام، يسيطر عليه. والمؤمن إذا أساء استخدام هذا النظام، أزيج إلى المجاهل. لأن الله لا يريد إلغاء هذا النظام، وإلا بطل أن يكون الكون حقل تجارب.

وكثير أولئك المؤمنون الذين يسيئون فهم معنى (التوكل على الله)، فيتصورونه: (الاتكال على الله)، وعدم الانسياق مع نظام الكون للتغلب عليه، ظانين أن الله يتدخل لهم على حساب الكافرين، فيلغي نظام الكون ليجعل المؤمنين به أسياداً على الكافرين، كما يعمل لإثبات نبوة الأنبياء.

ولذلك: لا يحركون الطاقات التي خزنها الله فيهم، وأمرهم باستنفادها كما فعل الأنبياء، بينما الكافرون يستنفدون طاقاتهم دون انتظار أمر من الله. فيناقض المؤمنون سنة الله في الكون. مبررين موقفهم الخامل بالتوكل على الله، متجاهلين قول الله لهم:

﴿لّيْسَ بِأَمَانِيّكُمْ وَلآ أَمَانِيّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوَءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾(٢٩٣).

ولذلك: يخسرون فرصاً كثيرة، ويهدرون طاقات وفيرة، ثم يحزنون، ولكنهم يسلون أنفسهم بأنها لم تكن

خسارتهم، وإنما كانت خسارة إيمانهم، وأن الله سيعوضهم عنها أضعافاً مضاعفة في الآخرة، متناسين أن الله يعوض خسارة العمل، ويعاتب على خسارة الكسل، كما قال:

﴿إن الذين توفاهم. . مصيرا﴾(٢٩٤).

بينما ينتهز الكافرون كل الفرص المتاحة، ويستغلون كل الطاقات الممكنة، ثم يفرحون، ويفسرون مكاسبهم بأنها لم تكن مكاسبهم، وإنما كانت مكاسب الكفر بالله، فيشنون الغارة على المؤمنين بأن الهكم لو كان صدقاً ـ كما تقولون ـ لنصركم علينا، ولم يدعنا ننتصر عليكم.

وهكذا . . يخسر المؤمنون موقفين:

١ـ موقفاً مادياً، نتيجة الكسل.

٢ـ موقفاً معنوياً، نتيجة خسارة الموقف المادي.

فيما يربح الكافرون الموقفين معاً.

وبعض الكافرين يفسرون مكاسبهم بأن الله يحبهم، بدليل أنه وفقهم، ولو لم يكن يحبهم لما وفقهم. ومن هذا المنطلق يكرون على المؤمنين، بأنكم مخطئون في فهم الله ونحن مصيبون، بدليل أن ينصرنا عليكم في كل المباريات.

وهنا . . يتدخل القرآن ليلقي الضوء على الموقفين:

١ـ فالمؤمنون مخطئون في اتكالهم على الله، وسوء فهمهم لمعنى التوكل على الله. لأن الله أمرهم بالعمل، ونهاهم عن الكسل، وهيأ لهم الاستفادة من الفرص والطاقات، فأهملوها، فخسروا وغلبوا.

والله يعوض خسارة العمل، ويعاتب على خسارة الكسل:

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. . .﴾(٢٩٥).

٢ـ والكافرون مخطئون. فالله ـ تعالى ـ عندما أطلق أيديهم في الكون، لم يطلقها حباً لهم أو تصديقاً لفهمهم

الله، وإنما أطلقها ليجربهم. ولم تكن تجربتهم ليعرف الله واقعهم، حتى يغل أيديهم فور ما يسـيئون، وإنما تجربتهم تعـني تربيـة ذاتياتهم، حتى يبلغوا قممهم وتتفتـح صفاتهم الغمضة، التي هي النار أو تلتقي مع النار. ولا يمكن أن يبلغ الكافر مداه، إلا إذا بقيت الفرص مفتوحة أمامه، وإلا تصبح صفاته مكبوتة فلا تتفتح.

فالله يمهله، حتى تسول له نفسه أن الله يملي عليه السيئات، ويشجعه على الكفر. ولكن من دون أن تختلط لديه الحقيقة، لأن الله يوضحها له بحججه وآياته، وإلا لبقي قاصراً لا يصح عقابه.

ولكـن: كمـا كسـل المؤمنون فبرروا كسـلهم بالإيمان، من غـير أن ترتبك عندهم الحقيقـة، كذلك: ينحرف الكافرون فيبررون انحرافهم بنفي الله، وبأن الله يحب خط الانحراف، من دون أن تختلط أمامهم الحقيقة.

وكما أشار القرآن إلى نقطة الضعف لدى المؤمنين، حتى لا يظلوا مخطئين، فقال:

﴿ إن الذيـن توفاهـم الملائكة... ﴾، هكذا.. يشـير القـرآن إلى نقطة الضعف لدى الكافريـن، حتى لا يظلوا مخطئين، فيقول:

﴿ ولا يحسـبن الذيـن كفـروا: أن ما نملي لهم ﴾ من إطـلاق أيديهم في الكون رغم معرفتنا بهم؛ لا يحسـبوا أنما نملي لهم ﴿ خير لأنفسهم ﴾، فهم على صواب في كفرهم، أو على صدق في فهمهم المنحرف لله؛ و﴿ إنما نملي لهم ﴾، ونتركهـم يتحركون بلا قيود تكوينية، ليكشـفوا هوياتهم كشـفاً كاملاً لا مهرب فيه: ﴿ ليـزدادوا إثماً ﴾ حتى لا تبقى لهم حجة على الله، فلا يسـتطيعوا أن يقولوا لماذا يعذبنا الله؟ فقد أثبتوا أنهم أهل للعذاب. فإننا نعلن ـ من الآن ـ وهم لا يزالون في الدنيا، ولا يزالون قادرين على تغيير خطهم؛ نعلن لهم: أن هذا الإملاء إنما هو لكشـفهم، ﴿ ولهم ﴾ بكفرهم وانحرافهم ﴿ عذاب مهين ﴾.

فلا كل إمهال تقرير، ولا كل باب مفتوح يصح اقتحامه. ومن يكفر بالله إنما يطوق نفسه، ومن يقترف السيئات إنما يستهلك ذاته.

وقديماً: ـ يوم كان الناس يزنون البضائع بقطع من الطين ـ ذهب رجل يشتري السكر، فوضع البائع قطعة من الطين في الميزان وذهب ليأتي بالسكر، فاستغل المشتري غياب البائع، فسرق شيئاً من الطين الوزنة، وأكله ـ لأنه كان مصاباً بحب أكل الطين ـ، ورمقه البائع بطرفه، فأكثر من الذهاب والإياب، ليوفر للمشتري فرصة استراق أجزاء من الطين، لأنه يخفف الوزن، فيدفع سكراً أقل ويستوفي الثمن الكامل. والذي استرق الطين، أضر بنفسه من أكل الطين، وأخذ سكراً أقل من حقه.

وهكذا . . يكون الذي يغترون بإمهال الله لهم، فيغترفون السيئات؛ يضرون بأنفسهم، ويفوتون فرصهم: فالزاني ـ مثلاً ـ يدفع تكاليف الزنا من أعصابه وماله، ويفوت على نفسه فرصة استغلال طاقته الجنسية في الطريق المطمئن . والذي يأخذ الربا، يدفع ثمن ضعضعة الاقتصاد والصراع الطبقي، ويفوت فرصة استغلاله في التجارة . والذي يكفر بالله، يتحمل مردود الإلحاد، ويفوت فرصة الاستفادة من عقيدته في الشجاعة والاستقرار .

التفكر في دلالات الوحدات الكونية

﴿إِنّ فِي خَلْقِ السّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الْلّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ(١٩٠) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(١٩١) رَبّنَآ إِنّكَ مَن تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ .

(سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٢)

إذا ألف الإنسان شيئاً أهمله، لأنه يعتبره مفروغاً عنه، حتى ولو كانت في الاهتمام به فوائد جديدة . وخاصة: إذا ألفه من قبل أن يتفتق وعيه، فإنه يتوغل في إهماله إلى درجة الإنكار وإذا جد عليه شيء، اهتم به وربما أكثر مما يستحق، وبنى عليه أحلامه، واعتبره شيئاً حصل عليه بجهده، وخاصة: إذا جد عليه بعد تفتق وعيه، فإنه يتوغل في الاهتمام به إلى درجة العبادة .

فالإنسان يهمل أباه وأمه، رغم أنه وجد عن طريقهما وقدما إليه خدمات لا تثمن، في الوقت الذي ما كان يفكر فيه غيرهما وهو في حاجة ماسة إليهما، ولا يهتم بكل ما يقدمان من خدمات بعد ترعرعه، وربما عنفهما في طلب ما يريد وكأنه يطلب ديناً أنكراه .

وإذا قدم إليه إنسان آخر خدمة بسيطة، اهتم به، وشكره، وتملقه . وإذا طلب شيئاً من غيرهما، طلبه بتواضع واستحياء . لأنه يعرف أبويه مفروغاً عنهما، فهما يسهران عليه بلا مقابل . بينما يعرف من يقدم إليه خدمة، متفضلاً يعطي بمقابل، فلا بد أن يحافظ عليه بجهده، وأن يستدر عطفه بالتذلل له، فيعمل لا كتسابه، ولو بالتخلي عن ذاتيته والذوبان فيه .

وكل منا يهتم بمعطيات (العلم الحديث) اهتماماً لا يسمح بجزءٍ منه لمعطيات (العلم القديم)، وإن كانت في الاهتمام بها مكاسب جديدة، لأنه يعتبرها محرزة مفروغاً عنها .

وهكذا . . نهتم بحركة (الأقمار الاصطناعية)، ونتابع منجزاتها باهتمام وترقب، كلما انتقلت من كوكب

إلى كوكب. بينما لا نهتم بـ(الأرض) التي نحن ـ جميعاً ـ جزء منها ابتداء واستمراراً وانتهاء، ولا نتدبر في عظمتها، ككرة ضخمة منطلقة في الفضاء الغامض المجهول، بدقة وسرعة فائقتين، في حركاتها الدورية والانتقالية، ولا نفكر في (الشمس)، هذه الكتلة المشتعلة الهائلة، التي لا زالت تشتعل من دون أن تنتهي مادتها بالاشتعال أو يقل حجمها فيحترق، رغم أن كل مادة مشتعلة تحترق فتنتهي بالاشتعال أو تقل، مع أننا وكل مظاهر الحياة على الأرض موجودة بحرارة الشمس، ولولاها لكانت الأرض كتلة من جليد. ولا نتأمل في (القمر) ـ هذه الجزيرة المنيرة ـ الذي ننعم بجماله، ويؤمن لنا كثيراً من ضرورات الحياة على الأرض.

ولا نهتم بـ(المجرات) الضخمة الخيالية: الأحجام، والدقة، والحركات... المنتشرة ـ بالملايين ـ في الفضاء الرحب المديد.

لا نعمل شيئاً من ذلك، لأننا تكونا على (الأرض) تحت هذه الخيمة الزرقاء المرصعة بآلاف الملايين من الكواكب والنجوم والسدوم السابحة الجبارة، بينما نهتم ـ وكل أجهزة الإعلام في العالم ـ بكل حركة من حركات (الأقمار الاصطناعية) البسيطة الصغيرة والضعيفة، كلما انتقلت من كوكب صغير إلى كوكب قريب.

لأننا نعتبر (السماوات والأرض) ـ بكل ما فيها ـ قديمة مفروغاً عنها، ونعتبر (الأقمار الصناعية) أشياء جديدة، لا بد من تتبعها والاهتمام بها.

وقد يطيش الوهم ببعض الناس، فيتصور: أن الإنسان الذي انتقل من كوكب إلى كوكب، قد خرج على نواميس الكون، وتحدى إرادة الله في خلقه. ولا يعلم: أن انتقال الإنسان من كوكب إلى كوكب، بالنسبة إلى جسم مجرتنا التي تسمى بـ(طريق التبان)، أقل من انتقال ميكروب من خلية إلى خلية في جسم إنسان، فكيف إذا قيس بكل فضائنا الخيالي الأبعاد، الذي كله ـ وبكل ما يحفل به من مجرات وفراغات ـ مضموم في قلب السماء الأولى من السماوات السبع، التي زينها الله بكل هذه المجرات، فكأنها ـ جميعاً ـ معلقات في سقف حسب تعبير القرآن:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح... ﴾(٢٩٦).

وهذا الإهمال للقديم والاهتمام بالجديد، ناتج من النزف العاطفي في أصحاب المقاييس المرتبكة. أما أصحاب العقول المتزنة، فإنهم يهتمون بكل شيء قدر استحقاقه من الاهتمام، سواء أكان قديماً أم جديداً، فليس المهم هو تاريخ ذلك الشيء، وإنما المهم ما نكتسب من الاهتمام به. فلذلك: يهتمون بخلق (السماوات والأرض)، ويفكرون فيها حتى التملي من التفكير.

ولا يكتفون بمجرد الاهتمام بها، وإنما يحاولون استنباط دلالاتها لأن دلالة كل شيء أجدر بالاهتمام من ذلك

الشـيء نفسـه، لأنه طريق، والدلالة هدف، والهدف أجدر بالاهتمام من الطريق. ففلسفة الكون أجدر بالاهتمام من الكون نفسه، لأن الكون وجد تعبيرا عن فلسفة هي بالذات موضع الاهتمام.

فالعلم المادي الحديث، مهما اهتم بدراسـة الكون واسـتنتاجه، فإنه إنما يهتم بالكون نفسـه. بينما يهتم أصحاب العقول المتزنة بدلالات الكون، والفلسفة التي سببت إيجاد الكون، وربطه ببعضه بهذا الشكل الحكيم الجميل.

والفـارق بين العلمـاء الماديين والعلماء الروحيين في تقييم الكون، هو الفارق بين الطفل والفيلسـوف في تقييم كتاب فلسـفي جميل: فالطفل يقيمه من خلال زخرفة الورق وجمال الخط، بينما الفيلسـوف يقيمه من خلال محتوياته. وهو الفـارق بـين التاجر والطبيب في تقييم وردة: فالتاجر يقيمهـا من خلال ما تدر عليه من الربح، والطبيب يقيمها من خلال فائدتها وما يبرأ بها من مرض.

وهكذا.. يأتي القرآن ليوجه اهتمام الإنسان إلى الظواهر الكونية:

﴿إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ﴾ ما يجدر بالاهتمام، أيها الإنسان! وإن فيها ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ التي هي العقول المتزنة التي تكتنه الأسرار. وهم ﴿الذين: يذكرون الله قياماً﴾ في حالات الاستقامة على الأرجـل، والسـعي في الحاجـات، ﴿وقعوداً﴾ في حـالات الانكباب على مختلف الأعمال، ﴿و﴾ حتى وهم مسـترخون ﴿على جنوبهم﴾ لطلب الراحة، أو في انتظار النوم.

﴿و﴾ كلهم - عندما ﴿ يتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ - لسان يقول: ﴿ربنا! ما خلقت هذا.. باطلا﴾، بـل خلق ذلك لفلسـفة عميقة. ﴿سـبحانك﴾، فأنـت المنزه عن العبث، فلم توجد هذا الكـون العجيب عبثاً وبلا هدف عظيـم. ﴿فقنـا عـذاب النار﴾، ونجنا من إهمال دلالات هـذا الكون، الذي يؤدي إلى الغفلة عنـك ويهوي في النار، بل اجعلنا - دائماً - في مستوى الهدف العظيم، الذي خلقت له الكون، وخلقتنا من أجله.

فالإنسـان الذي لا تقوده دلالات هذا الكون الكبير، ولم يسـتنبط منه هدف الحياة، وبقي أعمى هائماً في المتاهات حتى ينكب في النار؛ تافه محكوم عليه بكل النقائص.

﴿ربنا! إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾، ولا يشفق عليه أحد، لأنه بركوبه رأسه - رغم الإنذارات الشديدة، ورغم ما يصعقه كل آية في كل موضع قدم - لا يدع لنفسه عذراً يبرر به انزلاقه إلى الهاوية، فلا يدافع عنه أحد.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

ذكر الله على كل حال

﴿الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ﴾

(سورة آل عمران: الآية ١٩١)

﴿الذين﴾ استوعبوا فلسفة الكون والحياة والانسان، وعرفوا أن مكانة الكون والحياة والإنسان من الله ليست أكثر من مكانة المخلوق من الخالق، وعرفوا أن مكانة الفرد من الكون والحياة ليست أكثر من مكانة فرد من مجموعة مؤلفة من المليارات في كل جيل على كرة لا ترى من عمق الفضاء إلا بالمجاهر القوية، وعرفوا أنهم ما جاؤوا إلى هذه الحياة إلا ليمروا بتجربة معينة في طريقهم إلى مرحلة أسمى وأوسع؛ فهؤلاء . . يكسوهم من الخشوع الدائم أكثر مما يكسو الطالب ساعة الامتحان، حتى يطبعهم خشوع يغلب على سائر مميزاتهم.

فهؤلاء الخاشعون ﴿يذكرون الله﴾ لا ترديداً وتمتمة شفاه فحسب، وإنما سلوكهم - كله - يعبر عن تذكر الله، والالتزام بإرادته أكثر من التزام المتدرب - حين الفحص - بتذكر مدربه، تذكر كل توجيهاته في كل تصرفاته. فيذكرون الله - بسلوكهم - ﴿قياماً وقعوداً﴾ .

والقيام والقعود: زمزان عن كل الحالات والأطوار، بكل نبضة فكر، ونفضة عصب. ﴿و﴾ حتى عندما ينامون ﴿على جنوبهم﴾ ، لا يمسكون عن ذكر الله باللاشعور - وهو جهاز واع، يعمل باستمرار من الميلاد إلى الوفاة. وهو مستقل عن جهاز الشعور، إلا أنه يعمل لمصلحة الخط الشعوري للإنسان: فيتلقى المعلومات، ويفرزها، ويتفاعل مع جهاز الشعور وغيره. وهو الذي يحرك الرؤيا في المنام..

هؤلاء الخاشعون، تسهل عليهم الصلاة، ويهون عليهم الالتزام الدائم بمواقيتها . لأنها جرت فيهم، وانسجمت معهم، حتى أصبحت تسلية يستريحون إليها، ومفتاحاً يستفتحون بها المعضلات. فالإنسان - عندما يتخلص من علاقات الأرض، ويتكرس أمام الله بالصلاة - يتأهب فيه اللاشعور، لاستقبال موجات الوحي المتواصلة، بحساسية مرهفة، يتلقى الكثير مما يعينه على معالجة القضايا التي استعصت عليه.

ومن هنا: كانت الصّلاةفي تصوير النبي (ص): «معراج المؤمن»(٢٩٧) . ولهذا: كلما تكاثرت المشاكل على رسول الله (ص) حتى غامت على وجهه الشريف، قال لمؤذنه (بلال الحبشي): «روح عنا، يا بلال»(٢٩٨) أي: أذن للصلاة، حتى يروح عنا الضباب.

(٤)

سورة النساء

مدنية

وهي مئة وست وسبعون آية

أبعاد التقوى

﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس. . رقيبا﴾.

(سورة النساء: الآية ١)

شوه كلمة: (التقوى) إطلاقها على الذين تعودوا ـ لسبب، أو لآخر ـ المبالغة في الابتعاد عن الجنس، والحرام العبادي. أما التقوى: فهي مشتقة من مادة: (القوة)، و(المتقي) هو: الذي يتمتع بالقوة الكاملة، وهي: القوة تجاه الذات، فما أكثر الأقوياء في اتجاه الغير الضعفاء في اتجاه الذات! فالقوي القشري، هو: الذي يعرف السيطرة على غيره من الأفراد أو الأشياء. أما القوي الحق، فهو: الذي يستطيع السيطرة على ذاته. ومن استطاع السيطرة على ذاته، فلم يورطه الضعف في خيانة نفسه أو غيره، يستطيع ـ بكل سهولة ـ السيطرة على غيره ومن أسلمه ضعفه إلى خيانة نفسه أو غيره، حري بضعفه أن يسلمه ـ بدون مقاومة ـ إلى غيره من الأفراد أو الأشياء.

ولعل الحديث الشريف، يعبر عن هذا الواقع، وهو يقول:

«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»(٢٩٩).

فالعاصي، هو: الضعيف الذي لا يملك إرادته، ولا إصدار قراراته، ولا اتخاذ مواقفه. . . وإنما يورطه ضعفه في الخيانة، والمتقي، هو: القوي الذي يملك إرادته، وإصدار قراراته، واتخاذ مواقفه. . . فلا يتورط في الخيانة.

فالقوي يصدق، لأنه يملك الجرأة على مواجهة الواقع. بينما الضعيف لا يملك الجرأة على مواجهة الواقع، فيتهرب منه بالكذب.

والقوي يعتاش من الطرق المشـروعة المعلنة، لأنه يقدر على اقتحام الحياة، وكسب معاشـه بفكره.. وعضله.. فيمـا الضعيـف الذي يعتاش مـن الطرق المحرمة الخفية، لأنه لا يقدر على اقتحام الحياة، وكسـب معاشـه بفكره.. وعضله..

والقوي يلتزم العدل، لأن أعصابه تتحمل التغلب على الصعاب، بدون اللجوء إلى سحق الضعفاء. بينما الضعيف يظلم، لأن أعصابه لا تتحمل التغلب على الصعاب، إلا باللجوء إلى سحق الضعفاء ـ بمقياس القوة المادية ـ.

والقوي يؤدي حقوقه، وحقوق غيره.. لأنه يجد من النشاط ما يغطي الحقوق التي عليه. فيما الضعيف عاق، لأنه لا يجد من النشاط ما يغطي الحقوق التي عليه.

والقـوي أمـين، لأنـه يسـتطيع ترتيب أموره بـدون اعتداء. بينمـا الضعيف خائن، لأنه لا يسـتطيع ترتيـب أموره إلا باعتداء.

فالقوة: قوة الروح، تساعد على انتهاج الحق. والضعف ضعف الروح، يدفع إلى انتهاج الباطل.

والضعيف الذي لم يتزود ـ في المبدأ ـ بالقوة التي تعينه على تسـخير الحياة للحق، يسـتطيع التغلب على ضعفه بالتزام خط التقوى، فهذا الالتزام ينمي ما فيه من قوة حتى تبلغ مداها، وتكون قوة محترمة تساعده على الاستفادة من تجربة الحياة. فيما القوي الذي تزود ـ في المبدأ ـ بالقوة التي تعينه على تسخير الحياة للحق، تتضاءل قوته بإهمال خط التقوى، فهذا الإهمال يربي ما فيه من ضعف حتى يبلغ مداه، ويطبع وجوده، فيتحطم في تجربة الحياة.

كما أن الجبان الذي يلتزم النظام العسـكري، يكون له مسـتقبل عسكري محترم، لأن هذا الالتزام يذوب جبنه، وينمي ما فيه من شجاعة، حتى تخلع على حياته طابعها. والشجاع الذي لا يلتزم نظاماً عسكرياً، لا يكون له مستقبل عسكري محترم، لأن هذا الإهمال يذوب شجاعته، وينمي ما فيه من جبن، حتى يخلع على حياته طابعه.

وكما أن الفقير الذي يلتزم الخط التجاري يصبح غنياً، والغني الذي لا يلتزم الخط التجاري يصبح فقيراً.

وكما أن الجاهل الذي يلتزم الخط العلمي يغدو عالماً، والعالم الذي لا يلتزم الخط العلمي يتراجع جاهلاً.

فالممارسـة الملتزمة، تظهر المواهب الكامنة. وعدم الممارسـة الملتزمة، يقلص المواهب الظاهرة، ويدفعها إلى مجاهل الكمون.

وهذه سنة من السنن العامة في الحياة. وكما في الإنسان، كذلك في غير الإنسان:

فالحيوانات - بالتربية العلمية - تؤهل لممارسة أدوار مثيرة والبيضة.. والحبة.. والنواة... - بالتربية - تنمو، حتى كأنها خلقت خلقاً جديداً. والحصباء - بالتربية - تكون أحجاراً كريمة. وحبات الرمل - بالتربية التكنولوجية - تتكلم، وتنقل الصوت والصورة. وقطع المعدن - بالتربية التكنولوجية - تفكر، وتصحح ما يخطأ فيه الفكر البشري... وهكذا.. في كل شيء، فكيف بالإنسان الذي هو أكثر استعداداً - من غيره - للتطور والانفتاح؟!

فالتزام خط التقوى: يطور الضعيف حتى كأنه خلق خلقاً جديداً لا يمت إلى أصله بصلة، ويكون الفاصل بينهما كالفاصل بينه وبين النطفة التي تطورت إليه، وكالفاصل بين البذرة والشجرة، أو كالفاصل بين الرمل والمخترعات الحديثة.

صحيح: أن النسب تبقى محفوظة، فالتزام خط التقوى يطور القوي بالنسبة ذاتها التي يطور بها الضعيف، حتى يبقى الفاصل بين الضعيف المتقي وبين القوي المتقي كالفاصل بين الضعيف والقوي في التزامهما بخط التقوى. ولكن ذلك: ليس من بواعث يأس الضعيف، وإنما هو من بواعث تصعيد درجة التزامه، ونوعية التزامه، حتى يعوض بهما عن ضعفه المبدئي.

كما أن جباناً وشجاعاً، لو التزما بنظام عسكري، بدرجة واحدة، تبقى النسبة بينهما محفوظة. وكما أن فقيراً وغنياً، لو التزما بخط تجاري، بدرجة واحدة، تبقى النسبة بينهما محفوظة. وكما أن جاهلاً وعالماً، لو التزما بخط علمي، بدرجة واحدة، تبقى النسبة بينهما محفوظة... وكل ذلك: من البواعث على تحطيم النسبة بينهما، بدرجة.. ونوعية.. الالتزام.

فـ﴿ يا أيها الناس! اتقوا ربكم ﴾ لتكونوا أقوياء، تتميزون بصفات تؤهلكم لكل ما هو أفضل.. وأبقى..

ولا تعتذروا - أيها الضعفاء! - بضعفكم المبدئي، فربكم لم يكن جائراً في توزيع مواهبه عليكم، حتى يوفرها على بعضكم ويقترها على بعضكم بلا سبب، وإنما هو حكيم في معاملة خلقه، والحكيم الذي لا ترقى إليه المؤثرات، وقد اشتقكم - جميعاً - من مادة واحدة بلا تفاضل، فهو ﴿ الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾، فكنتم سواسية في الخلق المبدئي، وإنما أنتم الذين تفاضلتم فيما بعد - ولو قبل عالم الدنيا -: فمنكم من سعى، وواصل مسعاه بلا تذبذب، فبدأ عمله - في عالم الدنيا - من منتهى رفيع. ومنكم من لم يسع.. أو سعى، ولم يواصل، متذبذباً، خلط الصالح بالسيىء.. أو سعى معاكساً، فبدأ - في عالم الدنيا - من الصفر، أو من تحت ركام، حمله معه إلى هذا العالم.. أو جاء إلى هذا العالم معقداً بالمعاكسات السابقة، فوجد من الصعب تصحيح مسيرته، فيواصل السعي المعاكس.

فمن جاء إلى هذا بكمال، فإنما اكتسبه بجهوده الإيجابية . . ومن جاء بقصور، فإنما اكتسبه بجهوده السلبية . . فربكم لم يتحمل قصوركم، حتى تحملوه نتائجه .

ولا تعتذرن ـ أيتها النســاء! ـ بضعفكن المبدئي بالقياس إلى الرجال. فأنتن، بالنسـبة إلى الوظائف المطلوبة منكن، مؤهلات، تماماً . . كالرجال بالنسبة إلى الوظائف المطلوبة منهم .

ثم: أنتن، وهم، سواء في الاشتقاق من المادة الأولى، وكما هم .

ولا تعتذرن ـ أيتها النساء! ـ بضعفكن المبدئي بالقياس إلى الرجال، لتحميل الله تقصيركن:

١ـ فأنــتن مؤهــلات للوظائف المطلوبــة منكن، كما أن الرجال مؤهلــون للوظائف المطلوبة منهــم. وأنتن تتكاملن بالتزامها، كتكاملهم بالتزامها .

٢ـ أنــتن، وهم، ســواء في الاشــتقاق من المــادة الأولى . فربكن الذيــن خلق الرجال من نفس واحــدة، لم يفرط بكن فيخلقكــن مــن غيرهــا، ﴿ و ﴾ إنمــا ﴿ خلق منهــا ﴾ ـ ذاتهــا ـ ﴿ زوجهــا ﴾ . فالمرأة ليســت من فصيلة غــير فصيلة الرجل،وإنما هما ـ معاً ـ فصيلتان متزاملتان، من منبع واحد، ومصدر اشتقاقهما واحد .

٣ـ إن المرأة لم تنفصل عن الرجل في سيرها الخلقي ـ فيما بعد ـ، كما أن الرجل لم ينفصل عن المرأة في سيره الخلقي ـ فيمــا بعــد ـ . فمــا من مرأة إلا وهي ابنة رجل، وما من رجل إلا وهو ابن امرأة. فالعنصران ـ المرأة، والرجل ـ موجودان في كل امرأة ورجل، ومشاطران إنجاب كل امرأة ورجل .

﴿ و ﴾ ربكــن الــذي خلــق الرجال من نفس واحدة، لم يكتف بخلق زوجها منها في التســوية بــين العنصرين، وإنما أشركهما ـ معاً ـ في تكثيرهما العددي، فـ﴿ بث منهما ﴾ ـ معاً ـ ﴿ رجالاً كثيراً . . ونساءً . . ﴾ .

فسـلبيات المرأة الخلقية: في كمية المواد الكيماوية المتركبة منها، بالقياس إلى كمية المواد الكيماوية المتركب منها الرجل. . وغزارة عواطفها . . وسائر مواصفاتها القصورية . . التي نعبر عن جميعها بـ: (الأنوثة)؛ يمكن إرجاعها إلى المــرأة ذاتهــا . وقــد تكون لها أســباب أخرى لا نعلمها . . ولكن الشــيء الإجمالي الذي نتأكد منه ـ وهو ســيطرة الحكمة العادلة على الكون كله ـ يدعنا متأكدين من أن كل قاصر مســؤول عن قصوره بشــكل أو بآخر، كما يدعنا متأكدين من أن كل كامل سعى إلى كماله بشكل أو بآخر .

فالمرأة هي المسؤولة عن سلبياتها . والذي يولد مشوها أو قاصراً، أو من أصل متخلف، هو المسؤول عن ولادته بذلك

الشكل.

كما أن الذي يولد سليماً، أو كاملاً، أو من أصل متقدم، هو الساعي إلى ذلك.

ولا يشترط ـ في هذا المجال ـ معرفة كامل التفاصيل، فالذي يكفي ـ في هذا المجال ـ هو: ما نعرفه، بوضوح، عن عدالة الحكمة المسيرة للكون. هذه العدالة التي تتجسد في جميع التصرفات الكونية، التي نبني عليها حياتنا.. وأفكارنا.. ومخترعاتنا.. سواء في تطور وتوالد الجماد، أو النبات، أو الحيوان، أو الإنسان.

وهذه العدالة تقضي بعدم إيجاد صنف قاصر وصنف كامل، وعدم إيجاد شخص مشوه وشخص سليم، وعدم إيجاد مجموعة خطاءة ومجموعة غير خطاءة... وتقضي بتسوية الجميع في الخلقة المبدئية، ثم تركهم لأعمالهم، فأعمالهم هي التي تنعكس عليهم نقصاً أو كمالاً.

وكل عمل له أثر طبيعي معين يخلعه على عامله، وبتكاثر وتنوع الأعمال تتكاثر وتتنوع الآثار، وتفاعلها يؤدي إلى اختلاف الناس، هذا الاختلاف الكبير الذي لم يترك صنفين.. أو شخصين.. متطابقين في شيءٍ من الأشياء.

الزواج الموقت

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلاّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلّ لَكُمْ مّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُمْ مّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ .

(سورة النساء: الآية ٢٤)

في التعبير بـ: (الأجر) ـ لا بـ: (المهر) ـ نوع من الإيماء، الفارق بين الزواج الدائم والزواج الموقت. ففي الزواج الموقت، يكون المال المدفوع أشبه بالأجر، لأن الزواج الموقت نوع من الاستيجار، بينما المهر أشبه بالبدل، الذي لا يؤخذ فيه مفهوم التوقيت.

يقال:

الأجر، أطلق ـ في القرآن الكريم ـ على المهر، في العديد من الآيات:

﴿ يـا أيهـا النبي . . رحيما ﴾ (٣٠٠) ـ بالنسـبة إلى زوجات النـبي الأكرم، والنبي لم يتزوج متعة . وبالنسـبة إلى المهاجرات:

﴿ يا أيها الذين آمنوا . . حكيم ﴾ (٣٠١) .

وقد يقال في الجواب :ـ

أما بالنسـبة إلى زوجات النبي: فالتعبير بالأجر عن المهر، كان ـ قبل نزول القرآن ـ في الأديان الأخرى . لذلك، نجد قول الله تعالى:

﴿ قَالَـتْ إِحْدَاهُمَـا يَأَبَتِ اسْـتَأْجِرْهُ إِنّ خَيْرَ مَنِ اسْـتَأْجَرْتَ الْقَوِيّ الأمِينُ(٢٦) قَالَ إِنّيَ أُرِيـدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيّ هَاتَيْنِ عَلَىَ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْـراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُـقّ عَلَيْكَ سَـتَجِدُنِي إِن شَـآءَ اللّهُ مِنَ الصّالِحِينَ ﴾ (٣٠٢) .

استأجره، أي: اقطع مهره، إن خير من قطعت مهره . . بدليل:

﴿ على أن تأجرني . . ﴾ . فالنكاح، كان على الأجر .

وأما بالنسبة إلى المهاجرات: فكان ـ بعد صلح: (الحديبية) ـ إذا هاجر رجل، وأسلم، رده النبي إلى المشركين . وإذا هاجرت امرأة، امتحنها، فإن كانت هجرتها لله . . ورسوله . . لم يردها . ـ لأسباب لا بد من الحديث عنها في آيات صلح الحديبيـة ـ . ولكـن: أعطي لزوجها، ما يعادل مهرها، ومـا أنفق عليها . فالأجر ـ هنا ـ يدل على أمرين: المهر، والنفقة . فلم يطلق الأجر على المهر، ولا على بدل المهر وحده .

وحول الزواج الموقت = متعة النساء . كلام كثير، إيجاباً وسلباً، واستدلالات كثيرة على: أن النبي (ص) أباح المتعة في الحروب، ثم نسخها . . . ولكن: كل هذا الكلام أشبه بالتهريج، بعد أن تأكد أن المسلمين كانوا يتمتعون في عهد رسول الله (ص) وفي عهد أبي بكر، وفي شطر من عهد عمر، حتى تمتعت أخته بدون علمه . والذي يسفه الكلام السلبي حول المتعة، قول عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص)، وأنا أنهى عنهما، وأعاقب عليهما . . .»(٣٠٣) .

بقي: أن نعرف الفوارق بين الزواج الدائم والموقت . وقبل أن نعرف الفوارق بينهما، لا بد أن نعرف تفاصيلهما:

١ـ ينعقد الزواج الدائم بما يلي:

أ ـ موافقة الطرفين.

ب ـ المهر.

ج ـ العقد.

وينتهي بأحد أمرين:

أ ـ موت أحد الطرفين.

ب ـ الطلاق.

ثم: يتلو ذلك، أمران:

أ ـ إلحاق الأولاد بأبويهم.

ب ـ العدة بعد انتهاء الزواج.

٢ـ ينعقد الزواج الموقت بما يلي:

أ ـ موافقة الطرفين.

ب ـ المهر، أو الأجر.

ج ـ العقد.

د ـ تعيين المدة.

وينتهي بأحد أمرين.

أ ـ موت أحد الطرفين.

ب ـ انتهاء المدة.

ثم: يتلو ذلك، أمران:

أ ـ إلحاق الأولاد بأبويهم.

ب ـ العدة بعد انتهاء الزواج.

وهنالك فوارق:

أ ـ زيادة تعيين المدة في الموقت، بالإضافة إلى شرائط تحقق الدائم.

ب ـ كون انتهاء المدة في الموقت، بدلاً عن الطلاق الدائم.

ج ـ كون العدة في الموقت، أقل مدة من العدة في الدائم. وما شابه ذلك.. من الفوارق التي تبدو فوارق أدبية، لا تستدعي مثل هذا الكلام الكثير.

ثم: كيف نجرؤ على رد تشريع سنه القرآن، وعمل به الصحابة في عهود: رسول الله، وأبي بكر، وعمر.. حتى منعه الأخير، وهو لم يستند إلا إلى إرادته الخاصة..

ونحن نعلم: أنه ليس من حق أي بشر، أن يحرم ما أحله الله، أو يحلل ما حرمه الله؟!

حتى إن رسول الله ـ رغم مكانته الفضلى من الله ـ ليس له ممثل هذا الحق. أوليس القرآن هو الذي يقول:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٣٠٤)،

﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣٠٥)؟!

فكيف بصحابة رسول الله، الذين حاول بعضهم إبداء الرأي في بعض الموارد، فمنعهم القرآن بقوله الحازم:

﴿وما كان لمؤمن. . مبينا﴾(٣٠٦).

الضعيف ـ القوي

﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ .

(سورة النساء: الآية ٢٨)

الإنسان خلق ضعيف، ٦٠٪ منه ماء، والباقي عدة كيلوات من مواد أرضية بخسة.

ولكنه ـ في شبابه ـ يتصور نفسه كبيراً. . وكثيراً. . حيث يعيش في ظل أوليائه، وهم يحاولون تربيته على الكمال، فيضعون بعض طاقاتهم تحت تصرفه، لتغطية ضعفه، حتى لا يعقد بمركب النقص وفي هذه الفترة، يسرف في الآمال التي تتجاوز حدوده وظروفه، ويظن أنه يقوى على تحطيم حدوده وظروفه.

ولكنه لا يخرج من الظل إلى وهج الحياة، إلا وتلفحه بتيارات من الرياح النكباء، وتمطره بوابل من الويلات، ويعاني قسوة الحياة، ووعورة العيش. فتتبخر آماله مع الهموم التي تتصاعد من رأسه كالدخان، وتنحصر آماله في الحصول على حاجاته من دون مساومة على إنسانيته، فيشعر بأنه ضعيف، وكم هو ضعيف! حتى يمتلكه اليأس الخانع الخانق، الذي يسول له ضعفه، حتى عن تحمل الحياة.

ولولا الإيمان بالله القدير، الذي يبرر كل ضعف في الإنسان، بأن من شأنه الضعف، ولكنه عبد لله القدير، الذي يلافي ضعفه بقوته. . ويبرر كل معاناته، بأن الحياة بوتقة، على الإنسان أن يعاني فيها حتى يتبلور، ويؤهل للحياة الأفضل، التي ماخطرت على قلب بشر. . لكان حرياً بكل إنسان ـ مهما بلغ أن ينهزم، ويفضل الموت ـ ملطخاً بعار الهزيمة ـ على الحياة.

التوازن بين طاقة الروح وطاقة الجسد

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدّ الّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرّسُولَ لَوْ تُسَوّىَ بِهِمُ الأرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً ﴾ .

(سورة النساء: الآية ٤٢)

الإنسان ـ بطموحه ـ يحاول أن يحقق كل ما يمتد إليه خياله، ولكنه سرعان ما يصطدم بحواجز الواقع، التي

توقفه عند حده، وتردعه بعنف، وتصيبه بخيبة من خياله، حيث تثبت هذه الصدمات عجزه عن الاسترسال مع خياله. وهذه نكسة مريرة، تبكيه أحياناً، وتفرقه في الهموم أحياناً أخرى.. وتتركه في القلق من ناحية، وتهيجه بالجزع من ناحية أخرى.. وقد تخلده إلى اليأس، والهروب من الواجب، إذا عاند وأصر على اختراق حواجز الواقع.

فالطموح - في جذوره - ناتج عن عدم التوازن بين طاقة الروح وطاقة الجسد، فتحلق به روحه إلى آماد يخلد عنها جسده. ولكنه يرغب في الانسياق مع تهويمة الروح، ولا يرضى لنفسه الاعتراف بتخليده الجسد، ويظن أن باستطاعته رفض ثقل جسده، وأن روحه قادرة على انتشاله فيجرب مصمماً على النجاح، ولكن الواقع يفرض نفسه، فثقل الجسد لا يقاوم بخفة الروح، فتصدمه تجاربه بالخيبة، فيتألم، ويشكو دون جدوى، وقد يتورط بحيث يعز عليه الخلاص.

فعندما تتفتح أصابع الطفل في المهد، يمد يده ليأخذ التفاحة - كأبيه -، ولكن أصابعه الرخوة تعجز عن مقاومة ثقل التفاحة. وربما يمد يده ليطال المصباح من السقف، والقمر من السماء، ولكن مدى يده القصير، يعجزه عن ذلك. وقد يرى الحمامة تحلق من أعلى بناية إلى أخرى، فيهم بالطيران مثلها، فيقفز ولكن سرعان ما يسقط قريباً من موقعه...

وعندما يشب الطفل، يحاول ا، يكون الطالب الأول في المدرسة، فيخذله ذكاؤه. ويحاو ل أن يترنم، كالشهيرين من القراء والخطباء، فيخذله صوته. ويحاول أن ينتصر في المسابقات الجسدية، فتخذله أعصابه... وإذا استوت رجولته، يحاول أن ينجح في الانتخابات على خصومه، فيخذله ماله، أو سمعته العائلية، أو مواهبه في تجميع الجماهير حوله، وإقناعها بهدفه وأسلوبه. ويحاول أن يجمع الثروة، فلا يجد وسائلها. أو يؤلف مسرحية، فلا تنجح...

وحواجز الواقع كثيرة، يمكن تلخيصها في أربعة، هي:

١- حاجز الطبيعة.

٢- حاجز الصحة.

القيادة الثالثة

﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ .

(سورة النساء: الآية ٥٩)

١ـ طاعة الله مطلقة، وطاعة الرسول (ص) مطلقة. فإذا أصدر أمر من الله، أو من الرسول (ص)، سقط الخيار:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾(٣٠٧).

٢ـ طاعة أولي الأمر ـ كطاعة الرسول (ص) ـ مطلقة، لاقترانهما، في أمر واحد:

﴿يا أيها الذين... منكم﴾.

فمن هم أولو الأمر، الذين فرض الله طاعتهم مطلقة؟

هل هم الحكام الكافرون؟

كلا.. لأن الله قال:

﴿الذين يتربصون بكم... سبيلا﴾(٣٠٨).

فهل هم الحكام الذين يحكمون بالقوانين الوضعية؟

كلا.. لأن الله قال:

﴿إنا أنزلنا التوراة.. الكافرون﴾(٣٠٩)، والكافر لا سبيل له على المؤمن فكيف بالطاعة.

فهل الحكام هم الظالمون؟

كلا.. لأن الله قال: ﴿وإذا ابتلى.. الظالمين﴾(٣١٠)، والذي لا ينال عهد الله، لا يمكن أن يفرض الله له طاعة مطلقة.

فهل هم الحكام العصاة؟

كلا.. لأن العاصي ظالم، وإن لم يكن ظالماً لغيره فهو ظالم لنفسه، والظالم لنفسه يعامل كالظالم لغيره، لأن

الله قال:

﴿إِنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِيَ أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ (٣١١).

فهل هم الحكام العاديون، المعرضون للخطأ؟

كلا.. إذ لا يمكن أن يفرض الله الطاعة المطلقة لمن هو معرض للخطأ، وقد فرض على الأمة تقويم الخاطىء فقال:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لّهُمْ مّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣١٢).

وأخيراً: هل هم الأبوان، اللذان فرض الله طاعتهما؟

كلا.. لأن الله قيد طاعتهما بقوله:

﴿وَوَصّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣١٣)، فليست طاعتهما مطلقة.

فإذن: هم الأولياء المعصومون، الذين أولاهم الله شؤون الناس، وعصمهم الله من الزلل، وآمنهم من الفتن، ثم: أمر الناس بطاعتهم طاعة مطلقة، لأنهم لا يخطئون إرادة الله عز وجل.

فبالسبر والتقسيم، يظهر: أن أولي الأمر - في هذه الآية - هم الأئمة المعصومون الإثنا عشر فقط. علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والمهدي المنتظر - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

وقد روى ذلك علماء الشيعة ومفسروهم وعلماء السنة ومفسروهم - من شتى المذاهب - في كتبهم وتفاسيرهم، وذلك بتفصيل، يمكن بحثها في عشرات المصادر نذكر نماذج منها للمراجعة:

١- تفسير البرهان - سورة النساء.

٢ـ تفسير نور الثقلين ـ سورة النساء.

٣ـ تفسير مجمع البيان ـ سورة النساء.

٤ـ تقريب القرآن إلى الأذهان ـ سورة النساء.

٥ـ البحر المحيط، لأبي حيان المغربي الأندلسي/ ج٣/ ص٢٧٨.

٦ـ إحقاق الحق/ ج٣/ ص٤٢٥ عن أبي بكر بن مؤمن الشيرازي في رسالة الاعتقاد.

٧ـ ينابيع المودة، للحافظ الحنفي سليمان القندوزي/ ص١١٤ و١١٦.

الظلم، والاستغفار

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾.

(سورة النساء: الآية ٦٤)

يمكن أن نلخص فلسفة: (الحلال، والحرام) في أمرين هامين:

١ـ بلورة روح الانقياد، أو التمرد، في الفرد:

فالذي يحمل ـ في روحه ـ مادة الانقياد لله، تتبلور فيه هذه المادة، عبر الالتزام الدائم بنظام: (الحلال، والحرام) وتتأصل، حتى تغدو سجية من سجاياه، التي يكون الخروج عليها تكلفاً يزعجه، وتسمى: (ملكة العدالة).

والذي يحمل ـ في روحه ـ مادة التمرد على الله، تتبلور فيه هذه المادة، عبر الخروج الدائم على نظام: (الحلال، والحرام) وتتأصل، حتى تغدو سجية من سجاياه، التي يكون الخروج عليها تكلفاً يزعجه، ويمكن تسميتها: (ملكة الظلم).

فالحلال والحرام، يربيان في الفرد ذاتية (الانقياد، أو التمرد)حتى تأخذ مداها، وتكون قوة تحرك صاحبها على الخط المنسجم مع اتجاه الكون، أو على الخط المناقض لاتجاه الكون.

وعلى هذا: فليكن في بلورة روح الانقياد أو التمرد - في الإنسان - ما يكفي مصلحة ومفسدة لنظام الحلال والحرام المعبر عنه في القرآن الكريم بتعبيرات متعددة مثل:

﴿ . . . بل هي فتنة . . . ﴾(٣١٤) و﴿ . . . لننظر كيف تعملون ﴾(٣١٥) وأمثالهما.

وإلى هذا الأمر أيضاً يشير القرآن بقوله:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىَ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣١٦).

ففي الانقياد لله، تقدم منسجم مع اتجاه الكون. وفي التمرد على الله، تراجع إلى الوراء، المصطدم مع اتجاه الكون.

٢- كسب المصلحة، ودفع المفسدة: فما من شيءٍ أحله الله إلا ويساعد على نمو الإنسان، وما من شيءٍ حرمه الله إلا ويساعد على ضمور الإنسان. فكما أن الحلال يقوي ويربي، كذلك الحرام يشل ويعطل.

وإلى هذا الأمر - يشير القرآن - في العديد من آياته -:

﴿اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(٣١٧)،

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾(٣١٨)،

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ﴾(٣١٩).

والمؤمن يأتي بالحلال لا لمصلحته، وإنما لأن الله أحبه، ويترك الحرام لا لمفسدته، وإنما لأن الله كرهه، انقياداً لله، فيجني المكسب الأول هدفاً، ويجني المكسب الثاني عرضاً. بينما لو أتى بالحلال لمصلحته، وترك الحرام لمفسدته، فإنه يربح المكسب الثاني، ويخسر المكسب الاول، الذي هو أهم، لأنه يؤصل الإيمان في النفس، الذي هو أهم من المصالح التي تنمي الجسد وما يحيط به من الحياة العامة.

وذلك: كما يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) وهو يناجي ربه: «الهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»(٣٢٠).

من كل ذلك يظهر: أن من يرتكبون الحرام، إنما يتحملون خسائر مادية، ويغذون مادة (التمرد) في أرواحهم، حتى يصيبها نوع من الشلل والعطل، فيكونون قد ظلموا أنفسهم.

﴿ولو أنهم - إذ ظلموا أنفسهم -﴾ بارتكاب المعاصي، فإنهم - بارتكابهم المعاصي - قد خالفوا الله، وخالفوك - أيها النبي! -، وأساؤوا إلى المجتمع الذي ارتكبوا فيه الحرام، لأن المجتمع يتأثر بعمل كل فرد من أفراده. فتعلق بهم: حق الله، وحقك، وحق المجتمع.

فأصبحوا تحت طائلة الحق الخاص، الذي هو حق انفسهم، وتحت طائلة الحق العام، الذي هو: حق الله، وحقك وحق المجتمع. فإذا استغفروا الله في خلواتهم، يكونون قد أدوا الحق الخاص، وبقي عليهم العام. وبما أنهم لا يبرؤون من الذنب طالما لم يؤدوا الحق، إضافة إلى أن الحق الواحد لا يتجزأ، فإن الله قد لا يغفر لهم.

فإذا ﴿جاؤوك﴾ - يا رسول! - تائبين، ﴿فاستغفروا الله﴾ أمامك، لأداء الحق الخاص، فاعتبر الرسول استغفارهم استغفاراً صادقاً، ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ لأداء الحق العام، ﴿لوجدوا الله تواباً رحيما﴾.

واشتراط الاستغفار أمام الملأ شرط الغفران، لأن الذي شجع فكرة: (ارتكاب الحرام) في المجتمع - ذاته - بالاستغفار أمام الملأ، حتى يكون قد صحح ما أخطأ فيه.

واشتراط استغفار الرسول شرط الغفران، لأن حق الرسول لا يسقط إلا بمغفرة الرسول نفسه، وحق الله لا يسقط إلا بشفاعة الرسول، تكريماً للرسول على إيصاله أحكام الله إلى الناس، فمنحه الله هذا الحق: حق الشفاعة للتائبين في الدنيا، كما منحه حق الشفاعة لغير التائبين في الآخرة.

ولعل المهم من كل ذلك، اشتراط الاستغفار أمام الملأ:

١- ليعرف من يمارس الحرام، أن عليه أن يدفع ماء وجهه ثمناً لتوبته، فلا يتسرع إلى الحرام لأقل نزوة تتحرك فيه.

٢- لتصحيح ما أفسد من المجتمع بارتكاب الحرام، حتى يعرف الناس أن لارتكاب الحرام ثمناً عليهم أن يدفعوه، فلا يتسرعون إلى اتباع أي مذنب يقترف سيئة.

﴿ ألم تر. .شهيدا ﴾ .

(سورة النساء: ٧٧ ـ ٧٩)

ما لهؤلاء العقلانيين؟!

يعرفون أن عقولهم قاصرة عن الاطلاع على حقائق الحياة.

ويعترفون بأنهم أخف ـ في موازين الكون ـ عن الهباء، وأنهم يعيشون رذاذاً مرتجفة في مهب الأقدار. ويعترفون بأن عقولهم قاصرة عن فهم اتجاهات الأقدار، حتى يهربوا منها، أو يستعدوا لاستقبالها إن كان لا يجديهم الهرب، حتى لا تباغتهم باستمرار، فيكون لها وقع مكرر عليهم: وقعها بطبيعتها الساحقة الناتج من شعور الإنسان بأنه خاسر تحت وطأته، ووقعها بطبيعتها المباغتة التي تختطف بلا إنذار وبلا تمهل. ويعترفون ـ أيضاً ـ بأن عقولهم قاصرة عن فهم مصدر القدر: أهو الله؟ أم هو الإنسان؟ أو بعضه من الله وبعضه من الإنسان؟.

ويرهقهم الجهل الذي تعلن عنه الاعترافات، فيلجؤون إلى التساؤل عن مصدر القدر، علهم يفتحون ـ عن طريق التساؤل ـ باباً إلى حل مشكلة القدر، أو حل مشكلة مباغتة القدر لهم، على أقل تقدير حتى إذا جاءهم الجواب ـ الذي فتح عليهم، بالفعل، باباً إلى حل مشكلة القدر نهائياً، أو حل مشكلة مباغتة القدر لهم، في أسوأ الفروض(٣٢١) ـ تكرر جهلهم، فأضافوا إلى جهلهم بالقدر جهلاً آخر أضر، فلم يأذنوا لعقولهم بالامتداد مع الجواب إلى حيث المحاولة في أدنى الاحتمالات لتعليل القدر:

إما للمغالاة في عدم الثقة بعقولهم، حتى أنهم يتلقون القضايا العويصة بالعجز، فلا يغامرون بزج عقولهم في تعليل القدر، لاستبداد القنوط بهم إلى حيث اليأس حتى عن المحاولة، مع توفر الدليل السماوي.

وإما للمغالاة في الثقة بعقولهم(٣٢٢)، فيتساءلون غير مستعدين لمناقشة الجواب، وإنما يوجهون السؤال بروح الاستنكار، وهم يحاولون اللباقة في الاستنكار، فيمهدون له بالسؤال، زاعمين أن تعليل القدر ـ حتى عند الأنبياء ـ لا يعدو تعليلهم، فيوجهون السؤال إلى النبي (ص)، ليعلل القدر كما يعللونه، فيزحفون عليه باستنكار مصمم لا يدع مهرباً، ليتخذوها نقطة ضعف، يشككون بها النبي (ص) في دينه، أو يستحيونه عن دعوتهم إليه، فإذا وجدوا الجواب غير ما يحلمون، تلقوه بروح متطاولة مهزومة، فلا يناقشونه أبداً حتى يهضموه أو لا يهضموه، وإنما استبد بهم الجهل المكرر، فاستبدوا بمركزهم، واتكلوا على عقولهم القاصرة في تعليل القدر بأنه: وحش جبار، ينقض عبثاً وكيفما

اتفــق وعلى أي شــيء، ليحطم ويفني ويبيد، لا لشــيء إلا كفراً بالحياة والخير والجمــال، ورغبة في التحطيم والإفناء والإبادة. وارتكازاً على هذا التعليل الارتجالي(٣٢٣)، يزلزلون حياتهم بهزات ليس لها أن تهز حياة الإنسان.

ولو تخلوا عن عتوهم أمام النبي (ص)، وتلقوا جوابه بروح التفاهم، لعرفوا: أن القدر شيء طبيعي، لا يرجف الإنسان، وإنمــا يرفعــه مــن مرحلة دنيــا إلى مرحلة أعلى، فهو ليــس جاهلاً يرتطم بالإنســان عبثاً، وإنما هو هادف ينفذ رســالة لا يســتغني عنها الإنســان: فالذي صمم الحياة، وأتقن كل شــيء، لا يطلق القدر يخرط الأحياء بلا هدف. والذي شدد القبضة على الكون، حتى لا تنفلت جزيئة من جزيئات ذرة، عن مكانها الذي وظفت فيه، بإرادة منبثقة من نظام دقيق، متناســق مع نظام الكون، كذلك: شــدد القبضة على القدر، حتى لا ينفلت من مكانه الذي وظف فيه، بإرادة منبثقة من نظام متناسق مع نظام الحياة.

وســيادة النظــام في الكون مفــروع عن ثبوتها، لأنها مدعمة بالإرادة الخالقة المقتــدرة التي لا أقوى منها، حتى يتمرد عليها أو يناقضها.

ومعنى سيادة النظام في الكون: أن كل شيء فيه يجري وفق نظام: (ترتب المسببات على الأسباب) الذي أجرى الله عليه الأشــياء والأمور، حتى كان الكون الرحيب ـ بعوامله الكثيرة المتداخلة ـ مركباً عضوياً واحداً، لا يفقد شــيء من عناصره نسبته إلا ويتلاشى كله فسيادة النظام في الكون كله، تنتهي باختراق نظام: (ترتب المسببات على الأسباب) في شــيء واحد، مهما كان صغيراً أو كبيراً. فكل نظام، يختل بخرق أصغر الصغائر له، بمقدار ما يختل بخرق أكبر الكبائر له.

واختــلال نظــام الكون، الــذي يحدث بانفلات جزيئة ذرية من مكانها المحدد لها، يعادل أســوأ الفوضى في أضخم المجرات.

والقــدر الــذي يعرض نبتــة خائبة لوطأة بهيمة، يتســاوى ـ في دلالته ـ مــع القدر الذي يعرض ألف منظومة شمســية للاحتراق. فالقدر، مهما كان صغيراً في مفعوله، فهو كبير في دلالته.

ثم: ما هو القدر؟

إنه ـ بكل بساطة ـ ترتب المسببات على أسبابها:

فسقوط الطائرة الآلية لانتهاء وقودها، قدر..

وموت الإنسان، عند عطل أحد أجهزته الحيوية، قدر . .

وسقوط الفاكهة، لدى ثقلها أكثر من تحمل عودتها، قدر . .

وتموج البحر، بهبة ريح أقوى من ثقل الماء، قدر . .

وتقرح المعدة، بفعل الجوع الكثير، قدر . .

وقصر العمر، على أثر قطيعة الرحم، قدر . .

وسلامة الإنسان، نتيجة للصدمة، قدر . .

وسعة الرزق، لليقظة المبكرة، قدر . . فترتب كل الآثار على المؤثرات، قدر .

وحيث أن الناس يعرفون قسماً من الأسباب المادية، ويراقبون سيرها نحو مسبباتها، يتوقعون تلك المسببات، فإذا حدت أحدها، تلقوه بالتوقع، وعللوا حدوثه بسببه . وحيث لا يعرفون أكثر الأسباب الروحية والمعنوية، وكثيراً من الأسباب المادية، لا يمكنهم مراقبة سيرها نحو مسبباتها، وتوقع تلك المسببات، فإذا حدث أحدها، تلقوه بالذعر، وعللوا حدوثه بالقدر، الذي اصطلحوه إسماً غامضاً لكل الأسباب المجهولة .

فالقدر ـ في حقيقته ـ هو: الحد الذي جعله الله للأشياء وفق نظام: (ترتب المسببات على الأسباب) الذي جرت عليه عادة الله في عالمنا هذا، المسمى بـ: (عالم الكون والفساد) . وحيث أن أي سبب لا ينتهي إلى مسببه إلا بإرادة عامة من الله، فالقدر لا ينفذ إلا بإرادة الله تعالى .

إذن: فالقدر ليس شيئاً مخيفاً، وإنما هو أمر عادي . غير أنه كثيراً ما يصدمنا، ونفاجأ به، لا لشيء، إلا لأننا نجهل أكثر الأسباب الروحية والمعنوية، وكثيراً من الأسباب المادية . وأما الذين كانت لهم صفحات الكون مفتوحة، يقرؤون فيها الحقائق كما يقرأ أحدنا صحيفة يومية، فلم يكن القدر يباغتهم أبداً .

وإذن: فالقدر جزء من نظام الكون، الذي للإنسان تأثير فيه . لأن الله ـ تعالى ـ جعل كثيراً من تصرفات الإنسان، مؤثرات في قدره: فجعل صلة الرحم، والصدقة، والرحم، والدعاء . . . أسباباً لمسببات خيرة، هي بعض جزائه المادي الدنيوي . وجعل قطيعة الرحم، ومنع السائل، والظلم، والاستغناء عن الله . . أسباباً لمسببات شرة، هي بعض جزائه الدنيوي .

ومع إغفال تأثير عمل الإنسـان في ما يجري على نفسـه، فالله لا يقدر الشـر للإنسان، لأنه خير محض، لا يصدر منه الشر. إذن: القدر الخير من الله، والقدر الشر من الإنسان.

فالقـدر ـ خـيره، وشـره ـ من الله بمعنى: أن أي شـيء لا ينفذ في الكـون إلا بإرادة الله تعالى. والقدر الشـر ـ كله من الإنسـان، بمعنى: أن الإنسـان عمل سـببه، فترتب عليه مسـببه. وكذلك: قسـم من قدر الخير من الإنسـان، لأنه عمل سـببه. وأما القسـم الآخر من قدر الخير، الذي لم يعمل الإنسـان سـببه، فهو: فضل من الله، المبتدىء بالنعم قبل استحقاقها، وبلا استحقاق في كثير من الأحيان.

فالإنسان لا يعيش ـ أبداً ـ تحت رحمة القدر، وإنما يعيش ـ دائماً ـ تحت رحمة الله، وتحت رحمة تصرف نفسه في بعض الأحيان.

فالقدر ـ ذاته ـ ليس من صنع الإنسـان، ولا للإنسـان سـلطان عليه، ولا راد له إن أبرم. غير أن بعض مبادئه من صنع الإنسان، وللإنسان سلطان عليه، ويمكنه من رده قبل إبرامه.

وهكذا.. يكون القدر من صنع الله، ومن صنع الإنسـان، ويرفض الرد، ولا يرفض الرد. وعلى أي حال: فالقدر ـ بعد اكتماله قدراً ـ تيار يجري من فوق الإنسان، وليس له عليه سلطان.

وهذا.. من فضل الله، الذي منح للإنسان تأثيراً على قدره، ولم يجعله أداةً بائسة، يهيج به، دون أن يكون له تأثير على قدره. ولو شاء أن يفعل ذلك، لم يكن معقب لمشيئته.

والهزات التي تجتاح الإنسان، على ثلاثة أقسام:

القسـم الأول: الهزات التي تجتاح الأولياء، الذين لم يعملوا شـراً يجزون عليه بالشـر، وهي لا تقدر لهم إلا لترفيعهم، وبعد موافقتهم كما قدرت الشهادة للإمام الحسين (ع)، لينال درجات لم يكن ينالها إلا بالشهادة، فأخبره جده الرسول الأعظم (ص) بذلك، فرحب بها غير مكره ولا مغرر به.

والقسـم الثاني: الهزات التي تجتاح الآثمين، الذين عملوا شـراً فاستحقوا به شرا. وهي تقدر لهم لإلفاتهم وتطهيرهم ومن دون موافقتهم أو إخبارهم. كالصدمات التي ترجف المؤمنين الآثمين.

والقسـم الثالث: الهزات التي تجتاح الكفار المجرمين، الذين عملوا الشـر حتى ارتكزوا عليه، فلا يقتلعون عنه، ولا يتجهـون إلى الخـير. فيقدر لهم الشـر: تنكيـلاً بهم، وتحديداً له، وإشـفاقاً عليهم أن يتوغلـوا في المزيد من الإجرام

فيستحقوا المزيد من العقاب.

صالة إنتظار حينونة القيامة

﴿ اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً ﴾

(سورة النساء: الآية ٨٧)

كثير من المتخصصين في علوم العربية والتفسير، يقولون: (إلى) - هنا - تعطي مدلول: (في). فـ(ليجمعنكم إلى يوم القيامة) تعني: (ليجمعنكم في يوم القيامة)، فهو يوم الجمع، الذي يجمع الله فيه كل البشر، على صعيد واحد.

ولكني أتصور: أن (إلى) - في هذه الآية - لم ترد بمعنى: (في)، وإنما وردت بمعناها الأصلي، وهو النهاية، فيكون معنى الآية: أن الله يجمعكم تدريجاً - في عالم البرزخ - إلى يوم القيامة. فكل إنسان يموت، يضم إلى من مات قبله، حتى يكون يوم القيامة، فيكون الجميع فد اجتمعوا عند الله أحكم الحاكمين.

فكأن هذا المعنى الذي وسعه الإمام أمير المؤمنين (ع) بقوله: «تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم»(٣٢٤).

فالذي سبق إلى عالم البرزخ - من الركب البشري الطويل - لا تقام له القيامة الكبرى، وإنما ينتظر به إلى إن يلتحق به كل السائرين في الركب، عبر الحياة الدنيا، حتى آخر فرد منهم. وعندما يأزرون جميعاً من هذه الحياة، ويتكاملون في عالم البرزخ تفتح عليهم أبواب القيامة الكبرى، فيحشرون جميعاً على صعيد واحد.

★ الهجرة، وأقسامها

(ومن يهاجر في سبيل الله، يجد – في الأرض – مراغماً كثيراً، وسعة. ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى: الله، ورسوله، ثم: يدركه الموت، فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً).

[سورة النساء: الآية ١٠٠].

(ومن يخرج من بيته) وبلده، ويدوس على مجمع عواطفه، وملتقى كل تياراته الحياتية، (مهاجراً إلى) إرادة (الله، ورسوله)، وواضعاً كله تحت أوامر الله، ورسوله، (ثم: يدركه الموت) في مهجره، بعيدا عن أهله، وأقربائه،

وأصدقائه . . . فقد ضحى بما يمكن تثمينه بأي شـيء مما في الآخرة من: نعيم الجنة، وخلودها . وإنما أجره أكبر مـن أن يحـدد بـأي حدٍ، وأكثر مما يوفيه غير الله، فـ(وقع أجره علـى الله) وحده، الذي يملك غير الجنة ما هو أكبر من الجنة، وأغلى، وأكثر . . . . وهو: رضوان الله .

فالمهاجر إلى الله، إنما يهجر مجاري صباه، وذكرياته، وصداقاته، وصباباته، وقراباته . . . ويخرج من كل وجوده – عندمـا يخـرج من أعـز موقع لديه في الحياة – وهو يترك بلده خلفه، وخاصـة: حينما يخرج إلى حيث ينتظره الموت، فيكون كالشهيد الذي يخرج من كل وجوده متجهاً إلى الله .

ومن ترك كل ما في وجوده من: تيار الأرض، وحنين الأرض، ورغبات الأرض، ونوازع الأرض . . . فقد استهان بكل نعيمه الجسدي الموجود في سبيل الله، ومن استهان بالنعيم الجسدي الحاضر، تلبية لله، لا يكون جزاؤه بالنعيم الجسدي المستقبل، مهما كبر . ومن ينسلخ من كل جسده لله، يصبح من غير الإنصاف مكافأته بما يروي ظمأه ذلك الجسد الذي انسلخ منه، وإنما تكون مكافأته بما يروي ظمأ الروح التي انسلخ من جسده لإروائها .

ولا يمكن إرواؤها إلا بإشعارها بأن الله راضٍ عنها:

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات: جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن . ورضوان من الله أكبر، ذلك: هو الفوز العظيم)(٣٢٥) .

والهجرة على أربعة أقسام:

-١ هجرة مباشرة إلى الله ورسوله . كمن يهاجر لأي هدف ديني لطلب العلم الديني كطالب علم ديني . . أو لنشر الوعـي الديـني كعالم ديني، يعين في غـير بلده، ليقود الناس إلى الله . . أو لتطبيق حكم ديني، كحاكم ينصب في غير بلده، قاضياً أو والياً . . . وهؤلاء هم المهاجرون مباشرة إلى الله ورسوله .

-٢ هجـرة – بواسـطة العلـم – إلى الله ورسـوله . كمن يهاجـر لطلب أي علم مـن العلوم الحياتية، التي اسـتحبها الإسـلام: كعلم الطب، ففي الحديث: (العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان)(٣٢٦) . . وعلم الهندسـة . . والكيمياء . . والصناعات المختلفة، التي تتوقف عليها الحياة، أو تقدم المجتمع، فقد قال الفقهاء بوجوبها كفاية . . . وهذه هجرة إلى الله ورسـوله، بواسـطة العلم – إذا كانت بغية القربى – لأن الإسـلام شـجعها، وأراد الله للمسلمين أن يكونوا خير أمة، تسبق غيرها في كل الحلبات، ولا تتخلف عن غيرها في أي شيء مما يساعد على تصعيد مستوى الأمة .

-٣ هجرة – بواسطة المال – إلى الله ورسوله . كمن يهاجر لطلب المال بالطرق المشروعة . لأن الله – تبارك وتعالى

– لم يرد للمؤمن أن يكون يداً تسترزق بالاستعطاف والاستعطاء، وإنما أراده يداً تتورم بالعمل الكريم، والعطاء الشريف:

فقد كان داود (ع) يعمل الدرع، وسليمان (ع) يعمل الحصير، والإمام أمير المؤمنين (ع) يمتح الماء من الآبار العميقة بالأجرة، ويعمل في الزرع وهو على مسند الخلافة بالكوفة . . . والمال هو الخيط الذي يخرز الطاقات البشرية والكونية، فهو خير، ولكن الشر قد يسيء إدارته، وكفى به خيراً أن الإنسان يستطيع أن يشتري به الجنة:

(إن الله اشترى – من المؤمنين – أنفسهم، وأموالهم ، بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله: فيقتلون، ويُقتلون. وعداً – عليه – حقاً في: التوارة، والإنجيل، والقرآن، ومن أوفى – بعهده – من الله؟! فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك: هو الفوز العظيم)(٣٢٧).

وفي بعض الحديث: (أن رجلاً جاء إلى الإمام الصادق (ع) فقال: يا ابن رسول الله! هلكت، فقال الإمام: وبم؟ قال: بحب الدنيا، فقال الإمام: ولماذا تحب الدنيا؟ قال: لأكف يدي، وأعيل أهلي، وأصل رحمي . . . فقال الإمام: هذا . . من حب الآخرة، وليس من حب الدنيا)(٣٢٨).

٤- هجرة – بواسطة الكرامة – إلى الله ورسوله. كمن يضطهد في بلده، فيهاجر إلى غيره، ليعيش موفور الكرامة. لأن الله أراد للمؤمن أن يعيش حراً كريماً، لا ترهقه ذلة، ولا يمتصه صغار. وإن الله ليكره للمؤمن أن يستمرئ الهوان، ويعتبر المستضعف – على مقدرة – ظالماً، ولكن لنفسه لا لغيره، وتعنفه الملائكة ساعة قبض روحه: لماذا لم يهاجر إلى أرض الله الواسعة، من بلد يلفه بالضعف؟!

يقول القرآن الكريم:

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فأولئك: مأواهم جهنم، وساءت مصيرا)(٣٢٩). فمن هاجر لصيانة كرامته، فقد هاجر لتلبية إرادة الله ورسوله في كرامته.

وهذه الهجرات الأربع، تتقمص لونها الديني من النوايا التي تدفع إليها: فمن هاجر – بأي من تلك الهجرات – تلبية لإرادة الله، كانت هجرته إلى الله، وكان مثله الأعلى (رسول الله (ص)) الذي هاجر إلى يثرب لتحرير الإسلام من ضغوط مكة، وهجرة أمير المؤمنين (ع) إلى الكوفة لتعزيز الحق ضد الباطل. ومن هاجر – بأي من تلك الهجرات – تلبية لنوازع الأرض فيه، كانت هجرته إلى نفسه، وكان مثله الأعلى (شهيد الحمار) الذي لم يصل عليه رسول الله (ص)، رغم أنه كان قد قتل بين يديه.

فالطريق إلى الآخرة قد يمر عبر الدنيا، كما أن الطريق إلى الدنيا قد يمر عبر الآخرة.

وإذا كانت الأعمال تقيم الإنسان لدى الناس، لأنهم غير مطلعين على النوايا، فالنوايا هي التي تقيّم الإنسان – وأعماله- لدى الله، المطلع على النوايا.

ففي الحديث: (إن الله ينظر إلى قلوبكم، ولا ينظر إلى أعمالكم)(٣٣٠)، وقد تصدق الإمام أمير المؤمنين (ع) بخاتم في الركوع، فقيّمه القرآن بقوله:

(إنما وليكم: الله، ورسوله، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وهم راكعون)(٣٣١).

وأنفق صحابي آخر سبعين خاتماً في الركوع، فقيّمه القرآن بقوله:

(فلا صدق ولا صلى. ولكن: كذب، وتولى. ثم: ذهب إلى أهله يتمطى. أولى لك، فأولى. ثم: أولى لك، فأولى)(٣٣٢).

وفي حديث تقييم الهجرة: (.... فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها، أو مال يكتسبه، فهجرته إلى ما هاجر إليه)(٣٣٣).

⋆ خط العدل .. وخطة حراسته....

(يا أيها الذين آمنوا! كونوا: قوامين بالقسط، شهداء لله، ولو على: أنفسكم، و الوالدين، والأقربين. إن يكن غنياً، أو فقيراً، فالله أولى بهما. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا، أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعملون خبيرا).

[سورة النساء: الآية ١٣٥].

هذه الآية من الآيات، تحتوي خططاً جبارة، لتمكين: (حكومة الإسلام). وهذه الخطط، تنقل مسؤولية أساسية

من مسؤوليات الحكومة إلى الأمة، لـ:

١ـ التخفيف عن كاهل الحكومة.

٢ـ تقريبها من الشعب أكثر. فأكثر..

فأمام كل فرد من الأمة، خط ... وخطة...

والخط، هو: العدل = القسط في كل الأمور: ويجب على كل فرد، أن يلتزم به، في كل حياته. لأن العدل هو خط الله – إن صح التعبير – الذي يسعد في الدنيا، وينتهي إلى الجنة في الآخرة:

(يا أيها الذين آمنوا! كونوا: قوامين بالقسط).

والخطة، هي: الحراسة الواسعة، التي تصون هذا الخط.

فمن هم الحراس؟

إنهم كل المسلمين.

ومسؤولية كل فرد، ليست حراسة خط العدل من الأبعدين، وإنما:

١ـ حراسة العدل من نفسه، لأن العدل شيء لا يمكن حراسته – حراسة دقيقة – بحارس خارجي مهما كان ذكياً، فخيانة العدل أخفى من أن تلاحقها عيون الناس. فكل إنسان مسؤول – أمام الله – عن حراسة خط العدل من نفسه، قبل حراسته من غيره: (شهداء لله، ولو على: أنفسكم).

٢ـ حراسة العدل من الوالدين، فالولد ألصق بوالديه، وأكثر حشراً في حياتهما من غيره، فعليه هو – قبل غيره – أن يكون رقيباً وشاهداً لله عليهما: (أو الوالدين).

٣ـ حراسة العدل من الأقربين، فالقرابة تفسح للقريب، كثيراً من الدس في شؤون أقربيه، التي تقفل أمام سمع وبصر غيره. إذن: فهو أفضل إنسان يستطيع أن يستخدم قرابته لرقابة أقرابه، وحراسة خط العدل منهم: (والأقربين).

٤. حراســة العدل من ســائر الناس، بمقدار ما يســمح له، ويســتطيع. وغير الأقربين لم يرد في نص الآية، ولكنه يفهم منها بالأولوية القطعية.

وهذه خطة عميقة جداً، فـ:

١. ترفع عن كاهل الحكومة، تكاليف رقابة الأمة: المادية، والبشرية.

٢. تدمــج كل فرد في الحكومة، وتشــعره بأنها قائمة عليه، وتشــعر الحكومة بأنهــا مدعومة به، فيعمق التعاطف بينهما.

٣. توجد أقوى رقابة ممكنة، فكل فرد رقيب على نفسه، وإذا تساهل مع نفسه، فلا يفلت من أعين: أبنائه، أو آبائه، أو زوجته ... ومهما تســاهلت معه العيون، فلا بد أن يظهر بين مجموعة العين التي تراه عين واحدة – على الأقل – لا تتســاهل معه. وهو لا يســتطيع أن يعرف: أية عين تلك التي تتســاهل، وتلك التي لا تتساهل. فيجد نفسه أمام خيارين: الاحتجاب عن كل العيون – وذلك ما لا يكون – ،أو الالتزام بالعدل – وهو الهدف – .

★ استراتيجية التفريق بين الله ورسله

(إن الذين:

يكفرون بالله ورسله،

ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله،

ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض،

ويريدون أن يتخذوا – بين ذلك – سبيلاً.

أولئك: هم الكافرون حقاً، وأعتدنا – للكافرين – عذاباً مهينا).

[سورة النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

١. الكافر – وهو الذي يستر الحقيقة – على أقسام متدرجة:

أ - الذي يستر حقيقة: (الحقوق المتبادلة)، ابتداءً من: (الحقوق الزوجية)، (لا يزني الزاني – حين يزني – وهو مؤمن)(٣٣٤)، (الزاني المحصن، يقتل)(٣٣٥)، لأنه ألغى الرباط المقدس الذي لا يسمح بتعاطي الجنس إلا من خلاله، وهتك الحقوق التي تترتب على ممارسة الجنس. وارتفاعاً إلى: (الحقوق الاجتماعية) المتبادلة، التي يؤدي التمرد عليها إلى تفجير المجتمع، ولو من خلال عدم الوفاء بالوعد والدين، الذي يؤدي إلى عدم الاعتماد على الوعد، وعدم الدين:

(إن الذين كفروا، ويصدون عن: سبيل الله، والمسجد الحرام، الذي جعلناه للناس، سواء العاكف فيه والباد. ومن يرد فيه بإلحاد، بظلم، نذقه من عذاب أليم)(٣٣٦). وانتهاءً بـ: (سلب الأمن)، كما في الحديث: (من شهر سيفه بالليل، يقتل)(٣٣٧)، علماً بأنه لا يقتل في الإسلام إلا: من ارتكب الكفر شفهياً، أو اقترف عملاً في حد الكفر.

ب - الذي يستر ضرورة من ضرورات الدين: كالصلاة، والزكاة، والحج... فقد أجمع العلماء على كفر من أنكر أحدها.

ج - إنكار الحقيقة الإلهية، أعظم الحقائق، ومصدر الحقائق وهذا أغلظ أنواع الكفر، لأنه أسوأ أنواع الانحراف، ويؤدي إلى الانحلال من جميع القيم والمقاييس التي تحفظ المجتمع والحياة، ويجعل من الفرد عنصراً نشازاً.

٢. إن الله لا يتصل مباشرة بالناس، وإنما يتصل بهم عبر رسله فالرسل هم الوحيدون الذين يمثلون الله في الأرض، والانقياد لله لا يتم إلا باتباع الرسل، والتمرد على الرسل تمرد على الله، والمؤمن الحق هو: الذي يسلم لله عن طريق الإسلام لرسله.

٣. الكفر قسمان:

أ - الكفر البسيط، وهذا.. كفر من يعلن ما في قرارته، بلا مؤاربة ولا التواء.

ب - الكفر المركب،وهذا.. كفر من يضمر ما في قرارته، ليمرره من خلال مواقف إيجابية الشكل وسلبية المضمون.

والكفر المركب: كفر مضاعف. لأنه يستر الحقيقة الإلهية بجحوده، ويستر جحوده، فيتظاهر بالإيمان ويبطن الكفر.

٤. الكافر: ربما يكون كافراً بنفســه، فينحرف إلى حيث ما تسّــول له نفســه. وربما يخطّ نهجاً لكفر، يضلل الكثيرين. والثاني أغلظ.

٥. والذين يحاولون التمرد على الأنبياء، إنما يحاولون التمرد على الله. ولكن لا يريدون أن يتعرّوا أمام الرأي العام، فيفرّقون بين الله ورســله. ولا يمكنهم التفريق بين الله ورســله صراحة، وإنما يقولون: (إنا نؤمن بالله، ولكن لا نؤمن برسوله، لأن هذا الرسول لا يعبر التعبير الكامل عن الله، وقد وهبنا الله العقل، لنستدل به عليه، وحسبنا العقل. وأما هذا الرسول، فينفِر الناس – بمنطقه – عن الإيمان، لأنه لا يعرف متطلبات العصر ...).

والقرآن عرّى أصحاب هذا المنطق، عندما أعلن: (أولئك: هم الكافرون حقاً): فكفرهم أغلظ أنواع الكفر، لأنهم كفار، ويكفرون بكفرهم، فيعلنون الإيمان ويبطنون الكفر. ولأنهم لا يكتفون بكفرهم، وإنما يحاولون أن يؤسسوا فلسفة مستمرة للكفر، وهي فلسفة الإيمان بالعقل المجرد، والاستغناء عن الرسل والرسالات، في مجال الإيمان.

★ عبث الأرض بفكرة الألوهة

(يا أهل الكتاب!

لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق.

إنما (المسيح = عيسى بن مريم): رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا: (ثلاثة)، انتهوا خيراً لكم.

إنما (الله): إله واحد سبحانه أن يكون له (ولد)، له ما في السماوات وما في الأرض. وكفى بالله وكيلا).

[سورة النساء: الآية ١٧١]

فكــرة: (الألوهــة) مرت بمراحل النضج، عــبر الأمم الثلاث الأخيرة: اليهودية، والمســيحية، والإســلامية. فالأنبياء – جميعاً – دعوا أممهم إلى الإله الواحد: الله. ولكن أممهم لم تتجرد من تخلّفها الوثني، في وعي فكرة الألوهة:

فالأمة اليهودية قالت بالإله الواحد، ولكنها لم تتجرد من نزعتها القومية، فصوّرت: (الإله القومي) الذي خلق اليهود من عنصر فاضل ليسود، وخلق غيرهم من عنصر مفضول ليساد.

والأمــة المســيحية تجردت من نزعتها القومية في وعي الإله، ولكنها لم تتجرد مــن نزعتها المادية، فصوّرت: (الإله المركب) من ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس.

والأمة الإسلامية تجردت من النزعتين في وعي الإله، فعبدت: (الإله الواحد) الذي خلق الجميع من آدم، وخلق آدم من تراب، ولم يفضّل أحداً على أحد إلا بالعمل الفكري أو العضلي المعبر عنه بالتقوى.

❖ سورة المائدة

مدنية

وهي مئة وعشرون آية

⋆ شروط النصر

(وإذ قــال موســى لقومه: يا قوم! اذكروا نعمــة الله عليكم: إذ جعل فيكم أنبيــاء، وجعلكم ملوكاً، وآتاكم ما لم يــؤت أحــداً من العالمين ❖ يا قوم! ادخلوا الأرض المقدســة الــتي كتب الله لكم، ولا ترتدوا علــى أدباركم فتنقلبوا خاسرين❖.

قالوا: يا موسى! إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون❖.

قــال رجــلان — مــن الذي يخافون، أنعم الله عليهما — : ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا، إن كنتم مؤمنين.

قالوا: يا موسى ! إنا لن ندخلها — أبداً — ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك، فقاتلا، إنا — ها هنا — قاعدون ❖.

قال: رب! إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين❖..

قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون في الأرض. فلا تأس على القوم الفاسقين❖).

[سورة المائدة: ٢٠-٢٦].

- ١ -

الناس على قسمين:

١- القسم الأول: من يتمتعون بسلامة التفكير، فيفكرون جيداً، ويقيمون الأمور تقيماً دقيقاً، ويقدرون النتائج تقديراً صحيحاً، فيطمعون في إيجابيات ويخافون سلبيات، فينطلقون – في تصرفاتهم – بدافع الطمع أو الخوف، ليس في موقفهم من الله – تعالى – فحسب، كما قال: (. . . وادعوه خوفاً وطمعاً)(٣٣٨)، وإنما في جميع مواقفهم من سائر الأشخاص والأشياء، فتطبعهم نازعتا: الطمع والخوف.

وهذا القسم، هو القسم السليم.

٢- القسم الثاني: من لا يتمتعون بسلامة التفكير، فلا يطمعون ولا يخافون – أي: لا تحركهم مقاييس الطمع والخوف – ، كالمجانين والمعتوهين، أو يندفعون بدافع الطمع فقط، فلا يخافون، أي: لا يبالون. وهذا القسم، هو القسم المنحرف.

فمادة الخوف في الفرد، تدل على سلامته في التفكير. وعدمها، يدل على عدم سلامته في التفكير.

ولذلك: ظهر هذان الرجلان – في الآية – بطابع الخوف، بدون ذكر مصدر له. فهما: (. . . من الذي يخافون . .)،ولم يتبع بقوله: (من الله، أو من الناس، أو من النتائج الوخيمة . .) مثلاً، لأن المقصود بيان صفة الرجلين، وهي: أنهما من الذي ينطلقون – في تصرفاتهم – من موقع الخوف، وليس المقصود بيان ما ينبغي الخوف منه.

ومما يلفت الانتباه في الآية: أن الذين خافوا من اقتحام مدينة الجبارين ما داموا فيها، لم يعتبروا (. . من الذي يخافون . .)، بينما الرجلان اللذان لم يخافا من اقتحامها، وشجعا الآخرين على اقتحامها، اعتبرا (. . من الذي يخافون . .).

ولعل السبب: الخوف قسمان: خوف كاذب وخوف صادق.

والخوف الكاذب ليس خوفاً، والخوف الصادق هو الخوف.

والذين رفضوا اقتحام مدينة الجبارين، كان خوفهم كاذباً. واللذان شجعا على اقتحامها، كان خوفهم صادقاً.

فالآيــة: لم تعتــبر أولئــك (. . . من الذي يخافــون . .)، لأن، خوفهم كان خطأ. واعتبرت هذيــن (. . من الذين يخافون . .)، لصحة خوفهم.

وإذا أردنا فرز الخوف الكاذب والخوف الصادق، نقول:

إن تحقيق أي هدف يحتاج إلى التضحية بشيء من الطاقة، التي تتمثل في الوقت والجهد، وربما يضاف إليهما المال أو النفس. كما أن لكل هدف يتحقق، سلبيات وإيجابيات: فإذا كانت إيجابيات هدف أرجح – في الميزان – من سلبياته، ومن التضحية التي يكلفها، كان هذا الهدف حسـناً يلزم تحقيقه، وتحمل سـلبياته وتضحيته. وإذا كانت إيجابيات هدف أخف – في الميزان – من سـلبياته، ومن التضحية التي يكلفها، كان هذا الهدف شـيئاً يلزم إهماله، والخوف من سلبياته وتضحيته.

وفتح مدينة محصّنة، هدف يكلف تحقيقه كثيراً من الجهد والوقت والمال والأنفس: غير أن هذا الهدف، إذا كان استجابة لشهوة حاكم في المزيد من التسلط، كان هدفاً سيئاً يلزم إهماله، والخوف من سلبياته و تضحياته. وإذا كان لإنقاذ مصير أمة من طغيان الظالمين، كان هدفاً حسـناً يلزم تحقيقه، وتحمل سـلبياته وتضحياته. بل يلزم الخوف من إهمال مثل هذا الهدف، لأن إنقاذ مصير أمة من عبث الظالمين، وإن كانت له سـلبيات وتضحيات، إلا أنها أقل بكثير من السلبيات والتضحيات التي تترتب على إبقاء الظالمين على دفة الحكم:

فالشجعان – الذين يتمتعون بمقاييس سليمة – هم الذين يخافون من سلبيات الإبقاء على الظالمين، ويتحملون سلبيات القضاء عليهم.

والجبناء – الذي يعانون من ارتباك المقاييس – هم الذين يخافون من سلبيات القضاء على الظالمين، ويتحملون سلبيات الإبقاء عليهم.

ونتيجة: الشجاع يضحي أقل، وهو مرفوع الرأس، والجبان يضحي أكثر، وهو مطأطأ الرأس.

وفي موضوع الآية، كان على بني إسـرائيل أن يدخلوا (. . الأرض المقدسـة . .) لإنقاذ مصيرهم، فاقتحامها كان لصالحهم مهما كانت التضحيات. ولكنهم جبنوا عن التضحية ببعضهم في ساحة القتال، وفضلوا عليها المصير القلق. فخوفهم من القتال كان كاذباً، وخوف الرجلين من استمرار القلق كان صادقاً.

(. . أنعم الله عليهما . .) بنعمة سـلامة التفكير: فالذي وهبه الله العقل، أنعم عليه بكل شـيء. والذي لم يهبه العقل، لم ينعم عليه بشيء وإن وهبه كل شيء.

(ادخلوا عليهم): العمالقة، (الباب): باب (الأرض المقدسة)، واقتحموها . (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) .

فأولاً: ـ الحكم العمالقي منخور من داخله، والعمالقة قد بطروا وتميّعوا، فلا يستطيعون المقاومة والصمود .

ثانياً: ـ والشعب العمالقي ناقم ومتذمر من الاستبداد، فهو – بدوره – مضطهد يبحث عن من ينقذه.

ثالثاً: ـ وأنتم ـ كجيش منظم وثائر، له رصيد هائل من الظلامات ـ إذا دخلتم مدينة أعدائكم، فإنكم ستقطعونهم من جيوشــهم المنتشــرة خارج (الأرض المقدســة)، ولا تجدون أمامكم إلا مجموعة مترهلة من الحرس الداخلي، الذي لم يتهيأ لمقاومة جيش ثائر .

رابعــاً: وهم ســينهارون لمجرد سماع أخباركــم، لمعرفتهم بجرائمهم الكثيرة، ولتصورهــم بأنكم طالما خرجتم من تحت الأرض لغزوهم، فقد أصبحتم أقوى منهم.

خامســاً: ـ حقيقة: أن لكل تحول أحكامه، وأن لكل مرحلة معطياتها . فالإنســان في وضع لا يســتطيع اســتيعاب وضع آخر: فالفقير لا يستطيع استيعاب وضعه ـ هو بالذات ـ إذا أصبح غنياً . والمحكوم لا يقدر أن يتصور ذاته، إذا غدا حاكماً . فكل فرد عرف ملابســات واقعه، فإذا تحول عنه إلى واقع آخر، فوجئ بملابســات جديدة لم تكن تخطر له على بال .

وأي جيش ـ قبل أن يخوض معركة ـ ربما يعاني من سلبيات كثيرة تترك مكانها لإيجابيات أكثر، بمجرد خوضه المعركة . كما أن الفرد ـ إذا تورط في أزمة ـ تتضح أمامه سبل وأساليب، لم يكن من الممكن أن يتصورها قبل تجربته للأزمة .

وهكذا . . كان بنو إســرائيل قبل دخول (الأرض المقدســة) . فهم كانوا يأخذون بنظر الاعتبار ضعفهم الســابق، وقوة الفراعنة الأسطورية، التي كانوا يتهيبونها وهم تحت نير الاستعباد، فما كانوا يدركون أن جميع المقاييس تتغير مع أول سهم يتحرك من كبد قوس .

ولكن الرجلين الواعيين كانا يقولان لهم: (إذا كنتم تريدون الانتصار المادي الدنيوي، فعليكم أن تقتحموا (الأرض المقدســة) . وإذا كنتم تزهدون في الانتصار المادي الدنيوي، لأن مطامحكم في الســماء، فعليكم ـ أيضاً ـ أن تقتحموا (الأرض المقدسة) مهما كانت النتائج، لأن الله أمركم به) .

(وعلــى الله فتوكلــوا، إن كنتــم مؤمنــين ❖) .

- ٢ -

- منطـق الجيـش الإسـرائيلي، ليس منطق جيش علـى الإطلاق. فالجيش ينفّـذ الأوامر فور تلقيها مـن قائده، مهما تدهورت أوضاعه ومعنوياته، وكيفما كان قائده. فكيف بجيش خرج من (مصر) إلى (الأرض المقدسة)، مجاهداً بين يدي رسول من أعاظم رسل الله، حيث الشهادة أحب من النصر ؟!

وهذا المنطق يصور بوضوح، النفسية الإسرائيلية المترجرجة، حتى في المجال العسكري، وحتى أمام أعداء (العمالقة)، حيث يفترض أن تنقض عليهم، مهما كانت النتائج.

- ولـو أهملنـا كل الاعتبـارات في تقييـم طبيعة هذا المنطـق، فيطمئن إلى أنه سـيدافع عنه، ويوفر له وسـائل أمنه واستقراره، ويتحمل عنه عناء الجهد والنصب، سواء عمل أم لم يعمل.

ولم يكن هذا وضع الجيش الإسرائيلي مع موسى بن عمران، فليس لنبي أن يقاتل مع جيش من الملائكة في جبهات الطغاة، ويوفر للناس جو الهدوء، فهو معلم يدرب الناس على الحياة، وليس أماً حاملة تربي على الكسل والاسترخاء.

علـى أن موسـى بـن عمران بالـذات، كان رجل الضبط والربط، الـذي بعثه الله لتدريب بني إسـرائيل - ومن ورائهم الإنسـانية جمعـاء - على مـكارم الأخلاق، والصفات الفاضلة، وقـد اختبروه حازماً صارماً، فلـم يكونوا يتوقعون منه التجاوب مع دلالهم.

وبالفعـل: مـا جابهوه بهذا التخاذل الأرعن، إلا وصدعهم بأقسـى من الموت: (قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سـنة، يتيهون في الأرض. فلا تأس على القوم الفاسـقين❖) (٣٣٩). وأربعون سـنة، عمر جيل. فأكلت الصحراء ذلك الجيل، ولم يدخل (الأرض المقدسة) إلا خلفه.

٢- الجبـان الخانـع، الذي يفضل الذل على التضحية. وهو وضع بني إسـرائيل طـوال التاريخ، وفي كل مكان. فهم يتخشعون ولا يترفعون، ويحقدون ولا يثأرون. وهم للقوي أذل من التراب، وعلى الضعيف أشرس من الذئاب.

- ومـن الطبيعـي في مثـل هـذه الحالة، أن ينشـق الجيش، فيندفع قسـم منه مع قائـده، أو تظهر فيـه — على الأقل — مجموعة فدائية تأسو القائد المطعون من الخلف.

ولكن لم ينقسم الجيش الإسرائيلي على نفسه، ولم تظهر فيه حركة فدائية. وإنما ظهر فيه رجلان فقط، كان لهما منطق إيجابي، ولكن رجلين لا يشكلان أية نسبة مئوية، ولا يشكلان أية قاعدة قوية يمكن الدفاع أو المناورة بها.

- منطق هذين الرجلين، يتلخص في الأخذ بزمام المبادرة. فالمبادرة – دائماً – تضع الطرف الآخر أمام الأمر الواقع، وتسلب منه فرصة التفكير والتدبير، وتلجئه إلى الانفعال والارتجال.

وتجارب التاريخ تتظافر على أن الناجح هو الذي يأخذ بزمام المبادرة، فالفعال الحقيقي هو الذي يقوم بالفعل، والمنفعل هو الذي يقوم برد الفعل. ألم يقل الإمام علي (ع):

(اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله، ما غزي قوم ـ قط ـ في عقر دارهم، إلا ذلوا(٣٤٠).)؟!

★ المتقون: أصحاب الزلفى

(إنما يتقبل الله من المتقين❖).

[سورة المائدة: الآية ٢٧]

كما تختلف الأشياء، وكما تختلف الأفراد، هكذا .. تختلف النظم وتختلف الخطوط . واختلافها، لا يعني تباينها في كل شيء، وإنما يعني تباينها في خطوطها العامة. وقد تلتقي مع بعضها في كثير من النقاط، ولكن اختلاف خطوطها العامة يكفي لاعتبارها مختلفة عن بعضها:

فالباب يختلف عن القلم، وإن كانا من مادة واحدة . والإنسان يختلف عن الفرس، رغم أنهما من لحم ودم، وتصاميمهما متشابهة.

والنظام الجمهوري يختلف عن النظام الملكي، مع أنهما سلطة حاكمة مسلحة هرمية الشكل. والكفر يختلف عن الإيمان، مع العلم بأنهما قد يتفقان في كثير من الإنسانيات، والأخلاقيات، والاجتماعيات، وغيرها....

فكما لا يوجد شيئان متفقان من جميع الجهات في العالم، كذلك: لا يوجد شيئان مختلفان من جميع الجهات في العالم، وإنما يعتبر الاتفاق والاختلاف بالخط العام:

فإذا اتحد شيئان في الخط العام، كانا متفقين، ولا يعبأ باختلافهما في الخطوط الفرعية، لأن هذا الخلاف لا يعبر عن فراق جوهر. وإذا تفرق شيئان في الخط العام، كانا مختلفين، ولا ينظر إلى لقائهما في الخطوط الفرعية، لأن هذا اللقاء لا يعبر عن وفاق جوهر.

فإنسان وإنسان، يعتبران متفقين، لأن تصميمهما العام واحد، على أنهما مختلفان في المزاج، والأسلوب، والملامح ... والنظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي، يعتبران مختلفين، على أنهما متفقان في الملكية، والإنتاج، والتطوير، والبيع والشراء ....

فالخلاف غير الموجه لا يدل على فراق، كما أن اللقاء غير الموجه لا يدل على وفاق. فالخطان المختلفان قد يلتقيان لا عن قصد، وقد يفترقان لا عن قصد. وإنما يصدف اللقاء كما يصدف الفراق، شأن كل الخطوط المتقاطعة.

وكل كتلة بشرية، تطبق هذه الفكرة في ولائها وعدائها – سواء تكتلت في إطار: دين، أم حزب، أم مصلحة ..... – فتمنح ولاءها لمن يشاركها في خطها العام وإن ارتكب أخطاء، وتحجب ولائها عمن لا يشاركها في خطها العام وإن شاركها في بعض المواقف. ومشاركته الجانبية لها، محمودة كمكسب جانبي، ولا تقبل حركة عضوية.

والله – تعالى – لا يرفض عمل الخير من أي إنسان، إذا استكمل شرائط الخير، فيعتبره مسقطاً لبعض الواجب ومخففاً لشيء من العقاب. ولكنه لا يتقبل العمل إلا من المنسجمين مع خط الله الذي رسمه للإنسان، وهم المتقون الملتزمون:

فمن سرق ليتصدق، لا يقبل الله صدقته، لأنه – بانفلاته – يحاول الالتزام. ومن تزني لتطعم المسكين، تستقبل الورود بالنار، وتبني الناشئة من الأعاصير. ومن يدعو إلى الله وهو متلوث بالسيئات، ينام على الشفرات. وكما لا يمكن ذلك في منطق التكوين، لا يمكن في منطق التشريع.

وعلى كل فرد، أن يحدد انتماءه وهويته، فبدون انتماء وهوية، لا يعدو مذبذباً، لا يرتكز على قاعدة يمكنه الانطلاق منها.

وكل قائد لا بد أن يعرف: من معه؟ ومن عليه ؟ حتى يعرف على أي أساس يتعامل مع الناس، ويتمكن من الاعتماد على مواليه لضرب معاديه.

والله يعرف كل شيء من كل أحد، ولكن يريد أن يعرف خلفاءه في الأرض – كقادة – هذا الشيء.

فغير المتقين إذا عملوا الواجبات، سقط عنهم بعض العقاب، ولكنه لا يبلغ درجة القبول والزلفى.

★ الفرد = الجمع

(مـن أجـل ذلك، كتبنا على بني إسـرائيل أنه من قتل نفسـاً بغـير نفس أو فسـاد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها، فكأنما أحيا الناس جميعاً ..).

[سورة المائدة: الآية ٣٢]

-١-

القيمة الإنسـانية – في الحسـابات العليا – واحدة لا تتجزأ، وإن كان يجسدها ويمثلها كل إنسان تجسيداً كاملاً وتمثيلاً كاملاً: فالاعتداء على أي إنسان، اعتداء على القيمة الإنسانية العامة التي تضم الناس جميعاً. وقتل أي إنسان، قتل للقيمة الإنسانية المشاعة في ا لناس جميعاً. كما أن احترام أي إنسان، احترام للقيمة الإنسانية المنتشرة في الناس جميعاً. وإحياء أي إنسان – بإنقاذه من الهلاك – إحياء للقيمة الإنسانية الموزعة في الناس جميعاً.

كما أن الأسـرة – في الحسـابات الدنيا – واحدة لا تتجزأ فالاعتداء على أي فرد منها، يعتبر اعتداء عليها جمعاء. واحترام أي فرد منها، يعتبر احتراماً لها جمعاء.

وكما أن التجمعات المهنية أو النضالية – في الحسـابات المدنية – تجعل المجموعة المشـدودة برباط مهنة أو حركة، واحـدة لا تتجـزأ، في تعامـل الجهات الأخر معها، حتى تتحرك – بكاملهـا – للدفاع عن أي فرد منها، تماماً .. كما يتحرك الجسد – كله – انتصاراً لأي عضو منه.

فقتـل النفـس الإنسـانية الواحـدة، بمثابة قتـل جميع الأنفـس الإنسـانية. وإحياؤهـا، بمثابة إحياء جميـع الأنفس الإنسانية:

١- ويبقـى مكان التشـبيه: فقتل النفس الواحـدة، ليس قتلاً حقيقياً لجميع الأنفس. وإحياؤهـا، ليس إحياءً حقيقياً لجميع الأنفس. ولذلك: تكررت كلمة (كأنما) في الآية.

٢- إن النفس الإنسـانية الواحدة تمثل الإنسـانية، طالما تتحرك خلال المقاييس ذاتها. فإذا شـذت عن نطاق الإنسانية، لا تبقى ممثلة للإنسـانية، فيحل أو يجب قتلها، لأنها فقدت إنسـانيتها، ففقدت احترام الإنسـان. والإنسـان لا يفقد

إنسانيته، إلا بأحد أمرين:

١ـ الاعتداء القاتل على غيره، فإذا قتل من لا يحل قتله، فقد إنسانيته.

٢ـ الاعتداء المهين على الآخرين، وإن لم يؤد إلى القتل كاقتحام البيوت لسلب الأموال أو اغتصاب الأعراض، أو شهر السلاح في وجوه الآخرين لإرعابهم.

فـ (من قتل نفساً) محترمة، (بغر نفس) أي: بدون أن تكون قد قتلت نفساً محترمة. (أو) قتل نفساً محترمة بغير (فساد في الأرض)، (فـ) هذا الشخص القاتل (كأنما قتل الناس جميعاً)، لقتله من يمثل الإنسانية جمعاء. (ومن أحياها) بإنقاذها من هلاك، (فكأنما أحيا الناس جميعاً).

ـ ٢ ـ

- الرمز، هو الإشارة إلى شيء. وكما تتم الإشارة بكلمة هذا وذاك، أو بإيماءة إصبع وغمزة عين، كذلك: تتم الإشارة باعتبار شيء معين إشارة إلى شيء آخر، فيلخص الشيء الأول جميع مفاهيم ودلالات الشيء الثاني، ويكون رمزه:

فمقام (الجندي المجهول) يعبر عن الجندية، ابتداء من الجندي البسيط وانتهاء بالقائد الأعلى، حتى أن تكريمه تكريم لكل المنخرطين في السلك العسكري، وتوهينه توهين لهم جميعاً.

وقطعة قماش ملونة، تعتبر (علماً) لدولة، يحمل كل اعتباراتها، حتى أن رفعه يدل على شموخها، وتنكيسه يدل على حزنها.

- واختيار الرمز، يتم – عادة – لأحد سببين:

١ـ أن المرموز إليه، واسع يصعب التعامل معه. كالدولة التي تطلق على مجموعة مؤسسات واسعة منتشرة، تسيطر على شعب معين. فيرمز إليها بقلم، لتسهيل التعامل معها، والتعبير عنها.

٢ـ أن المرموز إليه، بعيد المنال، لا يمكن ـ أو لا يسهل ـ التعامل معه: مثل الله تعالى، الذي هو متعال، لا يمكن التمثل المحسوس تجاهه لإبداء موقف إيجابي أو سلبي منه، فيرمز إليه بالكعبة، حتى يمكن إبداء المواقف منه من خلال رمزه. ومثل رئيس الدولة، الذي يتحجب عن جمهور شعبه، فلا يسهل لأي فرد إبراز العواطف – سلبية أو إيجابية – تجاهه، فيرمز إليه بتمثاله، حتى يسهل إبراز العواطف تجاهه.

- والرمز قد يكون غير واقعي، يتواضع عليه من لهم صلاحية تعيين الرموز: كمقام الجندي المجهول، والقلم، والكعبة، والتمثال، وأمثالها . . . وربما يكون واقعياً: كالأب الذي يرمز إلى عائلته، وكالعضو الذي يرمز إلى الجسد.

وفي الاعتبار الطبيعي للسماء: أن البشر – جميعاً – كيان واحد، التقى فيه السماء بالأرض، لتمكين الأرض من العروج إلى السماء. وهو – في جميع نماذجه – خلق الله المفضل، والمرشح لمعرفة الله وعبادته، والأقدر – من سائر المخلوقات – على التعامل مع الله، فهو – بطبيعة تركيبته، وبهدف إيجاده – سيد الكائنات، وأسمى ثمرات الوجود.

ولا يطرد من هذا المقام المقدس، إلا إذا تحول – هو – إلى الخط المعاكس، فأعلن نفسه عنصراً مدمراً يتمرد على الله، ويناقض البشر في بقية نماذجه.

وهذا التحول، يحدث الانشقاق في البشر، لفرزه إلى جبهتين:

١. جبهة إيجابية، منسجمة مع ذاتها، ومتفاعلة مع الكون والحياة من حولها. وهي جبهة المؤمنين بالله.

٢. جبهة سلبية، مناقضة لذاتها، ومنافقة مع الكون والحياة من حولها، وهي جبهة الملحدين في الله.

ولكن: قبل أن يحدث هذا الانشقاق في البشر، أو قبل أن ينظر إلى البشر من خلال هذا الانشقاق، يبقى البشر – في جميع نماذجه – بشراً مؤهلاً لسيادة الكائنات. ويعتبر كل نموذج منه بالقياس إلى كله، بمثابة العضو الواحد بالقياس إلى الجسد الكامل.

وإذا اختلفت الطاقات، في نماذج البشر، فلا يعني أن النموذج الذي تكون طاقاته قليلة، ليس بالقياس إلى البشر ككل، بمثابة العضو بالقياس إلى الجسد. وإنما يدل على اختلاف مواضع النماذج من الكل، حسب اختلاف طاقاتها، كاختلاف مواضع الأعضاء من الجسد، حسب اختلاف أهميتها. ويبقى النموذج الواحد من الكل – مهما انخفض مستواه – ، بمثابة العضو من الجسد الكامل – مهما انخفضت أهميته – .

والنموذج الواحد من البشر كله، رمزه الواقع، لأن الناس لم يتواضعوا على اعتبار الواحد رمز الكل. فالنموذج الواحد، يحمل في جوهره حصة من البشر، بلا حاجة إلى اعتبار.

فالتعامل مع النموذج الواحد – سلباً أو إيجاباً – يعني التعامل مع البشر كله، ذات التعامل. كما أن التعامل مع العضو الواحد – سلباً أو إيجاباً – يعني التعامل مع الجسد الكامل، ذات التعامل.

فالقتل – الذي هو أعلى درجات السـلب – إذا وجه إلى نموذج واحد، يســاوي توجيهه إلى البشــر كله. والإحياء – الذي هو أعلى درجات الإيجاب– إذا وجه إلى نموذج واحد، يساوي توجيهه إلى البشر كله.

★ ابتغاء الوسيلة إلى الله

(يا أيها الذين آمنوا! اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا في سبيله، لعلكم تفلحون❖).

[سورة المائدة: الآية ٣٥].

ـ ١ـ

١ـ التوسل ليس شركاً، وليس مباحاً، بل واجباً أمرنا به.

فالشرك هو الاعتقاد باستقلال غير الله بالتصرف في المختصات بالله، واتخاذ وسيلة لم يأذن الله بها:

(ويعبدون ـ من دون الله ـ ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء.. شفعاؤنا عند الله. قل: أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟! سبحانه وتعالى عما يشركون❖)(٣٤١).

(ويعبدون من دون الله: ما لم ينزل به سلطاناً، وما لسي لهم به علم. وما للظالمين من نصير ❖)(٣٤٢).

أما اتخاذ وسـيلة أذن الله بها، في غير المختصات الإلهية: فضروري في التسلســل الكوني، وواجب في الشريعة بدليل هذه الآية الكريمة.

والمختصات الإلهية،هي التي لم يمنح الله صلاحيتها لأحد من خلقه: كالإيجاد من العدم. وأما الإيجاد من غير العدم، وهو إعطاء الصورة بتركيب مواد موجودة أو تفتيت مركب؛ فهو خلق، ولكنه خلق جديد، أي:تجديد في الخلق، وليس ابتداء للخلق،أي: ليس خلقاً من عدم:فالنحات الذي يعمل تمثالاً، خالق.والرسام الذي يرسم صورة،خالق.والمهندس الذي يعمل بيتاً، خالق. والذي يتكلم بكلمة،خالق لكلمة مسـموعة. والذي يكتب كلمة، خالق لكلمة مرسومة.والذي يتحرك أيما تحرك، خالق لتلك الحركة. وكل من يركب الأشياء أو يفككها، خالق... ولم ينزع الله صفة(الخالق) عن غيره، وإنما اعتبرهم خالقين،وأعلن أنه أحسنهم،لأنه يخلق من عدم فيما يبتدئ،ويتقن ما يخلق فيما يركب:

(فتبارك الله أحسن الخالقين❖)(٣٤٣).

فالخلق من العدم، من المختصات الإلهية،وادعاؤ ه لغيره شرك.

وكالمغفرة، فإنها من المختصات الإلهية، لقوله تعالى:

(ومن يغفر الذنوب إلا الله؟!. . . .)(٣٤٤).

أما:معرفة الغيب،وشفاء المريض،وإحياء الميت، وإيجاد المخلوق الحي، وما شابه هذه الأمور. . . فليس من المختصات الإلهية، وإنما هي من الأمور التي منح الله صلاحيتها لغيره من أوليائه،كـ(عيسى بن مريم) الذي منحه الله هذه الصلاحيات، وسجله في القرآن بقوله:

(ورسولاً إلى بني إسرائيل:أني قد جئتكم بآية من ربكم:أني أخلق ـ لكم ـ من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله. وأبرئ:الأكمه،والأبرص.وأحيي الموتى بإذن الله.وأنبئكم بما تأكلون، وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم، إن كمتم مؤمنين❖)(٣٤٥).

و(. . إذن الله. .) إشارة إلى أنه لم يكن مستقلاً بالتصرف، وإنما كان يتصرف بمقتضى الصلاحية الممنوحة له من قبل الله، ولكنه يبقى هو المتصرف، كالوزير الذي يتحرك بإرادته المستقلة ولكن من خلال صلاحياته. ونعني بمنح صلاحية شيء، إعطاء القدرة على ذلك الشيء: فالذي يتكلم أو يتحرك، إنما يفعل ذلك بالصلاحية التي منحها الله له، أي: بالقدرة التي أعطاها له، ولولا تلك القدرة لم يستطع كلاماً ولا تحركاً، فكل عمل يعمله إنسان أو غيره، إنما يعمله بإذن الله، أي: بإقدار الله إياه، ولولا إذن الله كان عاجزاً عنه:

أ ـ من هنا . . . يبدو أن عيسى بن مريم، عندما كان يخلق الطير أو يحيي الموتى، إنما كان يعمله هو، ولم يكن يسأل الله أن يعمله. فهو يقول: (أني أخلق . . . وأحيي الموتى)، ولا يقول: (أسأل الله أن يخلق ويحيي). فدوره دور القادر، الذي يتصرف بإرادة مستقلة، حسب رويّته الخاصة.

ب ـ تركيزه على (. . . . إذن الله . . .) لا يعني أنه كان يستأذن الله في أي تصرف يؤديه، وينتظر الإذن. فخلق الطير، وإحياء الأموات . . بالنسبة إليه كالتكلم والمشي . . . بالنسبة إلينا، لا يحتاج إلى استئذان لكل شيء، وكصرف الأعمال بالنسبة إلى الوزير. ولكننا لا نقول بإذن الله قبل كل عمل نعمله، والوزير لا يقول بإذن رئيس الدولة قبل كل عمل يصرفه، لأن المقاييس في مجالاتنا وفي مجالات الدولة أصبحت معروفة بالقدر الكافي.

بينما المقاييس بالنسبة إلى الله وأوليائه لم تكن معروفة بالقدر الكافي، فما كان أحد من الأولياء يعمل (معجزة) إلا ويتقدم إليه بعض الجهال ليقولوا له: (أنت الله) فكان لا بد من التأكيد على أنه (عبد لله) يعمل بالقدرات التي

وهبها الله إياه، ولولاها لكان عاجزاً. ورغم ذلك، قالوا له ما لا ينبغي إلا لله وما لم يدعه لنفسه، فيكف إذا لم يكن يركز على (إذن الله) في معجزاته؟!

ج ـ من هذا النوع، ما كان الأولياء يعملونه قبل معجزاتهم.

فمثلاً: كان النبي والأئمة (ع) يتوضؤون ويصلون ركعتين أو ركعات، أو يسبحون ويهللون، قبل أداء المعجزة. لا لأن صدور المعجزة منهم كان متوقفاً على الوضوء والصلاة، فالمعجزات بالنسبة إليهم من الأعمال الاعتيادية، تماماً . . . كالتكلم والمشي بالنسبة إليهم أو بالنسبة إلينا ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك تأكيداً لعبوديتهم، من أجل صيانة عقائد الناس، حتى لا يغالوا فيهم.

وإذا كان (عيسى بن مريم) يجهر بمثل هذه الصلاحيات، وليس إلا أحد (أولي العزم)،فلا مجال للاستنكار أو الاستغراب، إذا رويت ـ أو طلبنا ـ تصرفات مماثلة، ممن هو في مستوى عيسى ابن مريم من أولي العزم أو ممن هو أعظم من عيسى ابن مريم كالنبي محمد (ص).

٢ـ إننا نتوسل بأمثالنا من الناس العاديين، في حوائجنا اليومية، فنقول: (أعني على كذا . . .)، وقال الإمام أمير المؤمنين (ع): (ولكن: أعينوني بورع، واجتهاد، وعفة، وسداد(٣٤٦))، وفي القرآن:

(تعاونوا على البر والتقوى)(٣٤٧)، (أعينوني بقوة)(٣٤٨) . . . ، ولا يعد ذلك شركاً، رغم قولنا الدائم ـ بوحي من الله ـ: (إياك نستعين)(٣٤٩).

ونعيّن الولي للميت والقاصر، ولغير الميت والقاصر فيما يتعلق بالموقوفات والمصالح العامة، ودعا إبراهيم:

(فهب لي ـ من لدنك ـ ولياً)(٣٥٠)، وفي القرآن:

(فليملل وليّه بالعدل)(٣٥١).

(ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً)(٣٥٢).

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)(٣٥٣) . . .

ولا نعتبره شركاً أو كفراً، مع أن القرآن يقول:

(الله ولي الذين آمنوا)(٣٥٤).

(قل: أغير الله اتخذ ولياً ؟!)(٣٥٥)...

ونعبر عن أمثالنا بالمولى، والقرآن يقول:

(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون)(٣٥٦).

(وإني خفت الموالي من ورائي)(٣٥٧).

(فإن لم تعلموا آباءهم، فإخوانكم في الدين ومواليكم)(٣٥٨)...

مع أن القرآن يخصص التعبير بـ (المولى) عن الله، فيقول: (ذلك: بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم❖)(٣٥٩).

ويقول أحدنا: (أنا وكيل عن فلان...)، والقرآن يقول:

(وجعلناه هدى لبني إسرائيل، أن لا تتخذوا ـ من دوني ـ وكيلاً❖)(٣٦٠).

(رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، فاتخذه وكيلاً❖)(٣٦١)...

ونعين (الوالي) على البلاد والعباد، والقرآن يقول:

(وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم ـ من دونه ـ من والٍ❖)(٣٦٢).

وأمثال ذلك كثير في القرآن والحديث. فإذا لم يكن ذلك ـ كله ـ كفراً وشركاً، فكيف يكون التوسل بمثل النبي (ص) ـ الذي هو أقوى وأفضل من جميع خلق الله ـ شركاً أو كفراً؟!

٣ـ ما هي الوسيلة؟ أو ليست الأداة المناسبة التي يتوصل بها الإنسان إلى هدفه؟!: فالسلاح التي يقتل بها خصمه، وسيلة للقتل. والخندق الذي يحتمي به من خصمه، وسيلة للنجاة. والقلم الذي يكتب به، وسيلة للكتابة. و(المتر) الذي يمسح به المساحة، وسيلة للمسح. ووزنة (الغرام) التي يزن بها، وسيلة للوزن.. فكل ما يتوصّل به إلى شيء،

وسيلة إليه. وإذا جرى هذا القياس في كل شيء: فالصلاة التي يتقرب بها إلى الله، وسيلة إليه. وكل العبادات التي يتزلف بها لديه، وسيلة إليه. والنبي — أو الوصي — الذي يرشد إليه، وسيلة إليه. وتعظيم أولياء الله، وسيلة إليه...

٤. الله واجب مطلق، والإنسان ممكن بكل ما يعني الممكن من الحاجة والقصور، والفاصل بين الواجب والممكن فاصل كبير، فلا يمكن تفاعل الممكن بالواجب لانعدام السنخية بينهما. والنبي — مثلاً أعلى — وسيلة، له جانبان: تسديد إلهي به يتلقى الفيض، وجانب بشري به يفرع الفيض — على ما هو ثابت في الفلسفة — .

فالتوسل ليس كفراً أو شركاً، وإنما هو: ضروري في التسلسل الكوني، وواجب في الشريعة. فلذلك، أمر القرآن بالبحث عن الوسيلة: (وابتغوا إليه الوسيلة).

- ٢ -

الإنسان خلق ضعيف بين مخلوقات الكون، لا يملك المجابهة ولا الصمود: فهبة هواء، أو صدمة صخرة، أو مسة وباء، أو نبضة كهرباء، أو أية احتكاكة مع أية طاقة أو مادة.. تسحقه وتمسحه من هندسة الكون، كما قال الإمام أمير المؤمنين (ع): (تقتله الشرقة، وتنتنه العرقة، وتؤذيه البقة)(٣٦٣).

وحتى لو لم يتعرض الإنسان، فإنه يحتاج إلى مقومات كثيرة حتى يبقى، يحتاج إلى: الطعام، والشراب، والكساء، والسكن، والمجتمع، والنظام... ثم: لا يعيش إلا قليلاً.

إن حبة رمل، تعيش ملايين السنين وربما ملياراتها، وتنمو على حساب القوى والمواد الفاعلة في الكون، فتجابه وتنتصر وتبقى، ولا تحتاج إلى: غذاء، ولا كساء، ولا مجتمع...

وحتى الحيوان، الذي تشبه تركيبته الجسمية تركيبة الإنسان، أقوى من الإنسان، فهو يعيش — فترته الحياتية — في غنى عن: الكساء، والسكن، والمجتمع والنظام... وهو — في حد ذاته — أكثر صموداً من الإنسان.

فهذا الإنسان الضعيف، لا يملك البقاء في هذا الكون المفعم بالتيارات والتناقضات الساحقة، إذا أراد المجابهة أو الصمود. ولكنه ربما يملك قسطاً من البقاء، إذا اعترف على نفسه بالضعف، ورفع الراية البيضاء، أي: تمسك بالانهزام. ولكنه رتب القوى أمام القوى، والمواد أمام المواد، وعاش في الصفوف الخلفية متستراً بها:

مثلاً: إنه لا يستطيع مجابهة طوارئ الجو ولا الصمود أمامها، ولكنه إذا أتى ببعض المواد، ورتبها غرفة أو بيتاً، واحتمى بها من طوارئ الجو، فإنه يملك أن يعيش. لأن تلك المواد تملك الصمود أمام طوارئ الجو، وهو لا يملك.

مثلاً: إنه لا يملك مجابهة رصاصة صغيرة ولا الصمود أمامها، ولكنه إ ذا أتى بحفنة رمل، وستر بها، فإنه يملك أن يعيش. لأن حفنة الرمل تملك الصمود أمام رصاصة، وهو لا يملك.

فعلى الإنسان، أن يترك المجابهة والصمود للقوى والمواد المتكافئة. أما هو: فليس كفؤاً يجابه أو يقاوم، كل ما يملك أن يتستر ببعض تلك القوى والمواد. تلك . . في مجال الصمود.

وأما المجابهة واختراق إرادة الفعاليات الكونية، فإنها أصعب. فلا بد من التستر أكثر:

مثلاً: إذا أردت مجابهة المسافات، بحراً أو براً، فعليك أن تتوسل بقوة البخار أو الكهرباء، وإذا أردت مجابهة الجاذبية، فعليك أن تضيف إلى قوة البخار والكهرباء، جهازاً مناسباً بالغ التعقيد، وإذا أدرت أن تخترق مجموعة من القوى والفعاليات – كالانتقال بين الكواكب – فعليك أن تتوسل بمجموعة من القوى والفعاليات أشد، بينها الذرة – مثلاً – .

وهكذا . . تتطور الأمور وتتعقد، كلما تطورت المجابهة وتعقدت:

مثلاً: إذا أردت الانتقال من عالم إلى عالم – بنجاح – ، فإنك لن تستطيع ذلك بطاقاتك الروحية والجسدية أبداً، فإن الذي لا يستطيع اختراق المسافات والقوى إلا إذا توسل بقوى ومواد مناسبة، وإن الذي لم يستطع – هو ، مع كل البشر من أمثاله – الانتقال من مجرة إلى مجرة، ولا من منظومة شمسية إلى منظومة شمسية مجاورة، كيف يستطيع اختراق جدران العوالم بقواه المجردة؟! إلا إذا توسل بقوى أشد.

س: ـ إن الله معنا، وهو يعيننا؟.

ج: ـ أو ليس الله معنا في عالمنا هذا ؟!

فلماذا لا يعيننا في عالمنا هذا، الضيق المحدود، على ما نريد أو نحتاج؟! ولماذا نتوسل بقوى ومواد مادية، في تمرير شؤوننا البسيطة؟!

س: ـ إن الله هو الذي جعل لكل شيء سبباً في العالم؟

ج: ـ وكما جعل لكل شيء سبباً في هذا العالم، وأمرنا بالتعامل مع الكون من خلال تلك الأسباب، كذلك: جعل لكل شيء سبباً في جميع العوالم، وأمرنا بالتعامل مع جميع العوالم من خلال تلك الأسباب.

ثم: إن الله معك ولا شك، فهو الذي خلقك وأحاط بك، ولكن: هل أنت مع الله؟

س: ـ وكيف؟

ج: ـ إنك في عالمك هذا، لا تستطيع التعامل مع مظاهره إلا من خلال التوسل بأسباب، رغم أنه عالمك ومتجانس معك. ولا تستطيع الاتصال بكثير من عالمك، بالوسائل المتاحة لديك. ولا تستطيع إجراء أي اتصال بالعوالم، المتجاورة مع عالمك أو المتداخلة في عالمك، رغم أنها ـ كلها ـ ممكنات وأنت من الممكنات، والمفروض أن تساعدك وحدة النوعية على التفاعل معها، فكيف تستطيع التعامل مع الله، وهو الواجب وأنت الممكن، ولا يوجد أي جامع مشترك بينك وبينه، ولا أي تشابه نوعي؟!

س: ـ إذن: لا نستطيع التعامل مع الله؟

ج: ـ أبداً ... إلا عبر القنوات التي عيّنها – هو – للتعامل معه.

س: ـ وما هي تلك القنوات؟

ج: ـ الرسل والأئمة (ع)، والعبادات.

س: ـ فإذا قلت: (يا الله!) أو لا يجيبني؟!

ج: ـ إذا لم تدعه عبر القناة التي عيّنها لك، فلن يجيبك.

س: ـ ولكني كثيراً ما أدعوه، فيجيبني؟

ج: –.

أولاً: أنت ربما تكون مسلماً، فتناديه عبر القناة المعينة لك.

ثانياً: إذا أردت التأكد من أنه يجيبك بالفعل، أو أنت تظن ذلك، فاسأله: أن يأخذك في نزهة – خمس دقائق – إلى المريخ، أو اسأله: أن يثبت الماء تحت قدميك، مسافة كيلو متر.

وكيف يمكنك الاتصال بالله – مباشرة – والله لم يوح إليك كما أوحى إلى النحل؟! وإنما أرسل إليك الرسل، ثم قال لك:

(يـا أيها الذين آمنوا! اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة). وأعلن: أنه لا يتقبلك إذا حاولت الاتصال به، إلا عبر القنوات التي عينها لك: (.... ولو أنهم – إذ ظلموا أنفسهم – جاؤوك: فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله: تواباً، رحيماً❖)(٣٦٤).

وهذه الحقيقة، مغروسة في وجدان الناس، فلا يحاولون شيئاً إلا ويبحثون عن سببه ووسيلته. كل هذا ... من جهة.

ومن جهة أخرى: يستغرب أصحاب الأذهان المادية، أن يستطيع (الأولياء) التصرف في الكون، فيتساءلون: (كيف يشق النبي وهو على الأرض، (كرة القمر) وهي في الفضاء البعيد؟! وكيف يصلح أمور فلان .. أو فلانة .. وهو ميت في قبره؟! وكيف؟! وكيف؟!...).

ولنا أن نتساءل، في المقابل:

١. لماذا لا تستغربون عندما يقول العلم: (حينما يحدث انفجار قوي في كرة الشمس في اتجاه الأرض، تنبعث من موضع الانفجار قوة مغناطيسية هائلة نحو الأرض، وحينما تصل تلك القوة إلى الأرض، تحاول اجتذاب قشرة الأرض إلى الأعلى، فيحدث الزلزال)؟! ولكنكم تستغربون إذا قال الدين: (عن قوة روحية هائلة توجهت إلى كرة القمر، فشقتها نصفين. ثم انسحبت تلك القوة، فالتقى الشقان بفعل الجاذبية).

٢. ولماذا لا تستغربون إذا قال العلم: (أن النسبية العامة هي التي تحفظ كل الأجرام والمنظومات في الفضاء، بأبعاد متناسبة)؟!. وتستغربون إذا قال الدين: (إن الإمام علي (ع) هو ميزان الأعمال).

٣. ولماذا لا تستغربون من العلم إذا قال: (أن رجلاً رابضاً في قبو تحت الأرض، إذا كبس على زر، انطلق صاروخ من شرق الدنيا، وأصاب هدفاً محدداً في غرب الدنيا، وأحدث دماراً مخيفاً)؟! وتستغربون إذا قال الدين: (إن النبي (ص) من مرقده الشريف – أصاب فلاناً .. فأهلكه، أو نظر برحمة إلى فلانة.. فأنقذها من محنتها).

وإذا أردنا تفسير هذه الحقيقة، نستطيع القول:

١. أن القوى الفاعلة في الكون ثلاثة أنواع:

مادية وشبه مادية وروحية.

فكما توجد الذرة، والكهرباء، والبخار والمغناطيس، والنسـبية، والقوى العضلية .. كذلك: توجد قوى شبه مادية كالملائكة، والجن، والشياطين .. وهكذا .. توجد قوى روحية:

فمثلاً: قد يوجد شخص - من أصل رفيع أو وضيع لا فرق - ليس أكثر شعبه ثقافة، ولا أكثره طموحاً، ولا أكثره شـهرة ... ثم يصبح رئيسـاً، وإلى جانبه الملايين من أصحاب الثقافة، والطموح، والشـهرة .. ينحنون أمامه، لمجرد أنه يمتاز بقوة روحية تسيطر على كل من يقابله.

ومثلاً: يوجد أنبياء وأولياء، قد لا يمارسـون السـلطة، ولا يحاولون السيطرة، ولكن الناس يخضعون لهم، ويضحون في سبيل تنفيذ توجيهاتهم.

ومثلاً: يوجد (مرتاضون) لا يقدمون إلى الناس شـيئاً يذكر، أو لا يقدمون إليهم شـيئاً على الإطلاق، ولكن الناس يقدمون إليهم - تلقائياً - من الاحترام والتكريم ما لا يقدر بثمن.

وهؤلاء الأشخاص - بغض النظر عن كونهم سلبيين أو إيجابيين - ينطلقون من موقع الروح، ووجودهم يؤكد وجود قوى روحية فاعلة في الحياة.

٢ـ أن الكـون منظـم، دقيق النظام: فلا توجد حبة رمل، ولا وردة فل،، ولا عصفورة، ولا نجمة ... إلا وفق معادلات بالغة الدقة، فلا يضيع شيء في الكون، ولا يوجد ولا يفنى ولا يتغير، إلا وفق تلك المعادلات.

والأرواح الخيّرة، التي لم تسـقط في تجارب ملايين السـنين عبر عوالم عديدة، تنمو - في الجانب الإيجابي - بشكل غـير محـدود. كمـا أن الأرواح التي لم تنجح في تجارب ملايين السـنين عبر عوالم عديدة، تنمو - في الجانب السـلبي - بشكل غير محدود.

والله - سـبحانه - يضـع كل شـيء في موضعـه الصحيـح، فيمنح الأرواح الخيّـرة صلاحيات إيجابية تتناسـب مع أحجامهـا، كمـا منح جبرائيـل وميكائيل وإسـرافيل... صلاحيات إيجابية تتناسـب معها. ويمنح الأرواح الشـريرة صلاحيات سلبية تتناسب مع أحجامها، كما منح الشياطين صلاحيات سلبية متناسبة معها.

وهذه .. من سنن الله في الخلق: فكما أعطى لكل من الكواكب والنجوم، وحتى لآحاد الحيوان والنبات والجماد، طاقات متجاوبة مع ذاتياتها. هكذا .. أعطى لكل من الأرواح، الخيّرة والشريرة، قدرات متجاوبة مع ذاتياتها.

بل هذه . . من سنن الخلق أيضاً: فإذا كانت الحكومات العادلة أو شبه العادلة، تعطي كل واحد من موظفيها صلاحيات بقدره، فتخوّل شخصاً صلاحيات رئيس وزراء، وآخر صلاحيات مدير عام، وثالثاً صلاحيات حاجب، بينما تضع رابعاً في السجن، وتحكم على خامس بالإعدام . . . فماذا يمنع أن يعطي الله كل إنسان، ما يستحق أو ما يليق به؟!

وإذا صحّ ذلك . . وهو صحيح – فماذا يمنع الله أن يعطي لأفضل خلقه، صلاحيات واسعة يتصرف بها في الكون كله، - طبعاً – وفق المعادلات التي قررها الله في الكون؟!

أو هل يستغرب – بعد ذلك – أن يشير النبي (ص): وهو على الأرض، إلى كرة القمر فتنشق ؟! أو يشير إلى شجرة، فتتحرك من موقعها تخرق الأرض؟! أو يبرئ المرضى ؟! أو يكلم الموتى؟!. . .

وكل ما يصح في النبي الأعظم (ص)، يصح في الأئمة (ع) وسائر الأولياء، كل بقدره وحجمه.

★ المصلحة في خدمة الفكرة

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم،واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. . .)

[سورة المائدة: الآية ٤٩]

الفكرة توجه الإنسان وتقوم منه، ولكن للمصلحة فعاليتها. وإذا تصارعت الفكرة والمصلحة، فالأقوى منها يقرر مصير الإنسان الذي تصارعتا عليه: فمن كانت إرادته قوية، يشجع الفكرة على الانتصار. ومن كانت إرادته ضعيفة، تنتصر فيه المصلحة على الفكرة. ولذلك: يسعى القرآن لإلغاء الخصام بين الفكرة والمصلحة، ويعمل للتأليف بينهما، حتى تتعاون المصلحة والفكرة على توجيه الإنسان وتقويمه.

وحيث أن الفكر الديني واقعي، لا يلقي بالإنسان – مكبلاً في البحر – ويقول له: (إياك . . إياك . . أن تبتل بالماء)، تتوارد الآيات العديدة لتسليط الفكرة الدينية على الحياة، حتى تكون المصالح منساقة مع الفكر الديني، وجارية في خطها العام . لأن منابع المصالح تتلخص في الحياة، فإذا ضبطت بالنظام الديني، لا توجد فيها مصلحة متناقضة مع الفكر الديني.

★ من أرشيف أمير المؤمنين

(يا أيها الذين آمنوا! من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم: يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك: فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم❖ إنما وليكم: الله، ورسوله، والذين آمنوا: الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون❖ ومن يتولّ: الله، ورسوله، والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون❖).

[سورة المائدة: ٥٤ـ ٥٦]

ـ ١ ـ

هذه . . آيات أحكمت كما تحكم الجلاميد، ثم فصّلت كما تفصل الجبال: تحسبها متبعثرة متباعدة، وهي متماسكة متواصلة، تشد كرة الأرض، وتطمئنها أن تميد بأهلها.

فـ (يا أيها الذين آمنوا)، وتسربلوا بالإيمان فكراً وقولاً وعملاً! ليس هذا الإيمان كل ما هو مطلوب منكم، ولستم الفائرين الناجين لمجرد أنكم آمنتم بضمائركم وألسنتكم وجوارحكم. لأنكم – وكل المؤمنين السابقين واللاحقين – معرّضون لتجارب تنفض وتعتصر، لتتبلور الحقائق، وتنقشع الزيوف: فمن عركته التجارب فلم يتراجع، فهو المؤمن الحق، الذي يتعامل مع الحياة من مظلة المؤمنين.

و(من يرتد منكم عن دينه)، لبارقة خوف أو بارقة أمل، فليطمئن إلى أنه لا يطبع أي أثر سلبي على ظاهرة الأمة، ولا يترك أي فراغ في الهيكلية الإيمانية، وإنما يستقيل من نفسه ليملأ موقعه مؤمن،لا يتراخى للآمال ولا يهتز للآلام. بل إن ارتداده إلى الخطوط الخلفية، يزوّد المؤمنين بزخم إضافي، يدفعهم إلى الخطوط الأمامية، لا ليملؤوا فراغه فحسب، وإنما ليغسلوا عاره، ويفكروا عن تواجد مثله بينهم:

(فسوف يأتي ا لله بقوم) من نوع يخترق الخوف والطمع، فلا تثبطه مخاوف الدنيا ومغرياتها، عن الاستمرار في الخط الجهادي:

(يحبهم) الله، لتجردهم له.

(ويحبونه) الحب الكامل الصحيح، الذي يعلو على كل حب.

وهــؤلاء.. حيث يخلصون لله، لا يســتنكفون عن: مســح كآبة مكروب، وهدهدة دمعــة يتيم، ولا عن أي عمل إنساني في المجتمع الإسلامي ... حتى تراهم كـ:

(أذلة على المؤمنين). ولنفس السبب، وبذات المقدار، يتصلبون خارج المجتمع الإسلامي، حتى تراهم أقوى:

(أعزة على الكافرين):

فـ (يجاهــدون في ســبيل الله) بلا هوادة. (ولا يخافون) في ذات الله (لومة لائــم)، ولا عتاب عاتب، إنما ينفذون أوامر الله مهما كانت النتائج.

وهذه المواصفات الفريدة، التي يحظى بها بعض المؤمنين، ليســت مكتســبة بجهودهم بمقدار ما هي موهوبة من الله لهم بمقتضى استعدادهم لقبولها.

(ذلك فضل الله يؤتيه) بلا مقابل، ولكنه لا يؤتيه من لا يتحملها ويرفضها، وإنما يؤتيه (من يشــاء) هو – بمقتضى استعداده – هذا الفضل من الله.

(و) كما أن الله آتى هذه المواصفات، لأولئك المؤمنين، هكذا .. يؤتي مثلها كل من توفر فيه الاستعداد، لأن (الله واسع) لا يضيق بأحد، ولكنه – في الوقت نفسه – (عليم❖) بدرجات الاستعداد: فلا يضع شيئا في غير محله، ولا يؤتي أحداً أكثر من طاقته.

وهــذا النمــط المتفــوق من المؤمنين، هو الذي يتحمــل الولاية على المؤمنين. لأنها ولاية أورثها الله رســوله، فلا يورثها – بعد رسوله – غير النمط الأفضل من المؤمنين:

(إنمــا وليكم: الله) ولاية ذاتية، (ورســوله) بتخويل مباشــر من الله، (والذين آمنــوا). ولكن لا كل المؤمنين، وإنما النمط الأفضل.

وإذا كان لا بد من علامة مشــخصة تحصر الولاية في شــخص معين بعد الرســول، فالعلامة: أنه لا يفوته شــيء من الخير، وكمثال لذلك: أنه (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون❖).

ولعــل التعبــير بــ: (الذين) عن الواحد، لبيــان النوعية المنحصرة في فــرد. كالتعبير بـ:(الأمة) عــن الواحد، في قوله تعالى:

(إن إبراهيم كان أمة. . . .)(٣٦٥).

وبعد تصنيف المؤمنين إلى نوعين: نوع عادي ونوع مفضل، وبعد حصر الولاية في الله ورسوله ومؤمن واحد من النوع المفضل، يأتي دور تصنيف المتظاهرين بالإيمان إلى حزب الله وحزب الشيطان.

فالذين يتولون أصحاب الولاية، هم حزب الله:(ومن يتول: الله، ورسوله، والذين آمنوا) المذكورين أعلاه، وينحصرون – بمقتضى الآية السابقة – في فرد أعطى الزكاة وهو راكع، (. . فـ . . .) أولئك حزب الله، و(إن حزب الله هم الغالبون❖).

ولا داعي لبيان حزب الشيطان، فكل من عدا حزب الله يكون حزب الشيطان.

ويلاحظ التسلسل في الآيات والتوالد بين الأفكار التي تتابعت فيها، بأسلوب عفوي يدع كل مقولة ثابتة، لا تبحث عن دليل.

- ٢ -

هذه الآيات، تعرض للقيادة البشرية العليا العامة، فتفيد:

١ـ القيادة العليا العامة على البشرية جمعاء، أولاً وبالذات، هي لله سبحانه وتعالى. لأنه خلقهم، ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم . . . فهو أولى بهم من غيرهم، وله أن يقودهم: فيأمرهم وينهاهم، كما تقتضي حكمته العليا.

٢ـ القيادة تلك – ثانياً وبالعرض، وبتخويل من الله – للرسول، لأن الله – تعالى – ائتمنه على خلقه، فقال:

(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم. . .)(٣٦٦) ثم وجهه بوحيه، لئلا يتخطى حكمته العليا. وتخصيص الخطاب بالمؤمنين، لم يكن لأن النبي ليس أولى بغير المؤمنين من أنفسهم، وإنما لأن المؤمنين هم الذين يلتزمون بنداء القرآن فعليهم أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف النبي، فكأنما الآية تقول: (أيها المؤمنون! ضعوا أنفسكم تحت تصرف الرسول)، بدليل أن النبي كان يتصرف في غير المؤمنين، متى ما اقتضت مصلحة السماء.

٣ـ القيادة تلك ـ ثالثاً وبالنيابة عن الرسول – لرجل من المؤمنين، يقيم الصلاة ويتصدق وهو راكع.

فهذه الآية، جعلت علامة الشخص الذي يتولى قيادة البشر بعد الرسول،إعطاء خاتم واحد في حالة الركوع.

فالتصدق بخاتم واحد حالة الركوع، أصبح العلامة الكبرى للقائد الأعلى للبشر جميعاً.

وعلائم الأمور الكبيرة – عادة – تكون أشياء كبيرة، فكيف أصبح التصدق بخاتم واحد – مهما كان ثمنه فهو محدود – علامة لمثل هذا الأمر الواسع العظيم؟

والجواب يحتاج إلى تمهيد مقدمة، هي:

أن الأشياء المادية – مهما كانت ضخمة هائلة – لا قيمة لها عند الله: فهذه الكرة الطائرة المشرقة، التي نسميها: (الشمس). وتلك الجزيرة المعلقة، التي نسميها: (القمر). والملايين من أمثالها، والحياة الكونية العامة؟ كلها لا قيمة لها عند الله، لأنها – جميعاً – وجدت بإرادة بسيطة من الله، والله يستطيع محوها وإنشاء أكوان ثانية بإرادة بسيطة ثانية. والذي يوجد بإرادة ويفنى بإرادة، لا قيمة لها عند صاحب الإرادة تلك، مهما كانت عظيمة وجليلة عندنا.

فالعظم عندنا، ليس دليل العظم عند الله. لأن مقاييسنا تختلف عن المقاييس عند الله.

كمثال: أن الدمية البسيطة موضع اهتمام كبير عند الطفل، يفرح إذا نالها ويبكي إذا انتزعت منه، بينما هي ليست موضع اهتمام أبيه. وإنما هو موضع اهتمام أبيه. بمقدار ما الدمية موضع اهتمامه، فيفرح إذا رزقه ويبكي إذا افتقده.

والمواد الكونية محترمة وكريمة عند الإنسان، وليست محترمة وكريمة عند الله، وإنما الإنسان هو محترم وكريم عند الله، بفارق: أن الإنسان يحتاج إلى الكون وليس بإرادته، والله لا يحتاج إلى الإنسان وهو بإرادته. والإنسان ليس – بذاته – محترماً عند الله، وإنما هو – بمقدار اتجاهه إلى الله – محترم. وإذا جرد من الاتجاه إلى الله، لا يختلف عن سائر المواد الكونية، في عدم كونه محترماً عند الله.

فجوهر احترام الإنسان عند الله، اتجاهه إلى الله، وإخلاصه لله. وهو يحدد – بكمه وكيفه – قيمة الإنسان، فقيمة الإنسان، بمقدار إخلاصه، وكيفية إخلاصه لله.

إذن: فالألوف والملايين لا قيمة لها عند الله، والتصدق بالألوف والملايين – أيضاً – لا قيمة له عند الله، وتصدق الإنسان بكرة الأرض – تحول جوهرة – لا احترام له عند الله. وحتى لو أنفق الإنسان كل ما يملك، وأنفق حتى نفسه، فلا قيمة لهذا الإنفاق إلا بمقدار ما فيه من الإخلاص لله.

وقصة: (شهيد الحمار) – كحلقة في مسلسل تاريخي – تحمل دلالة صارخة على واقع الأمر، وإن كان يعتبر

– مسرحياً – من الشهداء في جبهة القتال ضد أعداء الله، لعدم إخلاصه لله في إنفاق نفسه.

وإذا كان الإخلاص لله – كماً وكيفاً – هو القيمة الأساس عند الله، يحسب لها حسابها ولا ينظر في مظهرها: فإذا كان التصدق بخاتم بسيط مظهراً لإخلاص عظيم، كان هذا التصدق عظيماً إلى درجة عظيمة، يصبح بها علامة القائد الأعلى للبشر أجمع، ويسبب نزول آيات تقرأ آناء الليل وأطراف النهار مدى الدهر لتخليد ذكراه. وإذا كان التصدق بستين خاتماً (٣٦٧) فارغاً عن الإخلاص لله، ومندفعاً بدافع حب السلطة والظهور، فإنه يصبح خسراناً يسبب نزول آيات:

(فلا صدق ، ولا صلى❖ ولكن: كذب، وتولى❖ ثم: ذهب إلى أهله يتمطى. ❖ أولى لك فأولى ❖ ثم: أولى لك فأولى.❖)(٣٦٨).

وإذا كان التصدق بثلاثة صيعان من الشعير، مظهراً لإخلاص أهل بيت، يصبح سبباً لنزول سورة: (الدهر)(٣٦٩). وإذا كان التصدق بألوف الأطنان من البر، مظهراً للأنانية وحب الاستعلاء، يصبح خسراناً فادحاً لا يلافى.

ففي الحقيقة: لم يكن التصدق بالخاتم رمز القائد الكوني الأعلى، وإنما رمزه ذلك الإخلاص العظيم الذي تقولب بقالب التصدق بخاتم بسيط.

وذلك الإخلاص العظيم، إذا تشكل بأي مظهر، يغدو ذلك المظهر. وتشكل – في يوم من الأيام – بضربة سيف، فقال النبي الأكرم : (ضربة علي يوم الخندق، أفضل من عبادة الثقلين)(٣٧٠)، وقال الإمام الصادق: (ونحن من الثقلين). لا لأن أحداً من البشر لم يضرب بسيف، وإنما لأن الإخلاص الذي تشكل بتلك الضربة يرجح على إخلاص الثقلين، بما فيهم الأئمة الأحد عشر (ع)، إن صح ذلك الحديث.

فالقيمة – كلها – كانت لإخلاص الإمام، الذي جعل لكل فتكة سيف، ونبضة فكر، ومدة يد ....، قيمة لا تعادل.

لأن إخلاص الإمام، لم يوجد نظيره عند غيره.

ولذلك: عندما سئل أحد أصحابه، عن أهم شيء رآه في الإمام، وهو قد رأى الإمام: في ميادين القتال، وعلى منابر البلاغة، وفي رحاب المحاريب ....، قال: (وجدت الله عظيماً في صدره)(٣٧١).

هذه ... هي جوهرة الإمام، وسر عظمته، وسر عظمة كل ما صدر منه.

★ الإنسان بين النزعات الخيرة والنزعات الشريرة

(وقالت اليهود: يد الله مغلولة. غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا. بل: يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء ...)

[سورة المائدة: الآية ٤٦]

- ١ -

قبل الدخول في مجال فهم هذه الآية، لا بد أن نسجل ونوضح الحديث التالي:

((إن الله قبض بيمينه قبضة من الأرض، ورمى بها، وقال: (هذه .... للجنة)، ولا أبالي. وقبض بشماله قبضة من الأرض، ورمى بها، وقال: (هذه .... للنار)، ولا أبالي)). وفي بعض النصوص إضافة: (بعد أن خلطهما)(٣٧٢).

وقبل الدخول في مجال فهم هذا الحديث، لا بد أن نؤكد على حقيقة بسطناها في تفسير بعض آيات القرآن، وهي:

كل كلمة قالب يتسع لمعناه، وقد وضعت اللغات لنقل المعاني من فكر إلى فكر، وواضعو اللغات صاغوا قوالب جاهزة لتداول المعاني التي يعايشها البشر في محيط حياتها. فلغة العرب، وكل لغات البشر، وضعت للتعبير عن الأشياء والحركات والمفاهيم التي يعيشها البشر، ويتعامل معها حياتياً. وبما أن البشر يتحرك من خلال الأشياء والحركات والمفاهيم المادية أو شبه المادية – كالعلم، والروح، والجاذبية، والنسبية .... – من معادلات الأمور المادية، كانت الحركة اللفظية – التي منها اللغات – دائرة في النطاق نفسه، فهي لغات مادية أو شبه مادية. فحينما تتصدى هذه اللغات للمحاولات الماورائية، وحتى للمحاولات المادية التي تكون خارج حياة البشر ومتناول فكره، تصبح هذه اللغات – كلها – عاجزة، لأنها لا تملك الكلمات التي تتطابق مع ما هو خارج عن محيط حياة البشر وفكره. فتضطر إلى نقل الكلمات المادية الضيقة من أبعادها المحدودة إلى المفاهيم المعنوية الواسعة، وعندما تحمل الكلمات أكثر من قدراتها تتحطم ولا تشير إلا إلى أنها حملت أكثر من قدراتها. بالإضافة إلى: أن الحركة اللفظية نوع من المادة، والمادة لا تصلح للتعبير، لأن السنخية ضرورية بين الظرف والمظروف.

ولكن لا بد من توجيه الذهنية البشرية إلى ما هو خارج عن حياتها، ولا وسيلة لهذا التوجيه سوى الوحي واللفظ، وليس كل إنسان قادراً على احتكاكة الوحي واستيعابها، فلا بد من استخدام اللفظ كمجرد إشارة أو رمز، لا أكثر.

وحتى القرآن حينما يمارس هذا التوجيه، ينزل إلى ما يمكن من الأداة، لأنه يحاول مخاطبة الناس بلغتهم. فيأتي التعبير عن الله بالنور، مع أن الله ليس نوراً، لأنه خالق النور، والخالق غير المخلوق. ولكن حيث لا توجد في اللغة العربية كلمة أفخم وأنبل من كلمة: (النور)، تستخدم هذه الكلمة، لمجرد أنها أفخم وأنبل كلمة في اللغة العربية، لا لأنها تتسع لله . وهذه اللابدية وضرورة التوجيه، يستطردان في كل الكلمات التي تستخدم للإشارة إلى أي شيء مما هو خارج عن محيط حياة البشر.

هكذا . . . فيمين الله وشماله، كلمتان دون المستوى حملتا أكثر من قدراتهما، فلا يمكن الاتكال على استيعابهما إذن: لا بد أن نبحث عن المعنى الذي تشير إليه كلمة اليمين، أو كلمة الشمال، بالنسبة إلى الله.

ويمكن أن نقول: أن اليمين هي الأداة التنفيذية للأمور الشريفة لتظهير إرادة الإنسان، والشمال هي الأداة التنفيذية للأمور غير الشريفة لتظهير إرادة الإنسان . واليمين هي الأداة الأقوى من الشمال، التي هي الأداة غير الأقوى. . . إلى بقية مواصفات اليمين والشمال.

فيمكن أن نأخذ من مفهوم اليد مواصفاتها مجردة من العظم واللحم، وأن نأخذ من الشمال مواصفاتها المجردة أيضاً، فننسبها إلى الله تعالى، فنقول: (يمين الله) ترمز إلى الأدوات التنفيذية للأمور الشريفة لتظهير إرادة الله في الوجود، و(شمال الله) ترمز إلى الأدوات التنفيذية للأمور غير الشريفة لتظهر إرادة الله في الوجود – ونعني بإرادة الله في الوجود، تكامل كل شيء عبر تجربة الحياة – . والأدوات التنفيذية للأمور الشريفة لتظهير إرادة الله في الوجود هي النزعات الخيرة، والأدوات التنفيذية للأمور غير الشريفة لتظهير إرادة الله في الوجود هي النزعات الشريرة.

والقبضتان، اللتان قبضهما الله من الأرض بيمينه وشماله، هما أجساد المؤمنين والكافرين. والله خلط القبضتين ببعضهما فأولد المؤمن من الكافر وأولد الكافر من المؤمن، وأوقفهما – معاً – أمام توجيهات الأنبياء وآياته الكتابية والكونية، وهداهما معاً إلى النجدين، ولم يزيلهما صفين متقابلين.

فالمعنى: أن الله – تعالى – قبض بالنزعات الخيرة قبضة من الأرض هي أجساد المؤمنين، وقال – كونياً –: (هذه . . . إلى الجنة). فالأجساد التي أمسكت بها النزعات الخيرة، وسيرتها في الحياة على تجربة الحق، سترتفع بتصاعد التجربة، حتى تصل إلى أوجها وهو الجنة. ولا يبالي الله بارتفاعها إلى الجنة،لأنها لم تكن أعداءه حتى يكره دخولها الجنة. وقبض الله – تعالى - بالنزعات الشريرة قبضة من الأرض هي أجساد الكافرين، وقال – كونياً - : (هذه . . إلى النار). فالأجساد التي أمسكت بها النزعات الشريرة، وسيرتها في الحياة على تجربة الباطل، ستنحدر بتهابط التجربة، حتى تصل إلى حضيضها وهو النار. ولا يبالي الله بانحدارها إلى النار، لأنها لم تكن أولياءه حتى يكره دخولها النار.

فالنزعات الخيرة هي التي دفعت إلى عمل الخير في هذه الحياة، ونتيجته الطبيعية هي الجنة، والنزعات الشريرة هي التي دفعت إلى عمل الشر في هذه الحياة، ونتيجته الطبيعية هي النار. فالله لم يكره المؤمن على الخير، ولا يدخله الجنة اعتباطاً. وهو لم يكره الكافر على الشر، ولا يدخله النار اعتباطاً.

يبقى أن نعرف: لماذا اختار أجساداً معينة – هي القبضة بيمينه – وسلط عليها نزعات الخير، واختار أجساداً أخرى – هي القبضة بشماله – وسلط عليها نزعات الشر ؟؟ ويمكن أن نعرف السبب من بقية أعمال الله – تعالى – في الكون: فالله يجمع المتجانسات لا المتنافرات، ولا يلقح الأضداد ببعضها: فالعناصر الخيرة من الأرض، تنادت حتى تكاملت فالتحمت بروح خيرة، فكانت المؤمن. والعناصر الشريرة من الأرض، تنادت حتى تكاملت فالتحمت بروح شريرة، فكانت الكافر.

وتنادي العناصر المتجانسة، شيء نجده في كل العمليات الكونية: أو ليست الذرات الصلبة، هي التي تتجاذب في الفضاء، حتى تتألف الكرات الملتهبة أو الباردة؟! أو ليست قطرات المياه، هي التي تتجاذب عبر الأتربة والصخور، حتى تتفجر الأنهار وتتموج البحار؟! أو ليس جسد الإنسان، يأخذ – من الأمواج والمواد الكونية – ما يقيمه، ويبعد ما لا يقيمه؟!

إن نظرة أولية إلى التفاعلات الكونية، تدل على أن الله تعالى لا يلاحم إلا بين المتجانسات، ولا يباعد إلا بين المتنافرات. ولا يظلم المتجانسات بتفريقها، ولا يظلم المتنافرات بتجميعها. وليس في عمله الكوني، أي عبث أو اعتباط.

فكما في أعماله الكونية من جميع الجهات، هكذا . . . في الإنسان في جميع الجهات. . فليس الإنسان إلا جزءاً من الكون، وسنة الله واحدة في أعماله الإنشائية والاستنتاجية، سواء في الإنسان أو في غير الإنسان.

غير أن الإنسان قد ينظر إلى أعمال الله في سائر الكون نظرة موضوعية فيقيم حكمة الله فيها، وينظر إلى عمل الله في الإنسان نظرة متميزة فلا يقيم حكمة الله فيه، ويحلو له أن يكون الله تعالى قد اخترق سنته الكونية العامة وفق مصلحته الشخصية.

وحينما لا يجد تحيز الله لمصلحة البشر الشخصية، يتساءل ويناقش، ربما يجد مهرباً من واقعه السيئ إلى قناعة تهدهد غروره، أو يتهم الله في عدله، لعله بذلك يجد مهرباً من عذاب ضميره. ولكنه – مهما حاول أو عمل – يبقى جزءاً صغيراً ضعيفاً من الكون، خاضعاً لسنة الله القاهرة التي ليس لها تحويل ولا تبديل. وعندما يشعر البشر بالآلام تمزقه يشكو، ولكنه لا يريد أن يتكلف علاج نفسه، فيحاول الانتقام لآلامه بالانتقاص من الله، ولكن بلا جدوى، فمهما قال لا يزيد هو شيئاً ولا ينقص من الله شيئاً.

فاليهود الذين قالوا:

(يد الله مغلولة)، (غلت أيديهم) هم، فهم مغلولو الأيدي، لا يستطيعون التصرف في كياناتهم الشخصية، بتغيير أي شيء من أجسادهم أو بتبديل نزعاتهم الروحية.

(بل) الله (يداه مبسوطتان)، تحركان كل شيء. وهو (ينفق) بالإيجاد والتنمية، (كيف) ما (يشاء).

وقد شاء للكون نظاماً معيناً، فخضع الكون كله لهذا النظام، الذي لا يستطيع البشر – كله البشر – فيه تحريفاً أو تزييفاً.

- ٢ -

إذا كان (الله) اسماً للقوة الخالقة والمسيرة للكون، فما هي يمينه، وما هي شماله؟؟

ثم: ما هو المراد من الحفنة من الأرض التي قبضها بيمينه، وما هو المراد من الحفنة التي قبضها بشماله؟؟

- يمين الله، هي للقوى الخيرة.

- شمال الله، هي للقوى الشريرة.

- والحفنة التي قبضها بيمينه، المؤمنون.

- والحفنة التي قبضها بشماله، غير المؤمنين.

- والجنة، هي منتهى المسيرة الصحيحة.

- والنار، هي منتهى المسيرة الخاطئة.

والله لا يدخل الجنة أو النار كيفياً، كما لا ينجح ولا يسقط أحداً كيفياً في الدنيا. ولا يعطي الآخرة بدون عمل صحيح. كما لا يعطي الدنيا بدون عمل صحيح.

واكتســاب الآخــرة أصعب من اكتســاب الدنيا، لأن الآخرة أسمى من الدنيا، وبلــوغ الأسمى أصعب. ولأن الدنيا تكتســب بالطريق الملتوية، لأنها بين يدي الناس فيمكن مغالبتهم عليها بكل ما ينطلي عليهم، فيما الآخرة بين يدي الله ولا ينطلي عليه شيء من مكر الناس وحيلهم.

★ عقدة اليهودي، وازدواجية المشرك

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا: اليهود، والذين أشركوا).

[سورة المائدة: الآية ٨٢]

التفاضل بين الناس يقوم — عادة — على كثير من الأســباب: كالنســب، والمال، والمنصب .... ولكنه يبقى بدون جذر فكري يركزه في الأذهان. فالمتفاضلون بهذه الأســباب، يتفاضلون بها، ويتفاخرون بها، ولكنهم يعلمون أن هذا النوع من التفاضل، تقليدي لا يقره الفكر المستقيم، لأن الفكر المستقيم لا يقر التفاضل إلا بالأفكار والأعمال.

وبعبارة أدق: الفكر لا يعترف إلا بالفضل الفكري، الذي هو منطلق العمل الفاضل:

(.... إن أكرمكم عند الله، أتقاكم ....)(٣٧٣)، لأن التقوى فكر قبل أن ينعكس على عمل المتقي.

ولكن (اليهود) ارتكبوا أكبر جريمة شاملة عندما ركزوا الفضل على (العرق)، وجعلوه في صميم دينهم. فباسم الله، وباســم الدين الذي هو موجه الفكر، أوجدوا التصنيف الظالم للبشــر: فصنفوا أنفســهم بـ: (شــعب الله المختار)، وقالوا:

(نحن، أبناء الله وأحباؤه)(٣٧٤). وصنفوا سائر البشر تصنيفاً آخر، وقالوا: (إنهم بذور حشرات). وهكذا .. ربوا في أنفســهم (عقدة العظمة) التي عزلتهم في برج عاجي لا يمكن هدمه — لأنهم جعلوه من صميم دينهم — ، فاســتعلوا على ســائر الناس، وحاولوا اســتعبادهم. فرفضهم الآخرون، وابتدأ الصراع الذي دار — طوال تاريخ اليهود — بينهم وبين جميع البشر من سواهم، ذلك الصراع الحامي الذي ذهب الكثيرون — من اليهود وغيرهم — ضحاياه، والذي نجد ملحمة واحدة من ملاحمه — اليوم — على أرض فلسطين.

ولقد أشعل اليهود هذا الصراع، وقام الآخرون برد الفعل الطبيعي الذي يبديه كل من اضطهد، ودفع اليهود ثمناً غالياً عليهم، ولكنهم هم الذين أوجدوا الفعل فكان عليهم أن يتحملوا ردود فعلهم.

وحيث أوجد اليهود التفاضل العرقي، المرفوض لدى الفكر البشري الموزون، الذي عزلهم في تصور عظمتهم الموهومة، لم يجدوا مخرجاً من عزلتهم إلا بإشاعة التفاضل العرقي في بعض الأوساط، تمهيداً لإسباغ الشرعية على شذوذهم: فأوجدوا (النازية) في الألمان، باعتبارهم شعباً قادراً على فرض شرعية تصوراته على الذهنية العالمية. وأوجدوا (الفاشية) في البسطاء، بالاعتبار نفسه.

وبما أن اليهود لم يتمكنوا من ممارسة تصورهم على سطح المجتمع البشري، توسلوا بالأساليب الملتوية للعمل في الظلام، حتى يوحوا إلى أنفسهم بأنهم (شعب الله المختار)، الذي يتصرف بمقدرات الآخرين: فأشعلوا الحروب والثورات، وأوجدوا المبادئ والأحزاب الهدامة . . .

ولو تتبعنا الأسباب لأكثر مشاكل العالم، لوجدنا مصدرها المنظمة اليهودية العالمية، التي يديرها (النورانيون) – حسب تعبيرهم – .

ولذلك: يروي أن رسول الله أوصى بإخراج اليهود من (جزيرة العرب)(٣٧٥)، حتى لا يكون لهم كيان يكون قاعدة معينة لإثارة المشاكل والفتن بين المسلمين.

واليهود أعدى الناس للمسلمين، لأن الإسلام يضرب ركيزتهم الأساسية في كونهم (شعب الله المختار)، عندما يعطي التصور الصحيح والمفهوم عن معنى الألوهة كـ(واجب)، ويضع البشر في موضعه الصحيح من الله كـ(ممكن). ثم: يوقف البشر – جميعاً – أمام الله صفاً واحداً كأسنان المشط، ويؤسس قاعدة طبيعية للتفاضل هي التفاضل بالفكر:

(. . . . . . إن أكرمكم عند الله، أتقاكم . . . . .)(٣٧٦).

والمشرك: وهو الذي يؤمن بتعدد الإله، أو بتعدد الدافع في الوجود، مثل هذا الإنسان – حيث يؤمن بتعدد الدافع – لا يقدر أن يبقى متماسكاً في خط واحد، وإنما يتعدد خطه بتعدد الدافع الذي يؤمن به. فيعاني انقساماً على نفسه، ويعيش الازدواجية، ويتحطم في نفسه، ويحطم غيره، تماماً . . . كالمتفجر الذي تحطم على بعضه.

★ الكعبة: العظيمة، والمعظمة

(جعل الله (الكعبة = البيت الحرام) قياماً للناس. والشهر الحرام، والهدي،والقلائد).

[سورة المائدة: الآية ٩٧]

١ـ كعب الشيء: مرتكزه الذي ينتصب عليه، والكعبة: هي الركيزة أو القاعدة التي يستقيم عليها شيء. فهل (الكعبة) قاعدة لشيء معين؟

يمكن أن نقول: لعل كلمة (الكعبة) أطلقت على (البيت الحرام) مجازاً، أي: أنها ليست بالفعل قاعدة لشيء، ولكن حيث أن مظهرها يشبه مظهر القاعدة، صحت تسميتها بالكعبة.

ولكن هذا الاحتمال لا يخلو من التسرع في تفسير كلمات السماء، فالأفضل ما ورد من: أن الكعبة قاعدة لـ (البيت المعمور) الكائن في السماء، وهو مطاف الملائكة.

٢ـ البيت: هو المسكن الذي يستعمله الناس لأغراض معيشية، وتكون حرمته في استخدامه من قبل شخص محترم يخلع حرمته على بيته كما يخلعها على سائر أشيائه. وأما البيت الذي لا يستعمل لأغراض سكنية، فلا حرمة له، وإن كانت له قيمة مادية تعادل ثمنه.

و(الكعبة) بيت، ولكنه بيت (حرام)، له حرمة ترفعه فوق الأغراض السكنية، فلا يجوز استعماله فيها. وإنما يجب تنزيهه، والطواف حوله، والتبرك به، والتوجه إليه في العبادات، وفي بعض المعاملات. فهو: (بيت حرام).

وحرمته ليست منعكسة من حرمة الذين يستعملونه ولو لأغراض عبادية، وإنما له حرمة مستقلة عن البشر، فما هو مصدر حرمته؟

١ـ لعل حرمته من رمزيته، كما يستشعر من قوله تعالى في خصوص بيت المقدس:

(... وما جعلنا القبلة التي كنت عليها، إلا لنعلم: من يتبع الرسول، ممن ينقلب على عقبيه ...)(٣٧٧).

فبيت المقدس كان مجرد مقياس لإفراز الناس إلى قسمين:

قسم يواصل مسيرة الحياة وراء الأنبياء.

وقسم مرتجع يتقهقر إلى الجاهلية البدائية.

وإذا كان (بيت المقدس) مجرد رمز لله، يقيس به حركة الناس إلى الأمام أو إلى الوراء، فلعل (البيت الحرام) كذلك، وحرمته – كلها – في رمزيته.

٢. لعـل حرمتـه ذاتيـة، تعتمد على فاعلية روحية مسـتقلة. وإلا فلماذا اختار هذه البقعـة – بالذات – من الأرض، وجعلها رمزه، ومقياسـاً لحركة الناس ؟! وقد جاء في أذان إبراهيم الخليل (ع): (أيها الناس ! كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم(٣٧٨)). فلماذا اتخذ هذا المكان دون سواه؟!

وعندمـا خطـط جبرائيل الكعبة والمسـجد الحرام لآدم (ع)، خـطّ برجله خطّاً في الأرض وقال: (يـا آدم! هذه . . . الكعبة)، ثم خط خطاً آخر وقال: (هذا . . المسجد الحرام(٣٧٩)). فكأن الكعبة كانت قبل تخطيط جبرائيل لآدم، وكذلك المسجد الحرام، وإنما حددهما جبرائيل لآدم. فهل الرمزية سبقت آدم، أو أن شيئاً ذاتياً كان قبل آدم؟؟

يظهر من بعض الحديث، أن لاختيار الله لهذه البقعة – بالذات – رمزه، واتخاذها بيتاً له، لم يكن اعتباطاً – كبقية أفعال الله التي ترفض كل أنواع الاعتباط – وإن كنا لا نعرف أسباب ذلك الاختيار. ولكن في الحديث، إشارات تصلح عناصر لتجميع فكرة:

فمثلاً: الكعبة هي نقطة البدء في تكوين الأرض، أو هي الجزيرة الأولى التي ظهرت من الأرض على سطح الماء.

ومثلاً: عندما نزل آدم في الهند جيء به إلى هذا المكان، وأمر ببدء العبادة. فقبلت توبته، وسمح له بالبدء في مسيرة الحياة.

ومثلاً: أحجار الكعبة غريبة عن تربة (الحجاز)، ولا توجد منها عينة واحدة في جبال (مكة)، وإن كان إبراهيم أتى بها من (جبل أبي قبيس)، ولكن لا توجد عينة واحدة منها في جبل أبي قبيس، فهل خلقها الله بهذه الكمية المحدودة في هذا الجبل واختارها إبراهيم لبناء الكعبة، أو أنها نزلت إلى هذا الجبل وأمر إبراهيم ببناء الكعبة منها؟؟

ومثـلاً: (الحجـر الأسـود) حجر فريد، وقـد تم تحليل عينة منه، فظهـر أنه ليس من نوع أحجـار الأرض، ودعا ذلك الخبراء إلى القول بأنه شـهاب نزل من السـماء. ثم: لماذا اختار إبراهيم الحجر الأسـود وأحجار الكعبة، رغم أنها ليست جميلة المظاهر؟

مـن هـذه العناصر وغيرها، مما نجدهـا في الأحاديث التي تتحدث عن الكعبة والمسـجد الحرام و(الصفا) و(المروة) و(زمزم) و(المشاعر)، نعرف أن لهذه المناطق من الأرض، ولهذه الأحجار – بالذات – فاعليات روحية بالغة الأهمية.

وقـد أدرك الأنبيـاء السـابقون هذه الفاعليـات: فحجوا إلى الكعبة قبـل إبراهيم وبعده، وأمضوا فترة شـيخوختهم بجوارهـا، وأوصـوا أن يدفنـوا في فنائها – حتى مات العشـرات منهم بـين الصفا والمروة، ودفن سـبعون منهم في (حجر إسماعيل) – ، وأمروا أتباعهم بالحج إليها رغم صعوبة السفر إلى مكة والعيش فيها.

ويـدرك هـذه الفاعليـات، كل المتخصصين بالقضايا الروحيـة، حتى من غير المسـلمين. وإن كان الرأي العلمي السائد لا يدركها، لأنه منصرف إلى الفعاليات المادية، ولم يبلغ – بعد – مستوى التعامل مع الفعاليات الروحية.

من كل ذلك نسـتخلص: أن لأحجار الكعبة ومشـاعر الحج فاعليات روحية، ولذلك – ولغير ذلك – اختارها الله كعبة ومشـاعر للمسـلمين، وشـدد على التعامل معها. وإن كان تعامل عامة المسـلمين معها حتى الظهور، يبقى تعاملاً عفويـاً ولا شـعورياً، ولكنها من الأهمية بمكان الضرورات الأولية، التي لا يمكـن أي ارتفاع معنوي بدونها، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، حتى ولو كان التعامل معها لا شعورياً.

وفي الحديـث: ((.. لمـا فرع (إبراهيم) من بناء (البيت)،أمـره الله أن يؤذن في الناس بـ (الحج)، فقال: (يا رب! ما يبلغ صوتي)، فقال الله: (إذن، عليك الأذان وعلي البلاغ). وارتفع على (المقام)- وهو يومئذ ملصق بالبيت – ، فارتفع به المقام حتـى كان أطـول من الجبال. فنادى – وأدخل إصبعه في أذنه، وأقبل بوجهه شـرقاً وغرباً – يقول: (أيها الناس! كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق،فأجيبوا ربكم). فأجابوه – من تحت البحور السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع الـتراب مـن أطراف الأرض كلها، ومن أصلاب الرجال، ومن أرحام النسـاء – بالتلبية: (لبيك، اللهم!، لبيك). أو ترونهم يأتون يلبون؟ فمن حج من يؤمئذ إلى يوم القيامة، فهم ممن استجاب الله)(٣٨٠).

وهـذا الحديث، يشـعر بأن أهمية الكعبة بحيث لم يكتـف الله بتعريض الناس لتجربة الكعبة عبر حكم زمني، وإنما أمر الله نبيه العظيم إبراهيم، أن يعرض كل من يأتي إلى هذه الأرض – حتى يوم القيامة – لتجربة الكعبة، قبل أن يأتوا إليها بآلاف السنين. كما أن الله عرضهم لتجربة (الميثاق) في (عالم الذر).

٣. وإذا صح أن للكعبة فاعلية ذاتية مسـتقلة، ولها جاذبية تسـتقطب الأرواح وتوجهها إلى الأعلى، كما تسـتقطب الطائفـين والمصلـين وسـائر المتعبديـن، أو تبث إشـعاعات روحية، تحرك ذبذبـة العقل في اتجاه مصـدره الأول وهو الله – سبحانه وتعالى –، أو بأي شكل آخر ... فقيموميتها للناس تكوينية أيضاً، وليست مجرد تشريعية رمزية.

فكان من الطبيعي أن تتكاثف تلك القيمومية، وتنطلق منها الحركات الدينية الكبرى:

أ - فآدم (ع)، قبلت توبته هناك، وبدأ حركة الحياة، وحركة الدين في الحياة، من هناك.

ب - وإبراهيم (ع)، بدأ حركته التأسيسية الكبرى من الكعبة، عندما ذهب بإسماعيل وأمه، وأسكنهما في جوار الكعبة.

ج - والرسول الأكرم (ص)، بدأ الإسلام من حجر إسماعيل، ووضع نقطة بدء الكمال بقوله العظيمة: (قولوا: (لا

إله إلا الله)، تفلحوا).

د ـ والإمام الحسين (ع)، بدأ ثورة (التصحيح) من مكة، متوجهاً إلى كربلاء المقدسة(٣٨١).

هـ ـ والإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، يبدأ ثورة (الرجعة الكبرى) من الكعبة، ليلة ظهوره...

★ القدرة = المسؤولية

(يا أيها الذين آمنوا! عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم).

[سورة المائدة: الآية ١٠٥]

الدعاء إلى الله، مفروض على كل إنسان بمساحة قدرته الفكرية: فمن يستطيع توجيه فرد واحد، تنحصر مسؤوليته في فرد ومن تمتد قدرته إلى أهل بيته، يكون مسؤولاً عنهم جميعاً.

(يا أيها الذين آمنوا! قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ...)(٣٨٢). ومن تشمل قدرته قطاعاً واسعاً من الناس، تتسع مسؤوليته بسعة ذلك القطاع:

(خذ العفو) وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين)(٣٨٣).

تكون قدرته عالمية، تكون مسؤوليته عالمية، (وما أرسلناك إلا كافة للناس ..)(٣٨٤).

فالتطابق بين القدرة والمسؤولية أمر واقعي، لا يصح تجاهله إلا بتجاهل النتيجة. فمن يريد أن يدعو إلى الله، وإلى أي هدف، لا بد أن يكون مؤمناً به ملتزماً — أولاً — حتى يكون جاداً في دعائه، وحتى يؤخذ دعاؤه مأخذ الجد: فالإناء ما لم يمتلئ، لا يطفح. والطاقة ما لم تكن متحركة، لا تحرك. والإنسان ما لم يكن متأثراً، لا يؤثر.

وإذا لم يؤمن الإنسان بشيء، فدعاؤه إليه لا يزيده إلا ابتعاداً عنه. وإذا كان مؤمناً به ولم يكن ملتزماً به، فدعاؤه لا يزيد الناس إلا فراراً. وإذا كان مؤمناً به ملتزماً، ولم تتوفر لديه القدرة على التأثير — لقصور في النفس أو تقصير في الغير — ، وحاول التأثير، فلا بد أن يؤثر في الآخرين على حساب التزامه هو، فيتزحزح هو عن موقعه من أجل تثبيت الآخرين على مواقع مماثلة، فيستعين بوسائل غير مشروعة، ومعنى ذلك:

أن يربح غيره على حسابه، وهذا . . ما لم يأذن به الله، وقد قال الإمام علي (ع): (وإني لعالم بما يصلحكم . . ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي)(٣٨٥)، فالمهم إنقاذ الإنسان لنفسه قبل إنقاذ الإنسان لنفوس الآخرين.

وفي مثل هذه الحالة، قال الله تعالى:

(عليكم أنفسكم). لها الأولية والأولوية، إذ لا إيثار في الدين، وإنما الإيثار في الدنيا والاستئثار في الآخرة. فـ (لا يضركم من ضل) عن الصراط المستقيم (إذا اهتديتم) أنتم. فاهتموا بتركيز أنفسكم، وأعطوها الأولوية بجانب العمل لتركيز الآخرين.

❖ سورة الأنعام

مكية

وهي مئة وخمس وستون آية

⋆ جغرافيا الذاتيات والتجارب

(. . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون ❖).

[سورة الأنعام: الآية ٢٨]

التجارب تفيد إفادتين:

١ـ تنمي ذاتيات الأفراد: فمن له موهبة البلاغة، تنمو فيه هذه الموهبة بالتجربة. ومن فيه التواء الكذب، تنمو قدرة التوائه بالتجربة.

٢ـ تصقل ذاتيات الأفراد: فصاحب موهبة البلاغة، تتبلور موهبته هذه، حتى يعطي آخر ما يكمن فيه. وصاحب التواء الكذب، تتشجع قدرته على الالتواء، حتى يتعقد بآخر عقدة يمكنه أن يتعقد بها.

وأكثر من ذلك، لا تفعل التجارب شيئاً. فالذاتيات لا تتبدل، كما أن الخلايا الحية لا تتبدل:

(سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً❖)(٣٨٦):

فالبعوضة لا تغدو نملة، والفيل لا يصبح جملاً، وشـجرة السـنديان لا تتحول سـنبلة قمح، وزهرة الياسمين لا تتبدل صباراً . . .

هكذا . . الخبيث لا يتطور طيباً، والطيب لا ينقلب خبيثاً .وتكرار التجربة، لا يؤدي إلا إلى تكرار النتيجة: فالمؤمن لو عاد إلى الدنيا يبقى مؤمناً، والكافر إن عاد إليها يبقى كافراً. ومهما أعدت الشتل: فشجرة البرتقال تبقى هي . . هي . . والشوك يبقى هو . . هو . . .

★ الموقف الصحيح من الطبقة الثالثة

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشـي يريدون وجهه، ما عليك من حسـابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء، فتطردهم فتكون من الظالمين❖).

[سورة الأنعام: الآية ٥٢]

(ولا تطـرد) يـا محمد! أفراد الطبقة الثالثة من ذوي الدخل المحدود، من وجهك وقلبك، وبالتالي من الإسـلام، تزلفاً إلى أفراد الطبقة الأولى والثانية من أصحاب السلطة والمال والجاه. فالطبقة الثالثة مادة كل حركة نامية أو مستمرة، بينما الطبقتان الأولى والثانية عالة على كل حركة نامية أو مستمرة.

لأن الطبقة الثالثة لا تجد في تركيبها السلبيات الثلاث، فهي:

١ـ لا تجد العمل الذي يملأ فراغها الفكري، ويسـتنزف قدرتها الجسـدية. فتبحث عما يملأ فراغها الذهني، ويعبر عن قدرتها الجسدية المعطلة.

٢ـ لا تجد الترف الذي يرهلها ويخملها، فتبقى قادرة على ممارسة طاقاتها الوفيرة.

٣ـ لا تجـد العلاقـات المكثفـة التي تؤثـر عليها أية كلمة وأية حركـة، حتى تبخل بها، وتحتاط لهـا بالابتعاد عن المجالات التضحوية.

وتجد في تركيبها الإيجابيات الثلاث، فهي:

١ـ تجد الطموح العفوي إلى الظهور والإعلان عن كيانها المستقل، تجاه الذين طالما استعلوا عليها وأنكروا مواهبها وقدراتها. فاستعلاء الطبقتين الأولى والثانية على الطبقة الثالثة، واستطالتهما عليها بالسلطة والمال والجاه، يوجد أن عندها شعوراً بالنقص، يدفعها إلى البحث الدائب عن ما يعوض نقصها، ويرفعها إلى مستوى الطبقتين الأولى والثانية، أو يعلو بها عليهما.

٢ـ تجد الاضطهاد من الطبقتين الأولى والثانية، الذي يدفعها إلى التوسل بكل الوسائل الممكنة، لإلقاء الكابوس عن صدرها.

٣ـ تجد التعاطف بين أفرادها – نتيجة للاشتراك في المأساة والمصير –، فيكونون قريبين من بعضهم، فيعد بعضهم بعضاً، وتستجر فئة فهم الفئات الأخر.

وهذه الإيجابيات الثلاث تولد – لدى الطبقة الثالثة – نزوعاً عفوياً نحو إيجاد المناخ الملائم لتحررها من النقص والاضطهاد، فتجد المقتضي للعمل ولا تجد المانع.

فيما الطبقتان الأولى والثانية بعكسها تماماً، فتجدان السلبيات الثلاث ولا تجدان الإيجابيات الثلاث، فتجدان المانع عن العمل دون المقتضي.

صحيح أنهما يجدان السلطة والمال والجاه، وهي عناصر فعالة في مضاعفة نتائج الحركة، حتى أن حركة الواحد من الطبقة الأولى قد تزيد على حركة ألف من الطبقة الثالثة، ولكن من الصحيح – أيضاً – أن الطبقة الأولى لا يتحرك حتى الواحد منها. فيما الطبقة الثالثة تتحرك برمتها. ولذلك: كانت الطبقة الثالثة تؤلف المادة البشرية العضوية لكل الحركات في التاريخ، بينما كانت الطبقة الأولى تخلي مواقعها – دائماً – بدون مقاومة تذكر.

★ الغيب والشهود

(وعنده مفاتح الغيب، لا يعلمها إلا هو. ويعلم ما في البر والبحر. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض. ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين❖)

[سورة الأنعام: الآية ٥٦]

ـ ١ ـ

أولاً: فصل الغيب:

١- الغيب ضد الشهود. والشهود كل ما يشهد، أي يدرك:

سواء ما يدرك بالمشاعر الظاهرة كالحواس الخمس، أو بالمشاعر الباطنة كالعقول المختلفة: التي منها العقل الظاهر الذي يمكن تسميته بـ (العقل العام)، والعقل الباطن: اللاشعور، والعقل الفطري الموجود في كل الغدد والخلايا.

وسواء منها ما يدرك بالمشاعر البشرية، أو ما يدرك بمشاعر سائر المخلوقات: كالجن، والملاك، والحيوان، والشيطان، والنبات، وربما الجماد – على ما نعتقد من أن لها مشاعر وتكاليف – .

فكل ما يدرك – بأي مدرك – فهو من الشهود. والأشياء التي تلامسها المدارك، طبقة معينة من الموجودات التي تجانس المدارك ولو من وجه. وأما الأشياء التي لا تلامسها المدارك – لدقتها، أو لعظمها، أو لعدم تجانسها مع المدارك – فلعلها أكثر من الأشياء التي تلامسها المدارك ألوف المرات، لأن خلق الله أكثر من كل ما يمكن أن ترمز إليه الأوهام. وكل ما لا تلامسه المدارك، فهو من الغيب.

٢- الغيب لا يعني المغيب، فلعل الله لا يغيب شيئاً عن أحد، لأنه ليس بخيلاً أو فقيراً حتى يستأثر:

(وما هو على الغيب بضنين❖)(٣٨٧). وإنما الغيب مباح، تماماً كالشهود. ولكن استيعاب الغيب لا يتم إلا لمن تتوفر لديه القدرة المناسبة، تماماً كالشهود: فأنت لا ترى ما وراء الحواجز والمسافات، لا لان الله استأثر به، وإنما لأن قدرتك البصرية محدودة بمدى معين، وهي لا تخترق الحواجز والمسافات، فإذا انتقلت إليه رأيت ما هناك. كما أن الأمي لا يستطيع أن يقرأ، لا لأن الله استأثر بقدرة القراءة دونه، وإنما لأنه لم يتزود بالقدرة لها.

وهكذا .. الغيب، مباح. ولكن الاطلاع عليه يحتاج إلى القدرة المناسبة، فمن تزود بشيء من القدرة، توسعت دائرة وعيه بقدرها.

وتتسع دوائر الوعي بارتفاع درجات القدرة، حتى تصل إلى درجة (أولي العزم) من الرسل، الذين تحدث عنهم القرآن:

(عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً❖ إلا من ارتضى من رسول ...)(٣٨٨).

(... وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ..)(٣٨٩).

كما تتضيق دوائر الوعي بانخفاض درجات القدرة، حتى تصل إلى درجة:

(. . أولئك: كالأنعام، بل هم أضل، أولئك: هم الغافلون ❖)(٣٩٠)، بسبب التقصير أو القصور، أو بسبب أمر آخر بين الأمرين.

٣ـ الغيب أنواع، نفهم منها ما يلي:

أ ـ الغيب بالعرض والمشهود بالطبع. كما وراء جدار غرفتك، فأنت تستطيع الاطلاع عليه بخروجك إليه، ولكنه غائب عنك طالما أنت في غرفتك.

ب ـ الغيب عن صنف دون صنف. كعوالم المخلوقات الطاقية، من: الملائكة والأجنة، والشياطين . . فإنها غيب عن الناس الماديين ومشهود للناس الروحانيين، كالأنبياء وبعض الأولياء:

(وكذلك: نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض . .)(٣٩١).

(سبحان الذي أسرى بعبده – ليلاً – من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا . .)(٣٩٢).

ج ـ الغيب عن جنس من المخلوقات دون جنس لوجود السنخية مع هذا دون ذاك. فالمخلوقات الطاقية تلامس أشياء لا تلامسها المخلوقات المادية، والعكس بالعكس. كما أن هناك ذبذبات وتيارات لا تلامسها حواسنا المجردة، وتلامسها الأجهزة التكنلوجية.

د ـ الغيب عن المخلوقات المادية، والطاقية المعروفة لدى البشر. وهو كثير ممن خلق الله ومما خلق الله، وفيه كثير مما هو مفضل على نوع الإنسان.

هـ ـ الغيب العام الذي ليس من سنخه مخلوق. كبعض أسماء الله الحسنى، الذي لم يخرج منه إلا إليه. وبالطبع: لا نعرفه، ولكنا عرفنا – من بعض مصادر الوحي – أن هناك شيئاً أو أشياء، يعبر عنها بـ (بعض أسماء الله الحسنى)، لا تلامسها مدارك أي مخلوقات. ولعلها أهم من جميع المخلوقات، وهي تحيط بجميع المخلوقات ولا يلامسها مخلوق. وهذا . . مقتضى أفضليتها ومفضولية المخلوقات.

٤ـ لكل شيء مفتاح يدجنه ويوظفه، ولولا مفتاحه يكون مارداً جباراً. فمثلاً: للإنسان مفتاح هو اللسان،

وللحيوان مفتاح هو العنف، وللبخار مفتاح، وللذرة مفتاح، وللكهرباء مفتاح، وللاسلكي مفتاح . . كما أن لتسخير الجن مفتاح، ولتسخير الشياطين مفتاح . .

هذا . . بعض ما في عالم الشهود، ومثله: كل عالم من عوالم الغيب.

وفي الأساس: لا يعلم مفاتح الغيب والشهود إلا الله، وقد يعلم عباده وقد لا يعلمهم بشيء منها:

(. . ولا يحيطون بشيء من علمه، إلا بما شاء . .)(٣٩٣).

وحتى الآن . . لم يتعلم البشر إلا قليلاً من مفاتح الأرض، التي هي وحدة صغيرة من عالم المنظومات. وسيبقى متخبطاً في جهله حتى يظهر (بقية الله في أرضه)، فيعلم البشر بعضاً من مفاتح الغيب والشهود، فتشهد الدنيا حضارة في مستوى المعجزات.

ثانياً: فصل العلم الشمولي بالأشياء الظاهرة:

البشر قد يتعلم شيئاً أو أشياء، ولكنه يتعلمها مفردات. كما يرى أشياء، فتنطبع منها في ذاكرته لقطات. ولا يحيط – حتى بالأشياء الموجودة حوله – إحاطة شاملة. بل: وربما لا يحيط – حتى بوحدة وجودية – إحاطة شاملة:

فالإنسان استطاع أن يمسح ظاهرة كرة الأرض، ولكن بقي علمه ناقصاً، لأنه لم يستوعبها بعلمه، وإنما رآها ومسحها. مضافاً إلى: أنه – حتى الآن – لم يستكمل مسحها، فهنالك: مناطق في القطبين، ومناطق مغناطيسية كـ (مثلث برمودا)، وقاعات المحيطات . . . ، لم يتم كشفها، ولا يتوقع أن يتم وبالوسائل العلمية المتاحة له حتى الآن.

والإنسان استطاع أن يدرس جسمه، ولكن هل استكمل دراسته ؟! ودرس الحيوان، والنبات والجماد، وطبقات الجو . . ولكن لم يستكمل دراسة أي شيء منها.

ثم: إنه يدرس النتائج، ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يدرس المقدمات التي تسفر عن تلك النتائج. مثلاً: يرى الغدد الدرقية تعمل بشكل معين، ولكن لا يعرف التفاعلات التي تؤدي إلى عمل تلك الغدد بذلك الشكل. ويرى الأشعة السينية تسير بسرعة كذا . . أما التفاعلات التي تنتج هذه السرعة ، فلم يتعرف عليها الإنسان حتى الآن، ويراقب أوضاع النجوم، ولا يملك المؤهلات لدراسة أسباب تلك الأوضاع. .

ومظاهر النقص في علم الإنسان كثيرة، وأما علم الله تعالى فهو علم شمولي لا نقص فيه ولا فراغ:

(ويعلم ما في البر) كل البر، سواء في ذلك البر على كرة الأرض أو على سائر الكرات.

(والبحر)، سواء أبحر الأرض وسائر الأبحر. بدليل الإطلاق في كلمتي: (البر والبحر).

ثالثاً: فصل العلم الشمولي بالحركات: والتفاعلات المستمرة – البسيطة منها والمعقدة – التي تحدث في الكون، كلها تتم تحت علم الله:

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها). وذكر سقوط الورقة من غصنها، مثل لأدنى التفاعلات. ولنبدأ منها، ونرتفع إلى: تحرك الأمواج والتيارات في الماء وفي الهواء. ثم التفاعلات المختلفة التي تحدث في أجسام الإنسان والحيوان، وفي النبات، وفي الجماد . في كرة الأرض، وفي الفضاء، وفي الأجرام الفضائية، وفي ما وراء الفضاء. وفي عوالم الأرواح وغيرها . . مما لا نعرف شيئاً من أسمائها ومواصفاتها.

رابعاً: فصل العلم الشمولي بالأشياء الباطنة: وما في الأعماق من الوحدات الثابتة والمتحركة: كم حبة رمل في بطن الأرض؟ كم قطعة ماس؟ وكم لحمة معدن؟ . . وبأي الأحجام؟ وبأي الأوزان ؟ . . وإلى آخر ما في باطن الأرض بكمياتها وكيفياتها.

ثم: هل أرضنا هذه . . هي كل الأرض أو هنالك أرضون؟ وما فيها من أشياء . . وأشياء . .؟

(ولا) توجد (حبة في ظلمات) بواطن (الأرض) إلا يعلمها الله.

خامساً: فصل العلم العام:

(و) باختصار: (لا) يوجد شيء (رطب) وهو السائل، أي: غير متماسك الأجزاء. (ولا) يوجد (يابس) وهو الجامد، أي: متماسك الأجزاء. (إلا) يعلمه الله بكل خصوصاته وتطوراته. ولا ينتهي الأمر عند علم الله به، وإنما كل شيء – من ذلك – مدروس وخاضع للإحصاء والتسجيل (وفي كتاب مبين❖).

ـ ٢ ـ

١ـ هذه الآية مكرسة لتفصيل علم الله، فكأنها تشرح قوله:

(إن الله بكل شيء عليم ❖)(٣٩٤). ولعل هذه الجملة، أشمل دلالة من تلك الآية بفقراتها الخمس. ولكن حيث

أن الناس لا يستوعبون – عادة – دلالات الجمل الشمولية، وربما يفسرونها بالمبالغة، كانت الحاجة ملحة إلى مثل هذه التفاصيل، للتركيز على كل مجموعة من مجموعات العلم، حتى لا يتوهم تهرب أية مجموعة منها من علم الله.

٢. و(لا) هنا من الإشارة.

★ كيف تنجح فكرة في الحياة؟

(. . . . قل: (الله)! ثم: ذرهم في خوضهم يلعبون❖)

[سورة الأنعام: الآية ٩١]

١. إن كلمتك قوية، فكن واثقاً منها:

يكفيك أن تقول: (الله)!

يكفيك أن تزرع كلمتك في المختبر وتتركها تنمو وتنشر على غيرها بمقدار ما لها من ذاتية، وينحسر غيرها عن طريقها بمقدار ما يفتقر إلى الذاتية.

يكفيك أن تطرح كلمتك في سوق الفكر، وتدعها تتصارع وتتغلب. فقل – أنت – كلمتك، وامش. فكلمة الله قوية، لا تحتاج إلى أن تضفي قوتك عليها لتنتصر، فتلح على الناس بقبولها. فهي ليست كالكلمات العجفاء، التي لا تستطيع الحراك، وتكتسب حرارتها من حرارة قائلها.

وهذا . . شأن كل من كان مؤمناً بقوة فكرته، فهو لا يلح على تنفيذها، وإنما يكتفي بإعلانها. بخلاف من كان عارفاً بضعف فكرته، فهو يلح على تنفيذها، لأنه يعلم أنها بدونه تنهزم.

٢. إن كلمتك ليست ترفاً ولا عبثاً، وإنما هي حياتية، تحاول تطوير سلوك الناس أفراداً ومجتمعات. وكل كلمة حياتية – مهما كانت قوية – لا يمكن أن تمتلك الآفاق فور إطلاقها، وإنما تستهلك: مساحة زمنية قبل أن يطمئن إليها المجتمع، ومساحة زمنية قبل أن تنتصر في الصراع الذي هو طبيعي في كل تغيير.

فللناس مصالح يحرصون عليها، والأفكار الرئيسة في المجتمع تنظم مصالح الناس في مجاري معينة، ونقل تلك

المصالح من مجاريها المألوفة إلى مجاري جديدة لا يكون إلا بعد التأكد من أنها أيسر من المجاري السابقة. وهذا التأكد لا يحصل إلا بعد تجارب عديدة متشابهة في الإنتاج، ولتكن التجارب كلها ناجحة ومتشابهة في الإنتاج – كما هو واقع تجارب الحق –، ولكن جريان تلك التجارب على أرضية الأفراد وفحص الآخرين لها يستهلكان مساحة زمنية.

وعندما اطمأن المجتمع إلى فكرة: يتسارع أصحاب المصالح الخفيفة إلى التحمس لها بدافعين، دافع الإيمان بالفكرة، ودافع التحول من نقطة ضعف إلى نقطة قوة. بينما يتلكأ أصحاب المصالح الثقيلة للاطمئنان أكثر .. فأكثر .. وحتى يحصل لهم ذلك الاطمئنان، يحاربون الفكرة الجديدة، ويكيل لهم المؤمنون بها الصاع صاعين: صاع المصلحة الجديدة وصاع الثأر على ما عانوا من أولئك قبل تقويهم بالفكرة الجديدة. وهذا الصراع يستهلك مساحة زمنية، قبل أن ينهزم أصحاب المصالح الثقيلة، أو يطمئنوا إلى الفكرة الجديدة فينضووا تحتها.

فعلى أصحاب الأفكار الجديدة – إذا كانوا واثقين منها – أن لا يركضوا خلفها لاهثين، وإنما يكفيهم إطلاقها بصوت جهوري مفهوم للجميع. ثم: يعتزلوا: حتى يفحصها الناس، ويؤمن بها فئة، وينشب بينها وبين الفئات الأخر صراع، ويمر الصراع – طبيعياً، وبأقل التضحيات – ريثما يتم نقل المصالح من مجاريها المألوفة إلى المجاري التي تشقها الفكرة الجديدة. ثم: يعودوا، لقيادة الناس بتوجيه الفكرة.

وهكذا .. فعل النبي الأكرم – وقد جاء بالإسلام – يوم هاجر إلى (الشعب)، ويوم هاجر إلى (الطائف)، ويوم هاجر إلى (المدينة المنورة). غير أن جذرية الإسلام، أدت إلى عسر ولادة القناعة في النفوس، فأحوجته إلى هذه الهجرات.

وهكذا .. فعل أمير المؤمنين – وقد جاء بفكرة التركيز – يوم اعتزل (الخلافة) خمساً وعشرين سنة.

وإذا استعجل صاحب الفكرة، فإنه لا يستطيع طي الزمان، وإنما يمر كل شيء في مجراه الطبيعي. وهو – وحده – الذي يدفع الثمن: من مجتمعه، إذا كان في موقع قوة، حيث يضحي بالكثير منه. ومن نفسه، إذا كان في موقع ضعف، فيبعد أو يسجن أو يقتل ... حتى يتم نقل المصالح تدريجاً، وكما لو لم يستعجل.

وبصيغة ثانية:

إن اعتراف أي مجتمع من المجتمعات، بفكرة حياتية، يتوقف على توفر أربعة عوامل على النحو التالي:

-١ الإيمان بالفكرة، من قبل عناصر من صميم ذلك المجتمع.

-٢ الثقة في سلامة القرار بتنفيذ الفكرة، بمعنى الثقة بالقيادة المتولية لتنفيذ الفكرة.

-٣ الثقة في المنفذين، بوجود أجهزة مقتدرة تملك حمل القرار من القيادة، لوضعه على الواقع الذي يسعى إلى تغييره.

-٤ التطابق بين ثقل الفكرة وحجم القدرة، بأن تكون العناصر المكلفة بالتغيير قادرة – بالفعل – على التغيير، بالإمكانات أو بالتضحيات.

أما تكليف مجتمع من المجتمعات، بتنفيذ فكرة تفوق طاقاته، يعني تحويل الكفاح إلى عملية إهدار للطاقة، واستنزاف لوسائلها، لتحقيق هزيمة. فإذا أراد مجتمع من المجتمعات، تنفيذ فكرة تبدو – للوهلة الأولى – ضخمة وهائلة، فإن عليه – قبل كل شيء – طرح الشعور بالعجز، والتحول من نقطة المواجهة، لتفتيت جبهة العدو إلى جبهات، والكر عليه من نقطة ضعف.

⋆ مواصفات القرآن

(وهذا . . كتاب أنزلناه، مبارك، مصدق الذي بين يديه، ولتنذر (أم القرى) ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة: يؤمنون به، وهم على صلاتهم يحافظون❖).

[سورة الأنعام: الآية ٩٢]

١ـ القرآن لا يؤخذ به كتاباً مقدساً، بالمعنى المتحجر المبهم للمقدس الذي يساوي المحترم. ولا يتبرك به، بالمعنى المحدود العاجز للتبرك الذي هو التمسح.

فهو محترم، ولكن ليس محترماً فحسب. ويتمسح به، ولكن لا يتمسح به فقط. إنه مقدس، بالمعنى الصحيح للمقدس، وهو ما فوق الشبهات. ومبارك، بالمعنى الصحيح للمبارك، وهو المتنامي المتصاعد بتصاعد الزمان.

٢ـ وليس القرآن ترفاً روحياً، أنزله الله ليملأ الفراغ الروحي للإنسان، حتى لا ييأس ولا يشبع من الحياة، : فيهرب منها هروباً مؤقتاً بالسكر، أو هروباً دائماً بالانتحار.

صحيح أنه يملأ الفراغ الروحي، ولكن ليس لملء الفراغ الروحي وحده، وإنما يملأ كل فراغات الإنسان الذاتية والحياتية.

إنه كتاب، ولكنه كتاب يقيم تفاعلات الإنسان مع الموجودات، ويوجهه إلى النوعية الصحيحة من التفاعل، حتى لا يرتطم بنفسه أو بغيره، فيتفجر أو يفجر.

ويفسر له القسم الذي يحتاج إلى التعامل معه، من الكون والحياة، وما وراء الكون والحياة، حتى يتعامل معه برؤية واضحة، ومعرفة صادقة.

وها . . . . هو القرآن، يحدد مواصفاته:

أ - إنه كتاب أنزله الله، الذي هو مصدر الكون والحياة والإنسان، وما وراء الكون والحياة والإنسان. فهو متطابق – تطابقاً كلياً ودقيقاً – مع المحركات للخلائق، ومع ذاتيات الخلائق كلها. فليس توجيه خبير أو عليم، وإنما توجيه خالق وجه كل شيء تكويناً، وها هو يضم التشريع إلى التكوين، فيوجه تشريعاً أيضاً، حتى يأخذ الإنسان مداه من الرشد، باعتباره المخلوق المفضل، والحاكم على جملة من المخلوقات: (وهذا . . كتاب أنزلناه).

ب - إنه كتاب مبارك: فليس كتاباً محلياً ينتهي زحفه عند حدود قطعة من الأرض، أو قطاع من البشر. وليس كتاباً مرحلياً، يستنفد أغراضه بتمرير البشر عبر مرحلة معينة، وتسليمه إلى مرحلة أخرى. وإنما يتصاعد مع البشر والحياة، فيتفتح لكل جيل . . ومرحلة . . عن أفق متناسب معهما، كما يتفتح العقل البشري لكل جيل . . ومرحلة عما يناسبهما.

ذلك، أن للحياة ولكل ما في الحياة، مديان:

مدى شخصي لكل شيء، وهو عمره الذي سرعان ما ينتهي، كمدى إنسان معين، أو شجرة بذاتها، أو صخرة بعينها . . . فإن لكل واحد من هذه الأشياء، عمر محدد لا يتجاوزه.

ومدى نوعي، كان قبله، ويستمر عبره وبعده، بتسلسل التوالد: فهذا الإنسان المعين، إن كان مداه الشخصي عشرات السنين التي تحدد عمره، فمداه النوعي ملايين السنين التي تحدد عمر الإنسان على الأرض. وتلك الشجرة بذاتها، إذا كان عمرها الشخصي أشهراً أو سنوات قصار، فإن عمرها النوعي قرون . . وقرون . . طوال. وهكذا . . تلكم الصخرة، وكل شيء.

ولعل هذا من الفوارق الأساسية بين مخلوقات الله ومصنوعات الإنسان، فمخلوقات الله تتكاثر وتتسلسل بفعل التوالد. بينما مصنوعات الإنسان تستهلك ولا تتسلسل، لأنها لا تتوالد.

والقــرآن – باعتبــاره مــن مخلوقات الله – لا يســتهلكه الزمان، وإنما تتكاثر وتتسلســل مفاهيمه، فيجاري بقية المخلوقات في ديمومتها واستمراريتها، حتى يتلوه كل جيل وكأنه نزل خصيصاً لذلك الجيل بالذات، ويتفاعل مع كل حقبة وكأنه إيماءة السماء إلى تلك الحقبة بعينها: (مبارك).

ج - إنه كتاب جاء تكملة وإطاراً لكل الكتب السماوية.

فأولاً: يؤكد أنها صادقة، تحمل رسالات السماء.

وثانيــاً: يفــرز موادهــا، فيحدد مفاهيمها الثابتــة، ويحدد مفاهيمها المرحلية. فأخوة رســالات الســماء، تفرض على السابقة منها أن تعبئ الرأي العام للاحقة، وتفرض على اللاحقة أن تؤكد السابقة .

ولا يناقض هذه الأخوة، وجود مفاهيم أو أحكام مرحلية، تنتهي بانتفاء مقتضياتها أو مواضيعها:

(مصدق الذي بين يديه).

د - إنــه كتــاب يختصر طريق التقدم، فيضع أمام البشــر الحلول التي لولاه لكان عليــه أن يطعم القرون بالضحايا حتى يصل إلى بعضها ولكنه يطوي كل المراحل، ويفتح طريق البشــر في دروب الحياة الشــائكة المتشــابكة، دون أن يكلفه وقتاً أو جهداً:

(ولتنذر (أم القرى) ومن حولها).

★ التوالد العكسي:

(إن الله: فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي . ذلكم: الله، فأنّى تؤفكون؟!❖).

[سورة الأنعام: الآية ٩٥]

تيــار الخــير وتيار الشــر، خطان متجاريان مســتمران في الحياة. فكل مظهر من مظاهر الحيــاة، يتفاعل فيه هذان التياران باستمرار.

غــير أنه قد يطغى تيار الخير على تيار الشــر في شــيء: فتكون الوردة، والأحجــار الكريمة، والصالحون، والمياه

العذبة، وسائر الأشياء الصالحة . . . ولكن يبقى تيار الشر – في كل هذه الأشياء – جارياً لا يكف عن التفاعل، غير أنه يكون ضعيفاً مكبوتاً.

وقد يطغى تيار الشر على تيار الخير في شيء: فتكون الأشواك، والأوساخ، والمجرمون، والسموم، وسائر الأشياء الفاسدة . . ولكن يبقى تيار الخير – في كل هذه الأشياء – جارياً لا يكف عن التفاعل غير أنه يكون ضعيفاً مكبوتاً.

وأي تيار مكبوت، يتكاثر ويتطور – باستمراره في التفاعل –، وتشتد قوة انفجاره، حتى تصبح قادرة على التجسد: فيتعاظم تيار الخير – مثلاً – في نبتة الشوك، حتى يتفجر وردة. ويتفاقم تيار الشر – مثلاً – في نبتة الورد، حتى ينفجر شوكة.

وفي المجتمعات الشريرة من البشر، يتعاظم تيار الخير، حتى يتفجر رجلاً مصلحاً. وفي المجتمعات الطيبة، يتفاقم تيار الشر، حتى يتفجر رجلاً مفسداً.

وبمقدار ما تكون قدرة الكبت في التيار الغالب، تكون قوة الانفجار في التيار المغلوب. لأنه لا يمكن انفجاره إلا بعد أن يتجمع فترة طويلة، حتى تصبح قدرته متعادلة مع قدرة التيار الغالب، حيث يعجز عن ضبطه.

فيكون الطيب المتفجر من المجتمعات الشريرة، مكرر الطيب. ويكون الخبيث المتفجر من المجتمعات الطيبة، مكرر الخبث.

والأنبياء والمصلحون العظام، انفجروا من مجتمعات متناهية الانحراف. والمجرمون والمفسدون الكبار، انفجروا من مجتمعات متناهية الاستقامة.

وبقدر انحراف المجتمع تكون استقامة مصلحه، وبقدر استقامة المجتمع يكون انحراف مفسده.

وكان النبي (ص) أعظم الأنبياء، بدليل أن المجتمع الجاهلي أسوأ المجتمعات. ويصح العد العكسي: فالمجتمع الجاهلي أسوأ المجتمعات، بدليل أن نبيه أعظم الأنبياء. والدليل على أعظمية النبي، رسالته التي وقفت على قمة الزمان.

★ الحوار المنطقي، لا السّب

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدواً بغير علم).

[سورة الأنعام: الآية ١٠٨]

يا أيها المؤمنون!

(لا تسبوا) الآلهة المزعومة (الذين يدعون من دون الله)، رغم أن الإسلام جاء لتحرير الإنسان من أساطير الآلهة المزعومة، وتوجيهه إلى الإله الواحد. ولا تسبوا الأصنام، رغم أن أسمى جهاد المسلم هو تحطيم الأصنام.

فأنتم مدعوون إلى: تسفيه الآلهة، وتحطيم الأصنام. ولكن لا تسبوها، لأن:

١ـ السب تنفيس عاطفي، وليس عملاً يحقق هدفاً . والإسلام لا يريد المسلم عاطفياً، يجيش، فيبحث عن منفس يفرغ به عاطفة الكراهة التي تغلي في صدره، ثم يتصور أنه قد أدّى رسالته، دون أن يكون قد عمل شيئاً. بل على العكس، أسفّ إلى مستوى الرعاع.

وإليك — بهذا الصدد — الرواية التالية:

((خرج (حجر بن عدي) و (عمرو بن الحمق) يظهران البراءة من (أهل الشام)، فأرسل علي (ع) إليهما أن: (كفّا عما يبلغني عنكما). فأتياه، فقالا: (يا أمير المؤمنين! ألسنا محقّين)؟! قال: (بلى). قالا: (فلم منعتنا من شتمهم)؟ قال: (كرهت — لكم — أن تكونوا لعّانين شتامين، تشتمون وتبرأون. ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا .. وكذا .. ومن أعمالهم كذا .. وكذا ..، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر. و[لو] قلتم — مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم — : اللهم! احقن دماءهم ودماءنا، وأصلح ذات بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق — منهم — من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان — منهم — من لجّ به، لكان أحب إليّ، وخيراً لكم). فقالا: (يا أمير المؤمنين! نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك)(٣٩٥))).

فالإسلام يكره للمسلم، ويكره الإمام لأصحابه، أن يكونوا سبابين يلخصون رسالاتهم في ألفاظ نابية يقذفونها في الفراغ، وهم يحسبون أنهم أنجزوا كثيراً، لأنهم قالوا ما لم يقله غيرهم، أو ما لا يجرؤ عليه غيرهم.

٢ـ السـب، بطبيعة كونه تنفيسـاً عاطفياً، يخفف من زخم الاندفاع: فالذي لا يسـب، يندفع بدافع العاطفة وبدافع الفكر في اتجاه هدفه. والذي يسب، يفرغ بالسباب طاقته العاطفية، فلا يبقى لديه من وقود يحركه نحو هدفه سوى الفكر، والفكر بدون العاطفة أضعف من الفكر مع العاطفة، فالسباب يستهلك من وقوده دون أن ينجز شيئاً.

٣ـ السـب وإن وجه إلى الأصنام – التي تسـتحق أكثر من السـب –، إلا أن عدواه يسـريه إلى غيره. فإن الإنسان إذا اعتاد عملاً مكرسـاً في ا تجاه، فسـرعان ما يحل الغضب رباط تكريسه، فيعدو به إلى غير ذلك. ومع تواتر الأحداث المثيرة، يصبح سبّاباً، يسب كل شيء .. وكل أحد .. والإسلام يربأ بالمسلم عنه.

٤ـ السـب – بطبيعـة كونه تنفيسـاً عاطفياً – يؤدي إلى رد فعل معاكس من الطـرف الآخر،من باب المقابلة بالمثل. وهذا .. غير صحيح لسببين:

الأول: أن تعريض المؤمن مقدساته لإهانات الكفار، من أجل التنفيس عن غيظه، إسفاف بها. وعلى المؤمن أن يبرر كظم غيظه بصيانة مقدساته، لا أن يبرر تعريضها للإهانة بالتنفيس عن غيظه:

(فيسبوا للّه عدواً) بمرض العدوى، (بغير علم) بما يجرون على أنفسهم من سب اللّه.

الثاني: أن المعارك الكلامية تهدر النشاطات التي لا بد من استثمارها في معارك عملية، لأنها الفاصلة، وأما المعارك الكلامية فملهاة – أو منساة – تجهض المعارك العملية الهادفة.

وإذا كان القرآن ينهى عن المعركة ضد الآلهة المزعومة، حتى عن أقل المعركة الكلامية الذي هو السب، اتقاء أن يؤدي – بأسلوب رد الفعل – إلى تطاول الكفار على اللّه، فكيف يمكن القضاء على الآلهة ا لمزعومة؟

إن محاربة الآلهة المزعومة، أو أي هدف آخر، تكون بطريقتين:

الطريقة الأولى: طريقة المجابهة. وهذه .. طريقة تقليدية، قد تسـتخدم حتى في المعارك السـاخنة. حيث يصطف الجانبان المتحاربان، ويتلاحمان وجهاً، ويقدمان الضحايا بسخاء، حتى ينتصر جانب على جانب.

الطريقة الثانية: طريقة الالتفاف. وهذه .. طريقة أحدث من تلك، وكثيراً ما تستخدم في المعارك الساخنة أيضاً. حيث يخلي جانب موقعه، ويتحول إلى موقع مجهول، حتى إذا زحف الجانب الآخر زاعماً أن خصمه اندحر، طلع ا لجانب الأول من موقعه المجهول، والتلف حول خصمه، وأحكم عليه الحصار بحيث لا يجد إلا الاستسلام.

وكمـا في المعارك العسـكرية، كذلك في المعـارك الفكرية: فقد يبدأ المناقش بنقطـة ارتكاز الطرف الآخر، فيسـخفها بحيث يثير عناده، ثم يظل يبادله الحجة حتى تنفذ حججهما، فيتراشـقان بألفاظ حادة تعمق الشـقة بينهما، وهذا . . أسلوب يؤدي إلى تعنيد الطرف الآخر.

وربمـا يتجاهـل المناقش نقطة ارتكاز الطـرف الآخر، ويبدأ الحديث من موقع يجهل الطـرف هدفه فيتجاوب معه، ويسـير معه خطوة . . خطوة . . نحو نقطة ارتكازه، ويرتب المقدمات التي تنتج بطلان نقطة ارتكازه، ويقف المناقش عند هذا الحد ليقول الطرف الآخر خلاف نقطة ارتكازه.

وهذا الأسلوب هو أسلوب التوجيه غير المباشر، الذي ينتج وبلا شجار.

وإلى هـذا . . يوجـه القـرآن حيث يمنع عن سـب الآلهـة المزعومة، فيريد من المسـلمين أن يرتبـوا – في حوارهم مع الكفـار – كل المقدمـات التي تنتهي بإثبات زيف الآلهة المصنوعة، وتركهم يسـتنتجون زيفها، بل وتركهم يحاربونها ويحطمونها.

سورة الأعراف

مكية

وهي مئتان وست آيات

★ عوامل الهبوط إلى الأرض

(فلما ذاقا الشجرة، بدت – لهما – سوءاتهما . . .).

[سورة الأعراف: الآية ٢٢]

سؤال:

في بعـض الحديـث: (أن معصيـة آدم (ع) كان أنـه اطلع على منزلة أهل البيـت (ع)، فتمناها، فعقوب بالطرد من

الجنة كلياً)(٣٩٦).

فهل يعاقب الإنسان على تمنياته؟

جواب:

١ـ إن الأنبياء (ع) بما لهم من معرفة واسعة، وإيمان واضح – يفترض فيهم أن يكونوا ملتزمين بخطهم، لا في أعمالهم فقط، وإنما في آمالهم أيضاً. فتمني ما ليس من حقهم، خروج عن خطهم. كما أنك تعتبر خارجاً عن خطك، إذا تمنيت ما ليس من حقك – في الأمور التي تعرفها بوضوح – .

مثلاً: لو اطلع أخوك على أنك تمنيت زوجته، أو اطلع أبوك على أنك تمنيت أن تمسك بيدك تيار الكهرباء أو تسقط نفسك من شاهق، فإنه سيعاقبك، أو يعاتبك – على الأقل – .

-٢ إن الجنة، هي مكان الاستقرار الكامل، وليست ميداناً للصراعات البشرية، لا يستحقها الذين لا زالوا يعانون الأزمات النفسية. وتمني ما ليس بحق، نوبة نفسية، تعبر عن هاجس غير صحي. وهذا الهاجس إن لم يقمع بقوة، يمكن أن يتعشعش وينمو، حتى يصبح قوة تدفع صاحبها إلى السطو على ما ليس له. ومجرد السماح بالاعتداء، يكهرب الجو، ويعرضه لشتى الاحتمالات التي تنافي وضع الجنة.

٣ـ إن آدم، باعتباره صاحب ولاية في مستوى معين، لو تمنى مكانة أهل البيت وهم أصحاب ولاية في مستوى أعلى، فإن مجرد تمنّيه تلك المكانة تجاوز خطير، يشبه تمني رئيس وزراء مكانة رئيس جمهورية بلاده، فيؤدي إلى مضاعفات كثيرة. إضافة إلى: أن هذا التمني، يساوي عدم استيعاب أو عدم اعتراف بمعادلة الصلاحية بالإمكانية. وإلغاء معادلة الصلاحية بالإمكانية – ولو في مجال التمني – يؤدي: إلى الشعور بالغبن في جهته، وإلى الشعور بالمحاباة في الجهة الأخرى، وإلى عدم الالتزام بمستلزمات صلاحيته...

★ الدعاء

(ادعوا ربكم، تضرعاً وخفية، إنه لا يحب المعتدين❖ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين❖).

[سورة الأعراف: الآيتان ٥٥ ـ ٥٦]

(ادعـوا) المسـلمون! (ربكم)، ولا تدعو غـيره. فربكم: أقرب إليكم، وأقدر على تلبية مطاليبكم، من سـواه. فـلا تتواضعـوا بدعائكم إلى البعيد العاجز، وارتفعوا به إلى القريـب القادر، الذي تولاكم ورباكم – منذ البدء – دون سواه.

وفي اسـتخدام كلمة: (الرب) للتعبير عن الله هنا، إيحاءٌ بسـابق تربيته للإنسـان، قبل أن يكون قادراً على الدعاء. فهو الأولى برفع المطالب إليه، بعد أن أصبح قادراً على الدعاء. ولكن:

١. لا تدعوه بطراً بأطراف ألسنتكم، دعاء من يستحب المزيد عن حاجته للغنى والترف، بل ادعوه (تضرعاً) بنداءات أعماقكم، دعاء من تلح به الضرورة القصوى. فإن الله قد لا يصيخ إلى دعاء اللسان، وإنما يلبي دعاء القلب.

٢. ولا تدعوه جهرة، دعاء من يطلب الناس بما يطلب به الله. فكأنه يرجو الناس ولا يرجو الله، أو يرجو الله ولكنه لا يرجوه وحده، وإنما يرجوه والناس معاً، حتى كأنه لا يطمئن إلى الله وحده لمطالبه.

بل ادعوه (خفية)، دعاء من يسر بمطالبه إلى الذي ليس له سواه. فـ (إنه) يحب المتمحّضين له، و(لا يحب المعتدين❖) على جلال ربوبيته، بإشراك الناس معه في الدعاء، أو بتمحيض الناس بدعائه.

ذلـك: أن مـن لـه مطلب، قد يكون قادراً على تحقيقه، فيسـعى إليه بالعمل الذي يحققـه: كمن يريد الانتقال من مكان إلى مكان، فيتحرك في اتجاهه، أو يستقل المركب المناسب لقطع المسافة بين المكانين.

أمـا مـن لـه مطلب يعجز عن تحقيقه، فيتوسـل – عن طريق الدعـاء – بقدرات غيره لتحقيقه، وإذا أخرج الإنسـان مـن قدرتـه – هو – فالأقوى الأولى هو الله، الذي حقق وجـوده، وتولاه في جميع مراحل حياته. فالله، هو الذي يهب بلا اسـتحقاق، وبدون انتظار جزاء. وأما الآخرون، فإنهم تجار، يتبادلون عملاً بعمل أو مالاً بمال، ويترابون فيما يتبادلون. وحتى الآباء والأمهات، الذين قد يبدو أنهم يعطون عطاءً مطلقاً وبلا حدود، فإنهم:

١. إنما يعبرون عن عواطفهم، فعطاء الآباء لأبنائهم يشـبه عطاء الزوجين لبعضهما، فكل منهما يعطي دفئاً فائضاً ليأخـذ دفئاً ناقصاً يشـكو من نقصه. فمن يعطي لابنه، إنما يملأ فراغ الأبوة في نفسـه، فليـس عطاءً مطلقاً. ثم: هو يعطـي بمقـدار مـا يملأ فراغه لا أكثر، ومن ثم نجد أن من يجد أبنـاء عديدين، لا يعطي لكل واحد بمقدار ما يعطي الأب لوحيده، لأن الأول يملأ فراغه بمجموع أبنائه، فيما الثاني يحاول أن يملأ فراغه بوحيده.

٢. إنمـا يعطـي بأمل أن يأخذ البدل في المسـتقبل، فهو يبادل، وإن كان الطرف الآخـر – وهو الابن – قد يخون أمل والده، فلا يدفع البدل.

٣. إنما يعطي للتنفيس عن عقد معينة: كعقدة الخوف من الفناء بموته، فيحاول تمديد نفسه في الحياة عبر ابنه. وكعقدة الوحدة، فيحاول أن يكثر بأولاده. وكعقدة الخوف من غيره، أو من الشيخوخة، فيحاول أن يقوى بأبنائه.

٤. إنما يعطي بدافع الخوف من الدين، أو العرف والعادة. ولذلك: نجد الآباء في المجتمعات المنحلة، لا يعطون لأبنائهم ما يعطيه الآباء لأبنائهم في المجتمعات الملتزمة. وقد يأتي وقت لا يعطي فيه الآباء لأبنائهم شيئاً. وقد يستأجرون للإنجاب. فلا يتحملون الإنجاب إلا ببدل.

ثم: إذا لم يستجب الله دعاءكم، فليس السبب من قبله، فهو السميع لدعوات عباده، القادر على تلبية مطالبهم. وإنما السبب من قبلكم:

فلعل مطلبكم يضر بكم وأنتم لا تعلمون، أو لعل توقيتكم له غير مناسب، أو لعل دعاءكم شفوي لا يستجاب ... فلا تحاولوا تحقيقه بأية وسيلة كانت، ولا تتجهوا له نحو الانحراف، (ولا تفسدوا في الأرض) وخاصة: (بعد إصلاحها) من قبل غيركم.

فالإفساد في الأرض – بتبرير الوسيلة في سبيل الغاية – كبيرة، حتى ولو درج عليه الناس وتعودوه، ولكن سنه وابتداعه أكبر من الاستمرار فيه.

وعلى أية حال: لا تنتقلوا إلى السلبيات، ولا تنسفوا الإيجابيات التي بناها غيركم، في سبيل كسب إيجابيات جديدة، فالسلب لا يولد الإيجاب، بل استمروا في الخط الإيجابي. ولكن صعّدوا إيجابية المحاولة، فهنالك الكثير من المطالب التي لا تحقق بدرجة معينة من النشاط، لأنه يحتاج إلى المزيد من النشاط.

(وادعوه) دعاء القلب والفكر والعقل، بأقصى الإيجابية (خوفاً) من أني يجرفكم مردود السلبية، (وطمعاً) في أن يثمر الإصرار على الإيجابية.

فـ (إن رحمت الله قريب من المحسنين❖)، الذين إن ضاقت بهم طريق لا يتنكبونها، بل يبحثون عن طريق أخرى.

فالإيجابيات هي التي تثمر، وأما السلبيات فإنها ردود فعل تفرغ شحنة الغضب، ولكنها لا تولد طاقة، ولا تفرز عطاءً. فالفشل في الإيجابية، يعالج بالمزيد من الإيجابية. واليأس من الحياة، جهل بأبعادها، فرحابها لا تضيق بأحد، وإنما تضيق به نفسه فيظن الحياة قد انطبقت عليه.

ثم: إن الدعاء، هو التوجه إلى الله بالمطلب الذي قصرت عنه قدرة الإنسان، فله مردودان:

١. مدد الله، الذي يفتح عليه الأبواب المرتجة.

٢. إصرار الداعي على ما عجز عنه، بعد اعترافه بالعجز.

والإصرار بعد العجز، يولد زخماً روحيا جديداً. والزخم الروحي بعد الفشل، يعني تولد إرادة فاعلة، لا تعترف بالهزيمة. وهذا الحافز الداخلي، الذي يتجاوز حدود الطاقة البشرية، هو الذي تتجلى به مواهب الأفراد: علماً، أو قيادة، أو جهاداً في سبيل الحق، أو نبلاً في الخلق والضمير ...

والمشجع الوحيد للحافز الداخلي، هو القلق من الواقع الفاسد الذي يمثله الخوف، أو الواقع الناقص الذي يمثله الطمع. فإذا توفر القلق بشقيه: الخوف والطمع، فإنه يربط صاحبه باللانهاية، ويشده إليها شداً لا تردد فيه ولا تهاون: لينهض به عندما يسكن، ويشجعه عند ما ييأس، ويقويه عندما يضعف.

فكل من انتهج الدعاء خوفاً وطمعاً، سيهتدي إلى ما كمن في الكون من حقائق، وما انتشر في الوجود من تأملات، وانطوى في النفس من أفكار.

★ شعيب: يزاول نبوته

((وإلى (مدين) أخاهم (شعيباً)، قال:

(ياقوم!

اعبدوا (الله)، ما لكم من (إله) غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم.

فأوفوا (الكيل)و(الميزان)، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

ذلكم: خير لكم، إن كنتم مؤمنين❖

ولا تقعدوا – بكل صراط – توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجاً.

واذكروا: إذ كنتم قليلاً فكثركم.

وانظروا: كيف كان عاقبة المفسدين؟!❖)).

[سورة الأعراف: الآيتان ٨٥ ـ ٨٦]

((وإلى مدين أخاهم (شعيباً)، قال: (يا قوم! اعبدوا (الله)، ما لكم من (إله) غيره)). إنكم قد تتخذون (آلهة) غير الله. ولكن مواقفكم من الله، ومن ما تعبدون سواه، لا تغير شيئاً من الواقع. لأن الواقع قائم بما فيه من عوامل القيام، ومحدود أو ملق بحدود أو إطلاق تلك العوامل.

أما مواقف الناس منه، فلا تغير فيه شيئاً، لأن المواقف الفكرية لا تصل إلى العوامل الكامنة وراء كل واقع، ولا تغير حدود أو إطلاق تلك العوامل:

فالشمس تبقى في حجمها وفاعليتها ومدارها، وسواء اعتبرناها (إلهة) أو (خليقة) أو أنكرنا وجودها.

والمال يبقى في موقعه من الوجود، سواء اتخذناه (هدفاً) أو (وسيلة) أو أهملنا شأنه .. وهكذا ..كل شيء.

فالله هو (إله) المؤمنين والكافرين، ويبقى (إلهاً) لكل شيء ولكل أحد، بدون أن تزيده أو تنقصه المواقف.

فاعبدوا الإله الواحد، وانطلقوا من توحيد الله إلى توحيد المقاييس. فالإله الواحد يوحد المقاييس، والآلهة المتفرقة هي التي تفرق المقاييس، للانسجام الكلي بين المصدر والصادر. وطالما اتجهتم إلى عبادة الله الواحد، (فأوفوا (الكيل) و(الميزان)): فقدروا كل شخص وكل شيء بكيل واحد وميزان واحد، وخذوا الأشخاص والأشياء بنظرة واحدة واعتبار واحد، ولا تقيموا الأمور بالاعتبارات الشخصية، بل زنوها بالميزان الموضوعي.

ذلك: أن أكثر الناس يتعاملون مع الأشخاص والأمور بأنفسهم، فكل شيء – عندهم – له ميزان بمقدار ما لهم منه: فهذا الإنسان التافه، عظيم، لأنه لهم. وذلك العظيم، تافه، لأنه ليس لهم. وهذا العمل، جليل، إذا صدر منهم أو ممن لهم. وذلك العمل نفسه، حقير، إذا صدر ممن ليس لهم .. فهم لا يرون غير أنفسهم، ولا يعتبرون شيئاً غيرهم، وكأنما مبدأ الكون هم ـ وإن لم يقولوا ذلك ـ، فهم يضعون المقاييس والموازين، ولكنهم يكيلون كل شيء بكيل ويزنون كل شخص بميزان. وهم – في الحقيقة – لا يكيلون شيئاً ولا يزنون شخصاً، وإنما يكيلون ويزنون مصالحهم وأنفسهم.

هذه الأنانية المتحيزة، هي التي دعا (شعيب) إلى نبذها، وحاول استبدالها بالموضوعية المتحررة: (ولا تبخسوا الناس

أشياءهم).

هكذا .. انطلق (شعيب) بالنظرة العلمية الجذرية، المتجاوبة مع الفطرة الساذجة في النفوس. خاصة: وقد حرك (شعيب) أكثر من وتر حساس، وهو يضع إصبعه على نقاط الضعف في المجتمع المرتبك، الذي يتخم فيه المستغلون على حساب الجائعين:

١. تقدير الأشخاص والأشياء بميزانهم هم لا يميز أنها هي، وفي ذلك: نمط لكرامات وحقوق، ودجل لأشباح وأوهام:

(فأوفوا (الكيل) و(الميزان)، ولا تبخسوا الناس أشياءهم).

٢. التطاول على من يرفض السير في ركابهم والذوبان فيهم، وتوفير المناصب والأموال على من ينقاد لهم ويستسلم لإرادتهم:

(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها).

٣. التوسل بالإرهاب لإجبار الناس بهم، حتى لا يفكر أحد – يوماً من الأيام – بالتمرد عليهم، مهما كان أمرهم حقاً أو باطلاً. لأنهم لا يعملون لحق أو باطل، وإنما يعملون لأنفسهم، فالهدف هم. وليس هناك خط معين يسيرون عليه، أو قضية خاصة يدافعون عنها، فلذلك: لا يناقشون، إذ لا يملكون حجة إلا السيف والسوط، والتوعيد بهما، وقطع الطرقات:

(ولا تقعدوا – بكل صراط – توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به).

★ إيمان وتقوى الزعماء

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا، لفتحنا عليهم بركات من ا لسماء والأرض. ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)

[سورة الأعراف: الآية ٩٦]

هنا .. قد يرتسم سؤال:

١. ما المراد من القرى؟ هل هي جمع القرية، مقابل المدينة؟ أو المراد: المجمعات السكنية التي تشمل القرية والمدينة؟ فـإذا كان المـراد القريـة مقابل المدينة، فيقال: لماذا بين تخصيص أهل القرى من الناس؟ لماذا لم يرد: ولو أن أهل الأرض آمنوا واتقوا؟ ولماذا لم يرد: ولو أن الناس آمنوا واتقوا؟

يمكن أن يقال: أن أهل القرى، هم الأداة المحركة للحياة:

أ ـ لأن القـرى هـي المخـازن التي تحتفظ بالمخزون الاحتياطي من البشـر، فالقرية هي المنبع الـذي يمد المدينة بالدم الجديد، وليست المدينة إلا مجمعاً لروافد القرى.

ب ـ لأن القرى تنجب الأصحاء، من أصحاب الأجسـام السـليمة والنفوس السليمة، التي تستطيع تولي عمليات التغيير والتطوير. بينما المدن تنجب الأشقياء، من أصحاب الأجسام السقيمة والنفوس السقيمة، الذين لا يقدرون على تولي المهام الكبار التي تحتاج إلى القفز والإبداع. ولذلك: كثيراً ما نجد العظماء والعباقرة، من أهل القرى دون أهل المدن.

ج ـ لأن أهـل القـرى هـم قاعدة الإنتاج العريضة، فاليد الـتي تفجر الأرض، وتحرك الآلة – غالبـاً – هي يد القرية، وليست يد المدينة. وأما أهل المدن، فيشيّدون هرمهم الرفيع على هذه القاعدة. فيد القرية هي اليد المنتجة، ويد المدينة هي اليد المتعاملة.

فأهل القرى، هم وسائل فتح أو غلق بركات السماء والأرض – غالباً – .

٢. وإذا كان المـراد مـن القرى، هي المجمعات السـكنية – بالمفهوم اللغوي للقرى وهي المسـاكن – سـواء أكانت صغيرة بدائية، لا تمدن فيها ولا حضارة – حسب المفهوم المصطلح للقرية – أم كانت كبيرة متقادمة، حافلة بالتمدن والحضارة – حسب المفهوم المصطلح للمدينة – ، فيقال: لماذا تخصيص أهل المساكن من بين الناس؟ فلماذا لم يرد: ولو أن أهل الأرض آمنوا واتقوا، ولماذا لم يرد: ولو أن الناس آمنوا واتقوا؟

يمكن أن يقال:أن أهل المساكن، هم الأداة المحركة للحياة:

أ ـ لأن أهل المساكن – قرويين ومدنيين – هم الذين يستطيعون اتخاذ القرارات، في اجتماعاتهم ولقاءاتهم.

وأما أهل البادية، من الرعاة والفلاحين، فيعيشون فرادى، مع قطعانهم وفي مزارعهم، وليست لهم تجمعات تمكنهم من تبادل الرأي واتخاذ القرار.

ب ـ لأن أهل المساكن — في مجملهم — هم المتفرقون للشؤون العامة، الذين يستطيعون متابعة الأحداث، واستيعاب الحركات، تمهيداً لاتخاذ المواقف والقرارات.

وأمـا أهـل الباديـة، فغالباً لا خبرة لهم ولا رأي، حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف أو قرار، وإنما هم يتبعون اليد العليا، والحنجرة الأقوى.

ومهمـا يكـن المراد من: (القرى)، فالمراد من: (أهل القرى) هم محـركات الحياة، من أهل الخبرة والرأي، القادرون على اتخاذ الموقف والقرار. فلو أن هؤلاء (آمنوا)، والإيمان هو الاعتراف والتسليم، بالواقع الكبير، الذي هو واقع الحياة ومصدر الحياة.

فالإيمان لا يكون إلا بأمرين:

الأول: استيعاب فلسفة الحياة ومصدر الحياة، استيعاباً صحيحاً واعياً.

الثاني: الانسجام مع ما استوعب، من فلسفة الحياة ومصدر الحياة.

(واتقوا)، فالتزموا — عملياً — بما اسـتوعبوا، وانسـجموا معه فكرياً، فلم يعاكسـوا تيار الحياة، ولا حاولوا إيقاف حركة ا لكون أو تحريفها.

فلو أن أهل الخبرة والرأي، اسـتوعبوا فلسـفة الحياة، وانسجموا معها فكرياً، وساروا وفقها عملياً، فمن الطبيعي أن تفتح عليهم حصائل السماء والأرض.

وإذا لم يستوعبوا فلسفة الحياة، ولم ينسجموا معها فكرياً ، أو استوعبوها وانسجموا معها ولكن عاكسوها، فمن الطبيعي أن لا تتجاوب معهم حصائل السماء والأرض.

فالذي لا يفهم حركة الطاقات الفاعلة، في الأرض وفي الجو، لا يسـتطيع الاسـتفادة منها. والذي يعاكس حركة الطاقـات الفاعلـة، في الأرض وفي الجـو، لا بد أن يؤخذ بعمله، فيسـحق، ويزاح عن السـاحة، وتسـتمر تلك الطاقات في مجاريها:

فالذي لا يفهم الجاذبية، أو يعاكسها، ويحاول أن يقفز من سطح بناية إلى سطح بناية مواجهة، كما تفعل الطيور، فإن الجاذبية تغلب عليه، ويسقط متحطماً.

والذي لا يستوعب، أو يعاكس طاقة الكهرباء، فيلمس أسلاكها المجردة، كما يلمس الأبواب والجدران، يأخذه عمله، فيصدمه التيار، ويتركه جثة هامدة للقبر.

والذي لا يعي، أو يغالب المواد المخدرة، فيتناولها كما يتناول الطعام والشراب، لا بد أن ينهزم في الحلبة، فيفقد مشاعره وأعصابه.

إنما ينجح في الحياة، من يستوعبها ويجاريها. وأما الذي يناقضها، فليس الله حارساً عليه، لا يؤاخذه بمخالفته، وإنما تأخذه مناقضته ذاته، فعمله يدينه، وفعله عقابه.

فلو أن أهل الرأي والسلطة، آمنوا بواقع الحياة، وتحاشوا تياراتها، لسخروا طاقات السماء، ودجنوا مواهب الأرض. ولكنهم كذبوا واقع الحياة، فكانت أعمالهم ويلات تصفعهم، وعقوبات لا يجدون عنها مهرباً.

فيكون المستفاد من هذه الآية: لو أن الواعين من الناس، استفادوا من الوحي في فهم الحياة، ولم يناقضوها، لتفتحت عليهم. ولكنهم كذبوا الوحي، فلم يفهموا الحياة، وناقضوها، فسحقتهم.

ويمكن أن نتجاوز كل ذلك، في فهم الآية، إلى ما هو أعمق، وهو:

كما أن للحياة واقعاً، من يناقضه يتحكم به، هكذا.. فوق الحياة واقع أعلى، وهو إرادة الله: فالجيل الذي يتكيف بها، وينسجم مع تيارها، ينجح في الحياة، مهما قصرت به الوسائل. والجيل الذي يناقضها، يتحطم على صخرتها، فالأجيال المؤمنة، في صدر الإسلام، سعدت وتقدمت، حتى قادت العالم، رغم بدائيتها. والأجيال المعاصرة، التي حاولت الاستغناء عن السماء، شقيت وتأخرت عن ركب العالم، حتى أضحت دويلات مستعمرة، رغم حضارتها، وتراثها، وثرواتها، واستراتيجيتها...

إن في تاريخ العرب درساً بليغاً: فالعرب البدو الشتات، عندما طمحوا إلى السماء،خضعت لهم الأرض، وحينما تحضروا، وسادوا، وظنوا أنهم هم القدرة الفاعلة في العالم، وركزوا مطامحهم في الأرض، تقلص من فوقهم ظل السماء، وانسلت الأرض من تحت أقدامهم، حتى تجمع شذاذ الآفاق، من اليهود الأذلاء، فاغتصبوا بلادهم، وتلاعبوا بمقدراتهم، وجعلوا منهم لاجئين في المخيمات: تحت سماء لا ظل لها، وفوق أرض تتقاذفهم...

وهذا.. دليل على أن هنالك إرادة عليا، هي –وحدها– تملك المصير في المطاف الأخير، وأن محاولات البشر، لا تزيد على تجارب مجردة من السلطة والقدرة، فإذا سارت في تيار الإرادة العليا، كان مكتوباً لها النجاح منذ البداية، وإن تمردت على الإرادة العليا، كان محكوماً عليها بالفشل منذ البداية.

وهذا . . أمر يمكن النقاش حوله طويلاً، ولكن النقاش لا يغير شيئاً من الواقع. فلو ناقشنا حول حاجة جسم الإنسان إلى الأوكسجين، أو حول حركة الشمس والنجوم، أو حول تيارات البحر، أو حول النسبية العامة . . .، فليس النقاش — في الأساس — إلا محاولة للتفهم والاستيعاب، وليس محاولة لتغيير الواقع.

والجواب الأخير، على كل نقاش رافض، هو التجربة، والتجارب — دائماً — تنكشف عن الواقع. وتجارب التاريخ والأمم، تقف — مجتمعة — إلى جانب هيمنة الإرادة العليا على المصير البشري.

وفي القرآن: تركيز على استعراض تواريخ أمم: آمنت فنهضت من العدم، وتقدمت زميلاتها في مدرسة الوجود. حتى إذا أترفت وبطرت، واتجهت إلى ذاتها، جرفتها إحدى تيارات الإرادة العليا إلى ظلمات العدم.

★ فلسفة الحلال والحرام

(الذين يتبعون الرسول: النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين: آمنوا به، وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون❖).

[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

إن اللّه تعالى، بعث النبي (ص) لأشياء كثيرة، عدد في هذه الآية منها:

١ـ أنه يعطي للطيبات صفة الحلال، ويعطي للخبائث صفة الحرام، والطيب هو الذي فيه المنفعة، والخبيث هو الذي فيه المفسدة.

ولو توسع العلم حتى استوعب معرفة حقائق الأشياء، لأفرز ما فيه المنفعة عما فيه المفسدة.

والمصلحون — جميعاً — يحاولون التشجيع على ما فيه المنفعة والتنفير عما فيه المفسدة، ولكن بإتباع أسلوب الترغيب والترهيب بالمنفعة والمفسدة.

والنبي (ص) بصفته مصلحاً، شجع على ما فيه المنفعة ونفّر عما فيه المفسدة، ولكن لم يؤسس الترغيب والترهيب على المنفعة والمفسدة. وإنما أسسهما على الحرمة والحلية. ولعل هذا الفارق في الأسلوب — الذي قد يبدو شكلياً — من أهم الأعمال التي قام بها النبي، حتى استحق أن يقدم هذا العمل في عرض القرآن لأعمال النبي على تحرير النفوس

من القيود الذاتية والغيرية، لسببين:

أ ـ سبب تربوي. فالترغيب والترهيب بالمنفعة والمفسدة، توجيه غير مباشر إلى عبادة الذات، فالذي يقول: (افعل هذا . . . لأنه ينفعك) و(اترك ذاك . . لأنه يضرك)، إنما يوحي بأنك أنت المقياس العادل في تصنيف الأشياء، فما ينفعك فهو الذي يلزم أن يكون، وما يضرك فهو الذي يلزم أن لا يكون . وهكذا . . يغرس في نفس الإنسان أنه هو الذي يتحكم في الأشياء، وليس هنالك شيء غيره يحكم عليه أو على سائر الأشياء، فهو الحاكم المطلق، ومصلحته هي قدس الأقداس، فعندما يمارس شيئاً نافعاً إنما يعبد ذاته، وحينما يترك شيئاً ضاراً إنما يعبد ذاته.

بينما الترغيب والترهيب بالحلية والحرمة، توجيه غير مباشر إلى الارتفاع عن عبادة الذات، والتعالي إلى عبادة الله تعالى، فالذي يقول: (افعل هذا . . فهو حلال) و(اترك ذاك . . فهو حرام)، إنما يوحي بأنك أنت وكل الأشياء خاضعة لله، وهو الذي قرّر شريعة تصنيف الأشياء، وعليك الالتزام بها، لأنها من عند الله فحسب. وهكذا . . يغرس في نفس الإنسان أن الله هو الحاكم المطلق، وأن شريعته المقياس العادل، فعندما يمارس شيئاً حلالاً إنما يعبد الله، وحينما يترك شيئاً حراماً إنما يعبد الله. وهذا التوجيه غير المباشر إلى عبادة الله، حيث يسري في كل حياة الإنسان، يربي في نفسه الإيمان العملي، الذي لا يمكن أن يربى بالفلسفات والمحاورات.

ب ـ سبب عملي. لأن الإنسان إذا ارتبط في أعماله بالمنفعة والمفسدة، كثيراً ما يتخطاهما. لأبسط الأسباب: فأقل درجات الحزن أو الفرح، يدفع بصاحبه أن يتجاوز التقيد بكثير من المنافع والمفاسد . كما أن أبسط درجات اليأس، يؤدي إلى الاستخفاف بالحياة كلها، ومن هانت عليه الحياةتقل مبالاته بالمنافع والمفاسد . وهذا . . ما يفسر إدمان أكثر الناس الدخان، والخمر، والمنبهات . . رغم علمهم الأكيد بأن فيها مفاسد كثيرة.

كما أنه يفسر إهمال الناس، كل الوصايا الطبية التي تنظم: وجبات الطعام، والنوم، والجنس . . . فأكثر الناس ـ وحتى الحكماء منهم — لا يتقيدون بالمنافع والمفاسد، وربما يفضلون: الجاه، والظهور، أو الرفاه، والترف . . حتى على حياتهم.

وقديماً قال الناس — على لسان ابن سينا — : (أنا أفضل عرض الحياة على طولها).

فإذا ارتبط الفعل والترك بالمنفعة والمفسدة، لا يكون عملياً، ولكن إذا ارتبطا بالحلية والحرمة، أي: ارتبطا بإرادة الله — الذي هو مصدر وجود الإنسان، وأقداره، ومقدراته . . . — فإنه يكون عملياً، ولو بالنسبة إلى المؤمنين بالله. وهذا . . يعني أن الدخول في الحياة الفردية والاجتماعية، عن طريق الحلال والحرام، أنجح من الدخول فيها عن طريق المنفعة والمفسدة.

٢ـ أنـه يحـرر الناس من القيود التي فرضوها على أنفسـهم: (يضع عنهم إصرهم)، بواسـطة التصورات النابعة من داخلهم، دون أن تكون واقعية. كما يحررهم من القيود المفروضة عليهم من غيرهم: (الأغلال التي كانت عليهم).

★ الإيمان العلمي والعملي

(. . . . فآمنوا بالله، ورسوله: النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته. واتبعوه، لعلكم تهتدون❖).

[سورة الأعراف: الآية ١٥٨]

(ف) يا أيها الناس! (آمنوا بالله) إيمان القلب واللسان والجوارح.

(و) آمنوا بـ: (رسوله). فالإيمان بالله لا يمكن أن ينفصل عن الإيمان بما قال الله، والرسول في مقدمة ما قال الله، باعتباره الوسيط المساوي، والحلقة التي تربط البشر بالله. فالإنسان الذي ليس في مستوى الاتصال بالسماء، لا يستطيع استقبال كلمات الله إلا عبر رسوله.

وهذا الرسول الذي أمر الله بالإيمان به، رسول لا يحتاج الاقتناع برسالته إلى كثير من الجهد والاستدلال، لان واقعه يثبت رسالته، فهو ذلك (النبي الأمي) الذي لم يتتلمذ على بشر، وأنبأ عن السماء بقرآن يعجز عن مثله البشر. ومن عاش أمياً، وأتى بثقافة فوق مستوى البشر، فهو رسول ينهل عن مصدر غير مصادر البشر.

وهذا الرسـول، ليسـت رسالته مناورة سياسية يسـتخدمها للسيطرة والاسـتعلاء، ولا لعبة تجارية يطرحها لكسب الشـهرة والمال، وإنما هي رسـالة واقعية، تفاعل معها الرسـول — ذاته — قبل أن يدعو إليها غيره، فهو (الذي يؤمن بالله وكلماته)، ولا يوجد أصدق دعوة ممن آمن بشيء ثم دعا الآخرين إلى الإيمان به.

وفي هـذه اللفتـة. .، توجيـه تربوي إلى أن الداعـي لا بد أن يكون مؤمنـاً بدعوته، حتى يكون صادقـاً ومندفعاً. والصدق والاندفاع، صفتان ترفضان التكلف، فلهما أمارات كثيرة يصعب وصفها، ولكن يسهل الإحساس بها. فيبقى الصادق المندفع، أقوى تأثيراً ممن يتكلفهما.

والإيمان بالله ورسوله، ليس كل ما يريده الله من عباده، فالإيمان الكامل هو: (التجاوب مع عقيدة ماورائية، تجاوباً يسربل المؤمن).

والإنسان له جانبان: جانب داخلي، وجانب خارجي. والتجاوب لا يسربل الفرد، إلا إذا احتواه كلياً، وغطى جانبيه

معاً.

والإيمان العلمي بالله ورسوله، يشكل قاعدة نفسية صالحة، فيؤمن جانبه الداخلي.

والإيمان العملي، يشكل مسلكية صالحة، فيؤمن جانبه الخارجي. وبهما – معاً – يكمل الإيمان.

وأما الإيمان العلمي، المنطوي في داخل الفرد، من دون أن يطبع مسلكيته، فهو ادعاء يشكك في صدقه. لأن مسلكية الفرد، ليست إلا ظاهرة طبيعية لقناعاته الداخلية: فالإناء يطفح إذا امتلأ، والظاهر عنوان الباطن.

والمسلكية الصالحة، ليست كلمة تقال، ومحاضرة تلقى. وإنما هي سيرة تحتذى، وسنة تتبع.

فالرسول الأكرم (ص) كانت مسلكيته إيماناً عملياً يتطابق مع إيمانه العلمي، فانظروا إليه، (واتبعوه)، في محاولة لانتهاج المسلكية الصالحة. حاولوا أن تكرسوا الرسول في أنفسكم، وأن تتطابقوا معه في إيمانه العلمي وفي إيمانه العملي. وإذا قمتم بهذه المحاولة، فليس من المؤكد أن تنجحوا فيها، فربما نجحتم، وربما فشلتم، ولكنكم – في الحالتين – سائرون على الخط المستقيم.

ولا تلقنوا أنفسكم احتمال الفشل، ولا تقولوا: (إننا لا نملك ذاتية الرسول، فلا نستطيع التطابق معه). ولا تقولوا: (إن روحه خلق من نور الله، ولا نعرف أرواحنا مم خلقت؟) لا تلقوا بينكم وبينه حجاباً من المستحيل، ولا تكوّموا المعوقات أمامكم، ولا تحقنوا أفكاركم بالسلبيات، ولا تكفنوا مواهبكم باليأس. فلا توجد محاولة محتومة النجاح، ولا توجد محاولة محتومة الفشل، إنما الاحتمالان يتأرجحان أمام كل محاول، والإيجابيون هم الذي يتبعون بارقة النجاح، والسلبيون هم الذين يتهربون من غائلة الفشل.

والنجاح لا يعني الوصول إلى قمة القمم، فأنت لست الشخص الأول في الحياة، ولكن حاول أن لا تكون الشخص الآخر فيها. فالنجاح بقدر، وأي قدر منه خير من عدمه:

فأنت حينما تتعرض للشمس، فهل تتوقع أن تذوّب الشمس في شرايينك؟! كلا إنما تتوقع أن تغذي خلايا جسمك بما يصلحها من أشعة الشمس. وعندما تخرج إلى الهواء الطلق، فهل تريد أن تلتهم الفضاء؟! أبداً.. أقصى ما تريد، أن تستنشق من الأوكسجين أكثر مما تستطيع استنشاقه في الأماكن المقفلة. وإذا خرجت إلى السوق للتجارة، فهل تعنى بتجميع أموال الدنيا بين يديك؟! وإذا نزلت إلى معترك السياسية، فهل تهدف إلى استقطاب الناس أجمعين؟!...

إنك – في أي مجال تجول – لا تستطيع أن تنال إلا بقدرك. وقدر الناس يختلف بمقتضى اختلاف الاستعدادات،

والظـروف، ونوعيـة المناهج التي ينتهجونهـا، وكمية الطاقات التي يوظفونها، وعوامل أخـر كثيرة، قد تخدم فرداً وتعاكـس آخـر. وفي نهايـة المطـاف: يبقى النجـاح – مهما كان محـدوداً – خيراً مـن عدمه. ومفتـاح النجاح، هو: المحاولة.

وفي مجال محاولة التطابق مع الرسـول الأكرم (ص)، حاول أن تتطابق معه. ولكني أؤكد لك بأنك لن تسـتطيع التطابق الكلي معه،ولن تستطيع التطابق معه بمقدار أوصيائه. ولكن حاول، فلعلك تستطيع التطابق معه بمقدار بعض أصحابه. فإنه لا يمكنك أن تكون علياً، أو الزهراء، أو الحسن (ع)، أو الحسين (ع). فلعلك تكون مقداداً، أو سلمان، أو أبا ذر، أو عماراً..

فإذا علمت بأنك لن تسـتطيع التطابق الكبير والكثير: مع الرسـول (ص)، فلا يعني ذلك الاستسـلام لليأس وإلغاء المحاولة، إنما يعني أن الفاصل بينك وبينه كبير. حاول أن تحلق في مستوى الرسول (ص) ولن تلحق به، حتى ولو ارتفعت أسـرع من الضوء. ولكنك إذا قفزت لتحلق في مسـتواه، فإنك انفصلت عن الأرض وصرت في جملة المحلقين، وهذا .. مكسب كبير.

والذي يقفز بأقصى قوته ليلحق بالرسـول، لن يلحق به، ولكنه يصبح فوق الآخرين، وهذا .. مكسـب أكبر. ثم مهما ارتفعت، فهو خير. إنما المهم – في هذا المجال – أن تغدو على خط الرسـول (ص) فهو الخط الصحيح الذي ليسـت فيه مطبات، ثم لا يهم ما بقي من فاصل بينك وبينه، ولو قيس بمليارات السنين الضوئية.

فاتبعوا الرسول، وعلّقوا آمالكم على احتمال النجاح – مهما كانت نسبته – ، (لعلكم تهتدون❖). كيفما كانت تلك (الهداية)، فهي – في جميع الحالات – (هداية)، والهداية هدف مقدس.

⭑ مباحث

-١-

س: – إن الإيمان هو : (التجاوب مع عقيدة ما ورائية، تجاوباً يسـربل المؤمن). والتجاوب مع (عقيدة الألوهية) مظهر واضح لمفهوم الإيمان، ولكن التجاوب مع الرسـول أقرب إلى مفهوم التصديق والاتباع من مفهوم الإيمان، فكيف أطلق الإيمان على التجاوب مع الرسول؟

ج: – للرسول (ص) جانبان، يمكن التعامل معه على أساسهما واتخاذ الموقف منه على ضوئهما:

أ ـ جانبه البشـري كإنسـان متفوق يلزم اتباعه. وإذا تعاملنا معه على هذا الأسـاس، لا يصح اتخاذ موقف المؤمن تجاهه، وإنما يصح اتخاذ موقف التابع من متبوعه، باعتباره قائداً أو قدوة.

ب ـ جانبه الإلهي كرسـول (ص) يتلقى إرادة الله، للتعبير عنها تبليغاً أو تنفيذاً. وإذا تعاملنا معه على هذا الأسـاس، يلزم اتخاذ موقف المؤمن منه. لأن الرسـولية معنى ما ورائي، لا يمكن التجاوب معه إلا من الموقع الإيماني. فالاعتراف بشخص من البشر، رسولاً من قبل الله، من الشؤون الإلهية، التي لا يمكن تناولها إلا من المنطلقات الإيمانية.

ـ ٢ ـ

س: – إن الاعـتراف بـالله إلهاً، يختلف كثيراً عن الاعتراف بمحمد بن عبد الله (ص) رسـولاً. فكيف عبر القرآن عن هذا الاعتراف.. وذاك.. بكلمة: (الإيمان) في إطلاقة واحدة: (فآمنوا بالله ورسوله)؟ ولو تكررت كلمة الإيمان، فقـال مثلاً: (فآمنوا بالله وآمنوا برسـوله)، لأمكـن القول بأن الإيمانين يختلفان، وكلمة الإيمان مشـتركة بين معان عديدة، وتدل على كل واحد منها بقرينة، وهي في الإطلاقة الأولى تعني شيئاً وفي الثانية تعني شيئاً آخر.

ج: – الإيمـان هـو: (التجاوب مع عقيدة ما ورائية ...)، وهذا المعنى شـامل للاعتراف: بالله إلهاً، وبعدد من الأنبياء رسـلاً، وبالكتب المقدسـة وحياً، وبالملائكة عباداً مكرمين.. لا فرق، لتوفر طبيعة الإيمان في كل هذه الاعترافات على حد سواء. واختلاف متعلق الإيمان – أهمية وجلالاً – لا يعني اختلاف طبيعة الإيمان.

ـ ٣ ـ

س: – يستوحى من كلمة: (الإيمان) أنه تجاوب الأدنى مع عقيدة عليا، كما توحي كلمة: (المؤمن) بنوع رفيع من ا لخشوع تجاه ما يؤمن به. فكيف أطلق الإيمان على اعتراف الرسول الأعظم بسائر الرسل والملائكة: (الذي يؤمن بالله وكلماته) مع أنه أعظم من جميع الرسل والملائكة؟

ج: – صحيح أن الإيمان يستوحى منه أنه تجاوب الأدنى مع عقيدة عليا، وصحيح أن الرسول الأكرم (ص) أعظم من جميع الرسل والملائكة، ولكن يمكن النظر إلى الرسل والملائكة من زاويتين:

الأولى: – ذواتهم كرسل وملائكة. ولا شك أن سيدهم – جميعاً – هو النبي محمد بن عبد الله (ص).

الثانية: – ذواتهم في مراتبهم التي رتبهم الله فيها. وهم – بهذه الصفة – يجسدون إرادة الله في خلقه، وإرادة الله بغضّ النظر عما تجسدت فيه – من الشؤون الإلهية، وعلى النبي الأعظم أن يؤمن بكل ما أراد الله:

مثــلاً: رئيــس الوزراء أكبر من جميع الوزراء والموظفين في حكومته، وقد تكون له صلاحيات تخوله نقل وفصل الموظفــين، ولكــن لا يحق له عدم الاعــتراف بأدنى موظف في وظيفته. لأن الموظف – كموظف – شــيء، والموظف في وظيفته شيء آخر، فالثاني يمثل النظام، وإنكاره إنكار للنظام.

مثلاً: الرسول الأكرم – باعتباره خيرة الله – أفضل من جميع خلق الله. ومع هذه الصفة، فهو لا يغمط أدنى خلق الله أقــل حــق مــن حقوقه، لا لأن صاحب هذا الحق أفضل من النبي، وإنما لأن الله أراد الحقوق، فغمطها خلاف لما أراده الله.

فالرسل والملائكة – في مراتبهم التي رتبهم الله فيها – من توابع مقام الربوبية، والنبي الأكرم أكمل الخلق إيماناً بمقام الربوبية وبكل توابعه.

★ المتنكر للآلاء

(واتــل عليهــم: نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانســلخ منها، فأتبعه الشــيطان، فكان من الغاوين ❖ ولو شــئنا لرفعناه بها، ولكنــه: أخلــد إلى الأرض، واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب: إن تحمــل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. ذلك: مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا. فاقصص القصص لعلهم يتفكرون❖).

[سورة الأعراف: الآيتان ١٧٥ ـ ١٧٦]

تركيبة جســم الإنســان، تحوجــه إلى مجموعة مــن المواد، منهــا: البروتين، والســكر، والأوكســجين، والحديد، والفيتامينات .... وســائر المواد التي تبني الجســم أو تنفعه. وحاجته إلى هذه المواد، تفرض عليه تناول الأشــياء الغنية بهذه المواد. والإنســان يتناول تلك الأشــياء، لا تلبية للحاجة، حتى يكون قد أدى واجباً تجاه جســمه، ومارس حقاً عليه، ليســاعد على تصعيده بأداء واجب وممارســة حق، ولكنه يتناولها اســتجابة للرغبة، التي تنشط فيه كلما نقصت فيه الكمية المناسبة من إحدى تلك المواد. وهو يجد المبرر لتناول تلك الأشياء: فالجوع المبرح إليها، والحاجة إلى مشتقاتها، تبرز إن تناولها بالكميات المناسبة.

وهنالك: أشــياء لا يحتاج إليها جســم الإنسان، أو تضر به، وهو يتناولها بشراهة، ويرتاح إليها أكثر من ارتياحه إلى الأشياء التي تبنيه أو تنفعه. كجميع المنبهات والمخدرات.

★ الإنسان المنحرف عن طريق الصعود

(أولئك: كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون❖) .

[سورة الأعراف: الآية ١٧٩]

للإنسان – في تقييمه – حسابان:

١. حسابه باعتباره شيئاً موجوداً، من جملة الأشياء الموجودة في نطاق هذه الحياة .

الشيء الموجود – أي شيء موجود – في نطاق هذه الحياة الدنيا، ليست له قيمة ذاتية، وإنما تكون له قيمة – أو لا قيمة – عرضية .

لأن التقييم هو التعديل – الذي يعادل شيئاً موجوداً بشيء موجود – . والتعديل لا معنى له في مجال الذات، وإنما يوجد المعنى للتعديل بعد تحرك الشيء الموجود نحو العطاء، فيعادل شيء بشيء أو لا يعادل به، بادعاء تساويهما في العطاء أو عدم تساويهما في العطاء:

فالذهب المختمر بالصخر، والحديد المختمر بالصخر، متساويات في اللاقيمة – بالاعتبار المستقبلي الذي هو اعتبار العطاء المستقبلي – ، إذ لا عطاء لهما . وإذا استخرجا، صح تقييم كل واحد منهما بمعادلة عطائه .

والماس والزجاج، الراقدان في الأرض، متساويان في اللاقيمة، لعدم تحركهما نحو العطاء . فإذا استيقظا، كان تحركاً نحو العطاء، فصح تقييم كل واحد منهما بمعادلة عطائه .

والتراب، والهواء، والماء، وأي شيء موجود . . لا يصح تقييمه، طالما يعيش لنفسه . فإذا تناصرت ظروف خاصة على رفعه إلى مستوى العطاء، فعاش لغيره، صح تقييمه بمقدار عطائه .

وحقيقة التقييم، هي: ادعاء تساوي عطاء شيئين، قد يتفق حجمهما وقد يختلف . فالطن من التراب، ربما يقيم بطن من الماء، وربما يقيم بجرام من الذهب، لأن مقياس الحجم غير وارد في جملة المقاييس التقييمية للحياة .

والإنسان، شيء موجود من جملة الأشياء الموجودة في نطاق هذه الحياة – الدنيا . وهو: الإنسان متفرقاً في عناصره:

الماء، والحديد، والفسـفور . . لا يصح تقييمه، لأن هذه العناصر في تركيبها الإنســاني غير متحركة نحو العطاء. ومجموعة في صيغتها الجملية: الإنسان، لا يصح تقييمه الذاتي، كشيء موجود من جملة الأشياء في نطاق هذه الحياة. وإنما يصح تقييمه باعتباره العرضي، وهو تحركه نحو العطاء، وتكون قيمته بمقدار عطائه.

٢. حسابه باعتباره شيئاً موجوداً، يتعامل مع سائر الأشياء الموجودة في نطاق هذه الحياة.

والشــيء الموجود – أي شــيء موجود ســوى الله تعالى – يتعامل مع ســائر الأشــياء الموجودة، يقيّم بمقياسين: مقياس المعادلة بين ما يأخذ وما يعطي، ومقياس المعادلة بين قيمة ما يأخذ وقيمة ما يعطي.

والأشــياء الموجــودة في نطــاق هذه الحيــاة، تعرض – بصورة تلقائيــة – لحكومة هذين المقياســين، وتفرز إلى ثلاث مفارز:

- مفرزة الأشياء التي تعطي أكثر مما تأخذ.

- مفرزة الأشياء التي تعطي بمقدار ما تأخذ.

- مفرزة الأشياء التي تعطي أقل مما تأخذ.

وبعد هذا التعديل:

فالمفرزة الأولى: تقيم بقيمة الزائد من عطائها على أخذها.

والمفرزة الثانية: لا تقيم، لعدم وجود زيادة صالحة للتقييم.

والمفرزة الثالثة: تقيم – عكسياً – بقدر الناقص من عطائها عن أخذها.

وحركات التطور الوجودي، في مظاهرها البارزة، تفرز – كتلك – إلى ثلاث مفارز:

- مفرزة النبات.

- مفرزة الحيوان.

- مفرزة الإنسان.

أما حركة الجماد التطورية، فحيث أنها أقل تصاعداً من هذه الحركات، لم نتناولها في هذا العرض.

ومتى عرضنا هذه الحركات على ذلك التقييم، وجدنا ما يلي:

- مفرزة النبات، تعطي بمقدار ما تأخذ من حيث الكم، ولكن من نوع أفضل. فهي تأخذ عناصر الجماد، وتعطي عناصر النبات. فهي تعطي أكثر مما تأخذ من حيث الكيف.

- مفرزة الحيوان، تعطي أقل مما تأخذ من حيث الكم، فهي تستهلك الكثير من الجماد والنبات، وتعطي نسبة أقل من اللحم، ولكن من نوع أفضل. فهي تعطي أكثر مما تأخذ من حيث الكيف.

- مفرزة الإنسان، تعطي أقل مما تأخذ من حيث الكم، فتستهلك الكثير من الجماد والنبات والحيوان، وتعطي نسبة أقل من اللحم. وبما أن إنتاج اللحم، ليس الهدف من الإنسان، وإنما الهدف منه هو: الفكر الصحيح، والعمل الصحيح، يلزم أن يسقط اللحم من حساب عطاء الإنسان، ويأخذ دوره: الفكر الصحيح، والعمل الصحيح، فهو عطاء الإنسان، وهو من نوع أفضل مما يأخذ.

فإذا أعطى الإنسان: الفكر الصحيح، والعمل الصحيح، كان من المفرزة الأولى، التي تعطي أكثر مما تأخذ، فتكون له قيمة بمقدار ما يعطي. وإذا لم يعط: الفكر الصحيح، والعمل الصحيح، كان من المفرزة الثالثة، التي تأخذ أكثر مما تعطي، فيكون تقييمه عكسياً بقدر الناقص من عطائها عن أخذها.

أما إذا أعطى: الفكر الفاسد، والعمل الفاسد، فيكون تقييمه عكسياً بنفس النسبة.

فيكون أقل من الحيوان، لأن الحيوان لا يمكن أن يكون له تقييم عكسي مطلقاً، إذا أخذنا في الاعتبار: أن كل حيوان له فائدة.

فالإنسان المنحرف عن طريق الصعود (أضل) في دروب الحياة من (الأنعام) التي هي المثل الأدنى للحيوان الغبي الضال.

⋆ دعنا نفكر

(أو لم ينظروا في: ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء؟!. . . .) .

[سورة الأعراف: الآية ١٨٥]

الحياة معقدة. ويخطئ من يظن أن الحياة سهلة بسيطة. والإنسان، إما أن يضرب في الحياة بارتجال، وقد لا يخسر شيئاً، ولكنه – في أكثر الفرص – يخسر، لأنه يقابل من فكروا وخططوا، فينتصرون عليه، فلا بد له من التفكير. ولا يغنيه التفكير المنفرد، لأن تيارات الحياة أكثر من أن يستوعبها ويستخلص منها الفرد الواحد النتائج المفضلة، فلا بد له من الاستعانة بغيره والتفكير المشترك معه.

والتفكير المتناسق، يحتاج إلى الاستعانة باللسان أو بالقلم، حتى يكون تفكيراً تشترك فيه أدمغة عديدة.

فلكي ننجح في الحياة، دعنا نفكر، ولنفكر تفكيراً مشتركاً.

سورة الأنفال

مدنية

وهي خمس وسبعون آية

⋆ التوكل على الله

(إنما المؤمنون، الذين: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون❖).

[سورة الأنفال: الآية ٢].

(التوكل) هو: قبول وكالة المتوكل عليه. وهو الاعتماد على قيادة معينة، تتولى إصدار القرارات التشريعية،

حتى يتفرغ الآخرون للتنفيذ.

فالمؤمنون، عندما يتوكلون على الله، إنما يعتمدون عليه مصدراً متيناً للتشريع.

فالتوكل على الله هو الاعتماد على نظامه، مقابل التوكل على الشعب في النظام الديمقراطي، أو التوكل على الفرد الحاكم في النظام الديكتاتوري.

فليس معنى التوكل على الله: إهمال الأمور، ليتصرف بها الله بالطرق المعجزية، بدون تدخل الإنسان.

⋆ الموت عبر المشاهدة

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون❖ يجادلونك في الحق بعد ما تبين، :كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون❖).

[سورة الأنفال: الآيتان ٥ ـ ٦]

الإنسان ربما تأتيه رصاصة من حيث لا ينتظر، فيموت، فلا يفترسه هاجس الموت، لأنه لا يصاب — في هذه الحالة — إلا ويفقد وعيه، فلا يشعر بأنه على حافة الموت.

وربما يحكم عليه بالإعدام في وقت معين، فيعدد الساعات والدقائق والثواني، حتى يأتي الوقت المعلوم، فيساق إلى ساحة الإعدام وتعصب عيناه، ويستمع إلى قرار الإدانة، ويلف حبل المشنقة حول عنقه، ويشد الحبل. فيكون قد عانى من هاجس الموت، أكثر مما يعانيه من عملية الموت — ذاتها — ألف مرة.

⋆ الإسلام: دعوة إلى الحياة

(يا أيها الذين آمنوا! استجيبوا لله والرسول، إذا دعاكم لما يحييكم ...).

[سورة الأنفال: الآية ٢٤]

هل الإسلام يعبأ للآخرة أم يعبأ للدنيا ؟ وهل مهمته في توجيههم إلى الموت وما بعده، أم في تركيزهم في الدنيا؟ وهل ينفتح الموت إلى الحياة ؟ .....

إن هذه الآية تشـير إلى عكس ما يفهم ا لناس – عادة – من الإسـلام. فالرسـول يدعو الناس إلى الإسـلام، وهو يحييهـم، إذن: فهـم أموات الآن، والإسـلام يحييهم. وهم – بدون الإسـلام – أموات، مهما تواتـرت منهم الآثار الحياتية، لأنهم لا يبلغون مستوى حياتهم إلا به.

فالإسلام، طاقة حياتية شديدة الانفجار، نفخ راعي (غفار) فجعل منه (أبا ذر) الثائر. ونفخ الرسول في الشاب المدلل (مصعـب بـن عمير) فجعل منـه العاصفة التي هبت على (يثـرب) فحولتها إلى(المدينة)، – ولذلـك: لما طاردت (مكة) الرسـول، آوته (المدينة) في اسـتقبال حافل بالأهازيج، لأن مصعباً كان قد أعد يثرب للرسـول، فلجأ إليها الرسـول دون سـواها – ونفخ الرسـول في سـائح (فارس) فجعل منه (سلمان المحمدي). ونفخ الرسول في (بدو الحجاز) فما تحسب إلا والرمال تتحرك، والصخور تنشط من خمول الأبد، فتعبر القارات، لتأخذ زمام الأمم.

إن الإسلام هو نفس (الطاقة) التي جعلت الواحد أكثر من عشرة:

(... إن يكـن – منكـم – عشـرون صابـرون، يغلبوا مئتين. وإن يكـن – منكم – مئة، يغلبـوا ألفاً من الذين كفروا....)(٣٩٧).

إن الإسلام هو نفس (القدرة) التي تحدث عنها رسولها فقالك (الإسلام: يعلو، ولا يعلى عليه)(٣٩٨).

إن الإسـلام هو نفس (القوة) التي قلبت كل المفاهيم السـطحية، حتى أن: (الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين)(٣٩٩).

فالإسلام (حياة) إذا فهمناه كما عرفه رسوله العظيم، وكما يلهمه قرآنه الحكمي. أما إذا فهمناه صيغة جديدة للطقوس القديمة، فهو (موت) لا ريب.

ونحن – الآن – نعيش الإسلام موتاً – أو تمويتاً – ، نموت به ويموت بنا، لأننا نحاوله طقوساً، جامدة باردة، لا نبض لها ولا عصب. أما إذا أقمناه (ديناً) يستوعب الحياة – كل الحياة – فسيحيا بنا، ونحيا به.

ولكي يكون ذلك، لا بد أن نصحح انطباعنا عنه:

فنحوّله من دور (الطقوس) التي تحيا بين الإنسان وربه، إلى دور (النظام) الذي يبرمج حياة الإنسان.

وننقلـه مـن موقف (المعلم) الذي يلقي الأفكار لمجـرد الأفكار، إلى موقف (الطبيب) الـذي يصف الدواء للتنفيذ

السريع.

وندرسه كـ (قانون) يؤثر في مجرى حياتنا اليومية، لا كـ (تراث) لترضية الترف الفكري.

ولا نتركه على الأبواب (سائلاً) – أو متملقاً – يحصد الفضول من التفاتنا، وإنما نمنحه مركز (القائد) والحاكم.

ونعتبره (سكناً) نأوي إليه من الطوارئ، لا (أثراً) ينقل إلينا ذكريات الأسلاف.

ولا نتبرع – نحن – له بدور (المحامي) والموجه، بل ندعه يتحمل: (مسؤوليته) – بنفسه – و(مسؤوليتنا) إذا شئنا.

أي: عندما نقف – نحن – أمامه، ولا يقف – هو – أمامنا.

أي: عندما نتصوره كما هو، فنكون – نحن – في مكاننا الطبيعي، ويكون – هو في مكانه الطبيعي.

عند ذلك، يبدو: كم هو من طاقة! وكم لها من شدة انفجار!

وعند ذلك، يتضح: هل هو حياة أو موت؟! ويبدو: هل الرجال الأقوياء – بدونه – أحياء أم أموات ؟!

★ فلسفة الخمس

(واعلموا: أنما غنمتم من شيء، فأن لله خمسه، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله...)

[سورة الأنفال: الآية ٤١]

-١-

كل ما يغنمه المؤمن في قتاله مع المشركين، أو في صراعه مع القوى الفاعلة في الحياة، من: مال، ووجاهة، ومنصب، وثقافة .. وحتى من: طاقة، فكرية أو جسدية، وحتى: أولاده، وشعبه، وحياته ... وأي شيء ينسبه – كلياً – إلى نفسه، كل ذلك، ليس له. ذلك:

١. إن الإنسان لا يملك شيئاً – في الحياة – سوى تصرفاته الإرادية، التي يمارسها كما يختار هو، وبدون مشاركة من آخر. هذه التصرفات – سواء أكانت حسنات أو سيئات – ملكه الذي لا ينازع فيه:

(وأن ليس للإنسان إلا ما عسى ❖)(٤٠٠). وأما ما عدا سعيه وجهده، فليس ملكه الشخصي.

٢. ما عدا الجهد الشخصي، لا يوجد شيء في الحياة، مما يعدّه الإنسان ملكه، إلا وهو مشارك فيه بحصة معينة من جهده، قد تزيد وقد تنقص، ولكنها لا تخرج عن كونها حصة معينة، تجعله مالكاً جزئياً، أي: مشاركاً، ولا تجعله مالكاً كلياً، أي؛ مالكاً وحيداً.

فالمخترع، ليس الاختراع الذي يتوصل إليه ملكه الشخصي، وإنما ساهم في اختراعه: كل من درس عليه، وكل من ترك له نظرية أفادته، وكل موظف ساعده في مختبره، وكل من أنفق عليه في مرحلة من مراحل حياته السابقة، وكل من أمده في لباسه، أو غذائه، أو مسكنه... أو أي شيء من ظروفه المعيشية، أو النفسية، أو الاجتماعية ... التي تعاونت معه – مجتمعة – على اختراعه.

فلذلك: قد تخترع أمة التلفزيون، أو الطائرة، أو الباخرة.... ولكن الشخص الأخير الذي يتولى إعلانها، ينسبها إلى نفسه، بينما لم يكن إلا جزءاً بسيطاً من الجهود الضخمة، التي تفاعلت وتوالدت حتى أنتجتها.

والتاجر، الذي يقوم – في ساعة أو بعض ساعة – بصفقة مربحة، ليس هو وحده الذي ربح الصفقة، وإنما الكثيرون هم الذي هيؤوا الصفقة للربح، من: المنتجين الذين وفروا له البضاعة، والمستهلكين الذين أكثروا الطلب ورفعوا السعر، وآخرون .. وآخرون .. ممن تعاونوا، من قريب أو بعيد، أياماً أو سنين، في الصفقة، هم الذين اشتركوا في الصفقة وربحها.

كما أن الغصن الذي يتشرف بحمل التفاحة، ليس هو وحده الذي أنتج التفاحة، وإنما الكثير من:الأيدي البشرية، والعضلات الحيوانية، والعناصر الطبيعية ... هي التي أنتجت التفاحة، وجاء الغصن – أخيراً – ليكون قناة تفرع عبرها التفاحة في صيغتها الزاهية.

وكما أن رئيس الدولة، الذي يزهو بـ: انتصار مجيد، أو إنجاز ضخم، أو دخل قومي هائل .... ليس هو الذي عمل كل ذلك، وإنما كان التوفيق أن يجني كل ثمار شعبه، ويقدمها إلى الرأي العام، مستعلياً على أنداده بأنه قمة شعب عظيم.

فعلى كل إنسان يغنم شيئاً، مادياً أو معنوياً، أن يعلم: أنه أتى إلى السباق في نهاية المطاف، فهو صاحب الخطوة

الأخـيـرة في السـبـاق، وله من الحق في الغنيمة بمقدار من له خطـوة، كبقية زملائه على الطريق. وليكن له الضعف من حق واحد من السائرين، لأن الحظ جعل خطوته الواحدة الخطوة الأخيرة. وليغال في حقه كما يشاء، ولكن مهما غالى لا يمكن أن يصبح، هو وحده صاحب الحق كله، وأن لا يدع لزملاء الدرب أي شيء. ليكن الواحد بالمئة – رغم أن المشـاركين في كل عمل أكثر من مئة إذا أحسـنا الحسـاب – وليكن له اثنان بالمئة، وليغال فليأخذ ثلاثة بالمئة، وليضرب هذا الرقم بعشـرة وبعشـرين، وليطغ، وليفعل ما يشـاء . . . ولكنه - أخيراً – لا بد أن يعترف بشيء من الحق للمساهمين معه.

إذن: فليعلـم أن كل مـا وصلـت إليـه من غنيمة، ليسـت كلياً له وحـده، وإنما هي ملك له ولغيره. وليعط لنفسـه الأفضلية، فليأخذ ثمانين بالمائة، وليعط لغيره – من أصحاب الحق – عشرين بالمائة.

ولكن: من هم أصحاب هذا الحق، حتى يعطيه لهم؟

أصحاب هذا الحق، جنود مجهولون، لا يمكن أن نضع قائمة تفصيلية بأسمائهم، ولا يشـترط أن نعرف التفاصيل، إنما يكفي أن نعرف مجمل فصائلهم.

ومجملهـم: المجتمـع الذي ينوب عن المجهولين، في أخذ الحقوق ودفع الحقـوق، فيأخذ المال (المجهول المالك)، ويرعى (من لا ولي له).

والمجتمع شقان:

١ـ شـق النظـام: الـذي هيّـأ المناخ المناسـب للعمـل والإنتاج ومصـادر النظام هم: الله مشـرعاً، والرسـول وأوصياؤه منفذين.

٢ـ شق المعذبين الذين كسرتهم معاكسات المجتمع. فعلى المجتمع أن يكفّر عن خطاياه فيهم، ولا يدعهم يتمزقون ببراثن: الفقر والجهل، والمرض. . . .

هذا الخمس ٢٠٪ الذي يدفعه من اغتنم غنيمة، ليس (فضلاً) نابعاً من أريحية، وإنما (حق) لم يكن له في الأساس، وإن جاء عبره، لأن المجتمع اشترك معه في (الإنتاج)، فهو شريكه في (النتاج).

ـ ٢ ـ

ربط الخمس بالله، ليس لأن الله يملك بالفعل فقط ٢٠٪ مما يغنمه الإنسـان، فالله يملك الإنسـان وكل ما يغنم والكون جميعاً، وإنما تصعيداً للاقتصاد الصحيح إلى الإرادة الإلهية – حتى في التفاصيل – حتى يدفع الدافع وهو يعلم أنه يؤدي حقاً مقدساً لله، ويأخذ الآخذ وهو يعلم أنه يستوفي حقاً مقدساً لله. وتأطير الاقتصاد الصحيح بقداسة، وارد في النصوص الإسلامية بلا تحفظ، ففي الحديث: (ما من بالله، من بات شبعان وجاره المسلم جائع)(٤٠١).

⋆ عبرة من حرب بدر

(وإذ يريكموهم – إذ التقيتم – في أعينكم قليلاً، ويقللكم في أعينهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وإلى الله ترجع الأمور❖).

[سورة الأنفال: الآية٤٤]

الصراع بين قيادتين، لا ينشب إلا إذا كانت احتمالات الانتصار – لدى كل قيادة – أكثر من احتمالات الانكسار، بأن يكون كل قيادة واثقة من تفوقها، أي: عندما تدل الحسابات على أن الخسائر أقل من الأرباح.

وأما إذا كانت إمكانات القيادة الأخرى، مجهولة بحيث تتحير المعادلات.

وأما إذا كانت إمكانات القيادة الأخرى، متعادلة بحيث تكون نتائج المعركة رهينة الخطط، والارتجالات الوقتية في اللحظات الحاسمة.

وأما إذا كانت إمكانات القيادتين، هائلة بحيث لا تقرر نتائج المعركة إلا بخسائر فادحة لا يمكن احتمالها.

وبصـورة عامـة: إذا كانت المعركة بحيث لا تنكشـف عن غالب ومغلوب، فإن القيـادات العاقلة تتحاماها – مهما كانت المنطلقات.

وإنما تدخل القيادات في معركة، تدل حساباتها على أن النتائج شبه مضمونة في جانبها، فلا يراهن أحد على حصان خاسر، إلا في حالات انتحارية. وقرار المعركة لا يتخذ في اللحظات العصبية.

ولذلك،قيل: (الاستعداد للحرب، يمنع الحرب). فإذا بلغ كل قيادة – مرشحة للصراع – قمة التحشيد، تتهيب الصراع بمقدار قوته.

ولذلك: قلل الله كل جانب في أعين الجانب الآخر، ليظن النصر مضموناً في جانبه، فيخوض معركة كان لا بد منها، ليظهر المسلمون قوة على مستوى الصراع،

★ الله عاصماً، والمؤمنون قاعدة ملائمة

(يا أيها النبي! حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين❖).

[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

(يا أيها النبي) إنك كقائد مؤسس لأمة ودين، قد تفكر في الاستعانة بإنسانيتك الشاملة، للانتشار على البشر جميعاً، من أجل تحشيد كل الطاقات الإنسانية لتحقيق هدفك الكبير، وهو تأسيس أمة ودين.

ولكن: بما أن الطاقات الإنسانية مختلفة النوعية، وكل عنصر – من هذه الطاقات – لا يتبلور إلا عن معدنه الأصل عندما يتحرك في اتجاه الإنجاب، فمهما حاولت تطوير تلك الطاقات، وتنسيقها، فلن تتلاقح لإنجاب هدفك – أنت – ، وإنما تنجب شيئاً تشتبك فيه تيارات تلك الطاقات، ولا يجديك ذلك الشيء الذي يحمل طوابع كل الطاقات الإنسانية العاملة في خدمة الإنسان، فقنوات الأضواء مهما امتزجت، لا تمر بموشور إلا ويستعيد كل قناة نشاطه المستقل، وينطلق من أحد جوانب الموشور محتفظاً بكل خصوصياته. ولا تتركب نبعات الأشجار على ساق، إلا وتقدم كل نبعة ثمرتها الخاصة. وحتى السلالات البشرية إذا تلاقحت، تتخلى عن ذاتياتها .... فيا أيها النبي! لا تحاول تجميع الطاقات الإنسانية المختلفة، فإنها تتعبك ولا تتبعك. فأنت صاحب قضية، وعليك أن تطرح قضيتك على الرأي العام العالمي، ثم تحتاج إلى:

مصدر قوة، يؤمنك دائماً، ويعصمك من التوقعات.

وإلى: قاعدة، تنطلق منها نحو هدفك الكبير. وأنت: لك (الله)، وهو المصدر الأعظم لكل القوى، يؤمنك، ويعصمك. ولك (المؤمنون)، وهم أمنع قاعدة تعينك على الانطلاق، لأنهم جاؤوك سامعين لك مطيعين، وهؤلاء ... هم قاعدتك المطواعة رغم ضعفهم، لأنهم لك، لا أصحاب القدرات المختلفة رغم قوتهم، لأنهم ليسوا لك. وكل شيء لا بد أن يكون منسجما مع قاعدته:

فالرصاصة تستطيع الانطلاق من فوهة البندقية رغم ضيقها، لأنها منسجمة معها، ولا تطيق الانطلاق من رحاب الفضاء رغم سعتها، لأنها ليست منسجمة معها.

والشـجرة يمكنهـا أن تعرق في الـتراب بالرغم من رخصه، لتمد أغصانها إلى الشـمس، ولا يمكنها أن تعرق في الذهب بالرغم من غلائه.

والإنسـان يقدر أن يقتات اللحم والنبات، ولا يقدر أن يقتات الأحجار الكريمة .. لأن الانسـجام شـرط في التعامل الكوني.

فيـا أيهـا النبي! (حسـبك الله): مصدر قوة عاصمة، (و) حسـبك (من اتبعك من المؤمنين❖): قاعـدة ملائمة. فاربأ بقاعدتـك – مهمـا كانت أوضاعها، ومهما كانت آمالك –، وهيِّئ نفسـك للتحرك قبل أن يسـبقك الزمان، ولا ننتظر الأسماء والرؤوس الكبيرة، والقدرات الهائلة، فإنها تعيقك ولا تفيدك.

⋆ تعظيم المؤمنين من الصحابة

(يا أيها النبي! حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين❖).

[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

كل النصوص الإسلامية التي تعلّم المسلمين (التوكل على الله)، تلقنهم: (حسبك الله)، (وحسبي الله)، (حسبي الله وكفى) ... فالله هو حسب الجميع، فهو المصدر والمهيمن وإليه المصير.

ثم: هل هنالك من إرادة مستقلة التأثير عن إرادة الله؟!

هل يوجد لله شريك في ملكه، حتى يكون هو مع الله حسب المسلمين ؟!

أو يسوع لمسلم أن يقول: (حسبي الله وفلان)؟! فيكف يقول القرآن: (حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين❖)؟! فهل المؤمنون شركاء مع الله في كفاية النبي؟!

ثم: كيف يوجه مثل هذا الخطاب إلى النبي، الذي هو أعظم من خلقه الله، حتى لو كان هنالك من يصح أن ينضم إلى الله بعد كلمة (حسـب) لكان هو النبي، باعتباره أقوى الوسـائط والشـفعاء إلى الله، لأنه واسطة الرزق والرحمة، أي: الفيض المادي والمعنوي:

((ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسـوله، وقالوا: (حسـبنا الله، سـيؤتينا الله – من فضله – ورسـوله. إنا إلى الله

راغبون)(٤٠٢)، (. . . ولو أنهم – إذ ظلموا أنفسهم – جاؤوك، فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تواباً رحيماً ❖)(٤٠٣). . . . . !؟

والجواب:

١. إنـه تعظيـم للمجاهدين من الصحابة تعظيماً كبيراً، وتجليل لهـم بأقصى ما يمكن التجليل. ولذلك: لم يرد في كل النصوص الشرعية نص ما عداه. وكفى بذلك تعظيماً وتجليلاً.

٢. إن مضمون كلمة (حسبك) خفّف حتى نزل من المستوى الإلهي ووصل إلى المستوى البشري، فلا يحمل من معاني (حسـب) إلا بمقدار ما يصح إطلاقه على أي أداة، بذكر (المؤمنين) بعد كلمة (من اتبعك). فـ (من اتبعك) يدل عل أن لهم دور التنفيذ الثانوي المقيّد بالتبعية، وليس لهم دور الإطلاق الذي هو لله دون سواه.

ومع ذلك: فإن إرداف الله بالمؤمنين في شأن النبي (ص)، واستعمال كلمة واحدة: (حسبك) في الله وفي المؤمنين، لهما دلالات عميقـة بعيـدة، لا يمكن تجاهلهـا في تكريم الله – تعالى – للمجاهدين من الصحابة. وحسـبهم ذلك. مجداً . . . وجداً . .

⋆ الصبر .. فالنجاح

(يا أيها النبي! حرض المؤمنين على القتال: إن يكن – منكم – عشرون صابرون، يغلبوا مئتين. وإن يكن – منكم – مئة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون❖ الآن . . خفف الله عنكم، وعلم أن - فيكم – ضعفا:

فإن يكن – منكم – مئة صابرة، يغلبوا مئتين.

وإن يكن – منكم – ألف يغلبوا ألفين، بإذن الله. والله مع الصابرين❖).

[سورة الأنفال: الآيتان ٦٥. ٦٦]

القرآن يلح على الناس أن يصبروا، لا في مواجهة النكسـات والنكبات فحسـب، ولا عبر المصائب والمصاعب فقط، وإنما يأمر – في مواجهة الحياة كلها، في السـيطرة على السـراء والضراء على حد سـواء، ولاسـتقبال النعماء والبأساء، والأفراح والأتراح سواء بسواء – فيقول:

(فاصبر صبراً جميلاً❖)(٤٠٤).

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل . . .)(٤٠٥)

(يا أيها الذين آمنوا! اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا اللّه، لعلكم تفلحون❖)(٤٠٦).

بينما الصبر، ظاهرة سلبية لا بد من التخلص منها، تأهباً للسيطرة على الحياة، بتبني الأعمال الإيجابية التي تساعد على التقدم والتوسـع والانتشـار. فلماذا يلح القرآن هذا الإلحاح على الناس جميعاً، وفي مقدمتهم الرسـول (ص) على الصبر، والقرآن هو الكتاب الإيجابي الذي لا تجد إليه السلبية منفساً؟

هذه . . هي الصورة العفوية التي تطبع الأذهان كلما مر عليها الصبر، وهذا . . . هو الاستفهام الطبيعي الذي يتبع تلك الصورة.

فيما الصبر، ليس انسحاباً ولا هروباً،وإنما هو ثبات وصمود.

لأن الإنسـان، في مسـيرته الصاعدة عبر الحياة الدنيا، لا يجد طريقه – في جميع الأحوال – مفروشـاً بالأحلام، ولا يسـتقبل الآمـال العـذاب أينما اتجه، بل كل فرد يفتح طريقاً خاصة لنفسـه، عبر العقبات والكـوارث، الملغومة بألوان من الجوارح والمهلكات: فإذا اسـتقبل طريقاً أي طريق. . يتجه إلى هدف أي هدف . . . وأراد أن يسـير فيه بسـرعة معينـة علـى امتداد الطريق، فإنه لا يطـوي بعضه إلا وتطويه إحدى المفرقعات، وينتهـي دون الوصول إلى هدفه. أما إذا سار بسرعة عندما يجد الطريق مستريحة، وخفف السير إذا تراقصت أمامه الهواجس، ووقف إذا شعر بالخطر، وريثما يتبين حجم الخطر وقوته، ليعرف ما إذا كان يستطيع التغلب عليه أم لا؟: فإذا عرف أن الخطر أقوى منه تنكب، وإذا عرف أنه أقوى من الخطر وأن اجتياحه لا يكلفه إلا أقل مما يكلفه التنكب عن الطريق، غالبه، وبقي سائراً بحكمة وتعقل، فربما يرفق لهدفه، مهما كان بعيداً وعالياً.

تماماً . . كمن يقود آلية في طريق غير مفتوحة، أو في طريق مزدحمة. إنه لا يسـتطيع أن يواصل السـير بمسـتوى خيالي من السـرعة، وإنما عليه: أن يسـرع حيناً وأن يبطئ حيناً، وأن يتنكب يميناً وشمالاً أحياناً أخر، وأن يتوقف إذا انفجر في وجهه الضوء الأحمر. وتوقفه – هذا – ليس انسحاباً ولا هروباً، وإنما هو استعداد لقطع الطريق كله.

وهكذا . . . الصبر – عندما يطاول الإنسان بما لا قبل له به – صمود وثبات، حتى يمر الخطر أو يزول. فهو عملية إيجابيـة، تمليـه إرادة التقدم. وليس عملية سـلبية، يوحي بها الضعف أو الخمول. فـكل ما يخدم الوصول إلى الهدف، إيجابي يلزم إتباعه، وإن كان مظهره الساذج أشبه بمظهر الانخذال.

وهذا .. هو الصبر بمعناه الحقيقي، لا التهيّب عن مناورات الحياة.

وبهذا .. يفسر القرآن الصبر، عندما يعتبره مقدمة النجاح، فيقول:

(إن يكن منكم عشرون صابرون، يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ....) . فمن يعرف الصبر، ويطيق الصبر، هو الظافر الذي يتمتع بالإرادة، ويفرض الأشياء العملية. لأن الصبر ضابط الأحداث، الذي يقننها ويخضعها لإرادة التقدم.

وأما الذي لا يستطيع الصبر، فيسير باستمرار .. أينما كان وكيفما واجهته الأحداث.. فإنه لا يتمتع بإرادة، ولا يحرز النصر. لأن الأحداث تعلوه، ويغرقه الطوفان — في يوم من الأيام — مهما كانت طاقاته جبارة عاتية.

⋆ الإيمان والمؤمن

(يا أيها النبي! حرض المؤمنين على القتال: إن يكن — منكم — عشرون صابرون، يغلبوا مئتين. وإن يكن — منكم — مئة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون❖ الآن .. خفف الله عنكم، وعلم أن - فيكم — ضعفا:

فإن يكن — منكم — مئة صابرة، يغلبوا مئتين.

وإن يكن — منكم — ألف يغلبوا ألفين، بإذن الله. والله مع الصابرين❖).

[سورة الأنفال: الآيتان ٦٥ ـ ٦٦]

الأشياء المادية الموجودة، وجودها دليل وجودها، أنتجت أو لم تنتج، وعرفت نتيجتها أو لم تعرف، ذلك، بأنها محسوسة تدرك بإحدى الحواس الخمس.

أما الطاقات الكامنة في الماديات: فوجودها ليس دليل وجودها، ذلك: بأنها ليست محسوسة تدرك بإحدى الحواس الخمس، وإنما نتائجها دليل وجودها.

وأما الموجودات غير المادية وغير الطاقات، فليس وجودها دليل وجودها، بأنها لا تلمس بإحدى الحواس الخمس، وليست نتائجها دليل وجودها، بأنها لا تنتج — بالمعنى الحرفي للإنتاج — ، وإنما فعلها دليل وجودها.

والحياة من الموجودات غير المادية وغير الطاقية، ففعلها دليل وجودها . وإذا وجدت أشـياء ليس لها فعل، لا يصح ادعاء الحياة لها .

فالجمـادات – إذا صـح أنهـا موات – يمكـن أن ندعي أنها موات، لأنها لا تفعل فعلاً، فهـي لا تنمو ولا تتكاثر ولا تتحـرك: فالصخـرة الـتي تقيأها البركان قبل ألوف السـنوات، ميتة، لأنها لا تفعل شـيئاً . والبناية الحبلى بالعشـرات أو المئـات مـن الأطفـال والرجال والنسـاء، ميتة، لأنهـا لا تنمو . والسـيارات المتلمظة، التي تعدو خلـف بعضها في أروقة كالأطفال في الأعراس ، موات، لأنها لا تتكاثر . . .

ولكن شـجرة البرتقال، التي تحمل قفازاتها بأيديها وهي ترقص الباليه للريح، حية، لأنها تجمع عناصر معينة من الكون، وتصوغها حقاً مشحوناً بالهندسة والذوق والعبير .

والجـدي الـذي ينـزو على كل صخـرة وفي كل منحدر، ككـرة القدم: حي، لأنه يصبح مع السـنوات عشـرات ومئات. . . .

والإيمان الذي يشع، ويدفئ القلوب المتقلصة من كسل الإلحاد، إيمان حي، وأما الإيمان الذي يغور في متاهات القلوب، كالصقيـع الـذي يبتلعه الليل في الحفر الموحشـة، إيمان ميـت لا ينفع صاحبه، وقد يحوّله إلى لعبة رخيصة للشـيطان، يوسوس إليه بما يمليه، فيعبد الشيطان وهو يردد اسم الرحمن:

فالنار التي لها دفء ونور، ليست شذرة من نور السماء، وإنما شهقة من سعال جهنم .

والفكـرة الـتي لا تفجـر نعيماً من مصادر الطاقة في الإنسـان، ليسـت رحمة من حنان الله، بـل مصيدة من نكراء إبليس. . .

فالإيمان الحي، هو الذي يطفح، وتتوسـع دوائره لتضم إليها المغرورين . فإذا تلبد كشـحمة العنزة، فهو إيمان ميت، أو زيغ باسم الإيمان .

فالمؤمن الواحد، هو الذي يغلب عشرة من الذين كفروا، كلما نشب صراع بين الكفر والإيمان: سواء نشب الصراع في ميدان القتال، وسواء احتكت الآراء في ساحة حوار، وسواء تشابكت التيارات على صعيد خدمة شعب أو وطن .

وأما من ينقص عن هذا القياس، فيغلب خمسـة من الذي كفروا، فهو نصف مؤمن . ومن يحتاج إلى مسـاعد ليغلب كافراً، فهو ٥٪ من مؤمن . ومن يغلب مئة من الذين كفروا، فهو عشـرة مؤمنين . . . وبهذا القياس يقاس المؤمنون،

وهو قياس عدل ومقياس حق.

⋆ القلب والجسد

(يا أيها النبي! قل لمن في أيديكم من الأسرى: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، ويغفر لكم، والله غفور رحيم❖ وإن يريدوا خيانتك، فقد خانوا لله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم❖).

[سورة الأنفال: الآيتان ٧٠ ـ ٧١]

١ـ في العديد من آيات القرآن، اعتبر (القلب) مقياس الصلاح والفساد: فالقلب – وحده – مقياس الصلاح:

(... أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ..)(٤٠٧).

(... أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ...)(٤٠٨)...

والقلب مقياس الفساد:

(... ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ..)(٤٠٩).

(.. وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم .....)(٤١٠).

(... ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ...)(٤١١)...

وإذا اختلف القلب والجسد، كان الاعتبار بالقلب وليس بالجسد:

((قالت الأعراب: (آمنا).قل: (لم تؤمنوا، ولكن قولوا: (أسلمنا)، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ....)))(٤١٢).

(يا أيها الرسول! لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، من الذين قالوا: (آمنا) بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم .....)(٤١٣)...

٢ـ القلب – في التعابير الدينية – هو المركز الرئيس للجزء المعنوي من الإنسان . وهذا .. يعني أن مقياس الإنسان

هو الجزء المعنوي منه، وليس الجزء المادي.

٣ـ الجسد مجموعة من الخلايا العاقلة المكلفة، وكل خلية منها تؤدي واجبها بانتظام. ولكن مجموعها – المركب جسداً – خاضع لعقل وتكليف من نوع آخر، وقد وضع تحت التجربة – في الدنيا – فمنح حرية الاختيار. وعمل الجسد يؤثر على كل خلاياه، ولكن عمل الجسد ليس مقياس الصلاح والفساد، لأنه الجزء الثاني وليس الجزء الأول.

وهذا .. يعني أن للجسد دوراً، وأن الجزء المعنوي من الإنسان لا يلغي دور الجزء المادي منه.

وإذا رجعنا إلى المعادلات الدينية، نجد: أن الإيمان والكفر من عمل الجزء المعنوي، فيما الواجب والحرام من عمل الجزء المادي.

٤ـ الإنسان – بتركيبته المعاصرة – لا يستطيع أداء أي عمل إلا إذا اشترك بجزئيه في أدائه:

- فالنوم، الذي يعتبر أبرز الأعمال الجسدية البحتة، لا يتم إلا إذا تحرك الروح في اتجاه آخر.

- والفكر، الذي يعتبر أبرز الأعمال الروحية المجردة، لا يتم إلا إذا تحركت أجهزة الدماغ.

٥ـ طالما لا يتم عمل إلا باشتراك الروح والجسد، يكون لكل عمل وجهان: وجه روحي، هو إرادته، وإصدار الأمر إلى الأعضاء بأدائه. ووجه جسدي، هو تحرك الأعضاء لأدائه.

٦ـ الوجه الروحي،لأي عمل، هو الوجه الأهم، لأنه يترك أثره على الروح، الذي هو الجزء الأهم. والوجه الجسدي – لذات العمل – ثانوي، لأنه يترك أثره على الجسد، الذي هو الجزء الثانوي.

- من هنا ... نجد القرآن يركز على عمل القلب، في العشرات من آياته.

- ومن هنا ..نجد الحديث يعلن أن (الإرادة) تستأثر بالأفضلية، فيقول: (نية المؤمن خير من عمله)(٤١٤)، أي: أن الجزء الروحي من العمل، أفضل من الجزء الجسدي من العمل.

مع حفظ: أن هذا الحديث فسر بمعنى آخر، وهو: أن النية عمل، فنية المؤمن خير، وتسجل في عمله، وإن لم يتبعها عمل.

الهوامش

(١) ﴿ . . . يضل به كثيراً، ويهدي به كثيرا . . . ﴾ (سورة البقرة: ٢٦).م.

(٢) ﴿أفلا يتدبرون القرآن. . . ﴾النساء/ ٨٢ ﴿أفلم يدبروا القول. . . ﴾ المؤمنون/ ٦٨. ﴿ليدبروا آياته. . ﴾ سورة ص/ ٢٩.

(٣) في حديث شريف: «القرآن إمام أوليائه». م كنز العمال ح٤٠٢٩.

(٤) بحار الأنوار ج٢ ص٢٩٣.

(٥) تفسير الصافي ج١ المقدمة الخامسة.

(٦) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ـ ٣٥٠.

(٧) بحار الأنوار ج٤٠ ص١٨٦ باب ٩٣ ح٧١.

(٨) روح المعاني للآلوسي ج٦ ص١٩٠.

(٩) النساء: ٨٢.

(١٠) سورة محمد: ٢٤.

(١١) سورة الرعد: ٣.

(١٢) تفسير الصافي الجزء ١ المجلد ١ ص٢٠ المقدمة الخامسة.

(١٣) كتاب: (الثقافة الإسلامية)، نقلاً عن مقالة للدكتور ميلر بروز بعنوان: (العلاقة بين العلم والدين في الإسلام).م.

(١٤) آئين سخنوري، تأليف: فروغي، ج٢ م.

(١٥) سورة الإسراء: ٩.

(١٦) أصول الكافي ج٢ ص٥٩٩ح٢.

(١٧) سورة يوسف: ١٠٢.

(١٨) سورة الرحمن: ١٩.

(١٩) سورة الرحمن: ٦٤.

(٢٠) سورة الرحمن: ٦٥.

(٢١) سورة التوبة: ٧٢.

(٢٢) سورة محمد: ١٥.

(٢٣) سورة الصافات: ٤٧.

(٢٤) سورة الواقعة: ٢٣.

(٢٥) سورة النبأ: ٣٣.

(٢٦) بحار الأنوار ج١ كتاب العقل والجهل ص٨٥ ح٧.

(٢٧) بحار الأنوار ـ ج٥٢ ـ باب (٢٦) ـ ص٣٢٩.

(٢٨) بحار الانوار ـ ج٥٢ ـ باب (٢٦) ـ ص٣٣٨.

(٢٩) سورة النمل آية ٨.

(٣٠) سورة النمل: آية ١١.

(٣١) سورة النمل: آية ٢٦.

(٣٢) قيل لأحد الحكماء: (قل حكمة سائرة)، فقال: (أمهلوني سنة). فقيل له: (اكتب مقالة ناجحة)، فقال: (أمهلوني شهراً). فقيل له: (ألف كتاباً). قال: (ائتوني بقلم وورق، حتى أبدأ الآن).م.

(٣٣) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٣٤) تفسير الصافي ج١ ـ ص٢٠ المقدمة الخامسة.

(٣٥) بحار الأنوار ج٢ ص٢٩٣.

(٣٦) سورة آل عمران: آية ٧

(٣٧) سورة آل عمران: آية ٧.

(٣٨) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٣٩) بحار الأنوار ج٢ ص٢٩٣.

(٤٠) بحار الأنوار ج٢ ص٢٩٣.

(٤١) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤٢) مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمي ـ ٧٢.

(٤٣) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤٤) بحار الأنوار ج٢ ص٢٩٣.

(٤٥) تفسير الصافي ج١ ص٢٠ المقدمة الخامسة.

(٤٦) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤٧) سورة القصص: آية ٣٠.

(٤٨) سورة القدر: آية ١.

(٤٩) سورة العنكبوت: آية ٤.

(٥٠) سورة القصص: آية ٣٠.

(٥١) سورة الحشر: آية ٣٤.

(٥٢) سورة الحشر: آية ٣٣.

(٥٣) سورة القدر: آية ١.

(٥٤) سورة العنكبوت: آية ٤.

(٥٥) سورة الدهر: آية ٣.

(٥٦) سورة الواقعة: آية ٦٩.

(٥٧) الكافي ج٢ ص٦١٣ ح١.

(٥٨) سورة طه: آية ١١٠.

(٥٩) سورة الصافات: آية ١٥٩.

(٦٠) بحار الأنوار ج٨٩ كتاب القرآن باب ٨ ص١٠٣.

(٦١) سورة النحل: آية ٩٨.

(٦٢) سورة النحل: آية ٩٨.

(٦٣) سورة النحل: آية ٩٨.

(٦٤) سورة النحل: آية ٩٨.

(٦٥) سورة فصلت: آية ١١.

(٦٦) سورة الفرقان: آية ٢٣.

(٦٧) سورة هود: ١٦.

(٦٨) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج١٣ ص١٢٨.

(٦٩) مسند الإمام الرضا (ع) ج١ ص٥١٥ ح١٩.

(٧٠) سورة طه: آية ٥.

(٧١) سورة فاتحة الكتاب: آية ١.

(٧٢) سورة مريم: آية ٧٥.

(٧٣) سورة التوبة: ١١٧.

(٧٤) سورة الأحزاب: آية ٤٣.

(٧٥) مجمع البيان، للعلامة الطبرسي - ج١/ ٣١.

(٧٦) سورة القصص: آية ٧٠.

(٧٧) سورة التغابن: آية ١.

(٧٨) سورة الشورى: آية ٥.

(٧٩) سورة الرعد: آية ١٣.

(٨٠) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٨١) مستدرك الوسائل ج١ كتاب الصلاة باب ٥ من أبواب سجدة الشكر.

(٨٢) سورة ابراهيم: آية ٧.

(٨٣) مرشد المختار إلى ما في مسند أحمد بن حنبل ج٣ ص١٥٩.

(٨٤) سورة الفاتحة: آية ٢.

(٨٥) سورة الفاتحة: آية ٢.

(٨٦) سورة الفاتحة: آية ٣.

(٨٧) سورة الفاتحة: آية ٢.

(٨٨) سورة الفاتحة: آية ٤.

(٨٩) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٩٠) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٩١) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٩٢) سورة الفاتحة: آية ٦.

(٩٣) سورة الفاتحة: آية ٧.

(٩٤)

(٩٥) ورد في وصف درجات الجنة: «إن ما بين درجة ودرجة، مثل ما بين الأرض والنجوم ٢٠.

(٩٦) بحار الأنوار ج١٨ ص٣٢٠.

(٩٧) بحار الأنوار ج٨ الباب ٢٢ من كتاب (العدل والمعاد).

(٩٨) مجمع البيان ج١ ص١١٢.

(٩٩) سورة مريم: آية ٣٤.

(١٠٠) سورة الإخلاص: آية ١.

(١٠١) من قصيدة الفرزدق، في مدح الإمام زين العابدين عليه السلام.

(١٠٢) سورة البقرة: آية ٢.

(١٠٣) سورة البقرة: آية ٢.

(١٠٤) سورة البقرة: آية ٢.

(١٠٥) سورة مريم: آية ٣٤.

(١٠٦) سورة الأخلاص: آية ١.

(١٠٧) سورة الأحزاب: آية ٤٠.

(١٠٨) سورة الجاثية: آية ٢٣.

(١٠٩) مجمع البيان تفسير القرآن ج٧ ص١٥٧ ذيل تفسير آية «الذين هم في صلاتهم خاشعون» ط دار المعرفة بيروت.

(١١٠) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

(١١١) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

(١١٢) سورة البقرة: آية ٤٥.

(١١٣) سورة البقرة: آية ٣.

(١١٤) سورة البقرة: آية ٤.

(١١٥) سورة البقرة: آية ٤.

(١١٦) سورة الزلزال: آية ٦ ـ ٨.

(١١٧) الوسائل ج١٤ الباب ٣ من كتاب النكاح ص ١٠.

(١١٨) بحار الأنوار ج٨٠ ص١٦.

(١١٩) سفينة البحار ج١ ص٧٠٩ باب الشكر.

(١٢٠) الوسائل ج٣ الباب ٣٠ من كتاب الصلاة.

(١٢١) بحار الأنوار ج٨٤ ص٢٦٥.

(١٢٢) انظر نهج الفصاحة.

(١٢٣) سورة البقرة: آية ٨.

(١٢٤) سورة النساء: آية ٩١.

(١٢٥) سورة البقرة: آية ٩.

(١٢٦) سورة البقرة: آية ١٠.

(١٢٧) سورة فصلت: آية ١١.

(١٢٨) سورة البقرة: آية ١١.

(١٢٩) سورة البقرة: آية ١٢.

(١٣٠) سورة البقرة: آية ١٣.

(١٣١) سورة البقرة: آية ١٤.

(١٣٢) سورة البقرة: آية ١٥.

(١٣٣) سورة البقرة: آية ٩.

(١٣٤) سورة البقرة: آية ١٥.

(١٣٥) سورة البقرة: آية ٣٥٧.

(١٣٦) سورة الحج: آية ٣٨.

(١٣٧) سورة البقرة: آية ٢٣.

(١٣٨) سورة لقمان: آية ١١.

(١٣٩) سورة الزخرف: آية ٣١.

(١٤٠) سورة الزخرف: آية ٣٢.

(١٤١) سورة القصص: آية ٧٧.

(١٤٢) وسائل الشيعة ج١٢ ص٤٩ باب عدم جواز ترك الدنيا.

(١٤٣) سورة الزلزلة: آية ٧.

(١٤٤) سورة القصص: آية ٨٣.

(١٤٥) غرر الحكم ودرر الكلم.

(١٤٦) سورة النازعات: آية ٥.

(١٤٧) سورة النساء: آية ١١.

(١٤٨) سورة البقرة: آية ٣٠.

(١٤٩) سورة البقرة: آية ٣١.

(١٥٠) سورة البقرة: آية ٣١.

(١٥١) سورة الزمر: آية ٥.

(١٥٢) سورة الرعد: آية ٢.

(١٥٣) سورة الرعد: آية ٣٨.

(١٥٤) سورة البقرة: آية ٤٥.

(١٥٥) وقد يفسر «الصبر» بالصيام، لأنه يهيىء الإنسان للأزمات، عندما يمرسه على ارتفاع على مطاليب البطن

والجنس .م.

(١٥٦) سورة البقرة: آية ٤٥.

(١٥٧) سورة البقرة: آية ٤٧.

(١٥٨) سورة الأنعام: آية ٨٦.

(١٥٩) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٠) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦١) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٢) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٣) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٤) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٥) سورة البقرة: آية ١٢٠.

(١٦٦) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(١٦٧) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(١٦٨) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(١٦٩) سورة الأحزاب: آية ٢١.

(١٧٠) سورة الصافات: آية ١٠٣.

(١٧١) سورة الشورى: آية ٥١.

(١٧٢) سورة يس: آية ١٤.

(١٧٣) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(١٧٤) انظر بحار الأنوار ج ٢ ص٩٩ ح٥٤.

(١٧٥) بحار الأنوار ج٢ ص٢٢.

(١٧٦) مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار ج١ ص٤٣٤ ح٨٣.

(١٧٧) سورة الأنفال: آية ٤٢.

(١٧٨) قد بحثنا الموضوع بصورة مشابهة ـ في ذيل قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده...﴾. م.

(١٧٩) سورة البقرة: آية ١٤٨.

(١٨٠) سورة ق: آية ٢٩.

(١٨١) سورة فاطر: آية ٤٣.

(١٨٢) سورة الحديد: آية ٢٢.

(١٨٣) سورة النساء: آية ٢٨.

(١٨٤) انظر الكافي ج٢ ص٢٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن ح١ وسفينة البحار ج١ ص١٠٥ باب بلا.

(١٨٥) سورة البقرة: آية ١٥٥.

(١٨٦) سورة البقرة: آية ١٥٥.

(١٨٧) سورة البقرة: آية ١٥٦

(١٨٨) البقرة: آية ١٥٧.

(١٨٩) البقرة: آية ١٥٧.

(١٩٠) البقرة: آية ١٥٧.

(١٩١) البقرة: آية ١٥٧.

(١٩٢) البقرة: آية ١٥٧.

(١٩٣) سورة البقرة: آية ١٥٦.

(١٩٤) سورة القصص: آية ٧٧.

(١٩٥) وسائل الشيعة ـ ج١٢ ص٤٩ باب عدم جواز ترك الدنيا.

(١٩٦) بحار الأنوار ج٧٠ ص١٢٨ ج١٤.

(١٩٧) سورة السجدة: آية ٧.

(١٩٨) سورة طه: آية ٥٠.

(١٩٩) سورة ابراهيم: آية ٣٥ و٣٧ و٤٠ و٤١.

(٢٠٠) سورة الفرقان: آية ٤٣.

(٢٠١) سورة الأنبياء: آية ٩٨.

(٢٠٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج٦ ص١١٧.

(٢٠٣) السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي ج٢ ص٥٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص١٥٠.

(٢٠٤) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ الخطبة (١٢٣).

(٢٠٥) نهج البلاغة / الخطبة ١٢١.

(٢٠٦) سفينة البحار ج١ ص٥٤٠ باب رهب.

(٢٠٧) الوسائل / ج٨ / ص١٤٩ / الحديث ٤.

(٢٠٨) سفينة البحار ج٢ ص٦٦٨.

(٢٠٩) الكافي ج٢ ص١٦٤ باب ٧٠ ح٥.

(٢١٠) نهج البلاغة (فيض الإسلام) ـ ٩٩٣.

(٢١١) سورة الحشر: آية ١٤.

(٢١٢) سورة المائدة الآية ٥.

(٢١٣) الوسائل ج١٧ الباب ٩ ص١٩٥.

(٢١٤) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢١٥) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢١٦) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢١٧) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢١٨) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

(٢١٩) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢٠) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢١) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢٣) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢٤) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٢٥) سورة البقرة: آية ٢٥٦ .

(٢٢٦) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٢٧) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٢٨) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٢٩) سورة ٢٥٧ .

(٢٣٠) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٣١) سورة البقرة: آية ٢٥٧

(٢٣٢) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٣٣) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٣٤) سورة الحج: آية ٣٩ .

(٢٣٥) سورة آل عمران: آية ٤٩ .

(٢٣٦) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٣٧) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٣٨) سورة الكهف: آية ٤٩ .

(٢٣٩) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٤٠) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٤١) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٤٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(٢٤٣) سورة التحريم: آية ٤ .

(٢٤٤) سورة التوبة: آية ٦٧ .

(٢٤٥) سورة الحج: آية ٣١.

(٢٤٦) انظر النهاية ج٥ ص٩٠ باب النون مع الفاء.

(٢٤٧) سورة الاعراف: آية ١٥٦ .

(٢٤٨) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٤٩) سورة الرحمن: آية ١٤ ـ ١٥ .

(٢٥٠) بحار الأنوار ـ ج١٥ ـ باب (١) حديث (٤٤) ص٢٤ ـ ط مؤسسة الوفاء.

(٢٥١) سورة الاعراف: آية ٤٣ .

(٢٥٢) سورة فصلت: آية ١١ ـ ١٢ .

(٢٥٣) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٥٤) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٥٥) سورة البقرة: آية ٢٥٧ .

(٢٥٦) سورة الحديد: آية ٢٣ .

(٢٥٧) سورة فصلت: آية ٣٩ .

(٢٥٨) سورة البقرة: آية ٢٦٤ .

(٢٥٩) سورة البقرة: آية ٢٦٤ .

(٢٦٠) سورة البقرة: آية ٢٦٥ .

(٢٦١) سورة القصص: آية ٥ـ ٦ .

(٢٦٢) سورة آل عمران: آية ٧ .

(٢٦٣) سورة القيامة: آية ٤ .

(٢٦٤) سورة آل عمران: آية ١٩٠ .

(٢٦٥) سورة يوسف: آية ١٠٩ .

(٢٦٦) سورة الروم: آية ٥٠ .

(٢٦٧) سورة الحج: آية ٤٦.

(٢٦٨) سورة الأنبياء: آية ٣٨.

(٢٦٩) سورة طه: آية ١٠٩.

(٢٧٠) مضمون ما في مسند أحمد بن حنبل ج٢ ص٣٣٣ و٣٥٠ و٣٦٠ و٣٩٩ و٥١٩.

(٢٧١) بحار الأنوار ج٧ ص٢٤١ ح١١.

(٢٧٢) وسائل الشيعة ج٣ باب تحريم الاستخفاف بالصلاة ص١٦ ح٣.

(٢٧٣) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٢٧٤) بحار الأنوار ج٤٣ الباب ٣ ح٤٠ ص٣٧.

(٢٧٥) سورة الانعام: رقم ٦ الآية ٨٦.

(٢٧٦) سورة الإسراء: آية ١١.

(٢٧٧) مسند أحمد بن حنبل ج٥ ص٢٧٨، النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير الدمشقي ج١ ص٣٣، والملاحم والفتن لابن طاووس ص١٥٧ الباب الخامس.

(٢٧٨) نفس المصدر.

(٢٧٩) الملاحم والفتن لابن طاووس ص١٥٧ الباب الخامس، ومسند أحمد بن حنبل ج٥ ص٢٧٨.

(٢٨٠) نهج البلاغة الخطبة ١٦ وبحار الأنوار ج٥ ص٢١٨.

(٢٨١) سورة الرعد: آية ١١.

(٢٨٢) سورة النور: آية ٤٠ .

(٢٨٣) نقصد من الأقوى والأضعف، بالنسبة إلى الطرف الآخر. م.

(٢٨٤) البرهان ج٣ ص١٩١ ح٥ .

(٢٨٥) سورة البقرة: آية ٢٤٩ .

(٢٨٦) تحف العقول ص ٤٣ .

(٢٨٧) بحار الأنوار ج١ ص٩٦ باب ٢ .

(٢٨٨) مجمع الزوائد للهيثمي ج٦ ص١١٧ .

(٢٨٩) سورة الأحزاب: آية ٣٦ .

(٢٩٠) سورة الأحزاب: آية ٦ .

(٢٩١) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ الخطبة (٥١).

(٢٩٢) كما يدل على ذلك: ما يروى من بقاء قتلى القنبلة الذرية في هيروشيما . م .

(٢٩٣) سورة النساء: آية ١٢٣ .

(٢٩٤) سورة النساء: آية ٩٧ .

(٢٩٥) سورة النساء: آية ٩٧ .

(٢٩٦) سورة الملك: آية ٦٧ .

(٢٩٧) أنظر نهج الفصاحة .

(٢٩٨) بحار الأنوار ج٨٠ ص١٦.

(٢٩٩) مرآة العقول ج٨ ص٣٣.

(٣٠٠) سورة الأحزاب: آية ٥٠.

(٣٠١) سورة الممتحنة: آية ١٠.

(٣٠٢) سورة القصص: آية ٢٦ ـ ٢٧.

(٣٠٣) أجوبة مسائل جار الله، للإمام شرف الدين ـ ١٥.

(٣٠٤) سورة الحاقة: آية ٤٤ ـ ٤٧.

(٣٠٥) سورة الإسراء: آية ٧٤ ـ ٧٥.

(٣٠٦) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

(٣٠٧) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

(٣٠٨) سورة النساء: آية ١٤١.

(٣٠٩) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٣١٠) سورة البقرة: آية ١٢٤.

(٣١١) سورة النساء: آية ٩٧.

(٣١٢) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٣١٣) سورة العنكبوت: آية ٨.

(٣١٤) سورة الزمر: آية ٤٩ .

(٣١٥) سورة يونس: آية ١٤ .

(٣١٦) سورة البقرة: آية ١٤٣ .

(٣١٧) سورة العنكبوت: آية ٤٥ .

(٣١٨) سورة بني إسرائيل: آية ٧٩ .

(٣١٩) سورة المائدة: آية ٩١ .

(٣٢٠) العروة الوثقى، للإمام الطباطبائي اليزدي، الجزء الأول/ ٦١٤ .

(٣٢١) ذلك: أن الجواب الذي يتلقونه من النبي، يبتدىء بتحديد مصدر القدر، بأنه: (اللّه) وحده لا الإنسان؛ فالإنسان مصب القدر وليس مصدره. وينتهي إلى فتح باب: (الدعاء) الذي يلغي القدر المعلق، ويؤجل القدر المحتوم. فيحل مشكلة القدر نهائياً. وإن لم ينفتح هذا الباب، لعدم استعداد الفرد لتوفير شرائط استجابة في نفسه، فلا أقل من أن جواب النبي يفسر القدر وأغراضه، بأنه ينزل من قبل اللّه وفق مصلحة الإنسان: ﴿قل: لن يصيبنا . .المؤمنون﴾ - سورة التوبة: آية ٥١، فيستعد له الإنسان، فلا يكون له وقعه الساحق لأعصابه. ويتهيأ له في كل حين، فلا يكون له وقعه المباغت .م.

(٣٢٢) هذا الاحتمال، أقرب إلى مجرى الآية. م .

(٣٢٣) نقصد بـ: (الارتجالي) - هنا - غير المعرض لتجربة النقاش الموضوعي الحر.م.

(٣٢٤) نهج البلاغة - الخطبة (٢١).

(٣٢٥) – سورة التوبة: آية ٧٢ .

(٣٢٦) – بحار الأنوار ج١ ص ٢٢٠ ح٥٢ .

(٣٢٧) – سورة التوبة: آية ١١١ .

(٣٢٨) – مستدرك الوسائل ج٢ كتاب التجارة الباب ٥ ـ ٦ .

(٣٢٩) – سورة النساء: آية ٩٧ .

(٣٣٠) – كنز العمال ح٧٢٥٨ .

(٣٣١) – سورة المائدة: آية ٥٥ .

(٣٣٢) – سورة القيامة: آية ٣١ ـ ٣٥ .

(٣٣٣) – الترغيب والتهذيب ج١ ص ٥٦ ح١٥ .

(٣٣٤) – أصول الكافي ـ ج ٢ـ ص٣٢ سطر (٩) وصحيح مسلم ج ١ كتاب الإيمان باب ٢٤ ح١٠٠ ص ٧٦ .

(٣٣٥) – وسائل الشيعة ـ ج ١٨ ـ ص (٣٤٦) أبواب حد الزنا ـ ط دار إحياء الترات العربي.

(٣٣٦) – سورة الحج: آية ٢٥ .

(٣٣٧) – تهذيب الأحكام ج ١٠ ص ١٣٤ .

(٣٣٨) – سورة الأعراف: رقم ٧ الآية ٥٦ .

(٣٣٩) – سورة المائدة: رقم ٥ الآية ٢٦ .

(٣٤٠) – نهج البلاغة (فيض الإسلام) ـ ٩٤ .

(٣٤١) – سورة يونس: رقم ١٠ الآية ١٨ .

(٣٤٢) – سورة الحج: رقم ٢٢ الآية ٧١ .

(٣٤٣) ـ سورة المؤمنون:رقم ٢٣ الآية ١٤ .

(٣٤٤) ـ سورة آل عمران:رقم٣ الآية ١٣٥ .

(٣٤٥) ـ سورة آل عمران: رقم٣ الآية ٤٩ .

(٣٤٦) – نهج البلاغة (فيض الإسلام) ـ ٩٦٦ .

(٣٤٧) – سورة المائدة: رقم ٥ الآية ٢ .

(٣٤٨) – سورة الكهف: رقم ١٨ الآية ٩٥ .

(٣٤٩) – سورة فاتحة ا لكتاب: رقم ١ الآية ٥ .

(٣٥٠) – سورة مريم: رقم ١٩ الآية ٥ .

(٣٥١) – سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٨٢ .

(٣٥٢) – سورة الإسراء: رقم ١٧ الآية ٣٣ .

(٣٥٣) – سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٧١ .

(٣٥٤) – سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٥٧ .

(٣٥٥) – سورة الأنعام: رقم ٦ الآية ١٤ .

(٣٥٦) – سورة النساء: رقم ٤ الآية ٣٣ .

(٣٥٧) – سورة مريم: رقم ١٩ الآية ٥ .

(٣٥٨) – سورة الأحزاب: رقم ٣٣ الآية ٥ .

(٣٥٩) – سورة محمد: رقم ٤٧ الآية ١١.

(٣٦٠) – سورة الإسراء: رقم ١٧ الآية ٢.

(٣٦١) – سورة المزمل: رقم ٧٣ الآية ٩.

(٣٦٢) – سورة الرعد: رقم ١٣ الآية ١١.

(٣٦٣) – غرر الحكم ودرر الكلم ـ ونهج البلاغة، قصار الحكم، رقم (٤١٩) ص ٥٥٠ـ صبحي الصالح.

(٣٦٤) – سورة النساء: رقم ٤ الآية ٦٤.

(٣٦٥) – سورة النحل: رقم ١٦ الآية ١٢٠.

(٣٦٦) – سورة الأحزاب: رقم ٣٣ الآية ٦.

(٣٦٧) – أمالي الصدوق: ص ١٠٨.

(٣٦٨) – سورة القيامة : رقم ٧٥ الآية ٣١ـ ٣٥.

(٣٦٩) – تفسير مجمع البيان: سورة الدهر.

(٣٧٠) – بحار الأنوار: ج٣٩ ـ باب ٧٠ـ.

(٣٧١) – بحار الأنوار ـ ج٢٣ ـ ص ٢١١ ـ حديث (٢٠).

(٣٧٢) – الأصول من الكافي ـ ج٢ ص ٥ ـ باب (طينة المؤمن والكافر) حديث (٧).

(٣٧٣) – سورة الحجرات: رقم ٤٩ الآية ١٣.

(٣٧٤) – سورة المائدة: رقم ٥ الآية ١٨.

(٣٧٥) – وسائل الشيعة ج١١ كتاب الجهاد باب ٥٢ .

(٣٧٦) – سورة الحجرات رقم ٤٩ الآية ١٣ .

(٣٧٧) – سورة البقرة: رقم ٢ الآية ١٤٣ .

(٣٧٨) – تفسير نور الثقلين للعلامة الحويزي . ج٣/٤٨٨ .

(٣٧٩) – مرآة العقول ج ١٧ ص ١٢ باب حج آدم ح ١و٢ .

(٣٨٠) – تفسير نور الثقلين، للعلامة الحويزي . ج٣/٤٨٨ .

(٣٨١) – لما عزم الإمام الحسين (ع) على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: ((الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، و((صلى الله عليه وآله وسلم)) . خط (الموت) على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق (يعقوب) إلى (يوسف)، وخير لي (مصرع) أنا لاقيه . كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين (النواويس) و(كربلاء)، فيملأن – مني –: أكراشاً جوفاً، وأجربة سغبا . لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا (أهل البيت)، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين. لن تشذ عن (رسول الله) لحمته، وهي مجموعة له في (حظيرة القدس): تقرّ – بهم – عينه، وينجز لهم وعده. من كان فينا باذلاً مهجته، موطناً – على لقاء الله – نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله)) . [بحار الأنوار، للعلامة المجلسي . ج٤٤ /٣٦٦-٣٦٧) .

(٣٨٢) – سورة التحريم: رقم ٦٦ الآية ٦ .

(٣٨٣) سورة الأعراف: رقم ٧ الآية ١٩٩ .

(٣٨٤) – سورة سبأ: رقم ٣٤ الآية ٢٨ .

(٣٨٥) – نهج البلاغة الخطبة ٦٩ في ذم أصحابه .

(٣٨٦) – سورة الأحزاب: رقم ٣٣ الآية ٦٢ .

(٣٨٧) – سورة التكوير: رقم ٨١ الآية ٢٤ .

(٣٨٨) - سورة الجن: رقم ٧٢ الآيتان ٢٦-٢٧ .

(٣٨٩) - سورة آل عمران: رقم ٣ الآية ١٧٩ .

(٣٩٠) - سورة الأعراف: رقم ٧ الآية ١٧٩ .

(٣٩١) - سورة الأنعام: رقم ٦ الآية ٧٥ .

(٣٩٢) - سورة الإسراء: رقم ١٧ الآية ١ .

(٣٩٣) - سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٥٥ .

(٣٩٤) - سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٣١ .

(٣٩٥) - بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٣٢ /٣٩٩.

(٣٩٦) - بحار الأنوار ج١١ ص ١٧٢ ح ١٩ .

(٣٩٧) - سورة الأنفال: رقم ٨ الآية ٦٥ .

(٣٩٨) - الوسائل ج ١٧ ص ٣٧٦ الباب ١ من موانع الإرث الحديث ١١ .

(٣٩٩) - نهج البلاغة – صبحي الصالح – الخطبة (٥١) .

(٤٠٠) - سورة النجم: رقم ٥٣ الآية ٣٩ .

(٤٠١) - وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٤٦٥ .

(٤٠٢) - سورة التوبة: رقم ٩ الآية ٥٩ .

(٤٠٣) سورة النساء: رقم ٤ الآية ٦٤ .

(٤٠٤) – سورة المعارج: رقم ٧٠ الآية ٥ .

(٤٠٥) – سورة الأحقاف: رقم ٤٦ الآية ٣٥.

(٤٠٦) – سورة آل عمران: رقم ٣ الآية ٢٠٠.

(٤٠٧) – سورة الحجرات: رقم ٤٩ الآية ٣.

(٤٠٨) – سورة المجادلة: رقم ٥٨ الآية ٢٢.

(٤٠٩) – سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٢٥.

(٤١٠) – سورة الأحزاب : رقم ٣٣ الآية ٥.

(٤١١) – سورة البقرة: رقم ٢ الآية ٢٨٣.

(٤١٢) – سورة الحجرات: رقم ٤٩ الآية ١٤.

(٤١٣) – سورة المائدة: رقم ٥ الآية ٤١.

(٤١٤) – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج١ ص ١٠٩